@ketab_n
9.9.2015

ألكساندر دوما

جورج الموريسيّ

حكاية عن البرّ والبحر

رواية

ترجمها عن الفرنسيّة
محمّد آيت حنّا

مشروع «كلمة»
كلاسيكيّات الأدب الفرنسيّ

ألكساندر دوما

جورج الموريسيّ

حكاية عن البرّ والبحر

رواية

ترجمها عن الفرنسيّة
محمّد آيت حنّا

مراجعة
كاظم جهاد

Twitter: @ketab_n

الطبعة الأولى 1435هـ 2014م
حقوق الطبع محفوظة
© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة مشروع «كلمة»

PQ2227.G8 H35 2014
Dumas, Alexandre, 1802-1870.
[Georges]
جورج الموريسيّ: حكاية عن البرّ و البحر: رواية / ألكساندر دوما؛ ترجمة محمّد آيت حنّا؛ مراجعة كاظم جهاد.– أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2014.
481 ص؛ 14×21 سم.
ترجمة كتاب: Georges : roman.
تدمك: 3–311–17–9948–978
1– كلاسيكيّات الأدب الفرنسيّ المترجم إلى العربية.
أ– حنا، محمد آيت. ب– جهاد، كاظم.

يتضمّن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسيّ:

Dumas, Alexandre, *Georges*

كلمة
KALIMA
www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

إن هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة مشروع «كلمة» غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن الهيئة.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لـ مشروع «كلمة»
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيها التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

Twitter: @ketab_n

جورج الموريسيّ

حكاية عن البرّ والبحر

Twitter: @ketab_n

المحتوى

ديباجة 7
الفصل الأوّل - جزيرة موريس 15
الفصل الثاني - أُسودٌ وفُهود.................... 27
الفصل الثالث - ثلاثةُ صبيان 43
الفصل الرابع - أربع عشرة سنة بعد ما جرى 71
الفصل الخامس - الابن الضالّ 85
الفصل السادس - التحوّل 99
الفصل السابع- البِرلوكا 123
الفصل الثامن - زينة الزّنجيّ الآبق 143
الفصل التاسع - وردةُ النّهر الأسوَد 153
الفصل العاشر - الاستحمام 165
الفصل الحادي عشر - سعرُ الزّنوج.................... 179
الفصل الثاني عشر - الحفل الرّاقص.................... 193
الفصل الثالث عشر - النّخّاس 213
الفصل الرابع عشر - فلسفةُ نخاسة.................... 225
الفصل الخامس عشر - علبةُ باندورا.................... 245
الفصل السادس عشر - طلب الزّواج.................... 265

Twitter: @ketab_n

الفصل السابع عشر – السّباق 281
الفصل الثامن عشر – لايزا 301
الفصل التاسع عشر – اليامسَيه 317
الفصل العشرون – الموعد 331
الفصل الحادي والعشرون – الرّفض 341
الفصل الثاني والعشرون – التمرّد 353
الفصل الثالث والعشرون – قلبُ أبٍ 365
الفصل الرابع والعشرون – الغابة الكبيرة 377
الفصل الخامس والعشرون – قاضٍ وجلّاد 385
الفصل السادس والعشرون – مطاردة الزّنوج 403
الفصل السابع والعشرون – التمرّن 417
الفصل الثامن والعشرون – كنيسة المخلّص 435
الفصل التاسع والعشرون –اللّايسِستر 443
الفصل الثلاثون – المعركة 459

Twitter: @ketab_n

ديباجة

الرّواية التي نضعها هنا بين يدَي القارئ واحدٌ من عديد الأعمال الأدبيّة للكاتب الفرنسيّ ألكساندر دوما Alexandre Dumas (1802-1870)، التي قبعت في الظلّ رغم جودة كتابتها وأهميّة موضوعاتها وفرادة أجوائها. ذلك متأتٍّ من غزارة إنتاجه، وخصوصاً من النجاح الذي حقّقته مسرحيّاته الهزليّة وأعماله الذائعة في القصص التاريخيّ وروايات مغامرات الفرسان، ومن أشهرها «الكونت دو مونت كريستو» و«الفرسان الثّلاثة»، التي طغى انتشارها المنقطع النظير على ما خطّه يراعه من نصوص أُخرى قد تكون أكثر عمقاً وتطلُّباً. وإلى جودة الكتابة وقوّة الإيحاءات، تنبع أهميّة هذه الرواية من كونها العمل الأدبيّ الوحيد الذي كرّسه دوما، المعروف بكونه خلاسيّاً أو مولَّداً (هو ابن أوّل جنرال فرنسيّ من أصل أفريقيّ)، نقول كرّسه لمعالجة موضوعات الرقّ والخلاسيّة والتّمييز العنصريّ والاستعمار.

بحسّه النافذ بشروط السّرد البارع، يقود دوما حركيّة الرواية بسرعةٍ وبلا كثيرِ مداوراتٍ إلى حدث مفصليّ تنبثق منه سائر الأحداث ويصبّ فيه تاريخ بأكمله. يدور هذا الحدث الكاشف والحاسم في جزيرة موريس (سمّاها الفرنسيّون يومذاك «جزيرة فرنسا») في بدايات القرن التاسع عشر، أثناء الصراع الفرنسيّ-الإنجليزيّ للسيطرة على الجزيرة. هي ذي عائلة من المولَّدين لا يقبل قائد فرقة فرنسيّة بأفرادها بين جنوده بسبب لون بشرتهم، فيشكّلون فرقة من المولّدين والسّود تهزم فرقة إنجليزية

Twitter: @ketab_n

وتعود بلواء الإنجليز تذكارَ نصرٍ وعلامة افتخار. يستنكر القائد الفرنسيّ أن يكون مولَّدٌ هو من حظي بشرف الاستيلاء على راية العدوّ، فيهبّ ابنه لانتزاعها من يدَي ابنِ المحارب المولَّد ذاك، ألا وهو الصغير جورج. فيكرّس هذا سنيّه القادمة للردّ على الإهانة بصورة باهرة: يرحل إلى أوروبا ومناطق أُخرى لاكتساب العلوم والآداب الحديثة، ولتحقيق ثروة، ثمّ يعود إلى جزيرته الأصليّة، التي صارت خاضعة لسيطرة الإنجليز، ليجابه مقولات التراتبيّة الاجتماعيّة والتمييز العنصريّ، ما يدعوه هو «حُكماً مسبقاً» وقف بوجه أجيالٍ عديدة حائلاً أمام التحرّر والازدهار، وقد آن في نظره الأوان لمواجهته وتقويضه.

بهذا الخيار يُخالف جورج مخالفة تامّة مسارَ أخيه البكر جاك، الذي استهوته المغامرات البحرية فاعتنق حياة القرصنة ومارس تجارة الرقّ بحقّ الزنوج في مجتمعٍ يقمع فيه البيضُ السكّانَ المولَّدين، ويُسخِّر فيه المولَّدون رفاقهم السّود، بصورة حافلة بالتناقضات والغرائب يصوّرها ألكساندر دوما بكلّ دقائقها، وبكلّ ذلك الولع بالتفاصيل والتعاطف الإنسانيّ المعروفَين عنه. ولقد كان خيار جورج ذاك، والتمرّد الذي سيبادر إليه والذي يغطّي سائر فصول الرواية، أقول كانا من العدالة وقوّة الصّدق بحيث اجتذبا إليهما جموعاً غفيرة، بمن فيها الأخ البكر جاك نفسه، وحبيبة البطل المنتمية ولادةً إلى البيض، والمنخرطة عشقاً وفكراً في صفوف المولَّدين والسّود. والفعل المُعجِز الذي أفلح جورج في تحقيقه في خاتمة المطاف هو إنهاض جموعٍ مقهورة وجعْلها تقترن بالنّضال وتجد في التمرّد نابضاً جديداً لوجودها.

ثمّة في هذه الرواية بلا شكٍّ الكثير من حياة دوما، ومن حياة أبيه. لا بمعنى الوقائع والأحداث، بل بمعنى المعاناة والحساسية والانتماء

Twitter: @ketab_n

الشعوريّ والفكريّ. فأبو الكاتب، واسمه الحقيقيّ توما ألكساندر دافي دو لا بايّيتري Thomas Alexandre Davy de la Pailleterie، وُلد في 1762 في سان دومانغ، هايتي حاليّاً، لأبٍ هو ماركيز فرنسيّ هاجر إلى هناك، ولأمّ أفريقيّة. تدرّج في المناصب العسكريّة في جيش فرنسا، واختار أن يحمل اسم شهرة أمّه فصار يُعرف بالجنرال توما ألكساندر دوما Thomas Alexandre Dumas. خدم في قوّات فرنسا الثورية، وبعدها في جيش نابليون بونابرت، وظفر في معارك عديدة، وكان قائداً شجاعاً ومحنّكاً. ثمّ اعتزل المسلك العسكريّ على أثر خلاف له مع نابليون نشب بينهما في الإسكندرية أثناء حملة هذا الأخير على مصر، بعدما رأى الجنودَ يموتون بالعشرات ظمأً ومن حرارة الشمس. ومن أقواله المشهورة في معرض الردّ على أسئلة الإمبراطور عن دوافع موقفه ذاك: «أؤمن بأنّ مصير أمّة ينبغي ألّا يخضع إلى مصير فرد». سمح له بونابرت بالرجوع إلى فرنسا، غير أنّ حكومة نابولي في إيطاليا أوقفته في الطريق وأودعته السجن طيلة عامين، وقد خرج منه بساقٍ يمنى شبه مشلولة وخدّ أيمن مشلول وعين يمنى شبه فاقدة البصر، وبتقرّح شديد في المعدة، فتوفّي في 1806 في فيلير-كوتريه في منطقة الأين L'Aisne بفرنسا فقيراً ومنهَكاً.

كان كاتبنا شديد الاعتزاز بتجربة أبيه، وطويلاً توقّف عندها في مذكّراته التي صدرت في الأعوام 1852-1856 بعنوان «مذكّراتي» *Mes mémoires*، بعشرة أجزاء. سوى أنّه لم يكن ليشير إلى أصوله الزنجيّة ولا إلى كونه مولَّداً، وذلك خلافاً لنجله الكاتب الشهير ألكساندر دوما الابن (1824-1895)، الذي كان يَجهر بالافتخار بأصوله الأفريقيّة. كانت مسألة لون البشرة في نظر دوما الأب طبيعيّة ولم يشر إليها، وبدعابة واضحة، إلّا في واحدة من رسائله أو اثنتين. هذا السّكوت عن الأصل أو اللّون يعرب

Twitter: @ketab_n

عن ترفّع أكثر ممّا عن رغبة في التخفّي أو الإنكار. ويزداد هذا الترفّع في نظرنا علوّاً وروعة عندما نعلم أنّ مناوئيه، وكانوا كثراً، لم يتردّدوا عن تذكيره بأصوله وبلون بشرته بكلمات مشبعة بالتمييز العنصريّ وكرْه من يُعرَفون بالملوَّنين، أي غير البيض. في الملفّ الوثائقيّ المصاحب لطبعة سلسلة «فوليو كلاسيك» *Folio Classique* الصادرة عن دار غاليمار Gallimard، نقف على بعض هذه المماحكات المتدنّية لغةً وفكراً. كان دوما قد تلقّى بخصوص بعض رواياته تهمة التعويل المفرط على مساعديه في التحضير لنصوصه، الذين كان يعتمد عليهم في الواقع، كما يفعل بعض معاصرينا من الكتّاب، في تهيئة الجوانب البحثيّة والأرشيفيّة من عمله. أمّا الأسلوب والمعالجة واللّغة فهي، كما أثبت الشرّاح والنقّاد، وكما نجد في مجمل أعماله، حاملة لدمغته الفريدة ومفعمة بحساسيته الخاصّة وتبحّره المألوف. والحال أنّ بعض من هاجموا دوما من هذه الناحية لم يتورّعوا عن التوقّف أمام خلاسيّة الكاتب وأصوله السّوداء. هكذا ذهب أحدهم، ألا وهو أوجين دو ميركور Eugène de Mirecourt، في عام صدور هذه الرواية، أي في 1843، إلى حدّ تقديم وصف ساخر لملامح الروائيّ: «إنّ مظهر دوما الفيزيائيّ معروف: قامة رئيس طبّالين عسكريّين، وهيكل جسمانيّ هرقليّ بكلّ الأبعاد الممكنة، وشفتان بارزتان، وأنفٌ أفريقيّ، وشَعرٌ جعْد، وبشرة برونزيّة. أصوله مخطوطة في كامل شخصه، ولكنّها تتجلّى على الخصوص في طبعه. حكّوا قليلاً بشرة السيّد دوما وستعثرون على الوحشيّ. ورثَ سمات الزنجيّ والماركيز [إشارة إلى جدّه لأبيه، ماركيز دو لا بايّيتري] في آنٍ معاً. ولكنْ ليس له من إرث الماركيز سوى البشرة. (...) اكشطوا أدنى نقطة في مظهره المتحضّر، وسيكشّر الزنجيّ

Twitter: @ketab_n

عن أنيابه»[1].

وحتّى عندما ينادي بعض معاصري دوما من النقّاد بعائديّته إلى العبقريّة الأدبيّة لفرنسا، تراهم لا يتخلّون عن معاييرهم العنصريّة، بها يواجهون مناداة شعب هايتي بانتماء ألكساندر دوما إليه. فمثلاً، كتب ألكساندر بونو Alexandre Bonneau في 1856: «إنّ الشعوب لغَيورة، وهي تطالب بالمجد أنّى عثرت عليه. هكذا يتتبّع أهل هايتي ببالغ الشّغف كلّ حركات السيّدين ألكساندر دوما الأب والابن وسكناتهما. يتساءلون هناك جادّين هل يدين مؤلّف «مونت كريستو» بعبقريّته للخميرة السوداء أم للخميرة الفرنسيّة. الأرجح أنّ أهل هايتي يتشبّثون بالفرضيّة الأولى. فلتسمحوا لنا بالميل إلى الفرضيّة الثانية، فهي وحدها تتيح لنا الأمل في أن تضارع موهبة ألكساندر دوما الابن موهبته أبيه يوماً»[2].

عدا ذلك، لم يُخفِ دوما تعاطفه مع المثقّفين الهايتيّين، تراه يساهم في حملة تبرّع لإحدى جمعيّاتهم، ويدعوهم في مراسلاته معهم: «إخوتي» و«أبناء وطني». كما نشر في 1838 في «مجلّة المستعمرات» *La Revue des colonies*، التي كانت تناضل لإلغاء الرقّ، تكذيباً لما ورد يومذاك في «المجلّة الاستعماريّة» *La Revue coloniale* من أنّ أشعاراً له ستصدر فيها، وهو إعلان كاذب لجأت إليه المجلّة الأخيرة للإفادة من شهرته[3].

فظاعات العهد الاستعماريّ هذه وسواها تطالعنا في هذه الرواية، يسلّط عليها الكاتب أضواء فاضحة. وتتجلّى التراتبيّة البغيضة التي أفلح المستعمِرون، إنجليز كانوا أو فرنسيّين، في زرعها في نفوس الأهليّين،

(1) انظر الملفّ الوثائقيّ الملحق بطبعة هذه الرواية في فوليو كلاسيك (Alexandre Dumas, *Georges*, Folio Classique, éd. de Gallimard)، ص 475.

(2) المصدر السابق، ص 478.

(3) المصدر ذاته، ص 477.

Twitter: @ketab_n

تتجلّى في كون جورج نفسه، وهو المولَّد، لا يجد في البداية غضاضة في أن يتاجر شقيقه جاك بالرقّ. بيد أنّه هو ذاته سرعان ما يشنّ حربه الصاحية والجذريّة على هذا الواقع، فيشتري عبيداً ليعتقهم، ثمّ يقود باسمهم وباسم المولَّدين انتفاضة عارمة. ومن الطريف والممتع أنّ جورج لا يكتفي بغضب السّود والخلاسيّين الذي جعله هو يفلت من عقاله، بل يضيف إلى تكوينه مصادر عربيّة، تشمل فنونه القتاليّة وجواده العربيّ والقفطان الذي يقول إنّ إبراهيم باشا، نجل محمّد عليّ، قد أهداه إيّاه يومَ التقاه في واحدة من رحلاته خارج أوروبا في عهد تنشئته الذاتيّة. قفطان مذهّب يحلو له أن يرتديه في اللحظات الحاسمة والمناسبات الاحتفاليّة.

في تركيبة جميلة وبالغة الانسجام، تجمع هذه الرواية بين مختلف مواهب دوما، من السّرد التاريخيّ المتمكّن، جمعَ فيه وقائع وشخصيات فعليّة وأُخرى من بنات خياله الخصْب، إلى شعريّة العشق والغرائبيّة الجغرافيّة، فبراعة المحاورة والتعمّق البسيكولوجيّ ورصد الطبائع والأهواء الفرديّة والجماعيّة، والتصعيد الدراميّ والتشويق والاستطراد والدّعابة والنقد الإيديولوجيّ. هي رواية البحر والجزيرة، الوئام الجذريّ والعائق الاجتماعيّ، الغطرسة المُدانة ومَهانة الجرح التي تنقلب إباءً ومجداً؛ إنّه باختصارٍ عمل متعدّد، بوليفونيّ.

بهذا كلّه لا يقدّم دوما أنموذجاً بليغاً لفنّ الرواية، الذي يظلّ هو أحد صانعيه وروّاده، فحسب، بل كذلك شهادة إنسانيّة مهمّة ولا غبار على عصريّتها. من هنا أهميّة التذكير بها وترجمتها في هذه الفترة التي تشهد انبعاث الإيديولوجيّات العنصريّة، وتعالي الأصوات المدافعة عن تفوّق الإنسان الأبيض، وعن المنافع المزعومة للعهد الاستعماريّ، ومختلف تسويغات كرْه الأجانب ومطاردة الغرباء.

Twitter: @ketab_n

نشير أخيراً إلى أنّ الرواية صدرت في 1843، تحت عنوان «جورج» Georges. وقد بَدا لنا العنوان غير كافٍ للترجمة العربيّة، فاستعنّا بعنوان ترجمتها الإنجليزيّة التي صدرت في 1847 بعِلم الكاتب، وحملت عنوان *George, or, The Planter in the Isle of France : a tale of land and sea* («جورج، زارعٌ من جزيرة فرنسا: حكاية عن البرّ والبحر»)، فأعدنا إلى الجزيرة اسمها الحقيقيّ[1] وصغنا العنوان على هيئة: «جورج الموريسيّ، حكاية عن البرّ والبحر».

تبقى إشارة فنيّة إلى أسماء الأعلام والأماكن التي تغصّ بها هذه الرواية. فإلى جانب التعريف بالأعلام المذكورين فيها، الذي اضطلع به المترجم في حواشيه، خشيتُ أن تصيب وفرة الأسماء الفرنسية للأماكن، ولا سيّما للموريسيّة منها، أقول تصيب لغة الرواية بشيء من العجمة أو الاضطراب. ولمّا كانت جميع هذه الأسماء، خلا استثنائين أو ثلاثة، حاملة لدلالات، فقد انحزتُ والصّديقَ المترجمَ إلى ترجمتها. والحقّ فلسنا لنخرج هنا عن مراسٍ متّبعٍ كثيراً. فلئن كانت بعض أسماء المدن والمرتفعات والأنهار وسواها تُعرَّب بأسمائها الأصليّة، فإنّ الكثير منها يُترجَم: هكذا لا نقول «لو كاب دو بون إسبرانس» وإنّما «رأس الرّجاء الصّالح»، ولا نقول «لا كوت دازور» وإنّما «ساحل اللّازورد»، والأمثلة على ذلك كثيرة.

محرّر السّلسلة

كاظم جهاد

---

(1) جزيرة موريس هي أكبر جزُر جمهورية موريس الحاليّة، وتضمّ عاصمتها «بور لويس». والجزيرة اكتشفها الفينيقيّون قديماً، ثمّ وصلها العرب في 975، فالبرتغاليّون في 1507، وكان الهولنديّون أوّل من استعمروها ابتداءً من 1598، تلاهم الفرنسيّون من 1715 حتّى 1810، ثمّ استعمرها الإنجليز من التأريخ الأخير حتّى استقلالها في 1968.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الأول

جزيرة موريس[1]

ألم يسبق لكم أحياناً، في ليلة من تلك الليالي الشّتوية الطويلة، الكئيبة الباردة، حيث تنصتون، وقد اختليتم بفكركم، إلى الرّيح تصفر بين أروقة منازلكم، والأمطار تجلد نوافذكم؛ ألم يسبق لكم، وقد وضعتم جباهكم لصق مدفأتكم، وأخذتم تنظرون إلى الجمرات المتوهجّة في الموقد، تنظرون إليها دون أن ترَوها، أقول ألم يسبق لكم أن ضقتم ذرعاً بهذا الطقس الكئيب، طقس باريسنا الرطبة الموحلة، وأن حلمتم بواحات غنّاء مخضرّة شديدة العذوبة، حيث بوسع المرء، في أيّ فصل كان، أن يترك نفسه تنقاد رويداً رويداً للنّوم، عند ضفّة نبعِ ماءٍ منعش، أو أسفلَ جذعِ نخلةٍ، أو في ظلال تفّاح الورد[2]، منعّماً بإحساس الرضا والخَدَر؟

حسناً، إنّ الفردوسَ التي تحلمون بها موجودة حقّاً؛ تلك الجنّة، جنّة عدن التي تطمعون فيها، تنتظركم؛ ذاك الجدول الذي ينبغي أن يهدهد قيلولتكم الوسنى، يهبطُ شلّالاً وينبعث غباراً؛ تلك النّخلة التي ينبغي أن تؤوي نومكم، تسلّم لنفحات البحر سعفاتِها الشبيهة بريشة على قبّعة عملاق. إنّ تفاح الورد، بثماره البرّاقة، يمنحكم ظلاله العبقة. هيّا معي؛ تعالوا.

---

(1) يحمل هذا الفصل بالأصل عنوان «جزيرة فرنسا» L'Île de France، وهو الاسم الذي خلعه الفرنسيّون على هذه الجزيرة أثناء استعمارهم لها بين 1715 و1810. (الحواشي من وضع المترجم، أفاد في بعضها من ملاحظات شرّاح الرّواية الفرنسيّين).

(2) نبات مثمر، ينتشر في جنوبِ شرق آسيا.

Twitter: @ketab_n

تعالوا إلى بريست، الأخت المحاربة لمارسيليا التاجرة، بريست المنتصبة كالخفير المسلّح حارساً المحيطَ؛ وهناك بين البواخر الغفيرة التي تأوي إلى الميناء، اختاروا لأنفسكم واحدةً من تلك السُّفن الشراعية ذات الصّاريَيْن، واحدةً ضيّقةَ الهيكل، وخفيفةَ الشّراع؛ سفينةً مديدةَ الصّارية، على شاكلة السّفن التي كان يمنحها لقراصنتِه الجسورين منافسُ والتر سكوت، الروائيّ شاعرُ البحر[1]. وتحديداً، نحن الآن في شهر أيلول، الشهر المواتي للأسفار الطويلة. هيّا، اصعدوا على متن السفينة التي سلمنّا إليها مقاليد وجهتنا المشتركة، هيا، لِنترُك الصّيف خلف ظهورنا، ولنُبحر صوبَ الربيع. وداعاً يا بريست! مرحباً يا نانت! مرحباً بايون! وداعاً فرنسا!

أرأيتم، على يميننا، هذا العملاق الذي ينتصب بطول عشرة آلاف قدم، والذي يلامس رأسُه الغرانيتيّ[2] السُّحب ويبدو معلّقاً تحتها، ذاك العملاق الذي نستطيع تمييز جذوره الصخرية تحت المياه الشفافةِ ممتدّةً تغوص في الهاوية؟ إنّ ذاك العملاق هو قمّة جبل جزيرة تينيريف، التي كانت تعرف قديماً بِنافاريا، إنّه ملتقى نسور المحيط التي ترونها دائرةً حول أعشاشها، ولا يكاد يكون لها حجم يمامات. لنمرّ، فليسَ هذا مبتغى رحلتنا؛ ليست هذه سوى روضة إسبانيا، بينما أنّا وعدتكم ببستان العالم.

أرأيتم على يسارنا، تلك الصخرة العارية التي لا تعلوها أيّة خضرة، تلك الصخرة التي تحرقها الشمس الاستوائية دون هوادة؟ إنّها الصخرة التي قُيّد إليها ستَّ سنوات برموثيوسُ المُعاصر؛ إنّها القاعدة نفسها التي

(1) كانت روايات البحر شائعة في ثلاثينيّات القرن التاسع عشر، ولا يمكن أن نحدّد إلى أيّ روائيّ يشير دوما، قد يكون إدوار كوربيير أو أوجين سو أو أوغست جال.

(2) الغرانيت هو حجر الصوّان.

Twitter: @ketab_n

رَفع الإنجليزُ فوقها نُصبَ عارهم؛ إنّها الأرض التي حملت محرقة جان دارك وسقّالة مقصلة ماري ستيوارت؛ إنّها جُلجلة السياسة، شكّلتْ طيلة ثماني عشرة سنة الملتقى المثاليّ للسّفن جميعها؛ بيد أنها أيضاً ليست مقصدنا. لنمرّ إذن، فليس لنا ما نفعله هنا: فجزيرة سانت هيلين تبدو كالأرملة بسبب آثار تعذيب شهيدها[1].

ها نحن أولاء في رأس العواصف. أَترَونَ ذاك الجبل المندفع وسط الضباب؟ إنّه نفسه العملاق أدامستور الذي ظهر لمؤلّف اللوسيادا[2]. إنّنا نمرّ على حَرف الأرض؛ وذاك الرأس الذي يتقدّم نحونا هو مقدّمة العالم. تمعّنوا أيضاً، انظروا كيف يتكسّر المحيط غاضباً، لكن عاجزاً، ذاك أنّ هذه الباخرة لا تخشى عواصفه، لأنّها تبحر صوب بوّابة الخلود، ولأنّ القديرَ نفسه هو قبطانها. لنُمرّ؛ فخلف تلك الجبال المخضرّة، تختفي أراضٍ قاحلة أحرقتها الشّمس. لنمُرّ: لقد وعدتكم بمياه عذبة، وظلال ناعمةٍ، وثمارٍ يانعة أبداً، وزهور أبديّة.

سلاماً أيّها المحيط الهنديّ، حيث تدفعنا الريح الغربيّة: سلاماً يا مسرح «ألف ليلة وليلة»؛ كدنا نبلغ هدف رحلتنا. هي ذي بوربون المفعمة شجناً، يقضمها البركان الخالد. لنلقِ نظرةً على نيرانه وابتسامةً إلى عطوره؛ ثمّ لنواصل المخور على امتداد عُقَدٍ بحريّة أخرى، ولنمرّ بين «الجزيرة المنبسطة» و«جزيرة المرمى»؛ لنتجاوز «جزيرة المدفعيّين»، ولنتوقّف عند الفسطاط ذاك. لنلقِ المرساة، فالمرفأ جيّد؛ وسفينتنا الشراعية ذات الصاريَين، المتعبة من إبحارها الطويل، تطلب الرّاحة.

---

(1) إشارة إلى نابليون بونابرت الذي أمضى سنيّه الأخيرة منفيّاً في جزيرة سانت هيلين أو هيلانة، الواقعة في وسط المحيط الأطلسيّ والواقعة ضمن أقاليم إنجلترا في ما وراء البحار، وتوفّي فيها عامَ 1821.

(2) يقصد لويس دو كامويس Luís de Camões، وقصيدته الملحمية *Os Lusíadas*.

Twitter: @ketab_n

وعلى كلّ حال، لقد وصلنا، فهذه، على ما يبدو، هي الأرض المنعَّمة التي أخفَتها الطبيعة عند تخوم العالم، مثلما تخفي أمٌّ غيورٌ جمال ابنتها العذريّ عن أعيُن العوامّ؛ ذاك أنّ هذه الأرض هي الأرض الموعودة، هي جوهرة المحيط الهندي، هي جزيرة موريس.

والآن، أيَا بنت البِحار البتولَ، يا أختَ بوربون التوأم، ومنافِسةَ سيلانَ المحظوظةَ، دعيني أكشف عن جانبٍ من حُجبك، حتّى يراك الصديق الغريب، المسافر الودود الذي يرافقني؛ دعيني أفكّ زنّارك؛ آه! أيتها الأسيرة الجميلة! نحن زائران جئناك من فرنسا، ومن يدري لعلّ فرنسا تتمكنّ يوماً من أن تشتريك مجدّداً، أنت يا ابنة الهند الثرية، أن تقايض بك بعضاً من ممالك أوروبا البئيسة.

وأنتم يا من تبعتمونا بالعين والفكر، دعوني الآن أحدّثكم عن البلد الرائع، بحقوله الخصبة دوماً، وغلّته التي تُؤتي أُكلها مرّتين في السّنة، وسنتِه التي لا تعرف غير فصلين: ربيع وصيف، يتعاقبان عليها ويخْلف أحدهما الآخر، جاعلينَ الزهور تتلو الثمار، والثمار تعقب الزهور. دعوني أحدّثكم عن الجزيرة الممتلئة شِعراً، التي تُدلّي قدميها في الماء وتخفي رأسها في السّحاب؛ إنّها فينوس جديدة شهد العالم ميلادها، فينوس أخرى وُلدت كأختها من زبد البحار، وارتفعت من مهدِها المائيّ إلى مملكتها السّماوية، مكلّلة بنهاراتٍ مشرقة وليالٍ مرصّعة بالنجوم، كأنّها عقد أبديّ سلّمته يدُ الربّ نفسها، ولم يستطع الإنجليز إلى الآن أن يسرقوه.

هيّا تعالَ، أنتَ يا كليوفاس الجديد[1]، إذا لم يكن السّفر الجويّ يخيفكَ

---

(1) يشبّه المسافرَ المحتمل الذي يخاطبه هو في هذه الصفحات بالسيّد كليوفاس ليوناردو بيريث ثامبويّو، أحد شخوص رواية الكاتب الفرنسيّ ألان رينيه لو ساج (1668—1747)، المعنوَنة «الشيطان الأعرج». في هذه الرواية الفنطازيّة يتشبّث كليوفاس بعباءة أسموديه ليحمله هذا إلى برج سان سلفادور.

Twitter: @ketab_n

أكثر ممّا يخيفكَ الإبحار، فلتمسكْ بتلابيب معطفي، سأحملكَ معي فوق المخروط المقلوبِ، ذاك المسمّى بيتربوت، أعلَى جبال الجزيرة بعد قمّة النّهر الأسود. ثمّ، إذ نَصلُ هناك، سننظر في كلّ اتجاه، وبشكل متتالٍ يمنة ويسرة، أماماً وخلفاً، أسفلنا وأعلانا.

فوقنا، كما ترى، السّماء الصّافية أبداً، مزيّنة كلّها بالنجوم: إنّها قطعة لازورد، حيث يخلّف الربّ في كلّ خطوة من خطاه نثاراً ذهبياً، كل ذرّة منه عالم بأكمله.

أسفلنا، الجزيرة المنبسطة تحت أقدامنا، مثل خريطة جغرافية محيطها مائة وخمسة وأربعون فرسخاً، بأنهارها الستّين التي تبدو كخيوط فضّة قُيّض لها أن تُثبّت البحرَ حول السّاحل، وجبالها الثلاثين التي تزيّنها نباتات قصب البورية وأشجار التكاماكا، والنّخيل. ومن بين كلّ أنهارها، أُنظر إلى الشلاّل المدعوّ «شلّال الخلْوة»، وذلك المسمّى «النّافورة»، اللّذين يجريان خبباً من الغابة حيث منبعهما، مطلِقَين ضجّة تدوّي كالعاصفة، حتّى يلتقيا بالبحر الذي ينتظرهما ويتلقّى تحدّيهما الأزليّ بالازدراء حيناً وبالغضب طوراً؛ صراع متنافسَين يتحدّيان أحدهما الآخر حول مَن سيخلّف في العالم خراباً أكثر وضجّة أكبر: ثمّ، على مقربة من ذاك الصراع المبنيّ على طموح واهم، أُنظر إلى النّهر الكبير، النّهر الأسوَد، الذي يجري الهوينى ساحباً ماءه المخصِّبَ، فارضاً احترامه على الجميع، ومؤكداً علوّ الحكمة على القوّة، والهدوء على الانفعال. وبين كلّ تلك الجبال، أُنظر إلى الجبل الصغير، جبل برابانت الذي يقف كالخفير العملاق عند طرف الجزيرة الشماليّ، ليحميها من هجمات الأعداء المفاجئة جميعها ويكسر غضب المحيط دونها. أُنظر إلى رأس الجبل المسمّى جبل «الحلمات الثلاث»، الذي يسيل عند سفحه نهر «السّور الكبير»، وكأنّ الآلهة إيزيس

Twitter: @ketab_n

الهندية أرادت أن تبرهن على اسمها في كلّ شيء وتجعله يتجلّى في هذا المكان. وانظر أخيراً إلى «جبل الإبهام»، الذي يعدّ، بعد البيتربوت الذي نحن فوقه، أعلى قمّة في الجزيرة، قمّة تبدو كأنّها تشير بإصبعها إلى السماء مبيّنة للسّادة والعبيد أنّ ثمّة فوقنا محكمة عليا، ستفصل بين الجميع.

قُبالتنا عاصمةُ الجزيرة، بور لويس، المرفأ الذي كان يسمّى قديماً مرفأ نابليون، بمنازله الخشبية العديدة، وجدوليْه اللّذين يتحوّلان عند كلّ عاصفة إلى سَيْلَين جارفَين؛ وجزيرته التابعة، «جزيرة صنّاع البراميل»، التي تذود عنه كلّ الهجمات، وسكّانه المتعدّدي الألوان الذين يبدون كأنّما يختزلون جميع إثنيات الأرض، بدءاً من الكريوليّ[1] الخامل الذي يُحمَل على الهودج إذا ما أراد عبور الطريق، والذي يُعدّ الكلامُ بالنسبة له أمراً متعِباً لدرجة أنّه علّم عبيده كيف يطيعونه لمجرّد أن تبدر منه إيماءة، وصولاً إلى الزّنجيّ الذي يقوده السوط صباحاً إلى العمل، ويعيده السوط مساءً من العمل. وما بين طرفَي السلّم الاجتماعيّ الأقصيَين ذينك، انظر إلى اللّاسكاريّين[2] الخضر والحمر الذين يمكن تمييزهم من عمائمهم التي لا تتعدّى هذين اللّونين، وملامحهم المدبوغة، كأنّهم خليط من الشعبين المالي والمالاباري. وانظر إلى الزنجيّ الوولوف، سليل الشعب السنغاليّ-الغامبيّ الجيّد والعظيم، ببشرته السوداء كالسّبج، وعينيه المتوهّجتَين كالعقيق الأحمر، وأسنانه البيضاء كاللؤلؤ؛ والصيني القصير، ذي الصدر

(1) الكريوليّ Le Créole، تشير في معناها الإثنولوجيّ العامّ إلى فرد مولود في مستوطنة ما من أبوَين أجنبيّين (مستعمِرين)، وهو المعنى المستخدم في هذه الرواية، فالمفردة تشير إلى الأبيض في المستعمرات السوداء. ولها أيضاً معنى لسانيّ يشير إلى لغة قد تنشأ نتيجة تحريفات تطال لغة أخرى بسبب تمازجها مع تأثيرات محليّة أو وافدة (النموذج الكريوليّ الأشهر نعثر عليه في الجزر التي تعدّ مستعمرات فرنسية أو برتغالية أو إسبانية).

(2) تسمية كانت تُطلّق على البحّارة الهنود المسلمين العاملين في السفن الفرنسيّة، ولعلّ الكلمة آتية من مفردة «العسكر» العربيّة.

Twitter: @ketab_n

الضيّق والكتفين العريضتين، برأسه الحليق، وشاربيه المتدلّيين، ولهجته التي لا يفهمها البتّة أحدٌ، ومع ذلك يتعامل بها الجميع: ذاك أنّ الصينيّ يبيع جميع البضائع، ويقوم بجميع الأعمال، ويمتهن جميع الحِرف؛ فالصينيّ هو يهوديّ المستوطَنة؛ ثمّ الماليّين، ذوي البشرة النحاسية، القصار القامة، والحقودين، الماكرين، الذين ينسون دائماً الجميل، ولكن لا ينسون قطّ الإهانة، والذين يبيعون مثل الغجر، تلك الأشياء التي يطلبها المرء على استحياء؛ والموزمبيقيّين اللّطفاء الطيّبين البلداء، والذين لا يقدّرهم أحد إلّا لقوّتهم، والملغاشيّين[1] الرقيقين الماكرين، ذوي البشرة الزيتونية، والأنف الأفطس، والشفاه الغليظة، والذين يمتازون عن السنغاليّين بانعكاس بِشراتهم المحمرّ؛ والناماكيّين[2] الطوال القامة، والبارعين المعتدّين بأنفسهم، الذين يُدرَّبون منذ نعومة أظافرهم على صيد النمّور والفيَلة، والذين يدهشون لكونهم جيء بهم إلى أرض ليس فيها وحوش يصارعونها؛ وأخيراً، وسط ذاك الخليط كلّه، الضابط الإنجليزي في الحامية بالجزيرة، أو في موقف السفن في المرفأ؛ الضابط الإنجليزي، بصدريّته البرّاقة المستديرة وقلنسوته الشبيهة بقبّعة الكاسكيت وسرواله الأبيض؛ الضابط الإنجليزي الذي ينظر من قمّة كبريائه إلى الجميع، كريوليّين ومولّدين، سادةً وعبيداً، مستوطنين وأهالي، ولا يتكلّم إلّا متحدّثاً عن لندن، ولا يفخر إلّا بإنجلترا، ولا يقدّر سوى نفسه. وخلفَنا «الميناء الكبير»، الذي كان قديماً الميناء الإمبراطوريّ. هو أوّل منشأة للهولنديّين، بيد أنّهم هجروه منذ زمن، لأنّه قائم في مهبّ رياح الجزيرة، ولأنّ العصف نفسه الذي يقود السفن إليه يمنعهم من مغادرته. كما أنّه،

(1) سكّان مدغشقر.

(2) الناماكيون يعني اسمهم حرفياً أهل ناما، وهم شعب أفريقيّ يعيش أساساً في ناميبيا.

Twitter: @ketab_n

وقد صار اليوم خرباً، لم يعد يضمّ أكثر من قرية صغيرة لا تكاد تنتصب منازلها، وجُوَيناً[1] تحتمي به المراكب الصغيرة من كمّاشة القراصنة، وجبالاً مغطّاة بالغابات يأوي إليها العبيد الآبقون من بطش أسيادهم؛ ثمّ، إذ نعيد البصر شطرَ أنفسنا، حتّى نكاد نبصر ما تحت أقدامنا، نستطيع أن نلمح في المناطق المحيطة بجبال المرفأ منطقةَ موكا، المعطّرة بأريج نبات الصّبر والرّمان والكشمش الأسوَد[2]؛ إنّ موكا دائمة الاخضرار، لدرجة يحسب معها المرء أنّها تخفي كنوزَ طقم مجوهراتها مساءً، لتبرزها صباحاً؛ موكا التي تتزّين كلّ يوم، مثلما تتزيّن باقي المقاطعات أيّام الأعياد؛ موكا، حديقةُ هذه الجزيرة التي أسميناها بستانَ العالم.

لِنَعُد إلى موضِعنا الأوّل؛ لنقف شطرَ مدغشقر، ولننظُر يساراً: عند أقدامنا، فيما وراء السّفح، ثمّة سهول وليامز، وهي أجمل مناطق الجزيرة، بعد منطقة موكا، يَحدُّها عند سهول سان بيار جبل «سلْك الخفَراء»، المقدود على هيئة كفل حصانٍ؛ ثمّ، خلفَ جبل «الحلمات الثلاث» والغابات الكبيرة، ثمّة حارة السافانا أي «حيّ المفازة»، بأنهارها التي تحمل أسماءً ناعمة، من قبيل «نهر أشجار اللّيمون» و«حمّام الزنجيّات» و«القنطرة»، ومرفئها المحميّ جيّداً بمنحدراته الوعرة، بحيث يستحيل أن يقتحمه المرء إلّا مسالماً؛ وبمراعيها التي تنافس سهول سان بيار، وأرضها التي لا تزال عذراء كأنّها إحدى مناطق أمريكا المعزولة؛ وأخيراً أقصى الغابة، ثمّة الحوض الكبير حيث بالإمكان إيجاد أسماك الشَيْقيّات تلك، التي لفرط ضخامتها باتت أقرب إلى الثعابين منها إلى الحنكليس، والتي شوهدت وهي تلتهم أيائل كان الصيّادون يطاردونها، أو تبتلع

---

(1) الجَوْن: الخليج الصغير.

(2) نبات شجريّ، يرتفع إلى المتر والنصف، وهو من فصيلة العنبيّات السوداء.

Twitter: @ketab_n

أولئك الزنوج الآبقين[1] الذين جازفوا بالسباحة في الحوض.

ولنلتفت أخيراً جهة اليمين: هي ذي منطقة «السّور الكبير»، تهيمن عليها «تلّة الاكتشافات»، التي تُرى من على قمّتها صواري البواخر، وتبدو من هنا دقيقة جدّاً وشديدة الرّهافة، كأنّما هي عروش صفصافٍ؛ هو ذا «الرّأس الشّقيّ»، هو ذا «خليج الأضرحة»، وهي ذي «كنيسة اللّيمون الهنديّ». في هذا الحيّ كان يتجاور كوخُ مدام دو لاتور وكوخ مدام دو مارغُريت[2]؛ وعلى صخور «الرّأس الشّقيّ» تحطّمت سفينة السّان جران[3]؛ وفي «خليج الأضرحة»، كان قد عُثر على جثّة صبيّة تمسك بيدها المضمومة صورةَ شخص؛ وفي «كنيسة اللّيمون الهنديّ» دُفن بعد شهرين، جنباً إلى جنب مع الفتاة، شابٌ بسنّها. ولا ريب في أنّك قد حزرت اسم العاشقين: بول وفرجيني، ذينك الطائرين من طيور القاوند المدارية، واللّذين يبدو البحر، حين يزمجر في الشّعَب المرجانية التي تحوطه، كأنّما يبكي موتهما بلا هوادة، مثلما تبكي نمِرة إلى الأبد صغارها الذين مزّقتهم أنيابها في سوْرة غضب أو لحظة غيرة.

والآن، سواء جُبتَ الجزيرة من ناحية «مضيق القرون»، في الجنوب الغربيّ، أو من جهة ماهيبورغ في المالابار الصغيرة؛ سواء حاذيتَ السواحل أو توغّلتَ في الداخل؛ سواء هبطتَ إلى الأنهار أو صعدتَ الجبال؛ سواء عانق قرص الشّمس المُشرقِ السّهلَ بأشعّته الملتهبة، أو طلَى

(1) لهذه المفردة دلالة دقيقة هنا، فهي تشير إلى مَن كانوا يهربون من أسيادهم ويعيشون متخفّين أفراداً أو جماعاتٍ في المرتفعات أو في أعماق الغابات.

(2) شخصيّتان من نسج خيال الأديب الفرنسيّ جاك هنري برناردان دو سان بيار، ظهرتا في رواية «بول وفرجيني» *Paul et Virginie* وكانتا تسكنان جزيرة موريس. (وهي الرواية التي نقلها المنفلوطي بكثير من التصرّف إلى العربية أو أعاد كتابتها تحت عنوان «الفضيلة»).

(3) من أجواء الرواية المذكورة في الحاشية السابقة.

Twitter: @ketab_n

الهلالُ الكثبانَ بفضّة نوره الباعث على الشجن؛ إذا ما كلّت قدماك، وبدأ رأسكَ يثقل، وأخذ دبيب النوم يسري في عينيك، وإذا ما ثملتَ بفيض الهواء المضمّخ بروائح الورد الصينيّ والياسمين الإسبانيّ والياسمين الهنديّ، وصرتَ تشعر بحواسكَ ترتخي بتثاقل، كأنّما هي وقعت تحت تأثير الأفيون، فبوسعك أيّها الرفيق أن تسلّم نفسك دون خوفٍ أو تمنُّع إلى تلك اللّذة الحميمة الدفينة، لذّة النوم الهنديّ. اِستلقِ إذن على العشب السميك، ونم هانئَ البال ثمّ استيقظ غير فزِعٍ، فذاك الصوت الخفيض الذي يرجّف أوراق الأشجار بينما يقترب ليس الفحيحَ السّام لثعبان جامايكا، وتانك العينان السوداوان البرّاقتان اللّتان تحدّقان بك ليستا عينَي النّمر البنغاليّ. نمْ هانئاً واستيقظْ مطمئناً؛ فلم يسبق لصدى هذه الجزيرة أن ردّد الفحيح الحادّ لزاحف من الزواحف، ولا الصيحة الليلية لوحش من الوحوش الضواري. كلّا، فليس ذلك كلّه سوى صبيّة زنجية تبعد ساقين من سيقان البامبو حتّى تتمكّن من إدخال رأسها لتتأمّل بفضولِ الأوروبيَّ الذي وصل إلى الجزيرة حديثاً. أَومِئ لها فقط، دون حتّى أن تترك مكانك، وستقطف لك الموز الطيّب والمانغا المعطّرة أو فصّاً من فصوص التمر الهندي. قل كلمة واحدة فقط، وستجيبك بصوتها الأجشّ المثير للشجن: «Mo» sellave mo faire ça que vous vié [1]، وستسعد غاية السّعادة، إذا ما كافأتَ خدماتها بنظرة رضا، وإذّاك ستعرض عليك أن تكون دليلك إلى بيت سيّدها. اِتبعها، اتبعها أنّى قادتك؛ وحين تلمح بيتاً جميلاً بممشى أشجار وسياج زهور، ستكون قد وصلتَ؛ سيكون ذاك منزلَ صاحب الأرض، المستبدّ أو الأبويّ،

(1) وردت في النصّ بلغة الكريول، وقد وضّحها ليون فرونسوا هوفمان في نشرته للكتاب، ضمن سلسلة «فوليو كلاسيك/غاليمار» كالتالي: أنا أمَةٌ/ سأفعل لك ما تشاء».

Twitter: @ketab_n

بحسب طيبته أو قسوته؛ لكن سيّان عندك أن يكون هذا أو ذاك. أُدخل دون استئذان، واجلس إلى مائدة العائلة؛ وقُل لهم: «إنّي ضيفكم». وإذّاك سيوضع أمامك أثمن طبق صينيّ، وسيكون محّملاً بأجود عنقود موز، وتُقدَّم لك الكأس المطليّة بالفضة ذات القعر البلّوريّ، وقد صُبّت فيها أفضل أنواع البيرة في الجزيرة؛ وستقنص ببندقية السيّد في مفازته الخاصّة، وتصطاد بشباكه في نهره، كلّما طاب لك أن تفعل؛ وكلّما قادتك خطاك مجدّداً إلى بيته، أو أوصيته بصديق تبعثه إليه، سينحرون أسمنَ عجل؛ ذاك أنّ قدوم الضيف هنا بمثابة العيد، وأشبه ما يكون بعودة الابن الضّال.

لذلك كلّه كان الإنجليز، حسّاد فرنسا الأبديّون، منذ زمن طويل قد وضعوا نصب أعينهم طفلتها المدلّلة هذه[1]، محاولين إغراءها حيناً بالذهب، وإرهابها بالوعيد طوراً آخر: بيد أنّ الكريولية الجميلة كانت تردّ تلك التودّدات دوماً بتعالٍ كبير. حتّى صار جليّاً أنّ عشاقها لن يحصلوا عليها بالإغراء، فصاروا إلى محاولة غصبها، ممّا استوجب الحرص عليها مثل راهبة إسبانية. ولفترة من الزمن بدا أنّ رغبة السطو عليها آيست من المحاولات الفاشلة، فكفّت؛ على أنّ إنجلترا لم تستطع عليها صبراً طويلاً، فارتمت عليها بلا هوادة، وإذ علمت جزيرة موريس ذات صباحٍ أنّ أختها جزيرة بوربون قد غُصِبت، طلبت من حُماتها أن يشدّدوا الحراسة عليها أكثر من أيّ وقت مضى، وشُرِع في شحذ السكاكين وتسخين القذائف، إذ كان من المتوقّع أن يهجم العدوّ في أيّ لحظة.

وفي الثالث والعشرين من شهر آب (أغسطس) 1810، دوّى قصف مدفعيّ رهيب على امتداد الجزيرة، معلناً وصول العدوّ.

---

(1) يقصد جزيرة موريس، وسبق أن ذكرنا أنّ الفرنسيّين كانوا يدعونها «جزيرة فرنسا».

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني

أُسودٌ وفُهود

حدث الأمرُ في الخامسة مساءً، عند نهاية نهار من تلك النّهارات الرائعة التي لا قِبَل لنا بها هنا في أوروبا. كان نصف سكّان جزيرة موريس قد جلسوا منتظمين كأنّهم في مدرّج على الجبال التي تعلو الميناء الكبير، مبهورين يتابعون الصراع الذي ينشب أسفل أعينهم، مثلما كانت أعناق الرومان قديماً تشرئبّ من أعلى المدرّج لمشاهدة محاربين يقاتلون الوحوش أو متابعة نزال مصارعين. بيد أنّ ساحة المعركة هذه المرّة كانت مرفأً مليئاً بالمطبّات أُنزِل فيه المتصارعون حتّى لا يتمكنّ أحد منهم من الفرار، ولكي ينهشوا بعضهم البعض ما طاب له أن يفعلوا بعدما تخلّصوا من عبء الإبحار. وما كان يكفي هذه المرّة لإنهاء الصراع أن ترفع عذراء إبهامها. لقد كان تلك معركة حياة أو موت؛ ولذا فإنّ العشرة آلاف متفرّج الذين كانوا يتابعون المعركة التزموا صمتاً قلقاً؛ لا بل إنّ البحر نفسه، الذي يكون عادةً صاخباً في هذه الأنحاء، صمتَ لكيلا يفوته هدير من هدير الأفواه الثلاثة ألف، التي تطلق النيران.

وفيما يلي تفصيل ما جرى:

صباحَ يوم العشرين كان قائد الفرقاطة[1] النقيب دوبيريه، وقد اعتلى البارجةَ بيلون، متبوعاً بالسّفن منيرفا وفيكتور وسيلان ووِندهام، قد بلغ «جبال الرّيح» في جزيرة موريس. وبما أنّ المعاركَ الثلاثَ التي

(1) سفينة حربية، دون المدمّرة وفوق زوارق الدوريّة السّاحلية.

Twitter: @ketab_n

قادها قبل هذه كانت قد ألحقت ضرراً بالغاً بأسطوله، فقد قرّر دخول الميناء الكبير ثمّ تعزيزَ صفوفه هناك. لقد كان الأمر ميسّراً، لا سيّما وأنّ الجزيرة، كما هو معلوم، كانت آنذاك لا تزال خاضعة لنا بأكملها، وأنّ عَلَمنا ذا الألوان الثلاثة كان لا يزال يرفرف فوق معظم مناطق «جزيرة الممرّ»، مثلما يرفرف فوق سفينته ذات الصّواري الثلاث، ممّا كان يمنح البحّار الشّجاع الطمأنينةَ والشّعور بأنّه في حضرة أصدقاء. وعليه، أصدر النقيب دوبيريه الأمرَ بمجاوزة «جزيرة الممرّ»، الواقعة على بعد فرسخين من الجهة الأمامية لماهيبورغ. وحتّى يتمّ ذلك أمَر حرّاقة[1] فيكتور بأن تتقدّم أولاً، وأن تتبعها منيرفا وسيلان ثمّ بيلون، بينما تختم المسيرةَ وِندهام. تقدّم الأسطول الصغير إذن، ضربة مجداف تلو الأخرى، ذاك أنّ وُسْعَ المضيق ما كان يسمح بمرور سفينتين متجاورتين.

وإذ صارت البارجة فيكتور على مرمى مدافع السفينة ذات الصواري الثلاث الرابضة أسفلَ القلعة، تلقّت إشارة بأنّ الإنجليز قد اقتحموا مجال الجزيرة. ردّ النقيب دوبيريه بأنّه على علم تامّ بالأمر، وأنّ الأسطول الذي تمّ رصده يتكوّن من البوارج التالية: السّاحرة والنِيرِيِد[2] وسريوس وإيفيجيني، ويقوده الكمودور لامبير؛ لكن، ما دام النقيب هاملان رابضاً تحت رياح الجزيرة ببوارجه: المقدامة والمانش والكوكب، فإنّ موقفنا قويّ، وبوسعنا قبول المعركة إذا ما أراد العدوّ مواجهتنا.

بعدَ لحظاتٍ، خُيِّل إلى النقيب بوفيه، الذي كان يقود السّفينة الثانية، أنّه قد لاحظ ترتيباتِ حربٍ عدائيةً تُجرى على سطح البارجة التي صدرت عنها الإشارات؛ وكان النقيب البحّار قد فحصها تماماً، ودقّق

(1) الحرّاقة، سفينة حربية قديمة.

(2) باسم حوريّات البحر في الميثولوجيا الإغريقيّة.

Twitter: @ketab_n

في تفاصيلها كلّها بعينه الثاقبة التي نادراً ما تخدعه، ولم يرَ عليها ما يشي بانتمائها إلى البحريّة الفرنسيّة. أخبرَ النقيبَ دوبيريه بما لاحظه، فطلب منه أن يأخذ حذره وأنّه سيفعل مثله. أمّا البارجة فيكتور، فقد كانت فرصة إخطارها قد فاتت؛ كانت قد توغّلت بعيداً، وصارت كلّ إشارة تُرسل باتجاهها قابلة لأن تُلتقط من طرف السفينة المشبوهة.

وعليه، أمعنت الفرقاطة فيكتور في تقدّمها دون أن ترتاب بشيء، مدفوعةً بهبّة نسيم منعشة من الجنوب-الشرقيّ وحاملةً فوق سطحها كلّ طاقمها، بينما كانت البارجتان الثانيتان تسيران في أثرها متابعتين بتوجّسٍ حركات البارجة ذات الصواري الثلاث والبرج الذي ترسو جنبه؛ على أنّ البارجة والبرج معاً كانا لا يزالان يتّخذان هيئة الصديقَين؛ حتّى أنّ البارجتين وقد صارتا على نفس المستوى تبادلتا بعض الكلمات. وكانت البارجة فيكتور لا تزال تشقّ طريقها. واجتازت البرج، حين برز على حين غرّة خيط دخان أعلى البرج وعلى جانبَي البارجة الراسية أسفله. لقد انطلق من أربعين فوّهة في آنٍ معاً قصفٌ مدفعيّ أصاب جانب الحرّاقة الفرنسية، فحطّم شراعها العلويّ؛ وفي تلك الأثناء اختفى من فوق البرج والسّفينة ذات الصواري الثلاث العلمُ الفرنسيّ الألوان، وحلّ محلّه العلم الإنجليزيّ. انطلت علينا الحيلة، ووقعنا في الفخّ.

وبدل أن يعود النقيب دوبيريه أدراجه، الأمرُ الذي كان لا يزال ممكناً، ويترك الحرّاقة التي كانت تؤدّي دور المستطلِع، والتي، إذ زالت عنها الدّهشة، شرعت تردّ عدوان مَدافع السّفينة الهاجمة بمدفعيها، مدفعي الصيد؛ بدل أن يبادرَ إلى ذلك، أرسل إشارة إلى بارجة وندهام، وأمر مينرفا وسيلان بأن تُعجّلا بالمرور. وعمل بنفسه على تأمين مرورهما، بينما كان على الوندهام أن تنسحب لإخطار باقي الأسطول الفرنسي بالمواقع

Twitter: @ketab_n

التي تُعسكر فيها البوارج الأربع الباقية.

أمعنت السّفن في تقدّمها، غير محميّة بالبارجة فيكتور، وإنّما بمدافع مشتعلة الفتيل وبحّارة متأهبين، كلّ واحد منهم في موضع عمله غارقين جميعاً في صمت من ذلك النمط الذي يسبق دوماً المِحَن الكبرى. ولم يمضِ وقت طويل حتّى ألْفت منيرفا نفسها جنباً إلى جنب مع ثلاثية الصواري المعادية؛ بيد أنّها كانت هي المبادِرة هذه المرّة إلى القصف، فلقد أشرَعت اثنتين وعشرين فوّهة ملتهبة في آنٍ واحد. فأصابت القذائف الخشبَ في الصميم، فتطايرت في الهواء أشلاءُ جزءٍ من سياج البارجة الإنجليزية، وسُمع صوت بعض الصيحات المكتومة. ثمّ ما لبثت المركبة الإنجليزية أن أعادت إلى منيرفا رسُل الموت الذين كانت استلمتهم منها منذ قليل. انهالت كذلك على منيرفا مدافع البرج، لكن دون أن تخلّف فيها أضراراً ما عدا قتل بعض الرّجال وقطع بعض الحبال.

ثمّ وصلت سفينة سيلان، وكانت سفينة شراعية جميلة من ذوات الصاريين عليها اثنان وعشرون مدفعاً، سلبناها من الإنجليز، وشأنها شأن فيكتور ومنيرفا كانت ستحارب في صفّ فرنسا، مالكها الجديد. تقدّمت خفيفة ورشيقة كأنّها طائر بحريّ يمسح العباب. حين صارت قبالة البرج وذات الصواري الثلاث اشتعلت معهما دفعة واحدة، فاختلطت الجلبة إذ قصف الجميع في وقت واحد، كما تمازج الدخان لفرط ما كانوا متقاربين جدّاً.

بقيَ النقيب دوبيريه الذي كان يعتلي البارجة بيلون. وكان يعدّ منذ ذاك الزمن أكثر ضباط بحريّتنا بسالةً وأشدّهم حنكة. تقدّم بدوره محاذياً بسفينته «جزيرة الممرّ» أكثر ممّا فعلت أيّة واحدة من السفن التي سبقته. ثمّ، جنباً إلى جنب ومن مسافة قريبة، احتدم الجمعان على متن السفينتين

Twitter: @ketab_n

وصارا إلى تبادل القتل من فوهات مسدّساتهم. تمكّنت البوارج من المرور بالقوّة، وصارت أربعتها في المرفأ. ضربوا موعداً حينئذ بجوار «مرتفع القُنزُعات»، وهناك تقدّموا لإلقاء مراسيهم بين «جزيرة القرود» وطرف المستعمرة.

وفوراً شرعَ النقيب دوبيريه بالتواصل مع المدينة، فعلِم أنّ جزيرة بوربون قد احتُلّت؛ بيدَ أنّ العدوّ، رغم كلّ محاولاته السّيطرةَ على جزيرة موريس، لم يستطع احتلال سوى «جزيرة الممرّ». وفي تلك الأثناء وصل رسول يسعى إلى إخطار الجنرال الباسل دوكان، حاكم الجزيرة، بأنّ البوارج الفرنسية الأربع، نقصد فيكتور ومنيرفا وسيلان وبيلون راسية في الميناء الكبير. وفي ظُهر يوم الحادي والعشرين تلقّى الجنرال دوكان تلك الإشارة، وحوّلها إلى النقيب هاملان الذي أمر السّفن التي تأتمر بأمره بأن تنطلق، مُجنّدة من على اليابسة كلّ الرجال الذين بوسع النقيب دوبيريه أن يتقوّى بهم، وأن تُخطر النقيب دوبيريه بأنّه لن يألوَ جهداً في اللّحاق به لنصرته، وأنّ كلّ الأمارات تشير إلى أنّ ثمّة قُوى عظيمة تترصّده.

وبالفعل، إذ حاولت الوندهام الرسوَ في النّهر الأسود، يوم 21، تمّ الاستيلاء عليها من طرف الفرقاطة الإنجليزية سيريوس في الساعة الرابعة فجراً. وقد علِم حينئذ قائدها النقيب بيم أنّ البوارج الأربع التي يقودها النقيب دوبيريه، قد دخلت الميناء الكبير وأنّ الرياح تعاكس مسيرتها. وقد أخطرَ فوراً قائدَي السّاحرة وإيفيجيني، وانطلقت الفرقاطات الثلاث دون إبطاء: سيريوس أبحرت صوب الميناء الكبير في اتّجاه الريح، بينما سارت الفرقاطتان الأخرَيان مجانبتَين الرّياح، قاصدةً جميعاً النقطة ذاتها.

Twitter: @ketab_n

وكانت تلك هي التحرّكات التي رصدها النقيب هاملان، والتي استنتج، بعد ربطها بما ورده من أخبار، أنّها أمارات تشير إلى أنّ النقيب دوبيريه سيتعرّض للهجوم. على أنّه مهما اجتهد لن يصير جاهزاً حتّى صباح الثاني والعشرين. إنّ الفرقاطات الإنجليزية الثلاث تتجاوزه بثلاث ساعات، وتلك الريح الثابتة باتجاه الجنوب-الغربي، والتي تشتدّ من حين لآخر، ستزيد من صعوبة بلوغه الميناء الكبير.

مساءَ الحادي والعشرين من الشّهر، امتطى الجنرال دوكان صهوة جواده، وعند الخامسة صباحاً بلغ ماهيبورغ، يتبعه مستوطنوه الرئيسيون مرفوقين بالزنوج ممّن يحسب السّادة أنّ بوسعهم الوثوق فيهم. كان الجميع، سادةً وعبيداً، متسلّحين ببنادقهم، وفي حال ما إذا حاول الإنجليز اقتحام الأرض، كان لكلّ واحد منهم خمسون رصاصة ليطلقها. وانعقد فوراً لقاء بينه وبين النقيب دوبيريه.

وعند الظهر، ظهرت الفرقاطة الإنجليزية سيريوس التي سارت في اتّجاه الرّيح، وبالتالي واجهت في طريقها صعوبات أقلّ من تلك التي واجهتها الفرقاطتان الأخريان؛ أقول ظهرت عند مدخل الممرّ، وانضمّت إلى السّفينة ذات الصواري الثلاث، التي عرفنا أنّها فرقاطة النيريد التي يقودها النقيب ويليوغبي. ومعاً تقدّمتا، كأنّما تحسبان أنّ بوسعهما بمفردهما أن تهاجما الكتيبة الفرنسية، تقدّمتا باتجاهنا بالوتيرة نفسها التي تقدّمنا بها نحن. بيد أنّ الفرقاطة سيريوس، إذ اقتربت كثيراً من المياه الضّحلة، لامست القاع، وقضى طاقمها نهارهم في محاولة تخليصها من ورطتها.

وأثناء الليل، وصلت إمدادات البحّارة الذين أرسلهم النقيب هاملان، وتمّ توزيعهم على البوارج الفرنسية الأربع. هكذا صارت

Twitter: @ketab_n

معزّزة بألفٍ وأربعمائة رجل، ومائة واثنتين وأربعين فوّهة رصاص. بيد أنّه، ما إن تمّ التوزيع، حتّى عمل النقيب دوبيريه على قلب وضعية الأسطول، بحيث صارت كلّ سفينة تُبرز جانبها، وبالتالي صار بوسع نصف المدافع فقط المشاركة في الحفل الدمويّ الذي يتحضّر.

وفي الثانية بعد الظُّهر، ظهرت الفرقاطتان السّاحرة وإيفيجيني بدورهما عند مدخل الممرّ؛ انضمتا إلى سريوس والنيرييد، وسارت أربعتها متقدّمة صوبنا. اثنتان من السفن الأربع استدارتا جانباً، بينما الأخريان ألقتا مرساتيهما، فظهر ما مجموعه ألف وسبعمائة رجل ومائتا مدفع.

كانت لحظة مهيبة ورهيبة تلك التي شهد فيها العشرةُ آلاف متابعٍ الذين تناثروا فوق الجبال فرقاطات العدوّ الأربع تتقدّم دون أشرعةٍ ومعتمدة على قوّة الدفع الوحيدة التي تمدّها بها الريح الجارية على هواها؛ تتقدّم بكامل الثقة التي يمنحها إيّاها تفوّقها العدديّ، ثمّ تنتظم على مرمى الكتيبة الفرنسية، وتبرز بدورها جنباتها، جانحةً مثلما فعلت سُفننا، ضاربةً صفحاً عن إمكان الفرار تماماً مثلما فعلنا نحن قبل ذلك.

كانت إذن معركةَ إبادةٍ شاملة تلك التي تتحضّر؛ كان ثمّة أسود وفهود على أهبة أن يبدؤوا بتمزيق بعضهم بعضاً بأنياب من البرونز وزئير من نار.

وقد كان بحّارتنا، الذين ما عادوا يملكون الصبر الذي امتلكه سابقوهم في المعارك الفرنسية الثلاث الكبرى بفونتوا[1]، قلتُ كان بحّارتنا هم المبادرين إلى إصدار إشارة القصف. وانطلقت سحابة دخان

(1) معركة فونتوا، كانت نتيجة حصار مدينة تورنيه (أبريل 1745) وجرت في الحادي عشر من ماي 1745 قرب مدينة فونتوا التي كانت تقع ضمن أراضي هولندا النمساوية (تقع اليوم ببلجيكا)، وانتهت بانتصار الفرنسيّين.

Twitter: @ketab_n

طويلة من السفن الأربع التي يرفرف فوقها علمٌ ثلاثيّ الألوان؛ ثمّ ضجّ الأفق في الآن نفسه بقصف سبعين فماً ناريّاً، ونزلت عاصفة الحديد على الأسطول الإنجليزيّ.

ولم يمهِلِ الإنجليزُ الفرنسيينَ كثيراً، لقد ردّوا فوراً. وانطلقت معركة بلا هوادة، معركة ما كانت تهدأ ما خلا لحظات التوقّف البسيطة التي كان يتمّ فيها جمع نثار الخشب وأشلاء القتلى؛ معركة من معارك الإبادة لم يشهد البحّارة مثيلاً لها، منذ معركتَي أبي قير[1] وطرف الغار[2]. وقد يبدو للوهلة الأولى أنّ الامتياز في تلك المعركة كان بجانب أعدائنا، ذاك أنّ أولى الطلقات الإنجليزية كانت قد قطعت قَلس تثبيت[3] منيرفا وسيلان، بحيث صارت أغلب مدافع تيْنك السّفينتين محجوبة عن نطاق القصف. غير أنّ قائد بارجة بيلون أمر سفينته بأن تواجه الجميع، وصارت بالتالي تردّ قصف بوارج العدوّ الأربع بأكملها، مجنّدةً السواعد والبارود والقذائف في وجه الجميع، مطلِقة سيلاً لا ينتهي من الطلقات، مثل بركان نشطٍ؛ واستمرّت كذلك زهاء السّاعتين، أي ما يكفي من الوقت لتتمكّن منيرفا وسيلان من إصلاح أضرارهما. وبعد ذلك، وكأنّما عيل صبرهما من عدم المشاركة في القصف، بدأت السفينتان بالزّئير والعضّ بدورهما، فارضتين على العدوّ، الذي كان قد انشغل عنهما لحظة لمواجهة البارجة بيلون، أن يستدير مجدّداً شطرهما وأن يضطرّ لمواجهة الأسطول بأكمله.

---

(1) أبو قير، معركة انهزم فيها الفرنسيون (بقيادة نابليون) أمام الانجليز (بقيادة نلسون) سنة 1798، على شواطئ خليج أبو قير المصرية. يسميها الإنجليز كذلك معركة النيل.

(2) معركة طرف الغار Trafalgar، واجه فيها الأسطول الإنجليزي بقيادة نلسون تحالف الأسطولين الفرنسي والإسباني بقيادة الأميرال الفرنسي بيار شارل فينيلون، سنة 1805 قرب رأس طرف الغار بقادس الإسبانية، وانتصر فيها الإنجليز.

(3) العقدة التي يثبّت بها الملّاحون مراكبهم.

Twitter: @ketab_n

إذ ذاك بدا للنقيب دوبيريه أنّ بارجة النيرييد، التي كانت قد أصابتها في مقتلٍ ثلاث قذائف أطلقتها عليها الكتيبة الفرنسية أثناء مرورها، قد بدأ قصفُها يخفّ. فأعطى أوامره بأن ينهال القصف عليها بأكمله، وألّا تُمنح أدنى فرصة لالتقاط الأنفاس. فانهمرت عليها القذائف والرّصاص ساعةً بأكملها، وفي كلّ لحظة كان يُخيّل للجميع أنّها ستَرفع راية الاستسلام. وإذ لم تفعل ذلك، استمرّ القصف البرونزي، محطِّماً صواريها وكانساً سطحها وثاقباً هيكلها، إلى أن سكت آخر مدافعها مصدراً صوتاً أشبهَ بالأنين، وصارت ممسوحةً مثل رمثٍ غارقٍ في سكون الموت وصمته.

في تلك اللحظة، وبينما كان النقيب دوبيريه يوجّه أمراً للملازم روسان، أصابته شظية رشاش في رأسه وأسقطته وسط سَريّة المدفعية؛ وإذ أدرك خطورة إصابته التي قد تكون مميتة، نادى النقيب بوفيه وعهد إليه بقيادة البارجة بيلون، وأمره بأن يفجّر إن اقتضى الأمر البوارج الأربع ولا يسلّمها للعدوّ. وما إن أعطاه تلك التعليمات الأخيرة حتّى مدّ له يده وأغميَ عليه. ولم ينتبه أحد لما حدث؛ فكأنّما دوبيريه لم يغادر بيلون ما دام بوفيه يخلفه.

عند العاشرة مساء اشتدّت حلكة الظلام حتّى ما عاد بالإمكان التصويب على الأهداف، وصار الأمر إلى الرّمي العشوائيّ. وفي الحادية عشرة توقّف إطلاق النّار؛ بيد أنّ المشاهدين، وقد فهموا أنّ الأمرَ لا يعدو أن يكون هدنة قصيرة، ظلّوا في أماكنهم. وحقّاً، مع الواحدة صباحاً، بزغ القمر، فاستُؤنف القتال على ضوئه الشّاحب.

وأثناء الهدنة كانت النيرييد قد تلقّت بعض الإمدادات، وعادت خمس قطع من مدفعيتها أو ستٌّ للاشتغال؛ الفرقاطة التي خلناها ماتت، كانت

Twitter: @ketab_n

تحتضر ليس إلاّ، وها هي ذي تستعيد عافيتها وتعلن عن انبعاثها بقصفنا.

إذاك سلّم بوفيه قيادة البارجة فيكتور، التي أصيب قائدها، للملازم روسان؛ وكانت الأوامر الموجّهة إلى روسان تقضي بأن يعيد البارجة إلى عرض البحر ويتحرّك، على أن يمعن في قصف النيرييد بكامل عتاده، ولا يكفّ عن إطلاق النيران هذه المرّة حتّى تخمد أنفاس الفرقاطة إلى الأبد.

اِتّبع روسان التعليمات حرفياً: نشرت الفرقاطة فيكتور أشرعتها جميعها، تحرّكت من مكانها وأتت لترسوَ، دون أن تطلق قذيفة واحدة، على بعد عشرين قدماً من كَوْثَل[1] النيرييد؛ ثمّ من ذلك الموضع بدأت القصف مجدّداً، قصفاً مركّزاً ما كانت النيرييد تملك له ردّاً سوى أدوات طرادها. ومع بزوغ ضوء النّهار صمتت الفرقاطة مجدّداً. على أنّ صمتها كان هذه المرّة نهائياً، لقد ماتت حقّاً، ومع ذلك كانت لا يزال العلم الإنجليزي يرفرف فوقها. كانت ميتّة لكنّها لم تستسلم بعدُ.

في تلك اللّحظة ارتفعت الصّيحات من النّيرييد مردّدةً: «يحيا الإمبراطور!»، ذاك أنّ السّبعة عشر سجيناً فرنسياً، الذين أُسِروا في «جزيرة الممرّ» وحُبِسوا دون طعام، كَسروا باب محبسهم واندفعوا عبر البوّابات حاملين في أيديهم علماً فرنسياً. لقد اندحرَ رمز بريطانيا العظمى وها هو ذا العلمُ الثلاثي الألوان يرفرف مكانه. أمرَ الملازم روسان رجاله بالصعود إلى النيرييد؛ بيد أنّه في اللّحظة التي كاد يبدأ فيها رميَ حبال الصعود، وجّه العدو نيرانه إلى النيرييد التي كانت تفلت من قبضته. وكان نضالاً بلا جدوى، فالنيرييد لم تعد أكثر من قطعة خشب عائمة سنضع عليها يدنا ما إن نهزم باقي البوارج. تركت البارجة فيكتور الفرقاطةَ تطفو كحوتٍ نافق، وأركبت الرجال السبعة عشر، ثمّ عادت

(1) الكوثل: مؤخّر السفينة وفيه يكون الملّاحون وعتادهم.

Twitter: @ketab_n

إلى صفوف المعركة معلنة إلى الإنجليز عودتها إلى مركزها عبر إطلاق العنان لمدفعيّتها بأكملها.

صدر الأمر إلى البوارج الفرنسية بأن توجّه جميعاً نيرانها إلى فرقاطة السّاحرة، فقد كان النقيب بوفيه ينوي تحطيم الفرقاطات الإنجليزية الواحدة تلوَ الأخرى. وبالفعل، حوالى الثالثة بعد الظُّهر صارت السّاحرة هدفاً لقصفنا كلّه، وفي الخامسة ما عادت تردّ الهجوم سوى باهتزازاتٍ ولا تصدر عنها سوى أنفاس من قبيل أنفاس عدوّ مصابٍ في مقتل. وفي السادسة أبصر الرّجال من اليابسة أنّ طاقمها يكثّف استعداداته لمغادرتها، فأخطروا الكتيبة الفرنسية بالصّراخ والإشارات. تضاعفت حدّة القصف، وأرسلت فرقاطتا العدوّ الأخريان قوارب النّجاة، كما أنزلت هي أيضاً زوارقها إلى الماء. نزل إلى القوارب ما تبقّى من الرجال السليمين أو المجروحين جروحاً طفيفة. بيد أنّه في تلك اللحظة الفاصلة التي عبروا فيها نحو سيروس غرق قاربان أصابتهما القذائف، وامتلأ البحر بالرجال الذين حاولوا الوصول إلى الفرقاطتين المجاورتين سباحة.

بعدَ برهةٍ، ارتفع خيط دخان رفيع من فتحة مدخنة السّاحرة، ثمّ ما لبثت كثافته تزداد شيئاً فشيئاً؛ وعبر فتحات السّفينة كنّا نراهم يُخرجون الرّجال الجرحى الذين كانوا يرفعون أذرعهم المبتورة طالبين النّجدة؛ إذ أنّ النّيرانَ خَلَفت الدّخانَ وصارت تولج ألسنتها الطويلة عبر فتحات السفينة جميعها، قبل أن تندلع إلى الخارج لتلتهم كلّ المتاريس وتتسلّق الصواري وتغشى السطح بأكمله. ووسط ذاك اللّهيب كانت تتناهى أصوات الاحتضار؛ ثمّ فجأةً انفتق المركب مثل فوّهة بركان ينشطر. وسُمع دويٌّ انفجار رهيب: كانت فرقاطة السّاحرة تتطاير أشلاءً. وتابع الحضور لوهلة البقايا الملتهبة التي كانت ترتفع في الهواء قبل أن تعود

Twitter: @ketab_n

للسقوط والانطفاء مستثارةً في الماء. صارت تلك الفرقاطة الرائعة، التي كانت أمس فقط تحسِب نفسها ملكةَ المحيط، أثراً بعد عين. ما عاد منها شيء يذكر، ولا حتّى بقية من البقايا، ولا حتّى جرحى أو قتلى. فقط فجوة شاسعة ما بين النيرييد وإيفيجيني كانت تشير إلى المكان الذي كانت به.

ثمّ، وكأنّما أنهكتهم المعركة وهالهم العرض، صمتَ الإنجليز والفرنسيّون معاً، وكُرِّس ما تبقّى من الليلة للرّاحة.

لكن ما إن أطلّ الصبح حتّى استُأنف القتال. أتى الدّور على سريوس لتصير ضحيّة الكتيبة الفرنسية. أتى عليها الدّور لتسحقها مدافع التحالف الرّباعيّ: فيكتور ومنيرفا وبيلون وسيلان. تكالبت عليها القذائف والرشاشات. ولم تمضِ ساعتان حتّى صارت لا تملك سوى صارية واحدة، أمّا سياجها فقد مُسحَ مسحاً وصار الماء يتسرّب إلى هيكلها عبر عشرين جرحاً: ولو أنّها لم تكن مائلة لكانت غرقت وهبطت إلى القعر. إذ ذاك تركها طاقمها، وكان القائد آخر المغادرين. بيد أنّه إذ ظلّت النيران متأجّجة على سطح فرقاطة السّاحرة، فإنّ فتيلاً نقل اللّهبَ إلى جبخانة[1] السفينة، وفي الحادية عشرة صباحاً سُمع دوّي انفجار رهيب وتلاشت السريوس محطَّمةً!

إذّاك أدركت البارجة إيفيجيني، التي كانت تحارب بآخر ما تبقى لديها من قوّة، أنّه ما عاد ثمّة سبيل للمقاومة. لقد صارت وحدها في مواجهة أربع بوارج؛ فكما قلنا ما عادت النّرييد سوى كتلة جامدة. نشرت إيفيجيني أشرعتها، واستعانت بمن نجا من الدّمار الذي توقفّ عند عتبتها للفرار كي تحتميَ بالبرج.

---

(1) الجبخانة كلمة تركية الأصل تعني الموضع الذي يُحفَظ فيه العتاد الحربيّ من بارود وما شاكله.

Twitter: @ketab_n

ولم ينتظر النقيب بوفيه طويلاً حتّى يصدر أوامره لمنيرفا وبيلون كي ترمّما أضرارهما وتعودا للمياه. وقد علم دوبيريه في فراشه، حيث يرقد مدمّىً، بكلّ ما جرى: وما كان يودّ أن يترك فرصة النّجاة لأيّ فرقاطة، ولا أن يُبلّغ إنجليزي واحدٌ إنجلترا هزيمةَ أسطوله. ما زلنا لم نثأر لهزيمة طرف الغار وأبو قير. هيّا إلى المطاردة! اِلحقوا بإيفيجيني!

فاستفاقت الفرقاطتان النبيلتان، رغم أنّهما كانتا مثخنتَين بالجروح، انتصبتا ونشرتا أشرعتهما ثمّ انطلقتا تطويان البحر بعدما أمرتا البارجة فيكتور بأن تغنم النيرييد. أمّا سيلان فقد كانت معطوبة لدرجة كان يستحيل معها أن تبرح مكانها ما لم يقم الجلفاط[1] بتضميد جروحها الألْف.

عقب ذلك انطلقت صيحات نصر كبيرة على اليابسة: فقد استعاد السكّان، بعد طول صمتٍ، أنفاسهم وغدوا يهتفون مشجّعين منيرفا وبيلون في مطاردتهما. بيد أنّ إيفيجيني، وقد كانت أقلّ تضرّراً من خصميها، بدت تكسب المسافة أكثر منهما: هي ذي إيفيجيني تتجاوز جزيرة إغريت؛ هي ذي إيفيجيني تكاد تبلغ برج «جزيرة الممرّ»؛ هي ذي إيفيجيني توشك على أن تبلغ عرضَ البحر وتفلت. وكانت قد صارت على مبعدة، لدرجة أنّ قذائف منيرفا وبيلون التي تلاحقها ما كانت تبلغها وإنّما تهوي عند الدوائر التي يخلّفها في الماء محرّكها، حين ظهرت عند مدخل «جزيرة الممرّ» ثلاث بوارج يعلوها العلم الثلاثي الألوان. كان ذاك النقيب هاملان الذي انطلق من بور لويس صحبة البوارج المقدامة ولامانش والكوكب. لقد ألفت البارجة إيفيجيني نفسها، شأنها

(1) الجلفاط، من يتكلّف بغلق شقوق السفن بواسطة الزّفت، أو يطلي هيكلها الخارجيّ بالزفت أو غيره.

Twitter: @ketab_n

شأن «برج الممرّ»، محشورةً ما بين نارين؛ فاستسلما دون مقاومة؛ ولم يفلت إنجليزي واحد.

وفي تلك الأثناء كانت البارجة فيكتور قد اقتربت مرّة أخرى من النيرييد، وخوفاً من أن تباغتها بمفاجأة ما، اقتحمتها بحذر. بيد أنّ صمتها كان بالفعل صمت الموت. كان سطحها مليئاً بالجثث، والملازم الذي صعد إليها أولاً غاصت قدمه في الدماء حتّى الكاحل.

أحد الجرحى تمكّن من القيام وروى كيف أنّ الأوامر أعطيت ستّ مرات لرفع راية الاستسلام، لكنّ الفرنسيين كانوا في كلّ مرّة يصيبون الرجال المكلّفين بتنفيذ الأمر؛ إذ ذاك انسحب النقيب إلى مقصورته ولم يره أحد بعدئذ.

تقدّم الملازم روسان صوب المقصورة فألفى النقيب ويليوغبي جالساً إلى طاولة لا تزال فوقها قربة غْرُوغ[1] وثلاثة أقداح؛ قبالته ملازمه الأوّل تومسون مقتولاً ببسكيّة[2] اخترقت صدره، وعند قدميه مسجّىً ابن أخيه[3] وليامز مورّيه وقد أصابت خاصرته شظيّة مدفع.

إذّاك حرّك النقيب ويلوغبي الذراع التي بقيت له وحاول تسليم سيفه، بيد أنّ الملازم روسان بادر إلى مدّ يده وصافح الإنجليزيّ المحتضر قائلاً:

- أيّها النقيب، إنّ من يستعمل سيفه مثلما استعملته أنت، لا يسلّمه إلّا لربّه!

---

(1) مشروب مُسكر يصنع من الماء السّاخن والكحول.

(2) بسكيّة، بندقية حصار.

(3) كان العقيد ويلوغبي Wilhougby (وليس فيلوغبي Villougby كما كتب دوما) قائد بارجة «النيريد» La Néréide فعلاً، أمّا ابن أخيه وليامز مورّيه Sir Williams Murrey فهو شخصيّة من ابتكار الكاتب.

Twitter: @ketab_n

وأمر في الحين بأن تعطى كلّ الإسعافات اللازمة للنقيب ويلوغبي. لكنّ كلّ الإسعافات كانت عبثاً: فحامي النيرييد النبيل مات في اليوم التّالي.

على أنّ غبطة الملازم روسان بابن أخي النقيب كانت أعظم من غبطته بالنقيب نفسه. فالسّير[1] وليامز مورّيه كانت إصابته بالغة إلّا أنّها ما كانت مميتة. وسنشهد كيف يعود للظهور في مجرى أحداث حكايتنا هذه.

---

(1) لقب إنجليزي يمنحه التاج البريطاني.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الثّالث

ثلاثةُ صبيان

مثلما قدّرنا فإنّ الإنجليز، على الرّغم من فقدانهم أربعَ بوارجَ، لم ينتهوا عن أطماعهم تجاه جزيرة موريس؛ لا بل إنّهم صاروا يملكون دافعاً مزدوجاً: محاولة غزوٍ جديدة، وهزيمة ينبغي الثّأر لها. وبالفعل، لم تكد تمضي ثلاثة شهور على الهزيمة التي بسطنا تفاصيلها أمام أعين القارئ، حتّى اندلعت معركة لا تقلّ ضراوةً عن سابقتها، وإن اختلفتْ عنها من حيث النتائج؛ قُلتُ اندلعت معركةٌ في بور لويس تحديداً، أي في موضعٍ مختلفٍ تماماً عن موضع المعركة السّابقة.

ولم يكن الأمر يتعلّق هذه المرّة بأربع بواخر أو ألفٍ وثمانمائة رجلٍ، وإنّما رسَت على السّاحل اثنتا عشرةَ فرقاطةً وثماني حرّاقاتٍ وخمسونَ ناقلةً، وأنزلت ما بين العشرين ألف أو الخمسة وعشرين ألف رجلٍ؛ وشرعَ جيشُ الغُزاة في الزّحف نحو بور لويس التي كانت تدعى آنذاك «مرفأ نابليون». وكانت عاصمة الجزيرة تشهد آنذاك عرضاً يتعذّر وصفه؛ فمن كلّ حدب وصوب كان الحشد يحثّ سيره منبثقاً من أحياء الجزيرة جميعها، ثمّ يتزاحم في الطرقات مُبدياً أقصى درجات التوتّر. وإذ لم يكن أحد يدرك حقيقة الخطر، كان الجميع يبتكرون مخاطر خيالية. وأشدّ هذه المخاطر غلوّاً، أي تلك التي تعرض أشياء لا يمكن تصوّرها، كانت هي الأكثر حظوةً بالتّصديق. ومن حين لآخر كانت تظهر فجأةً إمدادات من معسكر القائد العامّ حاملةً معها أمراً من الأوامر ومُلقيةً

Twitter: @ketab_n

على الجمع واحدةً من تلك الخُطب التي ترمي إلى أن توقظ في الفرنسيّين نار الكراهية التي يحملونها تُجاه الإنجليز، وإلى شحْذِ حميّة انتمائهم ومواطنتهم. وإذ تُتلى تلك الخُطبُ تُرفع القبّعات على رؤوس الحراب، وتنطلق الصيحات: «يحيا الإمبراطور!»، ويتمّ تبادل قسم الانتصارِ أو الموت؛ ثمّة رعشةُ حماسةٍ تسري بين الحشد الذي يوشك أن ينتقل من راحة هادئة إلى انشغال غاضب، وتنتشر في كلّ الأنحاء مُناديةً بالزحف صوب العدوّ.

بيد أنّ المُلتقى الفعليَّ كان يقع عند ساحة الأسلحة، أي وسط المدينة. فهناك كان يُحمل حيناً صندوقٌ ينقله خبباً حصانان صغيران من أحصنة تيمور أو بيغو[1]؛ وطوراً يُجَرُّ مدفعٌ بخطوات مدفعيّين من القوّات الفرنسيّة، فتيانٍ يافعينَ أعمارهم ما بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة، يغطّي وجوهَهم البارودُ الأسود بدلَ اللّحى. وهناك كان يجتمع أفرادٌ من الحرس المدنيّ مرتدين زيّ القتال، ومتطوّعون بلباس الخيّالة أضافوا حراباً إلى بنادق صيدهم، وزنوج ارتدوا أسمالَ بِدلاتٍ عسكريّة وتسلّحوا بغدّارات وسيوف ورماح؛ جميع أولئك كانوا يختلطون ويتدافعون ويصطدمون ببعضهم البعض ويتعثرون، ويساهم كلّ منهم بنصيبه في إشاعة الخبر الذي يعلو سماء المدينة مثل طنين صادر عن سربِ نحلٍ يحوم حول قفير عملاق.

على أنّ كلّ أولئك الرّجال، فُرادى كانوا أو زرافات، ما إن يبلغون ساحة السّلاح حتّى يتّخذون هيئة أكثر اعتياديةً وسمتاً أشدّ هدوءاً؛ ذاك أنّ السّاحة كانت تؤوي نصف الحامية العسكرية بالجزيرة، وهُم

(1) عاصمة برمانيا.

Twitter: @ketab_n

في المحصّلة خمسة عشر إلى ثمانية عشر رجلاً من جنود الخطّ[1] المنتظرين الأمرَ بالزّحف صوب العدوّ، والذين كانت وقفتهم، المتّسمة بالفخر واللامبالاة في آن، تشي بلَوْم مضمر للضجيج والارتباك الصّادرَين عن أولئك الذين واتتهم الشّجاعة والعزم للمشاركة في هذا الحدث، على الرّغم من قلّة تجربتهم. وبينما كان الزّنوج يحثّون خطاهم، بلا نظام، إلى أقصى السّاحة، كان ثمّة فوج من المتطوّعين الوطنيّين يسعى إلى تنظيم نفسه بنفسه وفق النظام العسكريّ، إذ يقف أمام الفيلق وينتظم بطريقة تُشاكل طريقةَ تنظيمه، ثمّ يحاول عبثاً محاكاةَ استواءِ صفوفه.

أمّا ذاك الذي كان يبدو أنّه هو قائد الفوج الذي أشرنا إليه قبل قليل، والذي ينبغي الاعتراف بالجهد الذي كان يبذله لبلوغ النتيجة التي ذكرناها، فقد كان رجلاً ما بين سنّ الأربعينَ والخمسة وأربعين، يضع على كتفيه نياشين قائد الكتيبة، وقد حبتْه الطّبيعة بهيأةٍ جسمانية من تلك الهيئات التي لا تدلّ على شيء، والتي لا يمكن لأيّ انفعال أن يمنحها ذاك الشيء الذي نسميه طبعاً. أمّا فيما عدا ذلك، فقد كان مجعّد الشّعر حليق الذّقن مشبّكاً ملابسه كأنّما هو ذاهب في استعراض. على أنّه كان بين الفينة والأخرى يفكّ مشبكاً من مشابك بذلته المزرّرة من أعلاها إلى أسفلها تزريراً بدائياً، والتي كلّما انفتحت شيئاً فشيئاً، برزت تحتها صدريّة مضرَّبة وقميص بصُدْرة وربطةُ عنقٍ بيضاءَ مزخرفة الحواشي. وعلى مقربة منه صبيٌّ حسنُ الوجه في الحادية عشرة من عمره، ينتظره على بعد خطوات زنجيّ يرتدي سترةً وسروال بزَان[2]، وقد جلس الصبيُّ بكامل الأريحية التي يمنحها له إحساسه المعتاد بأنّه قد أحسن تسوية ياقة قميصه

(1) من الجنود الذين كانوا يؤلّفون جيش نابليون، وهم جُند دون رتب عسكرية أو من ذوي الرّتب المتدنية، ممّن يزحفون في المقدّمة في صفوف منتظمة.

(2) بزان، نسيج قطنيّ.

Twitter: @ketab_n

المزرّر ووضعَ زيّه، زيّ الشّملة[1] الأخضر ذي الأزرار الفضيّة واعتمر قبّعته المصنوعة من جلد القندس بالرّيشة التي تزيّنها. وعلى جانبه يتدلّى غمد سيف صغير بجعبته؛ وكان يمسك حَدَّ السّيف بيده اليمنى بكلّ قوّته، ويحاولُ محاكاة الهيئة الحربية التي يتّخذها الضابط الذي كان يحرص من حين إلى آخر على أن يناديه «أبي»، وهو نداء يبعث في نفس الضابط زهواً لا يقلّ عن ذاك الذي يبعثه فيها المركز الحسّاس الذي وهبته إيّاه ثقةُ المواطنين حينَ نصّبته على رأس الجيش الوطنيّ الشّعبيّ.

وعلى مقربةٍ من تلك الزّمرة المزهوّة حبوراً، كان بوسع المرء أن يميّز زُمرة أخرى؛ زمرةً أقلّ زهواً من الزّمرة الأولى دون ريب، لكن أشدّ إثارة للانتباه بكلّ تأكيد.

كانت تلك الزّمرة مؤلّفة من رجلٍ سنُّه ما بين الخمسة والأربعين والثمانية والأربعين سنةً وصبيَّين أحدهما في الرابعة عشرة من عمره بينما الثاني في الثانية عشرة.

كان الرّجل طويلاً وناحل العود وذا هيكل بارزِ العظام، ومنحنياً قليلاً؛ على أنّ انحناءه لم يكن بسبب السّن، فكما أسلفنا لم يكن الرّجل يتعدّى الثامنة والأربعين، وإنّما كان ينحني بسبب إحساس المهانة الذي تضفيه عليه وضعية التّابع. وبالفعل، ما إن ينظر المرء إلى بشرته النحاسية وشعره الخفيف التجعّد، حتّى يدرك من أوّل نظرة أنّه أحد أولئك المولَّدين الذين لا تشفع لهم الثروات التي راكموها بفضل أنشطتهم الحرفيّة، والتي تكون في الغالب ضخمة، أقول لا تشفع لهم أمام لونِ بشرتهم. كان الرّجل يرتدي ملابس باذخة البساطة، ويحمل في يده غدّارة موشّاة بالذّهب ومطعّمة بحربة طويلة مدبّبة، ويتقلّد سكّين جزّ

(1) نسيج يُتّخذ من الصّوف أو وبر الماعز ويوضع على الكتفين.

Twitter: @ketab_n

من ذاك النّوع الذي يحمله فرسان الدّرع، وبفضل حجمها الكبير كانت تظلّ معلّقة على امتداد فخذ الرّجل كأنّما هي سيف. وفضلاً عن الذخيرة الموجودة في جعبته، كانت جيوبه ممتلئة عن آخرها بالخراطيش.

أكبر الولدين سنّاً كان، كما أسلفنا الذِّكر، فتىً في الرابعة عشرة من عمره، ضخم الجسم، وقد أكسبت جسدَه السُّمرةَ عادةُ الصّيد أكثر ممّا فعلت أصولُه الأفريقية. وبفضل الحياة النّشطة التي عاشها كانت بنيته صلبة مثل بنية شابّ في الثامنة عشرة من عمره. وكان قد نال من والده الإذن بالمشاركة في الحملة التي توشك أن تبدأ. كان يتسلّح إذن ببندقيّته ذات الماسورتَين، تلك البندقية نفسها التي اعتاد أن يستخدمها أثناء تجواله في الجزيرة، والتي كان قد حاز بفضلها صيتاً واسعاً بين أشدّ الصيّادين شهرة. على أنّ سنّه الحقيقية كانت آنئذٍ تطغى على سنّه الظاهرة؛ إذ كان الصبيّ قد وضعَ بندقيّته أرضاً وأخذ يلهو متدحرجاً مع كلب ملغاشيّ ضخم، يبدو أنّه جيء به تحسّباً لجلب الإنجليز كلابَهم من فصيلة البولدوغ.

أمّا شقيق الصيّاد اليافع، أي الابن الثاني للرّجل ذي القامة الطويلة والهيئة المتواضعة؛ ذاك الذي يكمِل الزُّمرة التي شرعنا في وصفها، فقد كان صبياً في الثانية عشرة من عمره تقريباً، بيد أنّ هيئته النحيلة والبائسة لم تكن تضاهي في شيءٍ طول قامة أبيه أو بنية أخيه الذي يبدو كأنّما أخذ وحده العافيةَ التي كانت ستغدو من نصيبهما معاً. كما أنّ الصغير جورج كان يبدو على خلاف أخيه، الذي كان يدعى جاك، تماماً أصغرَ من سنّه الحقيقية بعامين؛ ولا غروَ في ذلك، إذ سبق أن أشرنا إلى أنّه كان ناحل العود وذا وجه شاحب هزيل وحزين يظلّله شعر طويل أسود. ولم يكن يمتلك إلّا قليلاً من تلك القوّة المشهود بها لسكّان المستعمرات: على أنّ

Twitter: @ketab_n

المرء كان يلحظ في نظرته القلقة والنفّاذة ذكاءً شديدَ الحدّة؛ وفي تقطيب الحاجبين المبكّر، والذي كان قد صار معروفاً به، قدرةً متّقدة على التّفكير وإرادةً شديدةَ الصلابة؛ حتّى أنّ المرء ليحار أنّى لإنسان أن يجمع في آن كلّ ذاك الهزال وتلك القوّة.

وإذ لم يكن يحمل أيّ سلاح فقد كان يقف لصق والده ممسكاً بكلّ ما أوتيت يده من بأسٍ بِعقبِ الغدّارة الجميلة الموشّاة، وينوس بعينيه المتّقدتين المنقّبتين بين والده وقائد الكتيبة، متسائلاً بلا ريبٍ عن السّبب الذي يجعل والده الذي يملك ضعف ثروة ذاك الرّجل وضعف بأسه وضعف حصافته، لا يملك أيّ علامةٍ مميّزة، أيّ إشارةٍ تشريف.

كان ثمّة أيضاً زنجيّ يرتدي قميصاً وسروالاً قصيراً من الجوخ الأزرق ينتظر، شأنه شأن الزّنجيّ الذي ينتظر الصبيّ ذا الياقة المطرّزة، أن تحين لحظة زحف الرّجال؛ ذاك أنّه بينما سيتّجه الأب والأخ الأكبر للقتال سيبقى الزنجي للعناية بالصبيّ.

ومنذ الصّباح كانت قد ارتفعت أصوات المدافع: فمنذ الصبّاح كان الجنرال فاندرمازن قد زحف، متبوعاً بنصف الحماية العسكريّة الثاني، بغية التصدّي للعدوّ ووقف زحفه عند شعاب «الجبل الطويل» وممرّ نهر «الجسر الأحمر» و«نهر اللاتانييه». وحقّاً، لقد انطلق منذ الصبّاح بعنفوان، لكنه لم يصطحب معه سوى ثمانمائة رجل وترك الباقين من جنود الحامية العسكرية والمتطوّعين الوطنيّين للذّود عن المدينة؛ إذ كان يخشى إن هو اصطحب كلّ قوّاته أن يكون قد توجّه للتّصدّي إلى هجوم مخادع، ويتسلّل الإنجليز في غفلة منه عبر نقطة أخرى إلى بور لويس. وقد نتج عن ذلك أنّ فرقته الصغيرة أُجبرت، بعد محاولات مقدامة، على التراجع شيئاً فشيئاً أمام جيش مكوّن من أربعةِ آلاف إنجليزيّ وألفين من الجنود

Twitter: @ketab_n

الهنود. وكلّما تراجعت إلى موضع تمسّكت به بكامل بأسها قبل أن تُضطّر بعد زمن يسير إلى التراجع أكثر فأكثر؛ حتّى أنّ المرء كان يستطيع انطلاقاً من ساحة الأسلحة، حيث وُضع العتاد، أن يحسب مساحة التقدّم التي يكسبها الإنجليز، وإن لم يكن يستطيع أن يرى ما يجري، معتمداً على صخب المدفعيّة المتنامي والذي كان يدنو رويداً رويداً؛ ولم يمض زمن طويل حتّى صار بالإمكان تمييز وقع أقدام الفرسان الملكيّين وسطَ ضجيج المركبات الضّخمة. بيد أنّه ينبغي الاعتراف بأنّ ذاك الصّخب بدل أن يُرعِب حُماةَ بور لويس، الذين ظلوا ساكنين في مواضعهم كما أمرَ الجنرال، لم يعمل سوى على شحذ هممهم أكثر فأكثر. حتّى أنّه في الوقت الذي كان فيه عساكر الخطّ، عبيدِ النّظام، يكتفون بعضِّ شفاههم أو يمسحون على شواربهم، كان المتطوّعون الوطنيّون يحرّكون أسلحتهم ويهمسون بأصوات مسموعة مُعلنين أنّهم في حالِ ما إذا تأخر الأمر بالزّحف أكثر من ذلك، سيتركون الصّفوف ويتقدّمون لمواجهة المدفعيّين.

وفي تلك الأثناء سُمع قرعُ الإنذار. وفي الآن نفسه وصل أحد معاوني المعسكر على صهوة جوادٍ راكضٍ، ودون حتّى أن يدخل السّاحة رفع قبّعته إشارة للنّداء، وصاح من أعلى الزّقاق:

- تخندقوا، العدوّ وصل!

ثمّ انصرف بالسرعة نفسها التي أتى بها.

وفوراً قُرعت طبول كتيبة الخطّ، وسوّى الجنود صفوفهم بالسّرعة والدّقة المعهودين، وتقدّموا بخطىً حثيثة.

ومهما يكن من مبلغ التنافس بين المتطوّعين وعساكر الخطّ، ما كان الفريق الأوّل ليقدر على مجاراة سرعة مشية الثّاني؛ فقد مرّت لحظات قبل أن تنتظم الصّفوف. وإذ انتظمت الصّفوف انطلق بعضُهم بقدمه

Twitter: @ketab_n

اليمنى بينما انطلق الآخرون باليسرى، فكانت ثمّة لحظة بلبلة اضطرّتهم للتوقّف.

وفي تلك الأثناء، لمح الرّجل طويلُ القامةِ ذو الغدّارة الموشّاة مكاناً شاغراً في صفّ المتطوّعين، فقبّل أصغرَ ولديْه ثمّ ألقى به بين ذراعيّ الزنجيّ ذي السترة الزّرقاء، وركض برفقة ابنه الأكبر ليشغل بتواضعٍ المكان الشاغر الذي خلّفه سوء تنظيم المتطوّعين.

لكن ما إن اقترب ذانك المنبوذان من الصّف حتّى ابتعد جارهما عن اليمين وجارهما عن الشّمال، وحذا حذوَهما الباقون إلى أن ألفى الرّجل ذو القامة الطويلة وابنه نفسيهما وسطَ دائرة صارت تبتعد عنهما، مثلما تبتعد عن الحجر الدوائرُ التي يخلّفها سقوطه في الماء.

ولاحظ الرّجل ذو الكِتفيّتَين اللّتين عليهما شارة القائد، وقد كان سوّى للتوّ بشقّ الأنفس صفّه الأماميّ، أقول لاحظ الفوضى التي تجتاح الصّف الثالث؛ فارتفع على أصابع قدميه، وصرخ مخاطباً أولئك الذين صدرت عنهم الحركة الفريدة التي وصفناها قبل قليل:

- عودوا إلى الصّف، أيّها السّادة، عودوا إلى الصّف!

بيد أنّ الأمر الذي نطقَ هو به مرّتين، وبلهجة لا تحتمل الرّد، لم يلقَ سوى صيحة ردّ واحدة:

- لا مكان للمُوَلَّدين بيننا! لا مكان!

كانت صيحةً بالإجماع، صيحة شاملة مدوّية، ردّدها الفيلق بأكمله كالصّدى.

فأدرك الضّابط حينئذٍ سببَ الفوضى، ولمحَ وسط حلقة واسعة مولَّداً لا يزال يحمل سلاحه، بينما ابنه البكر تراجع مضرّجاً بحُمرة الغضب خطوتين إلى الوراء، وافترق عن أولئك الذين كانوا يدفعونه.

Twitter: @ketab_n

وإذ لمح قائد الفيلق ذلك شقّ طريقه بين الصفيّن الأوّلين واتّجه رأساً صوب ذاك الوقح الذي سمح لنفسه، وهو الرّجل الملوّن، بأن يختلط بالرّجال البيض. وإذ صار قبالته مسحه من قمّة رأسه إلى أخمص قدميه بنظرات تقطر احتقاراً؛ وإذ لم يتزحزح المولّد من موضعه وظلّ ثابتاً كالعمود، قال له:

- حسناً، يا سيد بيار مونييه، أوَ لم يخبرك أحدٌ، وهل ينبغي أن نعيد الأمرَ مرّة أخرى على أسماعك، أنّك مكانك ليس هنا، وأنّك غير مرغوب فيك؟

لو أنّ بيار مونييه هبط بيده القويّة المتينة على الرّجل الغليظ الذي يكلمّه بذاك الأسلوب، لسحقه فوراً. بيد أنّه لم يفعل شيئاً من ذلك، ولا نبس بكلمة، وإنّما رفع رأسه مرتعباً، وإذ التقت عيناه بعيني مخاطبه أشاحهما بذلّ، ممّا أجّج غضب الرّجل الغليظ وزاد من كبريائه. فقال له وهو يدفعه بباطن كفّه:

- قل لي! ما الذي تفعله هنا؟

- كنت آملُ في أنّ يوماً مثل هذا سيشهد امّحاء الفوارق بين الألوانِ أمام الخطر المشترك.

ردّ الرّجل الغليظ بصوت هادرٍ هازّاً كتفيه:

- كنت تأملُ! كنتَ تأملُ! ومَن ذا الذي منحك هذا الأمل، قُل لي من فضلك؟

- رغبتي في أن أفديَ جزيرتنا بحياتي.

غمغم قائد الفيلق:

- جزيرتنا! جزيرتنا! لأنّ هؤلاء القوم يملكون مَزارع مثلنا، فإنّهم يخالون أنفسهم مُلاّكَ الجزيرة.

Twitter: @ketab_n

أجاب مونييه بصوت خجول:

- إنّ الجزيرة ليست ملكاً لنا بقدر ما هي لكم، لكن إذا ما أضعنا وقتنا في مثل هذه الأمور، فلن يمضيَ الكثير من الوقت حتّى تصير لا ملْكاً لكم ولا ملْكاً لنا.

صاح قائد الفيلق ضارباً الأرض بقدمه حتّى يفرض الصّمت بصوته وحركته:

- كفى! كفى! هل سجّلت اسمك في لوائح الحرس الوطنيّ؟
- كلّا، سيّدي، أنت على علم بالأمر، لأنّك أنت من رفض طلبي عندما تقدّمتُ للتّسجيل.
- حسناً، وماذا تريد الآن؟
- أريد موافقتكم عليّ كمتطوّع.
- مستحيل.
- ولِمَ هو مستحيل؟ آه! بعد إذنك يا سيّد ماليدي...

كرّر القائد رفضه بعدما انتصب:

- مستحيل! إنّ هؤلاء الرّجال الذين هم تحت قيادتي لا يرغبون في وجود مولّد بينهم.

ردّد أعضاء الحرس الوطنيّ بصوت واحد:

- كلّا، لا نريد مولّدين بيننا! لا نريد مولّدين!
- لن يُسمح لي بالقتال إذن، سادتي؟ تساءل بيار مونييه بعدما أرخى ذراعيه علامةَ استسلامٍ، وحبس بصعوبةٍ دمعات كبيرة كانت تترقرق في عينيه.
- شَكِّل جيشاً من الرّجال الملوّنين وقُدهم بنفسك، أو التحق بصفّ السُّود اللّذين سيتبعوننا.

Twitter: @ketab_n

غمغم مونييه:

- ولكن..؟

ردّ السيّد دو ماليدي مشيحاً بوجهه:

- آمُرك بأن تترك الفيلق. آمرك!

قال صوتٌ صغير يرتجف من الغضب:

- فلتأت يا أبتِ، أترك هؤلاء الرّجال اللذين يهينونك. هيّا تعالَ...

وأحسّ مونييه بشخصٍ يجذبه بقوّة لدرجة أنّه تراجع خطوة إلى الوراء. فقال:

- حسناً يا جاك، حسناً، سأتبعك.

- لستُ جاك يا أبتِ، هذا أنا، جورج.

استدار مونييه مندهشاً.

وحقّاً كان الصّوت صوت الطّفل الذي ترك حضن الزنجيّ وجاءَ يُلقِّن أباه درسَ الكرامة ذاك.

أرخى بيار مونييه رأسه على صدره وأطلق زفرةً حارّة:

وأثناء ذلك كانت صفوف الحرس الوطني تعيد تنظيم نفسها، وعاد السيّد دو ماليدي إلى موقع القيادة في الصّف الأوّل، قبل أن ينطلق الفيلق حثيثَ الخُطى.

وبقيَ بيار مونييه وحيداً بين طفليْه اللّذين كان أحدهما أحمرَ كالجمر والآخر شاحباً كالموت.

ألقى نظرةً على حُمرة جاك وشحوبِ جورج، وأحسّ كأنّما تلك الحُمرة وذاك الشّحوب ينطويان على عتاب مضاعف:

- ما العمل، يا صغيريّ! إنّ الأمور تجري هكذا.

وكان جاك لا مبالياً وفيلسوفاً. وبالطّبع شقّت عليه المبادرة، بيد أنّ

Twitter: @ketab_n

بديهة التّفكير سرعانَ ما أسعفته وهدّأت من روعه. فأجاب والده وهو يفرقع أصابعه:

- حسناً! ما يضيرنا في أن يحتقرنا ذاك الرّجل الغليظ في نهاية المطاف؟ نحن أغنى منه مالاً، أوليسَ كذلك يا أبي؟ (ثمّ أضاف وهو ينظر ناحيةَ الصبيّ ذي الياقة المطرّزة) أمّا من جهتي يا أبي، فما إن تجمعني مناسبة التّنافس مع طفله هنري حتّى ألقّنه درساً لن ينساه.

ردّ بيار مونييه شاكراً ابنه البكرَ الذي خفّف بلامبالاته حدّةَ العار الذي لحق والده:

- يا صغيري الرّائع جاك!

ثمّ استدار شطرَ ابنه الثاني ليرى ما إذا كان هو أيضاً سيأخذ الأمرَ بنفس الفلسفة التي أخذه بها أخوه.

بيد أنّ جورج ظلّ صامتاً. وكلّ ما استطاع والده أن يستشفّه من هيئته الجليديّة لم يتجاوز طيفَ ابتسامةٍ خفيّة يُلمح على شفتيه. على أنّ الابتسامة، وإن كانت تكاد لا تُرى، فإنّها كانت تحمل أمارات الازدراء والشّفقة، حتّى أنّ بيار مونييه أجابَ مثلما يجيب المرء عادة على كلمات لم تُقل:

- لكن، ما الذي كنتَ تنتظر منّي أن أفعل، يا ربّاه؟

وكان ينتظر جوابَ الصبيّ، وقد أخذ به ذاك القلق المبهم الذي لا نعترف به بيننا وبين أنفسنا، ومع ذلك يأخذ بتلابيبنا حينَ ننتظر من شخص أصغر منّا ونحذره رغم أنفسنا، أن يبديَ رضاه عن مهمّة أتممناها.

لم يحر جورج جواباً؛ بيد أنّه وقد أدار بصره نحو أقصى السّاحة، قال:

- أبتِ، هم أولاء الزُّنوج هناك ينتظرون قائداً.

Twitter: @ketab_n

صاح جاك فرحاً:

- أنت مُحقٌّ يا جورج.

وكانَ قد تخفّف من إحساسه بالمهانة بفضل وعيه بقوّته. واتّبع، بلا ريب، التفكير ذاته الذي اتّبعه قيصر: أفْضلُ للمَرء أن يقود هؤلاءِ على أن يخضع لأولئك.

وتقدّم بيار مونييه، مدفوعاً بنصيحة أصغر ولدَيه وتحريضِ أكبرهما، نحو الزّنوج. وكان هؤلاء يتناقشون فيما بينهم عمّن سيتولّى قيادتهم؛ فما إن لمحوا الرّجّل الذي يقدّره كلّ الملوّنين في الجزيرة ويعتبرونه بمثابة أبٍ، حتّى التفّوا حوله كأنّما يلتفون حول قائدهم الطبيعيّ، وترجوّه أن يقودهم في المعركة.

إذ ذاك طرأ تحوّل عجيب على الرّجل. لقد اختفى الإحساس بالنقص، الذي ما كان ليستطيع مجاوزته أمام البِيض، ليحلّ محلّه إحساس بعلوّ قدره: انتصبت قامته الطويلة، وتلك العينان اللّتان ظلّتا مخفضتين أو تائهتين على غير هدىً أمام نظرة السيّد دو مالميدي، تلك العينان صارتا تقذفان شرراً؛ والصّوت الذي كان يرتجف قبل قليل، اكتسى في تلك اللّحظة بصرامةٍ رهيبة؛ وبحركة مفعمة بطاقة نبيلة رمى غدّارته ذات الحزام على ظهره، وتقلّد سيفه ثمّ صاح باسطاً يده المتوتّرة شطرَ العدوّ:

- إلى الأمام!

ثمّ ألقى نظرة أخيرة على أصغر ولدَيه، الذي عهد به من جديدٍ إلى حماية الزّنجي ذي السّترة الزرقاء، والذي كان يضرب يداً بيدٍ، مفعماً بفرحٍ فخورٍ، ورحل مع فرقته الزنجيّة عبر زاوية الزقاق نفسه التي رحل عبرها فيلق الحرس الوطنيّ، صائحاً للمرّة الأخيرة بالزّنجي ذي السترة الزرقاء يوصيه بابنه:

Twitter: @ketab_n

- تليباك، اعتنِ بوَلدي!

كان خطّ الدّفاع ينقسم إلى ثلاثة أقسام. ثمّة إلى اليسار معقل فانفارون، الرّابض إلى جانب البحر والمسلّح بثمانية عشر مدفعاً؛ وفي الوسط التحصينات المُحاطة بأربع وعشرين قطعةً من سلاح القصف؛ ويميناً سَريّة المدفعيّة دُوما، المحميّة بستّة أفواه ناريّة لا غير.

وبعدما كان العدوّ قد زحف ثلاث مراتبَ باتّجاه النقاط الثّلاث المختلفة، ترك النّقطتين الأُوليَيْن مُقِرّاً بقوّتهما؛ وركّز جهوده على النقطة الثالثة، التي لم تكن فحسب أشد ضعفاً كما أسلفنا الذكر، وإنّما أيضاً لم يكن يحميها سوى المدفعيّين الفرنسيّين. على أنّ أولئك الشّبّان المولعين بالقتال، وبخلاف جميع التوقّعات، لم يرتعبوا لمرأى الكتلة الضخمة التي تتقدّم نحوهم بكامل النّظام الرّهيب الذي يُعرَف به الإنجليز؛ أقول لم يرتعبوا وإنّما ركضوا إلى مواقعهم وشرعوا في الاشتغال بدقّة وسرعة تحاكيان دقّة الجنود ذوي الخبرة وسرعتهم، وقصفوا قصفاً مركّزاً لدرجة أنّ فيلق العدوّ خال نفسه قد أخطأَ تقديرَ قوّة السَّريّة المدفعيّة وحنكة رجالها؛ لكنّهم لم يتوقّفوا عن التقدّم، إذ كلّما كانت تلك المدفعيّة قاتلةً كان أمراً مستعجلاً إخمادُ نيرانها. وإذّاك بلغت الفرقة اللّعينة منتهى الغضب، وعلى غرار حاوٍ يُنسي جمهورَه خدعةً مبهرةً بخدعة أخرى أشدّ إبهاراً منها، ضاعفت الفرقة ضرباتها، مُتْبِعةً القذائف المدفعيّة بالرّشاشات، والرّشاشات بالقذائف المدفعيّة، بسرعة كبيرة حتّى أنّ الفوضى بدأت تنتشر بين صفوف العدوّ. وفي الآن نفسه، وإذ صار الإنجليز على مرمى من البنادق، بدأ إطلاق الرّصاص بشكل مضبوط لدرجة أنّ العدو، وقد شهد الرصاص يقصف خطوطه ويحصد صفوفاً بأكملها، اضطّر إلى التراجع خطوة إلى الخلف.

Twitter: @ketab_n

وبأمرٍ من القائد الأعلى خرج فصيلُ جنود الخطّ والفيلقُ الوطنيُّ، وكانا قد اجتمعا عند النّقطة التي يطالها التّهديد. خرج أحدهما من اليسار والآخر من اليمين، وتقدّما بحرابٍ مُشهرة وخُطىً حثيثة صوب مناطق العدوّ، بينما السَّريّة المذهِلة لا تزالُ مستمرّة في قصفه رأساً: لقد أنجز الفيلق عمله بالدّقة المعهودة فيه، فانقضّ على الإنجليز وصنع ثغرة بين صفوفهم فارضاً عليهم المزيد من الفوضى. على أنّ الفيلق الوطنيّ بقيادة السيّد دو ماليدي، وقد وقع ضحيّة الثقة الزائدة بالنّفس أو لم يعرف كيف ينفّذ بدقّةٍ التعليمات الموجّهة له، بدلَ أن ينقضّ على الجانب الأيسر ويقوم بهجوم موازٍ للهجوم الذي يقوم به عساكر الخطّ، أقدم على خطوة خاطئة وألفى نفسه قبالة الإنجليز وجهاً لوجه. فاضطّرت السَّريّة إلى التوقّف عن إطلاق النّار، وإذ كانت نيرانها هي ما يرعب العدوّ، فإنّ العدوّ استعاد شجاعته بعدما وجد نفسه في مواجهة رجالٍ أقلّ عدداً منه، وهاجم محاربينا الذين، والحقّ يقال، تحمّلوا الصّدمة ولم يتراجعوا قيدَ خطوة. غير أنّ المقاومة لم تكن لتستمرّ أكثر من إمكان صمود أولئك الرّجال الشّجعان المحشورين ما بين عدوّ يتفوّق عليهم تنظيماً ويفوقهم عدداً بعشرة أضعاف، وبين السريّة التي أُجبرت على إسكات مدافعها حتّى لا تسحقهم هم أنفسهم. وظلّوا يفقدون في كلّ مرّة عدداً كبيراً من الرّجال إلى أن ألْفَوا أنفسهم مضطرّين إلى التراجع. ولم يمضِ وقت كثير حتّى تمكّن يمينُ الإنجليز من اختراق يسارِ مقاتلينا الذين، إذ كانوا على وشك أن يتمّ ابتلاعهم، ولقلّة خبرتهم، بدا عليهم كأنّما هُزموا. وفي الواقع، استمرّ الإنجليز في تقدّمهم المتنامي، وشأنَ مدٍّ بحريٍّ يرتفع كانوا على وشك أن يغمروا بأمواجهم جزيرةَ الرّجالِ تلك، حين انطلقت خلف العدوّ صيحات «عاشت فرنسا! عاشت فرنسا!»

Twitter: @ketab_n

وتبعت الصيحات طلقات بنادق رهيبة قبل أن تُفسِح المجالَ لصمتٍ أشدّ غموضاً ورهبةً من أيّ ضجيج.

سَرت موجةُ رعبٍ غريبة في صفوف العدوّ الخلفية وبلغ أثرها حتّى الصّفوف الأولى؛ لقد كانت البدلات الحمراء تنحني تحت طلقات البنادق الشّديدة مثلما تنحني السنابل الناضجة تحت منجل الحصّاد. لقد حان دورهم ليصيروا مُطوَّقين وليواجهوا يميناً ويساراً وفي الأمام في آنٍ معاً. بيد أنّ الإمداد الذي ظهر منذ حين لم يُكن يُمهلهم، إذ واصل الدّفع حتّى تمكّن بعد عشر دقائق وعبر فرجة دمويّة من أن يبلغ الفيلق التّعيس ويزيحه من أمامه. إذّاك، وقد شهِد الواصلون حديثاً تحقيق الهدف الذي رسموه لأنفسهم، أعادوا لمّ شملهم، واتّجهوا يساراً مشكّلين حلقة، وانقضّوا على العدوّ بكامل شراستهم. ومن جهته، نسخَ السيّد دو مالميدي حرفياً وبشكل غريزيّ الحركة ذاتها، ودفع بفيلقه إلى الحذو حذوَه بإتقان بالغ لدرجة أنّ السَّريَّة ما إن شهدت الحجاب ينكشف بينها وبين الهدف حتّى اشتعلت مجدّداً دون أن تضيع وقتاً، وانطلقت مُتمّمةً جهود الهجوم الثلاثيّ مطلقةً على العدوّ سيلاً رشّاشاً. وفي تلك اللّحظة قدّر الجميع أنّ النّصر يقف إلى جانب الفرنسيّين.

إذّاك ألقى السيّد دو مالميدي، وقد أحسّ بأن الخطر قد زالَ، نظرةً إلى محرّرِيه الذين كان قد عرفَهم لكنْ تردّد في أن يعترف بالأمر إذ شقّ عليه أن يصدّق أنّه مدينٌ بخلاصه إلى أولئك الرّجال. وحقّاً، كان المخلّصونَ هم أولئكَ الرّجال السّود، الذين يحتقرهم أيّما احتقار، وقد اقتفوا خطاه ولحقوا به في الوقت المناسب؛ وعلى رأس فرقة المخلِّصين كان بيار مونييه؛ بيار مونييه الذي رأى الإنجليز يديرون له ظهورهم، فأتى بصحبة ثلاثمائة رجلٍ وطعنهم من الخلف؛ بيار مونييه الذي بعدما رتّب

Twitter: @ketab_n

الهجوم بعبقرية جنرال، انخرط فيه بشجاعة جنديّ؛ والذي ألفى نفسه على أرض ليس يخشى فيها سوى الموت، فصار يحارب متقدّماً الجميع بقامة منتصبة ومنخرين مفتوحين وجبهة مرفوعة وشعْر في مهبّ الرّيح، وكان بكامل العنفوان والجسارة والمهابة! بيار مونييه، الذي يرتفع صوته من حين إلى آخر وسط ذاك الخليط مهيمناً على الضجيج كلّه ليصيح:

- إلى الأمام!

ثمّ، إذ يقتفي المقاتلون خطواته ويزدادون تقدّماً، وإذ تزداد الفوضى في اجتياح صفوف الإنجليز، كانت تتردّد في الأجواء الصيحات:

- إلى العَلَم! إلى العَلَم يا رفاق!

وشوهد مخترقاً جماعة إنجليز، تعثّر ثمّ قام مجدّداً، ثمّ اختفى بين الصّفوف وبعد لحظة عاد للظهور بملابس ممزّقة وجبهة دامية، حاملاً العلم بيده.

في تلك اللّحظة، وإذ خشي الجنرال أن تدفع الحماسة الرّجال إلى التوغّل بعيداً في مطاردة الإنجليز، فيقعوا في فخّ، أصدرَ أمرَه بالتوّقف. وكان عساكر الخطّ أول من نفذّ الأمر، جرُّوا أسراهم فيما حمل الحرسُ الوطنيّ الموتى؛ وختم السُّود المتطوّعون المسيرة حاملين علَمهم.

ركضت المدينة كلّها إلى الميناء، وكان الجميع يتجمهرون ويحثّون خطاهم للقاء المنتصرين، ذاك أنّ سكّان بور لويس لسذاجتهم كان يحسِبون أنّنا انتصرنا على جيش العدوّ بأكمله، ويظنّون أنّ الانجليز بعدما تمّ التصدّي لهم بتلك الشّراسة كلّها، لن يعاودوا الكَرّة. وما مرّ موكبٌ من المنتصرين إلّا وانطلقت الهتافات، كان الجميع فخورين، وكان الجميع منتصرين، ولم يعد بوسع أحد تمالك نفسه. لقد غمر القلوبَ فرحٌ لم يكُن منتظراً، أصبنا حظاً ما كان يأملُ فيه أحدٌ؛ إذ أنّ الأهاليَ كانوا

Twitter: @ketab_n

يتوقّعون المقاومةَ لا النّصرَ. لذا حين أُعلنَ النّصرُ أقسمَ الجميعُ رجالاً ونساءً، شيوخاً وأطفالاً، بصوتٍ واحدٍ أنّهم سيلتحقون بالخنادق وأنّهم سيضحّون بحياتهم، إن تطلّب الأمر، للدفاع عن جزيرتهم. وهو قسَمٌ رائعٌ ولا ريب، أدّاه كلّ واحد بنيّة الوفاء به، بيد أنّه لا يكادُ يساوي شيئاً إزّاء كتيبة أخرى، لو أمكن أن تأتي كتيبة أخرى!

على أنّه وسط ذاك التصفيق الجماعيّ لا شيءَ أثار الاهتمامَ قدْرَ العَلَم الإنجليزيّ وحاملِه. لقد كان بيار مونييه وغنيمته المتمثّلة في العلَم هما موضع عبارات الثناء والدّهشة التي لم تكن تتوقّف، والتي كان الزنّوج يردّون عليها بأصوات صارخة؛ بينما قائدهم، الذي استعاد سمتَ المولَّد المتواضع التي ألفناها فيه، يردّ على أسئلة الجميع بأدب واحتراز. أمّا جاك فقد كان يقف قريباً من المنتصر مستنداً إلى بندقيته ذات الطلقتين والتي لم تبقَ صامتةً أثناء المعركة وصارت حربتها تقطر دماً. كان الفتى يقف رافعاً رأسه راضياً، بينما أخوه جورج الذي أفلت من ذراعَي تليماك وأتى لملاقاة والده على المرفأ، فقد كان يشدّ بتشنّج قبضتيه القويّتين، ويحاول عبثاً أن يحبسَ في مقلتيه دموعَ الفرح التي كانَت تنزلُ رغماً عنه.

وعلى بعد خطوات من بيار مونييه لم يكن السيّد دو ماليدي، من جهته، يحتفظ بشعره مصفّفاً وبدلته مزرّرة مثلما كان لحظة الانطلاق، بل إنّ ربطة عنقه تمزّقت، وصدريّته تناثرت مِزقاً وصارت مغطّاةً بالعرق والغبار: وقد كان بدوره مُحاطاً بعائلته التي أتت تهنئه، بيد أنّ التّهانيَ التي كان يتلقّاها كانت من تلك التّهاني التي تقدّم لرجلٍ نجا من الخطر، وليسَ من تلك التي تقدّم لبطلٍ منتصر. ولذا، ففي خضمّ حفل القلق المؤثّر ذاك، كانَ يبدو مرتبكاً، وحتّى يحتفظ بوقاره ظلَّ يصيح بأعلى صوتِه أين اختفى ابنه وخادمه الزنجيّ المسمّى جوهرة، حينَ ظهرا معاً

Twitter: @ketab_n

واخترقا الجمعَ؛ هنري كي يرتمي في أحضان والده، وجوهرة كي يهنّئ سيّده.

وفي تلك اللّحظة أتى من يخبر بيار مونييه أنّ أحدَ الزُّنوج الذين حاربوا إلى جانبه، وكان قد أصيب إصابة مميتة ونُقل إلى بيته على الميناء، يحسّ أنّ أجله قد دنا ويريد رؤيته. فجال بيار مونييه ببصره باحثاً عن جاك حتّى يعهد إليه بالعلَم. بيد أنّ جاك كان قد لقيَ مجدّداً كلبه الملغاشيّ الذي جاء يهنّئه بدوره مثل الآخرين، فوضع بندقيته أرضاً وطغى الطفل فيه مرّة أخرى على الرّجل، فأخذ يتدحرج لاهياً مع كلبه على بعد خمسينَ خطوةً من والده. وإذ شهد جورج حيرةَ والده مدّ إليه يده قائلاً:

- هاتِ يا أبتِ، سأحتفظ لك به.

اِبتسم بيار مونييه، وإذ كان على يقين من أنّ لا أحد سيجرؤ على وضع يده على مغْنمه الثمين الذي وحده يملك حقّ التصرّف به، قبّلَ جورج على جبينه وأعطاه الرّاية التي استطاع الصبيّ بمشقّة أن يرفعها بعدما ثبّتها بيديه معاً على صدره، وانطلقَ الرّجلُ صوبَ المنزل الذي حُمِلَ إليه المتطوّع الشّجاع الذي كان احتضاره يستدعي حضورَه.

بقي جورج وحده، بيد أنّه كان يعلم بالفطرة أنّ كونه وحيداً لا يعني أنّه معزول: إنّ نصر الأب يحرسه، وبعَينٍ يملؤها الفخر كان يجيل بصرَه على الحشد الذي كان يحيط به. ثمّ إنّ تلك النظرة الممتلئة فخراً وقعت على نظرة الطفل ذي الياقة المطرّزة، فصارت مزدرية. كان الولد ذو الياقة المطرّزة ينظر إلى جورج نظرة غيرة، ويتساءل لمَ لم يغنم والده أيضاً علَماً. وبالطبع قاده التساؤل السّابق إلى القول في قرارة نفسه أنّه مادام لا يملك علَماً فينبغي إذن أن يسلبَ الآخرَ علَمَه. اقترب بعجرفة من جورج، الذي خمّن نيّته العدائية ولكنّه لم يتراجع خطوةً إلى الخلف، وقال له:

Twitter: @ketab_n

- أعطني هذا.
- ماذا تقصدُ بهذا؟
- هذه الرّاية.
- إنّها ليست رايتك. إنّها راية أبي.
- وفيمَ يهمنّي أنا ذلك؟ إنّي أريدها!
- لن تكون لك.

فمدّ الولد ذو الياقة المطرّزة يده ليمسك بعمود الرّاية، وهو ما لم يقابله جورج سوى بالعضّ على شفتيه وازدياد شحوبه والتراجع خطوة إلى الخلف. بيد أنّ تلك الخطوة إلى الخلف لم تزدْ هنري إلّا جرأةً، وهو الذي كان شأنَ جميع الأطفال المدلّلين، يحسبُ أنَ المرء يكفي أن يشتهيَ الشيء ليحصلَ عليه. تقدّم خطوتين، وحرص هذه المرّة على أن يمسك بعمود الرّاية جيّداً بيديه، وصرخ غاضباً جهدَ صوته الصّغير:

- قلت لك إنّي أريده.

فردّ عليه جورج وهو يدفعه بإحدى يديه، بينما اليد الأخرى لا تزال تضمّ إلى صدره العلم الذي غنمه والده:

- وأنا أقول لك إنّك لن تحصل عليه.

صرخ جورج:

- آه! أوَ تجرؤ على لمسي أيّها الخلاسيّ القذر؟ حسناً، سترى ما أنا فاعل.

وأخرج سيفه الصّغير من غمده، وقبل أن يتمكّن جورج من أخذ حذره، ضربه بأقصى قوّته على أعلى جبهته. تدفّق الدم فوراً من الجرح وسال على وجه الطّفل.

قال جورج ببرودٍ:

Twitter: @ketab_n

- أيّها الجبان!

أثارت الشّتيمة هنري فاستعدّ لمضاعفة هجومه، فإذا بجاك ينبري ويصير بقفزةٍ واحدةٍ لصق أخيه، ويوجّه للمعتدي لكمةً قويّةً أصابته في الوجه تماماً، فتدحرج على الأرض. ثمّ انقضّ جاك على السيف الذي أفلت من خصمه أثناء تعثّره، وكسره إلى ثلاثةِ أجزاء قبل أن يبصق عليه ويرمي بقاياه لهنري.

وحان دَور الصبيّ ذي الياقة المطرّزة ليحسّ بالدمّ يفيض على وجهه؛ على أنّ دمه سال بضربةِ يدٍ وليس بحدّ السّيف.

وقد حدثت تلك الواقعة بسرعة كبيرة، حتّى إنّه لم يسعف الوقت أحداً لتفاديها؛ لا السيّد دو ماليدي الذي كان منشغلاً كما رأينا بتلقّي تهاني ذويه، ولا بيار مونييه الذي كان خارجاً للتوّ من منزل الزّنجيّ المتوفّى منذ قليل. لم يأتيا حتّى وقعت الكارثة، فركضا معاً: بيار مونييه لاهثاً، منقبضَ الصّدر، مرتجفاً؛ والسيّد دو ماليدي محمرّاً غضباً ومختنقاً كبرياء.

اِلتقيا معاً أمام جورج. صرخ السيّد دو ماليدي بصوت مختنق:

- سيّدي، هل رأيت ما جرى؟

أجاب بيار مونييه:

- أجل للأسف! وصدِّقني، لو أنّي كنتُ هنا ما كنت لأتركَ أمراً كهذا يحدث.

صرخ السيّد دو ماليدي:

- المهمّ الآن، أنّ ابنك رفع يده فوق يدي. ابن مولّد واتته الجرأة على أن يضربَ ابن رجلٍ أبيض.

تمتم الرّجل المسكين قائلاً:

Twitter: @ketab_n

- إنّي آسف لما جرى يا سيّد دو ماليدي، وأقدّم إليك اعتذاراتي الصّادقة.

ردّ المستوطن المتكبّر وقامته تزداد انتصاباً مع ازدياد انحناء هامة محدّثه:

- اعتذاراتك، أوَ تحسبُ يا سيّدي أنّ اعتذاراتك تكفي؟

- ماذا بوسعي غيرها يا سيّدي؟

ردّ الرّجل، وقد أزعجه أن يكون هو من يقرّر التصرّف الذي يراضيه:

- ماذا بوسعك أن تفعل؟ ماذا بوسعك أن تفعل؟ بإمكانك أن تجلد هذا البئيس الذي ضرب ابني هنري.

قال جاك وهو يعيد حمل بندقيّته ذات الماسورتين وقد استعاد شخصيّة الرّجل:

- تجلدني، أنا؟ تعالَ إذن أنت نفسك يا سيّد دو ماليدي وحاول فقط أن تلمسني!

صرخ بيار مونييه:

- اُصمت يا جاك؛ اُصمت يا بُنيَّ!

قال جاك:

- آسف يا أبتِ، لكنّي محقّ، ولن أصمت. إنّ السيّد هنري ضرب أخي بسيفه، دون أن يمسّه أخي بشيء. وأنا ضربت بقبضة يدي السيّد هنري. النتيجة إذن هي أنّي على صواب، فيما السيّد هنري مخطئ.

صرخ بيار مونييه راكضاً نحو ابنه:

- اِبني ضُربَ بالسّيف؟ صغيري جورج ضربَ بالسّيف؟ جورج، ابني الحبيب؟ هل حقّاً جُرحتَ؟

Twitter: @ketab_n

ردّ جورج:

- لا بأسَ أبتِ، إنّها إصابة طفيفة.

صرخ بيار مونييه:

- كيفَ لا بأسَ؟ ولكنّ جبهتكَ مفتوحةٌ!

ثمّ استدار موجّهاً كلامه إلى السيّد دو ماليدي:

- أرأيت؟ جاك يقول الصّراحة؛ لقد كاد ابنك يقتل ولدي.

وإذ لم يجدْ السيّد دو ماليدي بُداً من الاعتراف بالواقعة، استدار شطرَ هنري وقال له:

- قل لي يا هنري، كيف حدث ما حدث؟

فردّ هنري:

- ولكنّها ليست غلطتي يا أبي، لقد أردت الحصول على العلَمِ لأحمله لك، فرفض هذا القبيح أن يعطينيه.

ساءلَ السيّدُ دو ماليدي جورج:

- ولَم لم تُرد إعطاءَ ابنيَ العلَمَ أيّها الصّغير المضحك!

- لأنّ هذا العلم، ليسَ علم ابنك، ولا علَمك؛ لأنّه علَمُ أبي.

اِستمرّ السيّد دو ماليدي في استقصاء الواقعة من ابنه:

- ثمّ؟

- ثمّ، إذ لم يرغب في إعطائيَ العلَمَ، حاولت افتكاكه منه، فأتى هذا الوحشيّ ولكمني على وجهي.

- هكذا إذن، هذا ما حدث؟

- أجل، يا أبي.

قال جاك:

- إنّه يكذب، فأنا لم ألكمه إلّا حين رأيت الدّم يسيل من رأس أخي.

Twitter: @ketab_n

لو لم يضرب أخي لما ضربته.

صاح السيّد دو ماليدي:

- صه، أيّها الحقير!

ثمّ تقدّم نحو جورج وقال له:

- هاتِ هذا العلَم.

لكنّ جورجِ بدل أن يذعن للأمر، تراجع مجدداً خطوةً إلى الوراء، وهو يضمّ العلَم إلى صدره بكلّ ما أوتيَ من قوّة.

كرّر السيّد دو ماليدي طلبَه بنبرةٍ وعيدٍ تشي بأنّه سيلجأ إلى الحلول المتطرّفة إن هو لم ينل مُرادَه:

- هاتِ العلَم!

قال بيار مونييه بصوت هامس:

- ولكن يا سيّدي، أنا من سلبَ الإنجليزَ العلَمَ.

- أعلمُ يا سيّدي، لكنّ لا يصحّ أن يُقال إنّ مُولَّداً بلغت به قلّة الأدب أن وقفَ ندّاً لرجلٍ مثلي. هيّا، أعطني العلَم.

- غير أنّه، يا سيّدي...

- إنّي أريده، إنّه أمر؛ هيّا نفذ أوامر ضابطك.

وهنا عنّت لبيار مونييه فكرةُ أن يقول: «ولكنّك لست ضابطي يا سيّدي، ما دمت رفضت أن أكون من جنودك». لكنّ الكلمات تلاشت على شفتيه؛ اِنتصرَ إحساسه بالذّل المعتاد على شجاعته. تنهّد؛ ثمّ، برغم ما سبّبه الإذعان للأمر من ألم لقلبه، أخذ بنفسه العلَم من بين يدَيّ جورج الذي كفّ عن إبداء أيّ مقاومة، وسلّمه بنفسه لقائد الفيلق، الذي ابتعدَ حاملاً الجائزة المنهوبة.

إنّه لأمر لا يُصدَّق، أمرٌ غريبٌ ومثيرٌ للشّفقة أن يرى المرءُ كيف أنّ

Twitter: @ketab_n

طبيعةً بشريةً بمثِلِ هذا الثراء وهذه القوّة وهذه الحصافة تخضع دون مقاومةٍ تُذكَر لتلك الطبيعة البشريّة الأُخرى الشّديدة السّطحيّة والبؤس والفقر والعوز! بيد أنّ الأمر كان كذلك، لا بل إنّ ما يزيد العجبَ هو أنّ الأمرَ ما كان يدهش أحداً؛ فذاك ما كانت تشهده المستعمرات يوميّاً في وضعيّاتٍ مختلفةٍ، مشابهةٍ للوضعيّة التي نَصِفُ: فإذ تربّى بيار مونييه منذ طفولته على احترام الرّجال البِيض بوصفهم جماعةً أرقى، تركَ نفسه تنسحق طيلة حياته تحتَ نير تلك الأرستقراطية المؤسَّسة على لون البشرة التي امتثل لها منذ قليل، دون أن يُبدي أدنى مقاومة. يحدث أن يصادف المرء أحد أولئك الأبطال الذين يرفعون رؤوسهم أمام قصف المدافع، ويثنون ركبَهم أمام الأحكام المسبقة؛ يحدث أيضاً، بحسبِ ما يُروى، أن يفتك الأسد بالإنسان، صورةِ الله على الأرض، ويفرّ مرتعباً إذا ما سمع صياح الدّيك.

أمّا جورج الذي لم يذرف دمعة واحدة حين أدماه السّيف، فقد استسلم للبكاء والشّهيق ما إن ألفى يدَيْه صِفْراً من الرّاية أمام والده الذي كان ينظر إليه بحزن دون حتّى أن يحاول مواساتَه. في حين كان جاك يعضّ قبضتيه غضباً ويقسم أنّه سينتقم يوماً ما من هنري ومن السيّد دو ماليدي ومن كلّ الرّجال البيض.

ولم تكد تمرّ عشر دقائق على الواقعة التي سردناها لتوّنا، حتّى وصل رسول معفّر بالغبار ليُعلنَ أنّ عشرة آلاف من الإنجليز كانوا يهبطون عبرَ سهول وليامز والنّهر الصّغير؛ ثمّ، في اللّحظة نفسها تقريباً، أعلن المرصاد الموضوع أعلى «تلّة الاكتشافات»، عن مَقدم أسطولٍ إنجليزيّ جديدٍ ألقى مرساتَه عند خليج النّهر الكبير وأنزلَ على السّاحل خمسة آلاف رجل. كما عُلِمَ في الآن نفسه أنّ الفيلق الذي تمّ التّصدي له صباحاً

Twitter: @ketab_n

قد أعاد لمّ صفوفه على ضفاف نهر اللاتانييه، وصار جاهزاً للزّحف مجدّداً على مدينة بور لويس، مُنسِّقاً تحرّكاته مع تحرّكات قوّتَي الغزو الأخريَين، اللّتين كانت إحداهما تتقدّم عبرَ جُوَّيْنِ كورتوا، بينما تتقدّم الأخرى من ناحية رِيدْوِي. وما كان ثمّة من سبيل لمقاومة قوّاتٍ بذاك الحجم؛ ولذا فحين ارتفعت بعض الأصوات اليائسة مطالبةً بالوفاء للقسم الذي أُدّيَ صباحاً والذي تعهّد الرّجال بموجبه على النّصر أو الموت؛ حين ارتفعت تلك الأصوات مناديةً بالقتال، ردّ القائد العامّ بتسريح الحرس الوطنيّ وجيش المتطوّعين، وإعلان أنّه بوصفه يتمتّع بكامل السّلطات التي خوّلها له جلالة الإمبراطور نابوليون، سيفاوض الإنجليز حول تسليمهم المدينة.

فقط الحمقى كانوا سيحاولون القتال في ظروف كهذه؛ خمسة وعشرون ألف رجل يطوّقون رجالاً لا يتجاوز عددهم أربعة آلاف؛ ولذا فما إن نطق القائد العام بقراره حتّى عاد الجميع إلى بيوتهم، بحيث صارت المدينة خالية إلّا من الفيلق النظاميّ.

وفي اللّيلة الفاصلة ما بين يومي 2 و3 ديسمبر/ كانون الأوّل حُرّرت اتفاقية الاستسلام وتمّ توقيعها. في الخامسة صباحاً تمّت الموافقة عليها وتمّ تبادلها؛ في اليوم نفسه احتلّ العدوّ خطوط القتال، وفي اليوم التّالي سيطرَ على المدينة وعلى المرفأ.

بعد ثمانية أيّام نشرَ الأسطول الفرنسيّ المحاصَر أشرعته وغادر محمّلاً بالسّارية العسكريّة كلّها، كأنّها عائلة بئيسة طردت من بيت الوالد. وحتّى اللّحظة التي كان لا يزال بالإمكان فيها مشاهدة رفرفة آخر علَم، بقي الحشد على رصيف الميناء. لكن ما إن اختفت آخر فرقاطة حتّى عاد الجميع إلى بيوتهم مقطّبين صامتين. ولم يبقَ على المرفأ سوى رجلين: بيار

Twitter: @ketab_n

مونييه والزّنجي تليماك.

- سيّدي مونييه، لنصعد إلى الأعلى هناك، إلى الجبل؛ هناك سيكون بمقدورنا رؤية سيّدَيّ الصغيرين جاك وجورج[1].

صاح بيار مونييه:

- أجل، إنّك مُحقّ عزيزي تليماك، فإن لم نستطع رؤيتهما فسنرى على الأقلّ البارجة التي تحملهما.

وانطلق بيار مونييه بسرعةِ شابّ، وتسلّق في برهةٍ «تلّة الاكتشافات»، وقد كانت المسافة أكبر من أن تسمح له برؤية ولديْه، لكنّه استطاع أن يتابع بعينيه من عليائه، أقلّه إلى أن هبط الظلامُ، الفرقاطةَ بِيلون التي كانت تحمل ولديه.

في الواقع، وبالرغم ممّا قد يسبّبه له الأمر من ألم، قرّر بيار مونييه أن يفترق عن ولديه ويرسلهما إلى فرنسا تحت حماية الجنرال الباسل دوكان. فرحل جاك وجورج إلى باريس بعدما أوصى بهما أبوهما اثنين أو ثلاثةً من أغنى أغنياءِ تجّارِ العاصمة، ممّن كان يرتبط هو بهم منذ زمنٍ طويلٍ بعلاقات عمل. سافر الفَتَيان إذن بدعوى إكمال دراستهما، بيد أنّ السّببَ الرئيس لسفرهما، كان هو الكراهية الظاهرة التي أبداها السيّد دو ماليدي تجاههما منذ يوم الواقعة؛ تلك الواقعة التي كان يرتجف لها الأب المسكين، لا سيّما وهو يعلم مزاجهما المألوف والذي سينتهيان عاجلاً أم آجلاً بالوقوع ضحيّته.

أمّا هنري، فقد كانت أمّه تحبّه إلى درجة أنّها لم تكن تستطيع على فراقه صبراً. ثمّ، ما الذي يحتاج أن يتعلّمه هو، اللّهم إلّا معرفة أنّ جميع النّاس الملوَّنين وُلدوا لاحترامه وتنفيذ أوامره؟

---

(1) قالها تليماك في النّص الأصليّ بفرنسيّة تشوبها لكنة الكريول.

Twitter: @ketab_n

وذاك، كما سبق أن رأينا، شيء يعرفه هنري أصلاً ولا يحتاج إلى أن يتعلّمه.

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع

أربع عشرة سنة بعد ما جرى

كان يوم عيد جزيرة موريس هو اليوم الذي شوهدت فيه باخرة أوروبيّة تنوي دخول الميناء. فإذ حُرموا زمناً طويلاً من حضور الأمّ، كان أغلب سكّان المستعمرة ينتظرون بفارغ الصّبر أخباراً عن الشّعوب والأهلِ والرّجال القاطنين في ما وراء البحر. كان الجميع يأملون في شيء ما؛ وما إن يُبصر أحدهُم سفينة البريد البحريّ، مهما يكن بعده عنها، حتّى يعلّق نظراته عليها ولا يحيد ببصره عنها، آملاً في أنّها تحمل إليه رسالةَ صديقٍ أو صورةَ صاحبةٍ، أو حتّى تحمل ذاك الصّديقَ أو تلك الصّاحبةَ نفسَها.

ذاك أنّ تلك الباخرة، التي تُعلَّق عليها كلّ تلك الآمال والرّغبات، كانت هي السلسلة العابرة التي تربط ما بين أوروبا وأفريقيا، والجسرَ الطائرَ المُلقى من عالم إلى عالم آخر. وعليه فما كان من خبر أسرع انتشاراً في الجزيرة من ذاك الذي ينطلَق من قمّة «تلّة الاكتشافات»، معلناً: «هناك باخرةٌ في الأفق».

قلتُ إنّ الخبر ينطلق من قمّة «تلّة الاكتشافات» لأنّ البواخر، في بحثها عن الرّيح الشّرقية، غالباً ما تُلفي نفسها مضطرّة إلى أن تمرّ من أمام الميناء الكبير، وتحاذي اليابسةَ من مسافة تقارب ثلاثة فراسخ أو أربعة، وتُجاوز قمّة «الوقواقات الأربعة»، ثمّ تتّخذ سبيلها بين «الجزيرة المنبسطة» و«جبل المرمى»، ثمّ بعد أن تقطع ذلك الممرّ ببضع ساعات،

Twitter: @ketab_n

تَبرُز عند مدخل بور لويس حيث يكون الأهالي قد اجتمعوا في حشد كبير منتظرين على الرّصيف وصولها بعدما أخطرتهم بقدومها الإشاراتُ التي سرت في الجزيرة قبل يوم.

وحسبَ ما أوردناه عن اللّهفة التي ينتظر بها الجميع في جزيرة موريس أخبارَ أوروبا، لن يأخذنا العجب من ذاك الهياج الذي سرى ذات صبيحة جميلة من صباحات أواخر فبراير 1824، في كلّ المواضع التي بوسع المرء أن يشهد عبرها دخولَ اللّايسستر إلى بور لويس، اللايسِستر تلك الفرقاطة الرّائعة ذات الثلاثة والثلاثين مدفعاً، والتي كان خبر وصولها قد ذاع منذ السّاعة الثانية من ظُهر اليوم السّابق.

وليسمح لنا القارئ بأن نعرّفه، أو بالأحرى نجدّد معرفته بشخصَين مرموقين مِن بين مَن كانت تحملهم الفرقاطة على متنها.

أحدهُما كانَ رجلاً أشقر الشّعر، أبيضَ البشرة، أزرق العينين، ذا ملامح عادية ومحيّا هادئ وقامة فوق المتوسّط بقليل؛ وما كان بوسع المرء أن يُقدّر سنّه بأكثر من ثلاثين أو اثنتين وثلاثين سنة، مع أنّ سنّه يفوق الأربعين. ولا شيء فيه كان ليثير الاهتمام للوهلة الأولى، على الرغم من أنّ الناظر إليه كان سيُقرّ بأنّ كلّ ما فيه كان حسنَ التّقويم. وإذا ما كنّا نملك الدّافع لتجاوز النظرة الأولى إلى التّدقيق في شخصه، فسننتبه إلى أنّه كان قصيرَ الأطراف، بديعَها، وهو ما يرى فيه الإنجليز علامةً على نقاء الأصل. وكان صوته صافياً وحازماً وبلا تردّد، لا بل يمكن القول إنّه لم يكن يملك أيّة موسيقى مميّزة. أمّا عيناه الزرقاوان الصافيتان، واللّتان بوسع من يعاشره في ظروف حياته الاعتيادية أن يفكّر في افتقادهما إلى شيء من التّعبير، تلك العينان كانتا تطلقان العنان لنظرة شفّافة، نظرة لا تتعلّق بشيء ولا يبدو أنّها تسعى لاستكناه شيء. على أنّه من حين لآخر

Twitter: @ketab_n

كان يرمش بعينيه مثل من أتعبته الشّمس، وبينما يرمش تفتر شفتاه قليلاً مبرزتين صفّين من الأسنان الصّغيرة الحسنة الانتظام والبيضاء كاللآلئ. وعندئذ يبدو أنّ تلك الحركة الصغيرة تسلب وجهه ذاك النزر القليل من التّعبير الذي يحوزه؛ لكنّنا إذا ما دقّقنا النّظر فسنلاحظ أنّ الأمر على خلاف ذلك تماماً، ففي تلك اللّحظة بالضبط تطلِق نظرتُه، عميقةً وخاطفةً، شعاعَ نارٍ من بين جفنيه المتقاربين، شعاعاً يسبر أغوار تفكير مخاطبه حتّى يشارفَ أعماق روحه. ومن يقابلونه للمرّة الأولى، يحسبونه في الغالب الأعمّ أحد البلداء؛ وكان صاحبنا على دراية بأنّ تلك هي الصّورة العامّة التي يكوّنها عنه ذوو النّفوس الضّحلة. وكان يستمتع بتركهم على عماهم، إمّا بدافع من اللامبالاة أو لأمرٍ ما في نفسه؛ لكن حين تأخذه الرّغبة أو يحين الوقت المناسب يبيّن لهم مدى خطأ تقديرهم. ذاك أنّ مظهرَ الرّجل الخادعَ كان يخفي روحاً ذات عمق متفرّد، تماماً مثلما يحدث أن تخفي بوصتان من الثلج هاويةً عمقها ألف قدم؛ ولذا فإنّ إحساسه بتفوّقه، الذي يكاد يكون كونيّاً، كان يدفعه إلى أنَ ينتظر متأنّياً فرصة النّصر. وعليه، فما إن يصادف فكراً معارِضاً لفكره، ويلفي في حامل ذاك الفكر ضراوة قمينة بأن تكون ندّاً لضراوته، حتّى يتشبّث بالحوار، الذي كان قد تركه قبلئذ ينفلت في جميع الاتجاهات، أقول يتشبّث به وتتّقد حيويّته شيئاً فشيئاً، ثمّ تفيض خارجه وتسمو أعلى ما يمكن؛ ذاك أنّ صوته الحادّ وبصره المتّقد يتناسبان تماماً وكلامَه المتيقّظ الصارم والمعبّر، كلامَه الجذّاب القاسي والمبهر الإيجابي في آن؛ وإذا لم تعرض له تلك الفرصة، فإنّه يضرب صفحاً عن الأمر، ويستمرّ في اتّخاذ مظهر الرّجل العاديّ في نظر من يحيطون به. وليسَ مردّ ذلك إلى أنّه كان ينقصه الاعتداد بالذّات، بل إنّه في بعض الأمور كان يدفع بكبريائه إلى

Twitter: @ketab_n

حدوده القصوى؛ وإنّما هي فقط طريقة في السلّوك، ارتضاها لنفسه وما كان لِيَحيدَ عنها أبداً. وكلّما حدث أن واجهه موقف عابث، أو فكرة خاطئة، أو غرور معبّر عنه بشكل سيّئ، أو أمرٌ سخيفٌ ما، أجابت رهافة فكره بلسانٍ باتر السخرية أو بشفتين تبتسمان تهكّماً؛ بيد أنّه يخنق فوراً ذلك التهكمّ الخارجيّ، وإذ لا يغدو بمقدوره السيطرة بتاتاً على سيل الازدراء ذاك، يخفي تحت رمش عينه المألوف الحركةَ المتهكّمة التي تكاد تنفلت رغماً عنه، مدركاً جيّداً أنّ أمثل الطرق للسمع والنّظر هي أن يُمثّل المرء دور الأعمى الأصمّ. وكان قد أراد، إتماماً لمشروعه، أن يبدوَ أيضاً معاقاً: بيد أنّ الأمر كان يتطلّب منه مواربة طويلة ومرهقة، فعدلَ عن ذلك.

أمّا الشخص الثاني فقد كان رجلاً أسمرَ، ذا بشرة شاحبة وشعر أسود طويل. وكانت عيناه الكبيرتان، المرسومتان بروعة والناعمتان كأفضل ما يكون، تخفيان خلف نعومتهما الظاهرة والتي لا ترجع سوى إلى انشغال ذهنه الدائم طبعاً صارماً يثير الناظرَ إليه من الوهلة الأولى. وإذ كان يتّصف بأندر ما يتّصف به البشر عادةً، حيث لم يكن يستمدّ بنيته من جسده وإنّما من قوّةٍ ذهنية، فإنّ عينيه كانتا تلمعان بلهيب داخليّ وترميان شرارات تبدو صادرة عن أعماق روحه. وعلى الرّغم من أنّ تقاسيم وجهه كانت واضحةً، إلّا أنّها كانت تفتقر إلى بعض التناغم؛ فجبهته كانت متّسقة وإن كانت تبدو قاسية ومربّعة الشّكل، ويعلوها أثر جرح طفيف لا يكاد يمكن تمييزه حين يكون الرّجل في حالاته الاعتيادية، لكن ما إن يصعد الدّم إلى وجهه حتّى يرتسم الجرحُ أبيضَ واضحاً. أمّا شاربه، الأسود سوادَ شعرِه والمتّسق اتّساقَ حاجبيه، فقد كان يظلّل ويخفي في آنٍ كِبَر فمه ذي الشّفتين الغليظتين والأسنان الرّائعة.

Twitter: @ketab_n

وكان المظهر العام لهيئته يبدو قاسياً: فمن تجاعيد جبينه، وتقطيب حاجبيه الذي يكاد يكون دائماً، وعادات ملامحه القاسية، بوسع المرء أن يستشّف تأمّلاً عميقاً وإرادةً راسخة. ولذا فبِخلاف رفيقه ذي الملامح المبهمة، الذي كان يبدو في سنّ الثلاثين أو الثانية والثلاثين مع أنّه في الأربعين من عمره، أقول إنّه بخلاف رفيقه ذاك، ما كان صاحبنا يتجاوز الخمس وعشرين سنة، لكنّه يبدو في سنّ الثلاثين. أمّا في ما يخصّ باقي صفاته فقد كان ذا قامة متوسّطة، لكن حسنة الاستواء؛ وأطرافه ثقيلة شيئاً ما، لكنّ الناظر إليها كان يشعر أنّها ما إن يحرّكها انفعالٌ ما، حتّى تلمح ضغطاً عصبيّاً عنيفاً يحلّ فيها محلّ القوّة. وبالمقابل ندرك أنّ الطبيعة قد منحته من السّداد والرّشاقة أكثر بكثير ممّا حرمته من الغلظة والبأس. عدا ذلك، كانَ يرتدي، في تلك اللحظة، سِروالاً وصدرة وسترة طويلة من نوع الرودنغوت يشي شكلها بأنّها قد أُبدِعت على يد أمهر خيّاطي باريس، وفوق زرّ تلك السترة ضمَّ شرائطَ وسام جوقة الشّرف وشرائط شارل الثالث، وعقَدَها بلامبالاة أنيقة.

كان الرّجلان قد التقيا على متن اللايسستر، أحدهما ركبها من بورتسموث بينما استقلّها الآخر من قادس. ومن أوّل نظرة عرفا أنّهما قد سبق أن التقيا في واحد من تلك الصالونات التي تُقام في لندن وباريس والتي بوسع المرء أن يصادف فيها الجميع؛ فتبادلا تحيّة المَعارف القدامى، لكن دون أن يبادرا في البداية إلى الحديث؛ ذاك أنّهما إذ لم يتمّ تقديم أحدهما إلى الآخر ولا مرّة، فقد لجما نفسيهما بلجام ذاك التّحفظ الأرستقراطيّ الذي يمنع المرء من أن يخرق، حتّى في مواقف الحياة الشبيهة بهذه، قواعد اللّياقة العامّة. على أنّ عزلة البحر وضيق المساحة التي كانا يلتقيان فيها كلّ يوم، إضافة إلى الانجذاب الطبيعيّ الذي كان اثنان من علية القوم

Twitter: @ketab_n

يحسّ به كلّ واحد منهما غريزياً تجاه الآخر؛ كلّ تلك العوامل انتهت إلى التقريب بين الرّجلين؛ بدءًا بتبادل عباراتٍ لا معنى لها، ثمّ شيئاً فشيئاً صارت أحاديثهما تشتدّ كثافة. ولم تكد تمضِ أيّام معدودة حتّى أيقن كلّ واحد منهما بأنّه في صحبة رجل راقٍ، وهنّأ نفسه على فوزه بمثل ذاك اللّقاء في رحلة تتجاوز الثلاثة أشهر. وهكذا، فبعدَ تأنٍّ، صارا مرتبطين فيما بينهما بصداقة الصدفة التي، دون أن تكون لها جذور في الماضي، صارت سَلواهما في الحاضر، ولم تكن لتُلزمهما بشيء في المستقبل. وكان لديهما، إبّان أماسي الاستواء الطويلة وليالي المدارَين الجميلة، ما يكفي من الوقت ليدرس أحدهما الآخر. فخلصا معاً إلى أنّهما كانا قد استطاعا، إنْ دراسةً أو خبرةً، الإلمام بكلّ ما في وسع المرء أن يلمّ به من معارف في الفنّ والعلم والسّياسة. ظلّ الرّجلان إذن متقابلين طيلة الوقت، مثل مصارعين متعادلَين في القوّة؛ امتيازٌ واحدٌ فقط مُنح لأحدهما مقارنة بالآخر: ذاك أنّه في خضمّ العصف الذي كان يهزّ الفرقاطة، بعد أن جاوزت رأس الرّجاء الصّالح، والذي أصيب أثناءه قائد اللايسستر بعدما سقطت عليه صارية أحد الأشرعة، فحُمل مغشياً إلى مقصورته؛ وبينما كان صديقه مستلقياً على أرجوحته بسبب مرض خطير ألمّ به، أخذ الرّجل ذو الشّعر الأشقر مكبّر الصّوت وانطلق إلى كوثل السّفينة. وبصرامة رجلٍ دَرِبٍ على القيادة ومعرفةِ ملاّحٍ محنّكٍ، أصدر في اللّحظة نفسها سلسلة من التعليمات التي مكّنت الفَرقاطة من تفادي شدّة العاصفة. ثمّ إذ مرّت الريّح، استعاد وجهه هدوءه، بعدما كان قد أشرق للحظةٍ بذاك الفخر الجليل الذي يعلو جبين كلّ كائن بشريّ واجه إرادة خالقه. أمّا صوته الذي كان يصدح أعلى من هدير العاصفة وقصف الرّعد، فقد استعاد نبرته المعتادة؛ وفي آخر المطاف، وبقدر ما كانت أفعاله السابقة شعريّة

Twitter: @ketab_n

ومتكلّفة، كان فعله شديد البساطة وهو يعيد إلى نائب القيادة مكبّر الصّوت، ذاك المكبّر الذي يمكن اعتباره بمثابة صولجان قبطان الباخرة، والذي يمنح من يحمله صفة القائد المطلق للمركب.

وأثناء كلّ ما جرى كان رفيقه، الذي ما كان بالإمكان قراءة أيّ انفعال على صفحة وجهه، يتابعه بعينَي من يغبطه وهو مضطرّ إلى الاعتراف بدونيّته أمام ذاك الذي كان هو حتّى تلك اللّحظة يعتقد أنّه يساويه. ثمّ إذ زال الخطر وعاد إلى الجلوس جنبه، اكتفى بأن قال له:

- سبق لك إذن أن كنت قائد مركبٍ يا ميلورد[1]؟

أجاب الرّجل ببساطةِ الرّفيقَ الذي منحه تلك الرتبة الشرفيّة:

- أجل؛ حتّى أنّني بلغت رتبة كومودور، قبل أن أتحوّل إلى الدبلوماسية، لكن في ساعة الخطر، تذكّرت مهنتي السّابقة: وهذا كلّ ما في الأمر.

ثمّ لم يَعْرض بعد ذلك ما يجعل ذاك الأمر يطفو على سطح نقاش الرّجلين؛ على أنّه كان من الظاهر أنّ بداخل أصغرهما شيئاً من المهانة بسبب الإحساس بالنّقص الذي يعتريه من جرّاء التفوّق الذي حازه رفيقه بشكل غير متوقّع، والذي كان سيظلّ على جهله به لولا الحادث الذي أجبره نوعاً ما على استعادته وتحيينه.

ويُظهِر السؤال الذي نقلناه، والجواب الذي استتبعه، أنّ ذينك الرّجلين ما كانا قد تساءلا قطّ، إبّان الأشهر الثلاثة التي قضياها معاً، عن وضعيهما الاجتماعيّين الخاصّين. لقد تعارفا كأخوين في رجاحة العقل، وحسبهما ذاك. فقد كانا يعلمان أنّ مقصدَ سفرهما جزيرة موريس، ولم يتساءلا عن شيء أبعد من ذلك.

(1) لقب تكريمٍ إنجليزيّ.

Twitter: @ketab_n

عدا ذلك، كانا يبدوان معاً متلهّفين إلى بلوغ جزيرة موريس، إذ طلبا معاً إعلامهما حالَما تُلمح جزيرة موريس. وقد كان الطلبُ غير ذي جدوى بالنّسبة لأحدهما؛ نقصد الشابّ ذا الشّعر الأسود، الذي كان على سطح السفينة مسنداً ذراعيه إلى سياجها، حين أطلق الملاّح المسؤول عن المراقبة تلك الصّرخة التي دائماً ما تكون مدوّية حتّى بالنسبة لآذان البحّارة: «الأرض أمامنا!»

عند تلك الصّرخة، برز رفيقه من أعلى السلّم، واندفع نحو الشابّ، بخطوات أسرع من خطواته المعتادة، وأتى ليسند ذراعيه جنبه، قائلاً:

- وإذن يا ميلورد، ها نحن قد وصلنا؛ على الأقلّ إلى أن يثبت لنا الأمر؛ إذ أعترف من جهتي، مع ما يسبّبه لي الأمر من إحساس بالعار، أنّي لا ألمح إلّا شيئاً كالبخار الذي قد يكون ضباباً عائماً فوق الماء مثلما قد يكون جزيرة تضرب جذورها عميقاً في المحيط.

أجاب أكبر الرّجلين:

- أجل، إنّي لأتفهّم الأمر، فوحدها عين بحّار تستطيع أن تميّز بيقينٍ الماءَ من السّماء، والأرضَ من السُّحب، خصوصاً من مسافة مثل هذه؛ بيد أنّي، وأنا ابن البحر القديم، أرى جزيرتنا بكامل تضاريسها، لا بل أستطيع القول إنّي لأراها بكاملِ تفاصيلها.

- حسناً يا ميلورد!، هو ذا تفوّق آخر أعترف به لحضرتك؛ على أنّي أصْدقك القول، إنّ اعترافي بتفوّقك ذاك هو نفسه ما يدفعني إلى الاطمئنان إلى ما تقوله، وإلّا لكنت أرفض تصديقه ولاعتبرته من قبيل المحال.

أجابه البحّار:

- ضع هذا المنظار، بينما سأسعى أنا بعيني المجرّدة إلى أن أصف لك

Twitter: @ketab_n

السّاحل؛ هل ستصدّقني بعدها؟

أجاب الرّجل الشّكاك:

- أعلم يا ميلورد، أنّك رجل متفوّق على باقي الرّجال في كلّ شيء، لدرجة أنّي أصدّق كلّ ما تقوله دون أن تكون ثمّة حاجة إلى أن تدعّم أقوالك بحجج؛ وإذا ما أخذتُ المنظار الذي تناولني إيّاه، فلن يكون ذلك إشباعاً لرغبة الفضول، بقدر ما هو استجابة لحاجة قلبية.

قال الرّجل الأشقر ضاحكاً:

- حسناً، حسناً، أرى أنّ الأرض قد بدأت تفعل فعلها فيك، ها أنت ذا قد بدأت تكيل الإطراء.

- أنا، أكيل الإطراء يا ميلورد؟ أوه! حضرتك مخطئ. أقسم لك، أنّ اللايسستر قد تقْطع الأرض مرّات من القطب إلى القطب، وتلفّ العالم بأكمله أكثر من مرّة، قبل أن تشهد فيّ حدوث تغيير مماثل. لا، لست أداهنك يا ميلورد، وإنّما أنا فقط أشكرك على كلّ العناية التي خصصتني بها طيلة سفرنا الطويل، لا بل قد أذهب حدّ القول إنّي لأشكرك على الصداقة التي أنعمَ بها لطفُك على شخصٍ نكرةٍ مثلي.

ردّ الإنجليزي وهو يمدّ يده للشابّ:

- رفيقي العزيز، أحسبُ أنّه بالنسبة لك، كما بالنسبة لي، ليسَ ثمّة من نكرة في هذا العالم سوى الرّعاع، سوى العامّة والمحتالين؛ وآمل أيضاً، أنّه بالنسبة لأحدنا كما بالنسبة للآخر، كلّ رجل سام أتّى صادفناه، هو بمثابة أبٍ نعترف به كفرد من عائلتنا. وإذ قرّ بيننا الأمر، كفى مجاملات، يا صديقي؛ هيّا خذ هذا المنظار وانظر به، فنحن نتقدّم بسرعة، لدرجة

Twitter: @ketab_n

أنّه لن يمضي الكثير حتّى لا يعود ثمّة من فضل للعرْض الجغرافيّ الذي أنوي تقديمه.

أخذ الشابّ المنظار ووضعه على عينيه.

- أوَ ترى؟ سأله الانجليزي.

- أرى بوضوح. أجاب الشابّ.

- هل ترى أقصى اليمين، ذاك الشيء الأشبه ما يكون بمخروط معزول وسط البحر، هل ترى «الجزيرة المستديرة»؟

- على أفضل نحو.

- هل ترى، وأنت تقترب منّا، الجزيرة المنبسطة، والتي تمرّ أمامها في هذه اللّحظة سفينة من ذوات الصّاريتين، سفينة يبدو لي من انحناءتها أنّها سفينة حرب؟ هذا المساء سنكون حيث هي الآن، وسنمرّ من حيث مرّت.

وضع الشابّ المنظار، وحاول أن ينظر بعينه المجرّدة إلى تلك الأشياء التي كان رفيقه يستطيع تمييزها بيسر، بينما لا يكاد يستطيع هو رؤيتها، بواسطة منظار يحمله في يده؛ ثمّ بدرت منه ابتسامة دهشة وقال:

- إنّه لأمر معجزٌ!

أعاد المنظار إلى عينيه، بينما استمرّ رفيقه في الشّرح:

- هل ترى «جبل المزْمى»، الذي يكاد يتشابه على النّاظر من هنا، فيخلط بينه وبين «الرّأس الشقيّ» ذي الذكرى المفعمة شجناً والبالغة الشّعرية؟ وهل ترى «شعفة بامبو» التي ينتصب خلفها «جبل الخزف»؟ هل ترى «جبل الميناء الكبير»؟ وهناك، هل ترى «تلّة الكريوليّين»؟

- أجلْ، أجلْ، إنّي لأرى كلّ ذلك، وأتعرّف عليه، فكلّ تلك الجزر

Twitter: @ketab_n

وكلّ تلك القمم كانت قد ألفتْها طفولتي، واحتفظت بها بكلّ وفاء الذّكرى. لكن بالنسبة لك أنت (استطرد الشابّ وهو يجمع براحة يده قنوات المنظار الثلاث داخل بعضها البعض)، ليست هذه المرّة الأولى التي تزور فيها هذا السّاحل، ونصيب الذّاكرة في الوصف الذي قمت به يفوق نصيب المظهر الواقعيّ، أليس كذلك؟

أجاب الإنجليزي بابتسام:

- أجل، وإنّي لأرى أنّه ليس ثمّة من سبيل لخداعك. أجل، سبق لي أن رأيت هذا السّاحل! أجل، إنّي أنطلق قليلاً من الذاكرة في وصفي، ولو أنّ الذكريات التي تركها هذا السّاحل في نفسي هي على الأرجح أقلّ عذوبة من تلك التي خلَّفَها في خاطرك! أجل لقد أتيت من قبل إلى هنا، في زمن كنّا فيه على الأرجح عدوّين يا رفيقي العزيز، كان ذلك منذ أربع عشرة سنة.

أجاب الشابّ ذو الشعر الأسود:

- إنّ ذلك يوافق تماماً الفترة التي تركت فيها جزيرة موريس.

- أوَ كنت لا تزال هناك حين نشبت تلك المعركة البحرية في الميناء الكبير، والتي يمنعني كبرياء الانتماء من الحديث عنها، إذ هُزمنا فيها شرّ هزيمة؟

قاطعه الشابّ قائلاً:

- أوه! احكِ يا ميلورد، احكِ؛ فأنتم أيّها السّادة الإنجليز لفرط ما أخذتم بثأرتم، صار بإمكانكم الشعور بالفخر حين تعترفون بإحدى الهزائم.

- حسناً، لقد جئتُ الجزيرةَ آنئذ لأنّي كنت أخدم في سلاح البحرية.

- كنتَ ضابطَ صفٍّ بلا ريب؟

Twitter: @ketab_n

- بل كنتُ ملازماً، قائد فرقاطة سيّدي.
- عفوك ميلورد، لكنّك كنتَ لا تزال طفلاً آنئذ؟
- بكم تقدّر سنّي، سيّدي؟
- أحسب، تقريباً، أنّنا من السّن نفسها، وأنّك في الثلاثين من عمرك.

أجابه الإنجليزي باسماً:

- أنا على وشك الدّخول إلى سنّ الأربعين سيّدي، أوَ لم أقل لك إنّك اليوم في قمّة الإطراء.

إذّاك نظر الشابّ دهشاً إلى رفيقه، ودقّق فيه بانتباه أكثر ممّا فعل في الأيّام السّابقة، فأدرك من التجاعيد الخفيفة المرسومة عند جوانب عينيه وفمه أنّ سنّه قد تكون بالفعل كما يدّعي، على الرّغم من أنّه يبدو أصغر بكثير. ثمّ انصرف عن فحص مخاطبه إلى السؤال الذي طُرح عليه:

- بلى، بلى، أجل إنّي لأذكر تلك المعركة مثلما أذكر معركة أخرى نشبت في الجهة المقابلة من الجزيرة. أوَ تعرف بور لويس يا ميلورد؟
- كلّا يا سيّدي، لست أعرف غير هذا السّاحل. فقد أُصبتُ إصابةً بالغة في معركة بور لويس، ونُقلت إلى أوروبا كأسير. ومنذ ذلك الحين لم أرَ ثانيةً البحار الهندية، حيث سأُمضي بلا ريب إقامةً غير معروفة الأمد.

ثمّ، وكأنّما أيقظ فيهما الحديث الذي تبادلاه ذكريات حميمة، ابتعد كلّ واحد منهما عن الآخر بشكل آليّ، وانصرفا إلى الحلم في صمت؛ أحدهما إلى مقدّم السّفينة، والآخر إلى قمرة القيادة.

غداة تلك المحادثة فقط، وبعد اجتياز «جزيرة العنبر» والمرور في السّاعة المعلومة من أمام «الجزيرة المنبسطة»، دخلت فرقاطة اللايسستر، كما أشرنا إليه في بداية هذا الفصل، إلى مرسى بور لويس، وسط الهرج

Twitter: @ketab_n

المعتاد الذي يستقبل وصول كلّ سفينة أوروبية.

بيد أنّ الهرج هذه المرّة كان يفوق المعتاد، ذاك أنّ سلطات المستعمرة كانت تنتظر وصول حاكم الجزيرة الجديد، الذي ما إن جاوزت السّفينة «جزيرة صنّاع البراميل» حتّى صعد إلى سطحها مرتدياً بدلته العسكرية، بدلة الجنرال. وإذ ذاك فقط عرف الشابّ ذو الشّعر الأسود رتبَة رفيقِ سفره السيّاسية، بعدما لم يكن يعرف حتّى تلك اللّحظة سوى مكانته الأرستقراطية.

وبالفعل، لم يكن الإنجليزيّ ذو الشّعر الأشقر سوى اللّورد وليامز مورّيه، عضو المجلس الأعلى، والذي بعدما تنقّل بين الخدمة كبحّار وسفير، عُيّن حاكماً ممثّلاً لملكة بريطانيا على جزيرة موريس.

ندعو القارئ إذن إلى أن يستعيد في ذاكرته الملازمَ الشابّ، الذي سبق أن التقاه على متن فرقاطة النيرييد، حين كان مسجّى عند قدمَي عمّه النقيب ويلوغبي، وقد أصيب في جانبه بقذيفة مدفع رشّاش، والذي لم نعلن عن شفائه فحسب، وإنّما أيضاً أعلمنا القارئ بأنّه سيعود إلى الظهور كشخصية أساسية من شخصيات حكايتنا.

وحين همّ اللّورد مورّيه بالافتراق عن رفيقه، استدار شطره قائلاً:

- بالمناسبة سيّدي، سأقيم بعد ثلاثة أيّام وليمة كبيرة على شرف كبار المسؤولين في الجزيرة؛ أتمنّى أن تشرّفني بحضورك بين المدعوّين.

- لي كامل الشّرف يا ميلورد؛ لكن، هل تسمح لي قبل أن أقبل دعوتك بأن أعرّفك أيضاً بنفسي...

أجاب اللّورد مورّيه:

- ستفصح عن نفسك حين تدخل منزلي، وحينئذ سأعرف من أنت؛ في انتظار ذلك، أنا أعلم قيمتك، وحسْبي هذا.

Twitter: @ketab_n

ثمّ حيّا الحاكمُ الجديد رفيقَ سفره بيده وابتسامته، ونزل مع القبطان إلى قارب الشرف، وابتعد عن السفينة ذات الصّاريتين مدفوعاً بسرعة عشرة مجدّفين أشدّاء، ولم يمضِ الكثير حتّى لامس قاربه الأرض عند «نبع الكلب الرصاصيّ».

وفي تلك اللّحظة شرع الجنود، المنتظمون في صفوف الحرب، في عرض أسلحتهم، وأخذت الطبول تخفق في الحقول، ومدافع القلاع والفرقاطة تدوّي في الآن نفسه، ثمّ تجيبها مدافع باقي البوارج كالصدّى؛ ثمّ ارتفعت صيحات الجميع مردّدةً: «عاشَ اللّورد مورّيه!» مرحّبةً بالحاكم الجديد، الذي بعدما شكر بامتنانٍ أولئك الذين يستقبلونه ذاك الاستقبال المشرّف، أخذ طريقه صوب القصر محاطاً بكبار رجال الجزيرة.

على أنّ هؤلاء النّاس الذين كانوا يحتفلون بمقدم ممثّل جلالة الملكة البريطانية ويصفّقون لمقدمه، هم أنفسهم من كانوا يبكون فيما مضى رحيل الفرنسيّين؛ لكن لا ينبغي أن نغفل أنّ أربع عشرة سنة قد مرّت منذ ذاك العهد، ورحل الكثير من الجيل القديم، ولم يعد الجيل الجديد يحفظ في نفسه من أشياء الماضي سوى ما يتباهى به، مثلما يحتفظ المرء بميثاق عائليّ قديم. لقد مرّت أربع عشرة سنّة كما أسلفنا الذكر، وهي مدّة أكثر من كافية لينسى الصديق صديقه المتوفّى، أو لينكث المرء عهداً قطَعه؛ لا بل إنّها، في نهايةِ المطاف، أكثر من كافية لقتل رجلٍ ودفنِه ومحوِ ذكره، لا بل حتّى لإبادة أُمّة عن بكرة أبيها ودفنها ومحوِ أثرها.

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس

الابن الضالّ

شيّعت العيون جميعها اللّورد مورّيه حتّى بلغ مقرّ الحكم؛ لكن ما إن غُلّقت أبواب القصر خلْفه هو ومرافقيه، حتّى عادت العيون إلى التحديق بالبارجة.

وفي تلك اللّحظة نزل الشابّ الفاحم الشعر بدوره، فتعلّقت به العيون الفضولية التي كانت فارقت للتوّ اللّورد مورّيه. ففي الواقع، كان اللورد مورّيه قد شوهد وهو يحدّثه بلطف ويصافحه. لدرجة أنّ الجمع قرّروا، بحصافتهم المعهودة، أنّ ذاك الغريبَ كان أحدَ السّادة المنتمين إلى الأرستقراطية الفرنسية أو الإنجليزية الرّفيعة. وقد قطّعوا الشّك باليّقين حين لمحوا الشريطين اللّذين يزيّنان عُروَته، والذين ينبغي الإقرار بأنّ أحدهما كان أقلّ انتشاراً ممّا هو عليه الآن. عدا ذلك، فقد كان لسكّان بور لويس ما يكفي من الوقت لتفحّص الواصل الجديد؛ ذاك أنّه بعدما جاس في محيطه بعينيه، كأنّما هو يتوّقع أن يجد أحدَ آلِه أو أصدقائه على الرّصيف، وقف على شاطئ البحر، منتظراً أن يتمّ إنزال خيول الحاكم؛ ثمّ إذ تمّ الأمر، تبادل الغريبُ كلماتٍ بلسانٍ مجهولٍ مع خادم داكن البشرة يرتدي لباساً من ثياب المسلمين الأفارقة، فعمدَ الخادمُ إلى إسراج حصانين على الطريقة العربيّة، وجرّاهما معا من لجاميهما، إذ كانا لا يستطيعان بعدُ الوثوق بسيقانهما الخدرة. وكان الخادم يقتفي خطوات سيّده الذي كان قد اتّخذ طريقه مترّجلاً صوبَ الدّرب، دون أن يكفّ عن النّظر حواليه،

Twitter: @ketab_n

وكأنّما ينتظر أن ينبثق فجأةً من بين كلّ تلك الأوجه الغفْل وجهُ صديق.

وبين الزُّمَر التي كانت تنتظر وصول الغرباء في الموضع الذي يسمّى لشكله المميّز «قمّة الفكهِين»، كانت ثمّة زمرةٌ مكوّنة من رجلٍ غليظ، سنّه ما بين الخمسين والرّابعة والخمسين، شعره أجعد وملامح وجهه مبتذلة، وصوته مدوٍّ، وقد أرخى عارضَيه الحليقين في شكل قرنٍ حتّى بلغ كلّ واحد منهما إحدى حافّتي فمه؛ وفتىً بهيّ الطّلعة في الخامسة والعشرين أو السّادسة والعشرين من عمره؛ كان الرّجل يرتدي سترة طويلة من المرينوس البنيّ[1]، وسروالاً من النّنكين[2] وصدرية من المضرّب الأبيض[3]. وكانَ يضع ربطة عنقٍ مطرّزة وفوق صدره صدارٌ طويل مزيّن بالدانتيل. أمّا الفتى فقد كانت ملامحه أكثر دقّة من ملامح جاره، بيد أنّها كانت تشبهها إلى درجة لا يمكن معها سوى الجزم بأنّ ذينك الشّخصين تجمع بينهما أشدّ أواصر القرابة؛ وكانَ يعتمر قبّعة رمادية ويضع منديلاً حريرياً موضوعاً كيفما اتّفق حول عنقه، ويرتدي صدرية وسروالاً أبيضَيْن.

قال الرّجل الغليظ حين رأى الغريب المارّ على بعد خطوات من أمامه:

- هو ذا لعمري فتىً جميلٌ، وإذا ما كان ينوي قضاء إجازة على جزيرتنا، فسأوصي الأمّهات بحراسة بناتهنّ والأزواج بحراسة زوجاتهم.

وقال الفتى وهو يضع نظّارةً على عينه:

- هو ذا حصان جيّدٌ، نقيّ السلالة، فيه كلّ صفات الحصان العربيّ إن لم أخطئ التقدير.

---

(1) المرينوس نوع من الغنم الإسباني النّفيس الصّوف.

(2) النّنكين، قماش قطنيّ متين كان يصنع في نانكين (نانجينغ) بالصّين.

(3) نسيج قطنيّ أو حريريّ مضّلع تصنع منه الملابس.

Twitter: @ketab_n

سأل الرّجلُ الغليظ:

- هل تعرف هذا السيّد يا هنري؟

- كلّا يا أبي؛ لكن إن وافق على بيع حصانه، فإنّي أعرف من بوسعه إعطاءه ألفَ قرش.

أجاب الرّجل الغليظ:

- ومن بوسعه ذاك غير هنري دو مالميدي يا بنيّ؟ بوسعك إذن أن تشتريَ الحصان وتحقّق رغبتك إن كان يعجبك؛ فأنت ثريّ.

ولا ريب في أنّ الغريب قد سمع عرض السّيد هنري وموافقة والده، إذ اعتلت شفتيه مسحة ازدراء، وأخذ يحدّق بالتناوب بالأب وابنه بنظرات استخفاف لا تخلو من وعيد. ثمّ إنّه كان بلا ريب يعرف عن الرّجلين أكثر ممّا يعرفان عنه، فأكمل طريقه هامساً:

- هما مجدّداً! هما دائماً!

سأل السيّد دو مالميدي المحيطين به:

- علامَ يلومنا هذا الشابّ الأنيق؟

فأجابه هنري:

- لا علمَ لي يا أبي، لكنّي أعدك أنّني ما إن التقيه المرّة القادمة حتّى أسأله إن عاد إلى النظر إلينا بتلك الطريقة.

قال السيّد دو مالميدي وقد اتّخذ ملمح من يشفق على جهل الغريب:

- وماذا تنتظر يا هنري، إنّ الفتى المسكين لا يعرف من نحن.

ردّ هنري هامساً:

- حسناً، سأخبره بنفسي من نحن.

أثناء ذلك كان الغريب الذي أثارت نظراتُه المزدرية ذاك الحوارَ المتوّعد، يكمل طريقه شطرَ السّور غير آبه بما خلّفه مروره، ودون حتّى

Twitter: @ketab_n

أن يلتفت ليرى أثره. وإذ قطع ما يقرب من ثلث حديقة «الرّفقة الطيّبة» جذبت انتباهه زمرةٌ تشكّلت عند جسر صغير يربط ما بين الحديقة ومنزلٍ جميل، وفي وسط الزمرة كانت ثمّة فتاة جميلة في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمرها؛ وإذ كان الغريب رجل فنّ، وبالضرورة عاشقاً لكلّ جمالٍ، فقد توقّف ليراها بكلّ أناة. كانت الفتاة الواقفة عند عتبة بيتها تنتمي بلا ريب إلى إحدى أكثر العائلات ثراء في الجزيرة؛ وكانت بجانبها مربيّة أوروبيّة يشي شعرها الأشقر الطويل وبشرتها الشّفافة بأنّها إنجليزيّة، بالإضافة إلى زنجيّ مسنّ يرتدي سروالاً من البازان الأبيض، يقف إلى جوارها ولا يحيد ببصره عنها، ويبدو على أهبة الرّكض لتنفيذ أدنى أمر يصدر عنها. ولربّما وفقاً للمبدأ القائل إنّ الأشياء بضدّها تتبيّن، كان ذاك الجمال الذي وصفناه بالرّوعة يزداد توهّجاً إزاءَ بشاعة الشّخص الواقف جامداً قبالتها، والتي كانت تساومه على مروحة من تلك المراوح اليدويّة العاجيّة المجزّأة الشّفافة والهشّة كالدّانتيل.

كان مُخاطبها في الواقع شخصاً ذا جسم بارز العظام، وبشرة شاحبة، وعينين مشدودتين عند الجانبين، يعتمر قبّة قشّ عريضة تخرج منها عيّنة من شعره ما هي إلاّ ضفيرة طويلة تبلغ منتصف ظهره، وكان يرتدي سروالاً من القطن الأزرق ينزل حتّى منتصف ساقه، ووزرة من نفس لونِ السّروال ونسيجِه تنزلُ حتّى منتصف فخذيه. وعند قدميه كان قد وضع قصبة بامبو بطول قامته وقد علّق عند كلّ طرف من طرفيها سلّة. وحين كان التّاجر يضع ساق البامبو على كتفيه كانت تنطوي تحت ثقل السلّتين كقوس الرّماية. وكانت سلتّاه مليئتين بتلك الأشياء البخسة اللّا عدّ لها والتي، سواء في المستعمرات أو في فرنسا، في المحلاّت المتنقّلة لتجّار المناطق المدارية أو في المغازات الرّاقية، كمغازات ألفونس جيرو

Twitter: @ketab_n

وسوس، تُفقد الفتيات رشدهنّ، وأحياناً تخلب حتّى ألباب أمّهاتهنّ. على أنّ الكريولية الجميلة، وكما أسلفنا، لم يثر انتباهها من بين كلّ تلك العجائب المنثورة على بساط عند قدميها، سوى مروحةٍ نُقشت عليها صور منازل ومعابد وقصور لا نظير لها، وكلاب وأسود وطيور عجيبة؛ في المحصّلة كانت المروحة تحضن صورَ أناسٍ ومبانٍ وحيوانات لم توجد قطّ إلّا في المخيّلة الفكهة لسكان قوانتشو[1] وبكين.

كانت تسأل إذن بصراحة وبساطة عن ثمن المروحة.

وهنا مكمن العقبة الكأداء. فالصينيّ الذي كان قد وصل إلى الجزيرة منذ أيّام فقط، ما كان يعرف ولا كلمة واحدة بالفرنسية أو الإنجليزية أو الإيطالية، وهو ما يفسّر سكوته التّام أمام السؤال الذي طُرح عليه باللّغات الثلاث. لا بل إنّ جهله ذاك كان ذائعاً في المستعمرة لدرجة أنّ ابنَ ضفاف النّهر الأصفر ما كانَ يُنعتُ من طرف سكان بور لويس سوى بِاسم ميكو-ميكو، وهما الكلمتان الوحيدتان اللّتان كان ينطق بهما بينما يمرّ بين أزقة المدينة حاملاً ساق البامبو بسلّتيها على كتفه اليمنى حيناً وعلى اليسرى طوراً؛ وكانت الكلمتان تعنيان على الأرجح: اِشتروا، اِشتروا! وكلّ العلاقات التي نشأت حتّى تلك اللّحظة بين ميكو-ميكو وبين زبائنه كانت ثمرة الإشارات والإيماءات لا غير. وبما أنّ الفتاة الجميلة لم يسبق أن سمحت لها الفرصة بأن تدرس دراسة معمّقة لغةَ القسّ دو ليبيه[2]، فقد ألفت نفسها عاجزة تماماً عن فهم ما يقوله ميكو-ميكو أو إفهامِه ما تريد.

وتلك هي اللّحظة التي دنا فيها منها الغريب قائلاً:

(1) قوانتشو أو كوانغتشو أو غوانجو أو كانتون، مدينة صينية.

(2) القسّ شارل ميشل دو ليبيه L'abbé de l'Epée، رجل دين فرنسي ندين له بأول نظام متكامل للغة الصمّ والبكم.

Twitter: @ketab_n

- عفواً آنستي، إنّي لأرى المطبّ الواقعة أنت فيه، فهل تسمحين لي بأن أتجرّأ فأعرض عليك خدماتي: هل أستطيع مساعدتك بشيء؟ وهل تتكرمين وتقبلين بي مترجماً؟

أجابته المربّية بينما تورّدت وجنتا الفتاة بأبهى لون قرمزيّ:

- أوه يا سيّدي، إنّنا في أمسّ الحاجة لقبول عرضك؛ بيد أنّنا أنفقنا أنا والآنسة سارة عشر دقائق، واستنفدنا كلّ معارفنا اللغويّة دون أن نستطيع التّفاهم مع هذا الرّجل. لقد كلّمناه بالفرنسية والإنجليزية والإيطالية، ولم يردّ على أيّ لغة منها.

قالت الفتاة:

- لعلّ السيّد يعرف لغةً يفهمها هذا الرّجل يا مامي[1] هنرييت؛ وإنّي لراغبة حقّاً في الحصول على هذه المروحة، لدرجة أنّه إن استطاع أن يعرف ثمنها، فسيكون قد خدمني خدمةً كبيرة.

أجابتها مامي هنرييت:

- ولكنّ الأمر مستحيل، فهذا الرّجل لا يتكلّم أيّة لغة.

قال الغريب:

- يتكلّم على الأقل لغة البلد حيث وُلدَ.

- أجل، لكنّه ولد في الصّين؛ ومن ذا الذي يتكلّم اللّغة الصّينيّة.

اِبتسم الغريب ثمّ استدار شطْر التّاجر ووجّه إليه كلماتٍ بلغةٍ أجنبيّة. وعبثاً ستكون محاولتنا وصفَ تعابير الدّهشة التي ارتسمت على قسمات المسكين ميكو-ميكو وهو يسمع نبر لغته الأمّ يتردّد في أذنه مثل صدى موسيقى بعيدة. أسقط المروحة من يده ثمّ استدار بعينين جاحظتين وفم فاغر إلى ذاك الذي كلّمه منذ حين، وأخذ يده وقبّلها مرّات؛ ثمّ إذ

(1) تحريف أو إدغام لعبارة Mon amie («صديقتي»).

Twitter: @ketab_n

أعاد عليه الغريب السؤّال، قرّر أخيراً أن يجيبَ؛ بيدَ أنّ الأمر تمّ هذه المرّة بتعبير في النظرة ونبرة في الصوت يجمعان ما بين أشدّ أشكال التّباين التي يمكن تصوّرها؛ إذ بأشدّ التعابير عاطفيّةً وحناناً في العالم أخبره بثمن المروحة لا غير.

قال الغريب متوجهاً بكلامه إلى الفتاة:

- إنّ سعرها عشرون جنيهاً إسترلينياً يا آنستي؛ ما يعادل الثمانين قرشاً تقريباً.

أجابت سارة وقد توّردت وجنتاها مرّة أخرى:

- ألف شكر لك يا سيّدي!

ثمّ استدارت إلى مربّيتها وقالت لها بالإنجليزية:

- أوَ ليسَ أمراً مبهجاً كونُ هذا السيّد يتحدث لغةَ ذاك الرّجل يا مامي هنرييت؟

فأجابتها هنرييت:

- الأمر مدهش خصوصاً.

أجابهما الغريب باللّغة نفسها:

- ومع ذلك الأمرُ بسيط يا سيّدتيّ. لقد توفّيت أمّي ولم أكد أبلغ الثلاثة أشهر من العُمر، فعُهد بي إلى مرضعة مسكينة من جزيرة فورموزة[1] كانت تشتغل خادمةً عندنا، فكانت لغتها أوّل ما لهجتُ به؛ وعلى الرّغم من أنّي لم أجد الفرصة للحديث بها، إلّا أنّي احتفظت ببعض الكلمات، التي أهنّئ نفسي بها، إذ بفضلها استطعت تقديم هذه الخدمة البسيطة للآنسة.

ثمّ إنّ الشابّ دسّ في يد الرّجل الصيّني قطعة إسبانية من فئة الأربعة،

---

(1) الاسم القديم لجزيرة تايوان وكانت آنذاك لا تزال جزءاً من الإمبراطورية الصينية.

Twitter: @ketab_n

وأشار إلى خادمه بأن يتبعه، وانصرف بعدما حيّا الآنسة سارة ومامي هنرييت، بأليَق الطّرق.

تابع الغريب طريق موكا؛ لكن ما إن سار مسافة ميل على الطّريق المؤدية إلى أهراء القشّ، ووصل إلى سفح «تلّة الاكتشافات»، حتّى توقّف بغتةً وأخذ يحدّق بمصطبة مبنيّة لصق الجبل كان يجلس عليها شيخ في سكون تامّ وقد وضع يديه على ركبتيه وأخذ يحدّق بالبحر. لوهلة نظر الغريب إلى الشّيخ بارتياب، ثمّ ما لبث الارتياب أن انقلب إلى يقينٍ قاطعٍ فقال هامساً:

- يا إلهي، إنّه هو! كم تغيّر!

وبعدما تأملّ الشيّخَ للحظات أخرى وعلى وجهه تعبير اهتمام فريد، أخذ الشابّ طريقاً بإمكانها أن توصله إلى الشّيخ دون أن يُرى؛ ولحسن الحظّ كان له ما أراد، وإن توقّف مرّتين أو ثلاثاً في الطريق وضغط بيده على صدره كأنّما ليمنح انفعالاً كبيراً الوقتَ ليهدأ.

أمّا الشّيخ فلم تصدر عنه أدنى حركة لدى اقتراب الشابّ منه، حتّى أنّ بوسع المرء الاعتقاد بأنّه لم يسمع حتّى صوت اقتراب خطواته؛ وسيكون اعتقاداً خاطئاً، إذ ما إن استقرّ الفتى على المصطبة ذاتها حتّى استدار الشّيخ شطرَه وحيّاه بخجلٍ، قبل أن ينهض ويخطو بضع خطوات مبتعداً. فقال له الشابّ:

- أوه! لا تشغل بالك بي يا سيّدي.

فعاد الشيّخ إلى الجلوس، لكنّه لم يجلس في وسط المصطبة هذه المرّة، وإنّما في أقصاها.

فخيّم الصّمت لحظات ما بين الشّيخ، الذي استمرّ في تأملّ البحر، والغريب الذي يتأمّل الشّيخ. وأخيراً، بعد خمس دقائق من الصّمت

Twitter: @ketab_n

والتأمّل العميق، بادر الغريب إلى الكلام:

- سيّدي، لم تكن بلا ريب هنا، قبل حوالى ساعة ونصف، حين ألقت اللايسستر مراسيها في المرفأ؟

أجابه الشّيخ بصوت تختلط فيه المهانة بالدّهشة:

- اِعذرني سيّدي، لقد كنت هنا.

- وإذن سيّدي، لا تهمّك في شيء تلك البارجة القادمة من أوروبا؟

أجاب الشّيخ باندهاش أكبر:

- لَمَ يا سيّدي؟

- لأنّه لو كان وصولها يهمّك، لكنت نزلتَ إلى المرفأ مثل الجميع.

أجاب الشّيخ بحزن وهو يحني رأسه المشتعل شيباً:

- إنّك مخطئ يا سيّدي، إنّك مخطئ؛ يهمّني الأمر، يهمّني أكثر من أيّ واحد من أولئك. فمنذ أربع عشرة سنّة كلّما وصلت سفينة من السّفن، من أيّ بلد كان، آتي لأرى ما إذا كانت تحمل رسالة من رسائل ولديّ؛ أو ربّما تحمل ولديّ نفسهما. وبما أنّ الوقوف يتعبني، فإنّي آتي لأرقب من هنا، من المكان نفسه حيث رأيتهما يرحلان؛ وأبقى هنا إلى أن يحلّ المساء وينصرف الجميع ولا يظلّ ثمّة من أمل بالنسبة لي.

سأله الغريب:

- لكن لَمَ لا تنزل بنفسك حتّى المرفأ؟

- ذاك ما فعلت في السّنوات الأولى: لكنّي سريعاً ما كنت أعلم في المرفأ مآلَ انتظاري؛ وإذ تراكمتْ عليّ الخيبات وصارت كلّ واحدة أشقّ عليّ من سابقتها، انتهى بي المطاف إلى الجلوس منتظراً هنا، مُرسلاً زنجيّي تلبياك بدلاً عنّي. هكذا يطول أمد أملي؛ فإن

Twitter: @ketab_n

عاد الزّنجي سريعاً خلته يأتي مبشّراً بوصولها، وإن تأخّر ظننته ينتظر رسالة. لكنّه يعود في الغالب الأعمّ صفرَ اليدين. فأنهض وأعود وحيداً إلى بيتي الخالي، وهناك أقضي ليلتي في البكاء مُمنّياً نفسي: «في المرّة القادة سيصلني شيء بلا ريب».

قال الشابّ هامساً:

- يا للأب المسكين!

فسأله الشّيخ مندهشاً:

- هل تشفق لحالي يا سيّدي؟

فأجابه الشابّ:

- طبعاً أشفق لحالك.

- أنت لا تعرف إذن من أكون؟

- أنت إنسان، وأنت تعاني.

أجاب الشّيخ بصوت خافت يعلوه إحساس عميق بالمهانة:

- لكنّني موّلد.

علت جبين الشابّ حمرة عنيفة، وأجاب الشّيخ:

- ولكنّي أيضاً من المولَّدين.

صاح الشيخ:

- أنت؟

- أجل، أنا.

- أنت من المولَّدين، أنت يا سيّدي؟

ثمّ نظر الشّيخ باستغراب إلى الشريط الأزرق والأحمر المعقود عند عروة سترة الغريب، وقال:

- أنت مولَّد؟ إذن لا عجب في شفقتك عليّ. لقد ظننتك في البداية

Twitter: @ketab_n

رجلاً أبيضَ؛ لكن ما دمت من الملوّنين مثلي، فالأمر مختلف؛ أنت صديق، أخ.

قال الشابّ وهو يمدّ يده إلى الشّيخ:

- أجل، أنا صديق، أنا أخ.

ثمّ أضاف هامساً بصوت خافت ونظرة يملؤها حنان لا حدّ له:

- ولربّما كنتُ أكثر من ذلك.

اِستطرد الشّيخ:

- بوسعي إذن أن أخبرك بكلّ شيء. آه! أشعر بأنّ الحديث عن وجعي سيريحني. تخيّل يا سيّدي أنّ عندي، أو بالأحرى كان عندي، فالله وحده يعلم ما إذا كانا لا يزالان على قيد الحياة؛ تخيّل أنّه كان عندي ولدان، ولدان أحببتهما بكلّ عاطفة الأب، ولا سيّما واحدٌ منهما.

اِختلج الغريب وازداد اقتراباً من الشّيخ. فأكمل الشّيخ:

- تستغربُ الأمر أليس كذلك؟ تستغرب أن أميّز بين ولديّ وأن أفضّل أحدهما على الآخر؟ أجل، لا يحقّ لي ذلك، أعلم؛ أجل إنّه لأمر غير عادلٍ، أقرّ بذلك؛ لكنّه كان أصغرهما وأوْهَنَهما، وذاك عذري.

رفع الغريب يده إلى جبهته واستغلّ لحظةً استدار الشّيخ فيها شاعراً بالعار من اعترافه، ومسح دمعة. اِستأنف الشّيخ:

- آه لو أنّك عرفتهما، كنت ستفهم كلّ هذا. ليس لأنّ جورج -لقد كان اسمه جورج- قلت ليس لأنّ جورج كانَ أفضلهما، لا بل إنّ أخاه كانَ أفضل منه بكثير؛ وإنّما لأنّه كان يحمل في جسده الصّغير المسكين روحاً شديدة الذّكاء، شديدة الحدّة والصّرامة، إلى درجة أنّي لو كنت قد أدخلته إلى مدرسة بور لويس مع باقي التلاميذ،

Twitter: @ketab_n

لكان تفوّق عليهم جميعاً مع أنّ سنّه لم تكن تتجاوز اثنتي عشرة سنة.

لمعت عينا الشّيخ لحظة ببريق الفخر والزّهو؛ بيد أنّ ذاك التّغيير مرّ بسرعة البرق، وسرعان ما استعادت نظرتُه تعبيرها المبهم والحزين الكامد؛ ثمّ أضاف:

- لكنْ ما كان بوسعي أن أُدخله المدرسة هنا. البيض هم من أنشأوا المدرسة، ولسنا نحن سوى مولَّدين.

برقت سيماء الشابّ بدوره، ومرّ على وجهه ما يشبه شرارة ازدراء وحنق غاضب.

أكمل الشّيخ دون أن يلحظ التغيير الذي لحقَ بالغريب:

- لهذا أرسلتهما معاً إلى فرنسا، آملاً في أن يخفّف التعليم من المزاج الشارد لأكبرهما، ويروّض الطّبع العنيد لأصغرهما. لكنّ الله لم يكن راضياً على قراري، إذ استقلّ جاك سفينة قراصنة، أثناء سفر قام به إلى بريست، ومنذ ذلك الحين لم تصلني أخباره سوى ثلاث مرّات، وفي كلّ مرّة كانت تصلني من مكان ما من العالم؛ أمّا جورج فقد أرخى العنان لجرثومة العناد التي كانت تخيفني فيه. لقد كاتبني هو مرّات أكثر، حيناً من إنجلترا، وحيناً من مصر، إذ سافر هو أيضاً كثيراً. ومع أنّ رسائله كانت جميلةً للغاية إلّا أنّي لم أجرأ على أن أريها لأحد.

- لمْ يخبرك إذن أحد منهما عن موعد رجوعه؟

- كلّا، إطلاقاً. ومن يدري إن كنت سأراهما يوماً، إذ من جهتي، وإن كان يوم رجوعهما هو أجمل أيّام حياتي، لم أطلب منهما قطّ أن يرجعا. فما داما بقيا هناك، فإنّهما بلا ريبٍ أكثر سعادة ممّا كانا

Twitter: @ketab_n

سيكونان عليه هنا. وإن لم يشتاقا لرؤية والدهما، فلربّما وجدا في أوروبا أناساً أحبّاهما أكثر منه. ليكن الأمر كما شاءا، لا سيّما إذا ما كانت مشيئتهما ستقودهما إلى السّعادة. على أنّي وإن كنت أفتقدهما معاً، إلّا أنّ ما يوجعني فقدانه أكثر هو جورج، وهو من يؤلمني أكثر عدم إفصاحه بموعد رجوعه.

أجاب الغريب بصوت جاهد في أن يخنق التأثر الذي يعتمل فيه:

- إن لم يكن قد أخبرك بموعد رجوعه يا سيّدي، فلعلّل مردّ ذلك إلى أنّه يريد أن يعرف لذّة مفاجأتك، ويريد أن ينهيَ بالفرح يوماً من تلك الأيّام التي تبدؤها أنت بالانتظار.

قال الغريب وهو يرفع عينيه ويديه إلى السّماء:

- يا ربّ!

أكمل الغريب بصوتٍ ما فتئ يزداد تأثّراً:

- ولعلّه يريد أن يتسلّل إلى جوارك دون أن تعلم، وينعم بقربك وحبّك ورضاك.

- آه! مستحيل ألّا أعرفه.

صرخ الشابّ، إذ لم يعد يستطيع أن يقاوم أكثر ذلك الإحساسَ الذي كان يعتمل بداخله:

- ورغم ذلك لم تعرفني يا أبي!

صرخ الشّيخ قائلاً، وهو يمسح الغريبَ بنظرةٍ نهمة، بينما أطرافه ترتعد، وفمه فاغر يبتسم بريبة:

- حضرتك!... أنتَ!... أنت!..[1]

---

(1) يسجّل دوما هنا انتقالاً وجدانيّاً سريعاً من ضمير الجمع Vous، الذي يضع مسافة ما مع المخاطب، إلى ضمير المفرد toi، الأكثر حميمية. ونحسب أنّ الصيغة تؤدّي ذلك.

Twitter: @ketab_n

ثمّ أضاف وهو يهزّ رأسه:

- كلّا، كلّا، لست جورج، ثمّة شبه بينكما؛ لكنّه ليسَ في طولك أو حُسنك؛ هو ليس سوى طفلٍ، أمّا أنت فرجل.

- إنّه أنا، إنّه حقّاً أنا يا أبي؛ حاوِل تذكّري؛ حاول أن تدرك أنّ أربع عشرةَ سنةً مضت منذ آخر مرّة رأيتك فيها؛ فكّر في أنّ سنّي اليوم ستّ وعشرون سنةً، وإن لم تطمئّن نفسك، انظر، انظر، أَترى هذه النّدبة على جبيني، إنّها أثر الضربة التي تلقّيتها من السّيد دو مالميدي يوم غنمتَ الرّاية الإنجليزية بصورة مجيدة. أوه! افتح ذراعيك يا أبي، فحين ستقبّلني وتضمّني إلى قلبك ستطمئن إلى أنّي ابنك.

وإذّاك ارتمى الغريب على عنق الشّيخ، الذي ظلّ يرمقه طوراً ويحدّق بالسّماء تارةً، غير مصدّق مقدار السّعادة التي كانت تنهالُ عليه، والذي لم يُقدِم على تقبيل الشابّ الوسيم إلّا بعدما كرّر هذا على مسامعه عشرين مرّةً أنّه حقّاً جورج.

وفي تلك اللّحظة برزَ تليماك عند سفح الجبل، بذراعين متأرجحتين وعينين كئيبتين ووجه مقطّب، آسفاً من كونه عاد مرّة أخرى إلى سيّده دون أن يحمل معه خبراً عن أحد ولديه.

Twitter: @ketab_n

الفصل السّادس

التحوّل

والآن ينبغي لقرّائنا أن يسمحوا لنا بأن نترك الأب وابنه لفرح اللّقاء، وأن يعودوا معنا إلى الماضي، ويوافقوا على أن يتابعوا معنا التبدّل الجسديّ والذهنيّ الذي خضع له بطل حكايتنا على امتداد أربع عشرة سنةً؛ ذاك البطل الذي كنّا قد قدّمناه طفلاً، وها نحن نستعيده الآن شابّاً يافعاً.

لقد خطر ببالنا في البداية أن نعرض ببساطة أمام أعين القارئ السّردَ الذي خصّ به جورج والدَه عمّا عرض له طيلة الأربع عشرة سنةً تلك: لكنّنا فكّرنا في أنّ حكاية مثل هذه، حكايةً نسيجُها الأفكارُ الحميمية والأحاسيس الدّفينة، لا يمكن أن نعهد بسردها دون توجّس إلى رجلٍ يملك طبعاً مثل ذاك الذي يملكه جورج، لا سيّما عندما يكون موضوعُ الحكي هو جورج نفسه. اِرتأينا إذن أن نسرد بأنفسنا، وكما نريد، الحكايةَ التي نعلم تفاصيلها جميعها؛ واعدين القرّاء بأنّنا، نحن الذين لا تُلزمنا أيّة عاطفة شخصية في السّرد، لن نخفي أيّ إحساس، جيّداً كان أم سيّئاً، ولن نكتم أيّ خاطرةٍ، مشرّفةً كانت أم مخزية.

لننطلق إذن من النقطة نفسها التي شهدت انطلاق جورج.

كان بيار مونييه، الذي حاولنا رسم ملامح طبعِه، قد اتّخذ لنفسه، منذ أن دخل إلى الحياة العملية، أي منذ أن غادر الطّفولة والتحق بعالم الرّجال، أقول اتّخذ لنفسه قواعد سلوك تجاه البِيض، ما كان ليحيد أبداً عنها. فإذ لم يأنس في نفسه قطّ لا القدرة ولا الإرادة على أن يواجه مواجهةً

Twitter: @ketab_n

صريحةً ومبرمةً حُكماً مسبقاً مُلحِاً، فقد انتهى إلى أن يسلك سبيل تجريد خصومه من أسلحتهم بخضوعٍ لا يكلّ وتواضعٍ لا ينضب؛ لقد أوقف حياته بأكملها على الاعتذار عن خطيئة ولادته. وعلى الرّغم من ثروته وحصافة عقله لم يسعَ قطّ وراء وظيفة حكومية أو منصب سياسيّ، وإنّما أراد أن يتيه وسط الحشد؛ وتلك السياسة التي كانت تقصيه في الحياة العامّة هي نفسها التي كانت تيسّر خطاه في حياته الخاصة. فهو وإن كان بالفطرة كريم النّفس بَهِيَّها، فقد كان يدير شؤون منزله ببساطة رهبانية تماماً. لقد كان التّقشف سمةً غالبةً على منزله، حيث لا مظهر للفخامة، وإن كان يملك ما يقارب المائتي عبدٍ، وتلك في المستعمرات ثروةٌ تدرّ أكثر من مائتي ألف جنيه. وقد كان دائم التنّقل على ظهور الخيل إلى أن أجبره تقدّم السنّ، أو بالأحرى بسبب وطأة الحزن التي كسرته قبل أن يبلغ الشيخوخة، على أن يقتني هودجاً، كأبسط ما يكون الهودج الذي قد يمتلكه أفقر سكّان الجزيرة. ظلّ دَوماً حريصاً على تجنّب كلّ أسباب الخصام، ودَوماً مؤدّباً، ولطيفاً، وخدوماً مع الجميع، حتّى أولئك الذين كان يبغضهم من أعماق قلبه. كان يفضّل أن يخسر مائة فدّان من أرضه على أن يقيم دعوى في المحكمة أو حتّى يشهد بدعوى يكسب منها عشرينَ فدّاناً. وحين يحتاج أحد السكّان شتلةَ بُنٍّ أو منيهوت[1] أو قصبِ سكّرٍ، فالمؤكد أنّه سيجد ذلك عند بيار مونييه، الذي لن يكتفيَ بإعطائه ما يريد وإنّما سيشكره أيضاً لأنّه اختاره دون غيره. على أنّ كل تلك المساعي الحسنة التي كانت في العمق صادرةً عن طيبة قلبه، وإن كانت تبدو ثمرةَ طبعه الخجول، كلّ تلك المساعي قد أكسبته صداقة جيرانه بلا ريب، بيد

---

(1) شجرة لها جذور غليظة مستطيلة تُنتج منها مادّة غذائيّة، ويُستفاد منها في أفريقيا على نحو واسع لصناعة طحين بدلاً عن طحين القمح.

Twitter: @ketab_n

أنّ صداقتهم تلك كانت صداقة سلبية؛ صداقةَ مَن لن يفكّر البتّة في أن يبادر إلى منفعتك، لكنه أيضاً لن يسعى البتّة إلى إيذائك. كان ثمّة أيضاً أولئك الذين لم يستطيعوا أن يغفروا لبيار مونييه ثروته الضّخمة وكثرة عبيده وسيرته السّويّة، فلجؤوا إلى سحقه تحت نير الحُكم المسبق الذي يخضع له الرّجل الملوَّن. والسيّد دو ماليدي وابنه هنري كانا من أولئك.

لقد وُلد جورج في الظروف نفسها التي وُلد فيها والده؛ بيد أنّ ضعف بنيته دفع به إلى الابتعاد عن التمارين الجسديّة، والالتفات إلى فكره وسائر ملكاته الجوانيّة. وإذ نضج قبل أوانه، شأنه شأن جميع الأطفال العليلين، فقد استطاع أن يتابع غريزياً سلوك والده، الذي حدسَ هو دواعيَه منذ نعومة أظفاره. بيد أنّ الكبرياء الفحوليّة التي كانت تغلي في صدر الصبيّ جعلته ينظر بحقدٍ إلى البِيض الذين كانوا يحتقرونه، وبازدراءٍ إلى المولّدين الذين كانوا يتركون البيض يحتقرونهم. ولذا تراه اتّخذ لنفسه قواعد سلوك مغايرة تماماً لتلك التي اتّخذها والده؛ وحين كانت تسعفه القوّة كان يتقدّم بخطوات واثقةٍ جسورةٍ ليتصدّى إلى كلّ الآراء العبثيّة السّائدة، وإن لم ينفع الأمر واجهها بجسده، مثلما واجه هرقل أنتيوس، وخنقَها بين يديه. حين كان هنبعل شاباًّ أقسم، متأثّراً بوالده، على أن يمحض الكراهية الأزليّة أمّةً بأكملها؛ أمّا الصّغير جورج، فمُعارضاً سلوكَ والده، أقسم بأن يعلن الحربَ حتّى الموت على حكم مسبق.

لقد ترك جورج المستعمرة بعد الواقعة التي سبق أن حكيناها، ووصل إلى فرنسا برفقة أخيه، والتحق بمدرسة نابليون. وما إن جلس على مقعد الدّرجة الأخيرة حتّى أدرك الفرق بين الصّفوف، وأراد أن يصل إلى الصفّ الأوّل: لقد كان التّفوق بالنّسبة إليه ضرورة تنظيميّة؛ فتعلّم سريعاً وجيّداً. وحصّل أوّل نجاح فتأكّدت إرادته وعرف وزنَ

Twitter: @ketab_n

قوّته. تقوّت عزيمته فازدادت نجاحاته. كان ذاك المجهود الذّهنيّ، وذاك التّطوّر الذي يتبعه الفكر، والحقّ يقال، يتركان الجسد في حالة الوهن البدئيّة: كان الذّهنيّ يمتصّ الجسديّ، والشّفرة تفتك بالغمد؛ لكنّ الله مدّ الشّجيرة الضعيفة بعمَدٍ. فقد كان جورج ينعم بحماية جاك الذي كان يُعدّ أشدّ تلاميذ القسم بأساً وأكثرهم كسلاً، مثلما كان جورج أكثرهم اجتهاداً وأوهنهم جسماً.

لكن للأسف لم تدم تلك الحال إلّا قليلاً. فبعد وصول الأخوَين جاك وجورج بسنتين، سافرا معاً إلى بريست لقضاء العطلة عند أحد زبائن والدهما ممّن أُوصوا بهما. وبما أنّ جاك كان دائماً نَزّاعاً إلى حياة البحريّة، فقد استغلّ الفرصة للتخلّص من سجنه (هكذا كان يدعو المدرسة)، وركب في سفينة قراصنةٍ، وصفها في رسائله إلى والده بأنّها بارجة من بوارج الدّولة. وإذ عاد جورج إلى الكوليج أحسّ آنئذ بالقسوة التي خلّفها غياب أخيه. فلم يكن ثمّة من يقيه نتائج الحسد الذي تخلّفه إنجازاته في المدرسة، ذاك الحسد الذي ما إن يجد السبيل إلى إشباع نفسه حتّى ينقلب إلى كرهٍ فعليّ، فصار الصبيّ عرضةً لحقد بعضهم، ولضربات آخرين، ولسوء معاملة الجميع. كان لكلّ صبيّ شتيمته الأثيرة بحقّ جورج. كانت تلك محنة قاسية؛ لكنّ جورج تحمّلها ببسالة.

ثمّ إنّه قلّب الأمر جيّداً، فخلُص إلى أنّ التفوّق الذهنيّ لم يكن شيئاً يذكر دون التفوّق البدنيّ؛ وأنّه بحاجة لكلّ واحد منهما ليضمن احترام الآخر، وأنّ اجتماعهما معاً وحده كفيلٌ بأن يجعلَ من المرء رجلاً كاملاً. ومنذ تلك اللّحظة غيّر تماماً طريقة عيشه؛ وانقلب من ذاك الصبيّ الخجول المنزوي الخَمول إلى رياضيّ شديد الهياج والصّخب. واستمرّ على اجتهاده، لكن فقط بالقدر الذي يحفظ له التّفوق الفكريّ الذي كان

Twitter: @ketab_n

حازه في السّنوات السّالفة. وفي بداية أمره كان أخرق، فتهكّم منه الجميع. لم يكن جورج يستسيغ الدّعابات، وكان ذاك من تصميمه. لم يكن جورج يملك الشّجاعة النّابعة من المزاج الدمّوي، وإنّما تلك المتأتّية من مزاج الصّفراء؛ أي أنّ حركته الأولى بدلاً من أن تلقي به إلى الخطر كانت تدفع به إلى التراجع خطوة إلى الوراء حتّى يتجنّبه. لقد كان يحتاج إلى التّفكير حتّى تواتيه الشجاعة؛ ومع أنّ تلك الشجاعة كانت هي الشجاعة الحقّ، لأنّها شجاعة العقل، كان هو يهابها كأنّما هي جُبن.

كان يتعارك إذن عند كلّ خصومةٍ، أو بالأحرى كانَ يُضرب عند كلّ خصومة؛ لكن ما إن يهزم مرّة حتّى يعاود الأمر كلّ يوم حتّى ينتصر؛ ولم يكن ينتصر لأنّه الأقوى وإنّما لأنّه يصير الأكثر دُربة، وفي وسط أكثر المعارك حماسةً كان يحتفظ ببرودة دمه، وبفضل برودة الدّم تلك كان بوسعه الإفادة من أدنى خطأ يرتكبه خصمه. لقد أكسبه الأمر احترام الجميع، ومنذ ذلك الوقت صار المرء يقلّب الشّتيمة مرّتين في فمه قبل أن يرميه بها؛ ذاك أنّه مهما بلغ ضعف الخصم فإنّه حين يكون متسلّحاً بالإصرار يدفعنا إلى التّردّد في مواجهته. ثمّ إنّ تلك الحماسة المذهلة التي صار يعانق بها حياته الجديدة آتت أُكلها: فقد واتته القوّة شيئاً فشيئاً؛ وعليه فَمدفوعاً بمحاولاته الأولى، أمضى العطلة التّالية دون أن يفتح كتاباً واحداً؛ وصار إلى تعلّم السّباحة والرّماية وركوب الخيل، فارضاً على نفسه تعباً لا ينتهي، تعباً أصابه غير ما مرّة بالحمّى، ولكنّه انتهى به المطاف إلى أن أَلِفَه. وإذ ذاك أضاف إلى تمارين السّدادِ في الرّمي أشغالَ القوّة: فكان يقضي ساعاتٍ طوالاً يقلّب الأرض كالمحراث؛ وأيّاماً بأكملها يحمل أثقالاً؛ ثمّ إذ يحلّ اللّيل لم يكن يأوي إلى فراشه النّاعم الدّافئ، وإنّما يلتحف بمعطفه ويرتمي على فرو دبّ وينام هناك اللّيلةَ

Twitter: @ketab_n

بأكملها. ولوهلة، صارت الطّبيعة، وقد أدهشَها، متردّدة، ما كانت تدري هل ستنتصر أم ستندحر. لقد كان جورج يحسّ بأنّه يقامر بحياته، لكن فيمَ تهمّه تلك الحياة إن لم تكن تمنحه سيطرة القوّة وتفوّق السّداد وكانت للطّبيعة اليد العليا؛ فاندحر الضعف البدنيّ أمام طاقة العزيمة، ورحل مثلَ خادمٍ غير أمين طرده سيّده العنيد. لقد قضى المسكين السّقيم ثلاثة أشهر علىً ذاك النّظام الصّارم إلى درجة أنّ زملاءه شقّت عليهم معرفته لدى عودته. وأتى عليه الدّور ليفتعل أسباب الخصومات وليضرب أولئك الذين كانوا يضربونه. فصار مدعاة للخشية، وإذ صاروا يخشونه صاروا يحترمونه.

عدا ذلك، وفقاً للتناغم الطبيعيّ، وبقدر ما كانت القوّة تنتشر في جسده، غدا وجهه يتوهّج نضارةً؛ كانت عينا جورج دوماً جميلتين، وأسنانه رائعةً؛ وأرسل شعره الأسود الطويل الذي نعّمته كثرة العلاجات وذاب جفافه الطبيعيّ تحت حرارة الحديد. واختفى شحوبه العليل لتحلّ محلّه بشرة رمادية مميّزة وباعثة على الشّجن: هو ذا الفتى أخيراً قد صار يتعلّم كيف يغدو جميلاً، مثلما كان الطّفل يتعلّم كيف يصير قويّاً وسديدَ الجسم.

وهكذا فإنّ جورج، بعدما أكمل تعليمه، غادر المدرسة، وكان آنذاك قد صار فارساً نبيلاً طوله خمس أقدام وأربع بوصات، ومثلما أسلفنا الذّكر، فإنّه على نحافة جسمه كان متناسق الجسم بروعة. لقد كان يعرف تقريباً كلّ ما ينبغي لشابّ من هذا العالم أن يعرف. لكنّه أدرك أنّ المرءَ لا يكفيه أن يحوز القوّة التي يحوزها جميع البشر باشتراك؛ فقرّر أنّ لزاماً عليه التّفوق عليهم في كلّ شيء.

وإذ كانت التمارين التي فرضها على نفسه قد صارت سهلةً، وكان

Twitter: @ketab_n

قد تخلّص من أعمال المدرسة وصار السيّد المطلق على وقته، فقد ارتأى أن يضع لنفسه جدولاً يوميّاً يتضمّن قواعدَ لا يحيد عنها البتّة: صباحاً، في السّاعة السّادسة، كان يركب الخيل؛ وفي الثامنة، يتدرّب على الرّماية بالمسدّس؛ ومن العاشرة صباحاً حتّى منتصف النّهار، ينشغل بتمارين المبارزة بالسيف؛ ومن منتصف اليوم إلى الثانية بعد الظهر، يتابع دروس السّوربون؛ ومن الثالثة إلى الخامسة، يتعلّم الرّسم في هذا المرسم أو ذاك؛ وأخيراً حين يحلّ المساء، كان يقصد العروض أو ينفتح على المجتمع الرّاقي، وكانت لياقته الأنيقة تفتح أمامه جميع الأبواب، حتّى أكثر ممّا تفعل ثروته.

كما أنّ جورج قد نسج علاقات مع صفوة الفنانين والعلماء والسّادة النّبلاء في باريس. لقد احتّك طويلاً بالفنون والعلوم والموضة، فصار يُذكَر باعتباره أحد العقول الأشدّ فطنةً، والمفكّرين الأكثر منطقيّة، والفرسان الأبرز في العاصمة. كان جورج قد وصل تقريباً إلى مبتغاه.

على أنّه ظلّ ثمّة امتحان أخير كان يلزمه الاضطلاع به: فهو وإن كان قد اطمأنّ إلى أنّه صار سيّداً على الآخرين، إلّا أنّه لم يكن بعد متأكّداً ممّا إذا كان قد صار سيّد نفسه أيضاً. والحال أنّ جورج ما كان من النّوع الذي يترك شيئاً مشكوكاً في أمره؛ فقرّر أن يسبر أغوار نفسه.

لطالما خشيَ جورج من أن يصير مقامراً.

وذات يوم ملأ جيوبه بالقطع الذّهبية وأخذ طريقه صوب كازينو فراسكاتي. وكان قد قال لنفسه: «سألعب ثلاث مرّات؛ في كلّ مرّة سألعب لمدّة ثلاث ساعات، وأثناء تلك السّاعات الثلاث سأقامر بعشرة آلاف فرنك: ثمّ إذ تنصرم السّاعات الثلاث، سأكفّ عن اللّعب سواءً خسرتُ أم كسبت». .

Twitter: @ketab_n

في اليوم الأوّل خسر جورج الألف فرنك في ساعة ونصف. وقضى ما تبقّى من السّاعات الثلاث يتابع الآخرين وهم يلعبون. ومع أنّ محفظته كانت مليئة بالأوراق المصرفيّة من فئة الألفَي فرنك التي كان قرّر المقامرة بها في المرّتين اللاّحقتين، إلّا أنّه لم يرمِ على الطّاولة ولا لويسيّة[1] واحدةً فوق ما كان قد حدّد لنفسه.

وفي اليوم الثاني، كسب جورج خمسةً وعشرين ألف فرنك؛ وبما أنّه كان قد فرض على نفسه إكمال السّاعات الثلاث، فقد انتهى به المطاف إلى أن خسرها، وخسر معها أيضاً الألفي فرنك التي كان يملكها؛ وفي تلك اللّحظة تنبّه إلى أنّه كان يلعب منذ ساعات ثلاث، فكفّ عن اللّعب بالانضباط نفسه الذي كفّ به في اللّيلة السّابقة.

أمّا في اليوم الثالث، فقد بدأ لعبه بخسارة؛ لكن ما إن صار إلى الورقة الأخيرة حتّى دارت عجلة الحظّ ووقفت إلى جانبه؛ وكان لا يزال أمامه ثلاثة أرباع السّاعة؛ وطيلة تلك الثلاثة أرباع السّاعة، كان جورج يلعب وقد لفّه نوع من ذاك الفأل الحسن العجيب الذي عادةً ما يخلّده مرتادو صالات القمار بحكايا تُتناقلَ شفهيّاً: طيلة تلك الثلاثة أرباع السّاعة، بدا جورج كأنّما وقّع عقداً مع الشّيطان، عقداً بموجبه يهمس له جنيّ خفيّ في أذنه باللّون الذي سيسحبه والورقة التي سيربح بها. وصارت القطَع والأوراق النقدية تتراكم أمامه مثيرةً دهشة الحضور الكبرى. وما عاد جورج بحاجة إلى أن يفكّر بنفسه، كان يضع النّقود أمام المصرفيّ ويقول له: «أنّى شئت». يضعها المصرفيّ أنّى كان، ويربح جورج. وكان ثمّة لاعبان محترفان يراقبان طريقة لعبه، وكانا قد كسبا مبلغاً ضخماً، وارتأيا

(1) اللّويسيّة، قطعة نقدية فرنسية، وهذا هو الاسم الشائع عن النّقد الفرنسي الذي تمّ سكّه ما بين 1640 و1792.

Twitter: @ketab_n

أنّ الوقت قد حان لتبنّي طريقة مخالفة، فراهنا ضدّه؛ لكنّ الحظ أبى أن يخذل جورج. خسرا أمامه كلّ ما كسباه، ثمّ خسرا كلّ ما يحملانه معهما، ثمّ، إذ كانا أهلاً للثّقة، اقترضا من المصرفيّ خمسين ألف فرنك فخسراها أيضاً. أمّا جورج، فقد كان يرى تلك الكتلة من الذّهب والأوراق تنمو أمامه وتتضخّم دون أن يبدو على وجهه أدنى انفعال، ودون أن يكفّ من حين إلى آخر عن مراقبة البندول الذي سيعلن عن ساعة تقاعده. وأخيراً دقّ البندول. توقّف جورج في اللّحظة نفسها، وحمّل خادمه بالقطع الذّهبيّة والأوراق النّقديّة التي ربحها، وبالهدوء نفسه الذي ميّز فترة لعبه ولحظات ربحه وخسارته غادر القاعة تتابعه العيون الحاسدة، عيون كلّ أولئك الذين حضروا المشهد وكانوا يتوقّعون عودته في اليوم التّالي.

لكنْ، خلافاً لتوقّعات الجميع، لم يظهر جورج مرّة أخرى. لا بل أكثر من ذلك: لقد رمى الذهب والأوراق النّقدية كيفما اتّفق في دُرج من أدراج مكتبه، وقطع على نفسه عهداً بألّا يعود إليها حتّى تنقضي ثمانية أيّام. وإذ حان اليوم الموعود، فتح جورج الدّرج وعدّ غنيمته. كانت مائتي ألف فرنك.

كان جورج راضياً على نفسه؛ لقد استطاع هزْم أحد الأهواء.

كان جورج يملك الأهواء المتّقدة التي يتّصف بها سكّان المناطق المدارية.

وبعد جلسة عربدة اصطحبه أصدقاؤه عند مومس معروفة بجمالها ونزواتها الجّامحة. وفي ذاك المساء عرفَ عند لاييس[1] العصريّة انتكاسة في الفضائل. قضوا ليلتهم في الحديث عن الأخلاق؛ حتّى إنّ المرء ليَخَال

(1) لاييس: غانية إغريقيّة قديمة مشهورة بجمالها وظرفها، كانت محظيّة رجل الدولة الجنرال ألسيبياديس.

Twitter: @ketab_n

أنّ سيّدة المنزل تسعى إلى الحصول على جائزة مونتيون[1]. غير أنّه كان بالإمكان رؤية كيف أنّ عيون الواعظة الحسناء كانت تتعلّق من حين إلى آخر بجورج وتتّقد برغبة جامحة تنفي كلّ البرودة التي تغلّف كلامها. أمّا جورج، فقد ألفى تلك المرأة أجمل بكثير ممّا وُصِف له. وطيلة ثلاثة أيّام طاردت صورة عشتروت الجميلة تلك مخيّلة الرّجل اليّافع. وفي اليوم الرّابع انتهج جورج طريق البيت الذي تسكنه، وصعد السلالم بقلب يخفق بشدّة مذهلة، وسحب الجرس بحركة محمومة حتّى كاد حبله يبقى في يده؛ ثمّ إذ سمع خطوات الخادمة تقترب من الباب، أوعز إلى قلبه بأن يكفّ عن الخفقان، وإلى وجهه بأن يهدأ؛ وبصوتٍ يتعذّر الكشف فيه عن أدنى انفعال، طلبَ من الخادمة أن ترافقه إلى سيّدتها. وكانت السّيدة قد سمعت صوته، فأتت تقفز فرحاً؛ ذاك أنّ صورة جورج التي تركت في نفسها أثراً عميقاً حين رأته، لم تفارقها مذّاك. فأملت في أن يقود إليها الحبُّ، أو على الأقل تقود إليها الرّغبة خطوات الشابّ الذي ترك في نفسها أثراً بذاك العمق.

وكانت مخطئةً: فلم يكُ ذاك إلاّ امتحاناً جديداً قرّر جورج خوضه: لقد أتى إلى هناك رغبةً في أن يحكم قبضته على إرادةٍ من حديد ورغبات مضطرمة. ظلّ ساعتين من الزّمن بقرب تلك المرأة وهو يراهن نفسه على الثبات، ويصارع تيّار أهوائه وإغراءات الغواية في آن. ثمّ إذ انقضت السّاعتان، وتمكّن من الامتحان الثاني، مثلما تمكّن من الامتحان الأوّل، غادر المنزل.

كان جورج راضياً عن نفسه، لقد استطاع ترويض أهوائه.

---

(1) مجموعة جوائز تمّ إحداثها بمبادرة من جان باتيست أوغي دو مونتيون، وتمنحها الأكاديميّة الفرنسية وأكاديمية العلوم. ويقصد المؤلف هنا تحديداً جائزة الفضيلة.

Twitter: @ketab_n

كنّا قد قلنا إنّ جورج ما كان يمتلك الشّجاعة الجسدية التي تسمح له بالارتماء في أتون الخطر، وإنّما فحسب شجاعة مزاج الصّفراء، الذي يدفعه إلى انتظار الخطر حين لا يسعه تفاديه. كان جورج يخشى حقّاً من ألّا يكون شجاعاً، وكان نهباً لفكرة أنّه ساعةَ يعترضه خطر لا مفرّ منه، قد لا يكون واثقاً من نفسه؛ ولعلّه سيسلك آنذاك مسلكَ الجبناء. كانت تلك الفكرة تعذّب جورج بشكل غريب؛ وقد خلص إلى أنّه لن يُفلت فرصة أن يلقي بنفسه بين براثن أوّل خطر يعرض له. وقد كان له ما أراد بأعجب الطرّق.

ذات يوم كان جورج مع أحد أصدقائه عند محلّ لوباج[1]، ينتظران دورهما، وكان جورج يتابع أحد الوجوه المألوفة في المحلّ، وهو شخص معروف بكونه أحد أفضل رماة باريس، تماماً مثل جورج. وكان الرّجل ينجز كلّ رمْياته بسدادٍ مذهل؛ بحيث ينفّذ كلّ تلك التقاليد الموروثة عن سان جورج[2]، والتي كان ينظر إليها المستجدّون بيأس؛ نقصد أنّه كان يصيب الهدف في كلّ مرّة، ويتابع رمياته، بحيث تخلّف الرّمية الثانية أثرها تماماً في الموضع نفسه الذي خلّفت فيه الرمية الأولى أثرها؛ ويشطر الرّصاصة إلى جزأين بواسطة سكّين، وينجز بنجاحٍ عديد التّجارب المماثلة. وينبغي القول إنّ اعتداد الرّامي بذاته كان قد ازداد هياجاً بحضور جورج، لا سيّما وأنّ فتى الرّماية، وهو يسلّمه مسدّسه، كان قد همس في أذنه همساً خافتاً بأنّ جورج كان على الأقلّ يساويه في القوّة، فصارَ يجتهد في مجاوزة نفسه عند كلّ رمية. بيد أنّه عند كلّ رمية، بدلاً من أن تنهال

---

(1) لوباج: بائع أسلحة كان يضع تحت تصرّف زبائنه قاعات للتدرّب على الرماية.

(2) المقصود رجل الحرب والأدب جوزيف بولوني دو سان جورج (1747–1799)، وكان هو أيضاً خلاسيّاً، وقد حارب الجنرال دوما، والد الكاتب، تحت إمرته عندما كان برتبة نقيب، ويذكره ألكسندر دوما في كتابه «مذكّراتي».

Twitter: @ketab_n

عليه من جاره المدائح التي يستحقّها، بدلاً من ذلك كانَ يسمع جورج يردّ على هتافات الحضور قائلاً:

- أجلْ، إنّها رمية جيّدة، لكنّها ستكون غير ذلك لو أنّ السيّد كان يطلق النّار على رجُل.

في البداية دُهشَ الرّامي من ذلك النّفي اللّازب الذي ظلّ جورج يلوكه كتحدٍّ ودعوة للمبارزة، ثمّ انتهى به المطاف إلى أن جرحَ النّفيُ كبرياءه. فاستدار الرّجل شطر جورج في اللّحظة التي كان هذا يهمّ فيها بتكرار رأيه الشاكّ للمرّة الثالثة، ونظر إليه نظرةً نصفها سخرية ونصفها الآخر وعيد:

- عفوك سيّدي، لكن يبدو لي أنّك تفوّهت مرّتين أو ثلاثة بعبارة تشكّك فيها بشجاعتي؛ هل بوسعك أن تقدّم لي شرحاً واضحاً ومفصّلاً لما تقوله؟

فردّ عليه جورج:

- عباراتي لا تحتاج إلى تعليق يا سيّدي، ويبدو لي أنّها تشرح نفسها بنفسها بما يكفي.

استأنف الرّامي كلامه:

- إذن يا سيّدي، أعد عليّ من فضلك عباراتك حتّى أُقدّر في آنٍ حمولتها والنّيّات المضمرة فيها.

أجاب جورج بأبلغ ما يكون الهدوء:

- قلتُ، وأنا أراك تصيب جميع الأهداف، إنّك لن تكون على ثبات العين واليد ذاته لو أنّك بدلاً من أن توجّههما إلى خشبةٍ، وجّهتهما إلى صدرِ رجل.

- ولِمَ تعتقد في ذلك، من فضلك؟

Twitter: @ketab_n

- لأنّي أحسَب أنّه في حال تسديد نيراننا على مثيلنا، سيكون ثمّة دائماً قدرٌ من الانفعال يشوّش على الرّمية.

سأله الرّامي:

- وهل سبق لك أن واجهت أحداً في تحدٍّ ثنائيّ يا سيّدي؟

أجاب جوج:

- كّلا، إطلاقاً.

أجابه الغريب وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة يطلّ منها طيف تهكّم:

- وإذن لا يدهشني يا سيّدي اعتقادك في أنّ المرء قد يخاف في وضعيةٍ مماثلة.

أجاب جورج:

- عفوك سيّدي، لكنّي أعتقد أنّك فهمتني خطأً: إنّي أحسب أنّ المرء ساعة قتلِ إنسانٍ يرتعد بسبب شيء آخر غير الخوف.

قال الرّامي:

- أنا لا أرتجف أبداً يا سيّدي.

أجابه جورج بالهدوء ذاته:

- الأمر ممكن، لكنّي أشكّ في أنّك على بعد خمس وعشرين خطوةً، أي، على المسافة نفسها التي تصيب فيها أهدافك جميعها...

قال الغريب:

- حسناً، على بعد خمس وعشرين خطوة؟...

اِستأنف جورج كلامه:

- على بعد خمسٍ وعشرين خطوةً لن تتمكّن من إصابةِ رجل.

- وأنّا متأكّد من العكس، يا سيّدي.

Twitter: @ketab_n

- اسمح لي بألّا أصدّق كلامك سيّدي.
- إذن أنت تسألني تفنيدَ زعمكَ؟
- كلّا، لا أسألك ذلك، لأنّ الأمر بالنّسبة لي حقيقة مؤكّدة.

قال الرّامي ساخراً:

- حقيقة مؤكدة، لكنك ستتردد في اختبارها تجريبيّاً.

أجابه جورج وهو يحدّق بعينيه مباشرةً:

- ولِمَ سأتردّد؟
- ستختبرها إذن على شخص آخر غيرك، أحسَب.
- أختبرها فيّ أو في شخص آخر، سيّان.
- سيكون تهوّراً كبيراً منك أن تغامر في تجربة مماثلة يا سيّدي، إنّي أحذّرك.
- كلّا، لقد قلت ما أعتقده، وبالتّالي لست أغامر بالشّيء الكثير.
- هكذا إذن، يا سيّدي، أنت تكرّر للمرّة الثانية بأنّي من على مسافة خمس وعشرين خطوةً لن أتمكّن من إصابة رجل.
- إنّك مخطئ يا سيّدي، ليست هذه المرّة الثّانية التي أكرّر فيها عبارتي؛ وإنّما هي، إن لم يخنّي التقديرُ، الخامسة.
- آه! يا للجرأة سيّدي، وتريد أن تهينني.
- أنت حرّ في أن تحكم على نيّتي.
- حسناً سيّدي. متى تريد؟
- الآن فوراً، إن لم تمانع.
- أين؟
- إنّنا على بعد خمسمائة خطوةٍ من غابة بولونيا.
- سلاحك؟

Twitter: @ketab_n

- سلاحي؟ فقط المسّدس. إنّ الأمر لا يتمثّل في مواجهة ثنائيّة، وإنّما في اختبار.

- تحت أمركَ سيّدي.

- بل أنا من هو تحت أمرك يا سيّدي.

صعد كلّ واحد من الرّجلين إلى عربته يرافقه صديق.

وإذ وصلوا إلى الميدان، أراد الشّاهدان تسويةَ النّزاع، لكنّ المهمّة كانت صعبة. فخصمُ جورج كان يصرّ على أن يُقدَّم إليه اعتذار، بينما يدّعي جورج أنّه غير مدين بأيّ اعتذار، وأنّ وحدهما موتُه أو إصابتُه سيثبتان أنّه كان مخطئاً.

أنفق الشّاهدان ربع ساعة في مفاوضات لم تفضِ إلى نتيجة.

أراد الحضور حينئذ أن يقف الخصمان على بعد ثلاثين خطوةً أحدهما من الآخر؛ ولكنّ جورج ارتأى أنّه لن يكون ثمّة اختبار ما لم يتمّ احترام المسافة التي يتمّ التسديد منها عادةً، أي خمس وعشرون خطوة. ونتيجة لذلك تمّ حساب خمسٍ وعشرين خطوة.

ثمّ أرادوا رميَ قطعة نقدية في الهواء لتحديد من سيرمي أوّلاً؛ لكنّ جورج أعلن أنّه يرى المسألة بلا فائدة، لأنّ حقّ البدء يملكه منطقياً خصمه. أحسّ الخصم بأنّه قد طُعن في كرامته وأصرّ على أن تفصل يفصل الحظّ بين رجلين هما من القوّة بحيث أنّ من يبدأ منهما يكون قد حاز فرصة الانتصار كاملة. لكنّ جورج أصرّ على كلامه، فاضطرّ خصمه إلى الإذعان.

وكانَ فتى الرّماية قد تبع المتبارزَين. عبّأ المسدّسين بالعيار ذاته من البارود والرّصاص الذي استُخدم في التّجارب السّابقة. وحتّى المسدّسان، كانا مسدّسَي التجارب نفسهما. جورج هو من فرض هذا

Twitter: @ketab_n

الأمر كشرط لا بدّ منه.

وقف الخصمان على بعد خمس وعشرين خطوةً أحدهما عن الآخر، واستلم كلّ منهما من يدِ شاهده مسدّساً معبّئاً. ثمّ ابتعد الشّاهدان مفسحَيْن المجال أمام المتعاركَين ليتبادلا الرّمي وفق الترتيب المتّفق عليه.

لم يتّخذ جورج أيّ احتياط من تلك الاحتياطات التي يُلجأ إليها في ظروفٍ مشابهة، فلم يسعَ إلى حماية أيّ جزء من جسمه بمسدّسه. ترك ذراعه تتدلّى على امتداد فخذه وأشرع صدره الأعزل أمام خصمه.

ولم يتمكّن خصمه من فهم المقصود من تصرّفه ذاك، فقد سبق له أن وُضع غير ما مرّة في ظروفٍ مماثلةٍ، لكنّه لم يشهد قطّ برودة أعصابٍ مثل تلك. هكذا بدأت قناعة جورج العميقة تفعل فعلها في الرّجل. وها هو الرّامي الماهر، الذي لم يسبق له أن أخطأ رميةً واحدةً، بدأ يرتاب في نفسه.

مرّتين رفعَ مسدّسه في وجه جورج، ومرّتين خفضَه. وكان تصرّفه منافياً لقواعد التّحدي جميعها؛ لكن جورج كان يكتفي في كلّ مرّة بأن يقول له:

- تمتّعْ بوقتك يا سيّدي، تمتّعْ بوقتك.

وفي المرّة الثالثة خجل من نفسه وأطلقَ النّار.

خيّمت لحظة قلق رهيب على الشّاهدَين. لكن ما إن انطلقت الرّمية حتّى استدارَ جورج يمنة ويسرة ثمّ حيّا الشّاهدين إشارةً إلى أنّه لم يُصَبْ، وقال مخاطباً خصمه:

- وإذن سيّدي، أرأيت بأنّي كنت محقّاً. عندما نطلق الرّصاص على رجلٍ فإنّنا نكون أقلّ ثقة ممّا نحن عليه ونحن نصوّب على هدف من خشب.

أجابَ خصمُ جورج:

Twitter: @ketab_n

- أجل سيّدي، لقد كنت مخطئاً. اِرم، إنّه دورك.

ردّ جورج وهو يحمل قبّعته التي كانَ قد وضعها أرضاً، ويمدّ مسدّسه لفتى الرّماية:

- أنا، أرميك؟ ولِمَ أفعل ذلك؟

صرخ خصمه:

- ولكّنه حقّك. ولن يضيرني الأمر. لا بل إنّي أتوق لمعرفة كيف ترمي أنت.

قال جورج ببرودة الدّم بنفسها:

- عفوك سيّدي، لنتّفق أوّلاً من فضلك. أنا لم أقل لك إنّني سأصيبك. لقد قلت لك إنّك لن تصيبني. وبالفعل أنت لم تصبني. لقد كنتُ محقّاً. وهذا كلّ ما في الأمر.

ورغم كلّ المزاعم التي قدّمها خصمه، وكلّ الأمثلة التي بسطها أمامه ليقنعه بالرّماية، صعد جورج إلى عربته وانتهج طريق «باب النّجوم»، وهو يقول لصديقه:

- وإذن، أفَلم أقل لك إنّ ثمّة فرقاً بين التّسديد على دمية والتّسديد على رجل؟

كان جورج راضياً عن نفسه لأنّه بات واثقاً من شجاعته.

ذاع خبر المغامرات الثلاث ومكّن جورج من ترسيخ قدمه في المجتمع أكثر. وقد تعهّدت ماجنتان أو ثلاث بنيل شرف غواية كاتون الجديد[1]؛ وبما أنّ صاحبنا ما كان يملك أدنى داعٍ لمقاومتهنّ، لم يمضِ عليه وقت طويل حتّى صار شابّاً على الموضة. لكنْ في غمرة اعتقاد الجميع أنّه كان

(1) نعت مقابل لكاتون القديم (ماركوس بورسيوس كاتو)، وهو رجل سياسة وأدب روماني (ولد سنة 234 ق م وتوفّي سنة 149 ق م) واشتهر بنزعته المحافظة وانتصاره للقيم الرومانية ضدّ القيم اليونانية.

Twitter: @ketab_n

يومذاك يعيش أزهى فترات حياته، مفتوناً برضا الحظّ، حانَ الوقتُ الذي كانَ جورج قد حدّده موعداً لسفره. فتحلّل ذات صباح جميل من عشيقاته بأن أرسل لكلّ واحدةٍ منهنّ هديّة باذخة، وقصدَ لندن.

وفي لندن كان يتمّ تقديم جورج والترحيب به أينما حلّ. صار يملك خيولاً وكلاباً وديكةً؛ وكان يدفع ببعضها في صراعات الحيوانات، ويشرك أُخرى في سباقات، ويقبل بكلّ التحديّات، ويكسب ويخسر مبالغ طائلة ببرودة دم أرستقراطيّة؛ باختصارٍ لم تمضِ سنةٌ حتّى ترك لندن يتبعه صيتُ الجنتلمان كاملِ الصّفات، مثلما تبعه من باريس صيت الفارس الجذّاب؛ وفي تلك الفترة التي قضاها في عاصمة بريطانيا العظمى التقى اللّورد مورّيه، دون أن تجمعهما أيّة علاقة، كما أسلفنا الذّكر.

وكانت تلك هي الحقبة التي صار فيها السّفر إلى الشّرق موضة. فزار جورج على التّوالي اليونانَ وتركيا وآسيا الصّغرى وسوريا ومصر. وتمّ تقديمه إلى محمّد علي في اللّحظة التي كان فيها إبراهيم باشا يتأهّب للقيام بحملته إلى الصّعيد؛ فرافق ابنَ وليّ العهد وقاتل تحت بصره واستلم منه سيفَ تشريف، وحصانين عربيّين اختارهما من بين أجمل خيول حرسه.

ثمّ عاد جورج إلى فرنسا عبر إيطاليا. وكانت الحملة على إسبانيا تتحضّر. فهرول جورج إلى باريس طالباً الخدمة كمتطوّع: تمّت الموافقة على طلبه. والتحق بصفوف فيلق المشاة الأوّل، وكان ينطلق دوماً في الصفوف الأمامية.

لكن خلافاً لكلّ التوقّعات للأسف، لم يقاوم الإسبان كثيراً، وتلك الحملة التي ظنّها الجميع ستكون حملة شرسة صارت إلى جولة عسكرية لا غير. على أنّ الأمور انقلبت تماماً في تروكاديرو[1]، وتقرّرت ضرورة

(1) معركة تروكاديرو بين الفرنسيين والإسبان في قادس بإسبانيا (1823).

Twitter: @ketab_n

التّصدي لذاك الصّف الأخير من صفوف المقاومة في شبه الجزيرة الأيبيرية.

ولم يكن الفوج الذي التحق به جورج معنيّاً بالهجوم، فانتقلَ إلى فوج رجال القنابل. وما إن أُعطيت إشارة الزّحف حتّى انطلق جورج على رأس المهاجمين وكان ثالث من يقتحم الحصن.

ذُكِر اسمه في سجّلات الجيش، وتسلّم من يد دوق أنغوليم وسام جوقة الشّرف، ومن يد فردينان السّابع وسام شارل الثالث. ولم يكن جورج يسعى سوى إلى التميّز. فحصل على علامتَي تميّز دفعة واحدة. وصار الفتى المعتدّ بنفسه غارقاً في الغبطة.

وإذّاك فكّر في أنّ وقت العودة إلى جزيرة موريس قد حان، فكلّ ما تمنّاه في أحلامه تحقّق واقعاً، وكلّ ما طمح إلى بلوغه قد تجاوزه، لم يعد ثمّة شيء يضطرّه إلى البقاء في أوروبا. لقد انتهت معركته مع الحضارة، وحان الوقت لبداية معركته مع الهمجيّة. لقد كانَ روحاً فخورة جدّاً، روحاً لن يشفيها أن تنفق في ملذّات أوروبا تلك الطّاقة الثمينة التي كانت قد جمعتها لتخوض بها حرباً جوّانيّة. فكلّ ما فعله طيلة عشر سنوات، كان يصبو إلى مجاوزة مواطنيه المولَّدين والبِيض، وإلى أن يقضي بنفسه على حكم مسبق لم يجرؤ أيّ رجلٍ ملوّن على مواجهته. فيمَ تهمّه إذن أوروبا وسكّانها المائة وخمسون مليوناً؛ فيمَ تهمّه فرنسا ورجالها الثلاثة وثلاثون مليوناً؛ فيمَ يهمّه منصب عمدة أو وزير أو رئيس أو ملك؟ ما كان يفضّله أكثر من أيّ شيء في العالم، وما كان يشغله قبل كلّ شيء، هو بقعته الأرضية الصّغيرة، تلك الضائعة على الخريطة كحبّة رمل في أعماق البحر. ذاك أنّه كان لديه في تلك البقعة من الأرض استعراضُ قوّةٍ كبيرٌ ينبغي أن يقوم به، ومشكلٌ كبير ينبغي أن يحلّه. ليسَ يملك سوى ذكرى

Twitter: @ketab_n

واحدة: ذكرى الخضوع؛ وليس يملك سوى رجاءٍ واحدٍ: أن ينتصر.

وفي غضون ذلك ألقت اللايسستر مراسيها في قادس. وكانت اللايسستر تقصد جزيرة موريس حيث ستقيم قبل استئنافها طريقَها. طلب جورج قبوله على متن تلك السّفينة النّبيلة، وبما أنّ السلطات الفرنسية والإسبانية أوصت به القبطانَ، فقد نال الموافقة. على أنّ السبّب الفعليّ لقبوله هو أنّ اللورد مورّيه علمَ بأنّ من يطلب الالتحاق بركاب السّفينة كان أحد أهالي جزيرة موريس. ولم يندم اللورد مورّيه على منح موافقته إلى شخص عرض أمامه في رحلة قطعا فيها أربعة آلاف فرسخٍ كلّ تلك المعلومات السيّاسية والأخلاقية التي لا مندوحة لأيّ حاكم من تعلّمها قبل أن يضع قدمه في الحكم.

ولقد رأينا كيف أنّ جورج واللّورد مورّيه اقتربا أحدهما من الآخر شيئاً فشيئاً، وكيف بلغا درجة من الألفة وهما يشرفان على دخول بور لويس.

ورأينا كيف أنّ جورج، وهو الابن البّار العزيز عند أبيه، لم يفلح في جعْل والده يعرفه إلّا بعدما قام بامتحان آخر من تلك الامتحانات المألوفة لديه. وكانت فرحة الشّيخ أكبر إذ لم يكن ينتظر ذاك اللّقاء: ثمّ إنّ الرّجل الذي عاد كان من الاختلاف عن الرّجل المنتظَر بحيث أنّ الشّيخ لم يكفّ طيلة طريق العودة عن التحديق بولده، متوقّفاً من حين إلى آخر أمامه كأنّما يتأمّله. وفي كلّ مرّة كان الشّيخ يضمّ الشابّ إلى قلبه بهذه القوّة بحيث أنّ جورج، على الرّغم ممّا كان يبديه من صلابة، أحسّ بأنّ الدموع على وشك أن تفيض من عينيه.

وبعد ثلاث ساعات من المشي، وصلا إلى المزرعة، وكانت على بعد ربع ساعة من المنزل. وكان تليباك قد تجاوزهما بحيث وجد جورج

Twitter: @ketab_n

ووالده لدى وصولهما كلّ الزّنوج في انتظارهما بفرح يشوبه التّوجس: إذ أنّ هذا الشابّ الذي عرفوه طفلاً، كان بمثابة سيّد جديد يعود إليهم، وكيف سيكون هذا السيّد؟

لقد كانت تلك العودة إذن مسألة فرح أو بؤس قادم بالنّسبة لكل ذاك الشّعب المسكين. بيد أنّ الحظّ كان مواتياً لهم. فقد بدأ جورج بأن منحَهم عطلة يومين، ذاك اليوم واليوم التّالي. وبما أنّ اليوم الثالث كان يوم أحد، فقد ناسبتهم تلك الإجازة كثيراً، وحصلوا على ثلاثة أيّام راحة.

ثمّ إنّ جورج كان نافد الصّبر لمعرفة مقدار الأهميّة التي قد يحوزها في الجزيرة بفضل ثروته من الأراضي، فما إن تعشّى حتّى خرج برفقة والده لتفقّد المزرعة بكاملها. إنّ تفكيراً سديداً وعملاً شاقّاً وموجّهاً توجيهاً جيّداً، هذا كلّه كان قد مكّنهم من إقامة إحدى أجمل المزارع في المستعمرة. وفي قلب المزرعة كان ينتصب المنزل، وهو بناية بسيطة وفسيحة، محاطة بثلاث ظُلاّتٍ من أشجار الموز والمانغا والتمر الهندي، وينفتح من الأمام على ممشى طويل من الأشجار التي تقود الخطى حتّى الطريق؛ ومن الخلف على بساتين عطِرة حيث الرّمان ذو الزّهور المزدوجة يتهدهد في الرّيح، ويداعب طوراً باقة برتقال أرجوانيّ وتارةً عذقَ موز أصفر، صاعداً ونازلاً أبداً، محتاراً مثل نحلة تطير بين زهرتين أو نفسٍ تنوس بين رغبتين؛ ثمّ في جميع الأنحاء، وعلى امتداد البصر، تنبسط الحقول الشّاسعة مزروعة بالقصب والذرة، وتبدو مثقلة بحمولتها المغذّية، تناشد أكفّ الحصّادين.

ثمّ، في آخر المطاف، نبلغ ما يُسمّى في كلّ مزرعةٍ مخيّم السّود.

في وسط المخيّم تنتصب بناية تُستخدَم في خزن الحبوب شتاءً، وفي الرّقص صيفاً؛ كانت تصدر منها صيحات فرح كبيرة تختلط بأصوات

Twitter: @ketab_n

الدّفوف والطبول والقيثارة الملغاشية. فالزّنوج لم يضيعوا الوقت في الإفادة من العطلة التي مُنحت لهم، وانطلقوا فرحين إلى الاحتفال؛ ذاك أنّه بالنّسبة لذوي الطبّاع البدائية أولئك ما من حدود فاصلة بين الأشياء؛ فمن العمل ينتقلون إلى الملذّات، ويستريحون من تعبهم بالرّقص. فتح جورج ووالده الباب وبرزا فجأةً وسطهم.

وفي الحال توقّف الحفل. وتموضعَ كلّ واحد منهم لصقَ جاره، محاولين تنظيم صفوفهم، شأنهم شأن الجنود الذين يفاجئهم قائدهم. ثمّ بعد هنيهةِ صمتٍ قلقٍ، انطلق هتاف ثلاثيّ يحيّي السيّدين. وهذه المرّة كانت التّحية تعبيراً صادقاً وصريحاً عن مشاعرهم. فإذ كانوا يُطعَمون ويلبسون جيّداً ولا يُعاقَبون إلّا نادراً، لأنّهم نادراً ما يخْلفون واجباتهم، كانوا يحبّون بيار مونييه، فهو ربّما كان المولّد الوحيد في الجزيرة الذي، وإن كان ينحني أمام البيض، إلّا أنّه ما كان ليقسوَ على السّود. أمّا جورج الذي كانت عودته، كما أسلفنا قوله، قد زرعت عظيم التوجّس في نفوس السكّان المساكين، فكأنّما أدرك الأثر الذي خلّفه حضوره، فرفع يده علامةً على أنّه يريد الحديث. وفوراً خيّم الصّمت الأعمق، وأنصت الزّنوج طبعاً للعبارات التّالية، التي خرجت من فمه بطيئةً كوعدٍ، ومهيبةً كالتزام:

- أصدقائي، إنّي سعيد بالترحيب الذي خصصتموني به، وأكثر سعادةً بالفرح الذي يلمع هنا في كلّ الوجوه: إنّ أبي يسهر على سعادتكم، أنا أعرف ذلك، وأشكره عليه؛ ذاك أنّ من واجبي، مثلما هو من واجبه، السّهر على سعادة أولئك الذين سينصاعون لي، وأتمنّى أن ينصاعوا لي بنفس الورع الذي ينصاعون به لوالدي. أنتم هنا ثلاثمائة، وليس لكم سوى تسعين كوخاً؛ والذي يريده والدي هو أن تبنوا ستّين كوخاً آخر، حتّى يصير لكلّ اثنين منكم كوخ؛ وأمام كلّ كوخ ستكون ثمّة حديقة

Twitter: @ketab_n

حيث بوسع كلّ واحد منكم زراعة التبغ والقرع والبطاطس، وتربية خنزير ودجاجات. ومن رغبوا في جني المال من ذلك، لهم أن يذهبوا يوم الأحد لبيع منتوجاتهم في بور لويس، ولديهم كامل الحريّة في التّصرف بأموالهم. إذا ما سرق أحدكم أخاه، ستكون ثمّة عقوبة قاسية للسّارق؛ وإذا ما ضُرب أحدكم من طرف قائده دون وجه حقّ، فما عليه سوى أن يبرهن على أنّه لم يستحقّ العقاب، وسنأخذ حقّه: ولا أضع في الحسبان حالة فرار أحدكم، إذ أحسب أنّكم هنا أسعد من أن تسوّل لكم أنفسكم تركنا.

اِنطلقت صيحات الفرح مجدّداً مستقبلةً ذاك الخطاب القصير، الذي قد يبدو سقيماً وعديم الجدوى في نظر السّتين مليون أوروبيّاً المحظوظين بالعيش في ظلّ النظام الدستوريّ، لكنّه استُقبِل هناك بحماسة كبيرة، لا سيّما وأنّه كان أوّل ميثاق من نوعه في المستعمرة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل السّابع

البِرلوكا

في مساء الغد، وقد كان اليومُ يومَ سبت كما أسلفنا، التأَمَ جمعٌ من الزّنوج أقلَّ بهجة من ذاك الذي ودّعناه قبل قليل. اِلتفّوا في سقيفة فسيحة، حول كومة كبيرة من الحطب المتّقد، منهمكين في البرلوكا[1] مثلما يسمّونها هناك في المستعمرات؛ أيّ أنّ أحدهم، بحسب حاجته واستعداده ومزاجه، يشتغل ببعض الأشياء اليدوية التي ستباع في الغد، بينما يطهو آخرُ الأرزّ أو المنيهوت أو الموز؛ هذا يدخّن في غليونه تبغاً ليسَ محليّاً فحسب، بل زُرِعَ في حديقته؛ وأولئك يتحدّثون فيما بينهم بصوتٍ خفيض. وبين كلّ تلك الزُّمر كانت النّساء والأطفال الذين يعهد إليهم بالنّار، يتحرّكون جيئة وذهاباً دونما توقّف؛ لكن على الرّغم من كلّ ذاك النّشاط وتلك الحركة، وعلى الرّغم من أنّ ذلك المساء كان يسبق يومَ عطلةٍ، فإنّ المرء كان يشعر بأنّ ثمّة شيئاً مقلقاً وكئيباً يجثم بثقله على أولئك الأشقياء. وكان ذاك الشّيء الذي يثقل عليهم هو اضطهاد مُسيِّر العمل، وهو أيضاً أحدُ المولَّدين. وكانت السّقيفة تقع في الجهة الدنيا من سهول ولِيامز، عند سفح جبل «الحلمات الثلاث»، وحولها تمتدُّ ممتلكات

(1) لغةً قد تشير كلمة «البرلوكا» إلى الطبل أو الجرس أو البوق الذي يُنفَخ فيه إيذاناً بفضّ الصفوف أو إنهاء حالة الطوارئ، وفي النّص هو كلمة تعاقدَ عليها سكان المستعمرات للتعبير عن شيء أشبه ما يكون باستراحة المحارب، حيث ينتهي عمل العبيد فينتبذون مكاناً لهم للترفيه عن النّفس وقضاء المآرب الخاصّة. وقد فضّلنا الحفاظ على الكلمة كما هي بدلاً من ترجمتها إلى كلمات من قبيل «استراحة المحارب».

Twitter: @ketab_n

صاحبنا القديم السيّد دو ماليدي.

لم يكن السيّد دو ماليدي سيّداً سيّئاً بالمعنى الذي نعطيه في فرنسا لكلمة سيّئ. كلّا، فالسيّد دو ماليدي كان رجلاً بديناً ذا جسم شديد الاستدارة، غير قادر على الكراهية، ولا على الانتقام. ولكنّه كان مفتوناً للغاية بمكانته الاجتماعية والسيّاسية؛ يملؤه الزّهو حين يفكّر في أنّه يحمل في عروقه دماً نقيّاً خالصاً؛ ولقد ورث أباً عن جدّ ذاك الحكم المسبق الذي كانَ لا يزال يلاحق الرّجال الملوَّنين في جزيرة موريس. أمّا العبيد فما كانوا أكثر بؤساً عنده ممّا هم عليه في باقي مناطق الجزيرة، بل كانوا بؤساء مثلما هم عليه أنّى كانوا؛ فبالنسبة للسيّد ماليدي لم يكن الزّنوج أناساً وإنّما آلات ينبغي أن تنتج منتوجاً ما. حين لا تعود الآلة قادرة على إنتاج ما ينبغي أن تنتجه، فإنّنا نلجأ إلى إصلاحها بطرق ميكانيكية؛ وكان السيّد دو ماليدي، بكلّ بساطة، يطبّق على زنوجه الإجراء نفسه الذي كان سيُطبّقه على الآلات. فحين يتعطّل عملُ العبيد، إنْ كسلاً أو إعياءً، يتدخّل قائدهم، ويصلح العطبَ بضربات السّوط؛ وإذّاك تعود الآلة إلى الدّوران، وفي نهاية الأسبوع يكون المنتوج العامّ موافقاً للتطلّعات.

أمّا هُنري دو ماليدي فقد كان صورةً طبقَ الأصل عن أبيه، مع عشرين سنةً أقلّ، وجرعةٍ زائدةٍ من الكِبْر.

كان ثمّة إذن، كما أسلفنا الذّكر، بَوْن شاسع في الوضعية المعنوية والمادية بين زنوج حيّ سهول ليامز، وزنوج حيّ موكا. ولذا، ففي تلك الاجتماعات التي تُدعى كما قلنا بالبرلوكا، كانت الفرحة تأخذ تلقائيّاً بعبيد بيار مونييه، في حين كان عبيد دو ماليدي يحتاجون إلى شحذها ببعض الأغاني أو الحكايا أو الاستعراضات. أمّا ما عدا ذلك، فمهما اختلفت الأمكنة، سواء في المناطق المدارية أو في بلداننا، وسواء في

Twitter: @ketab_n

سقيفة زنوجٍ أو مخيّم جنود، دائماً ما يكون ثمّة واحد أو اثنان من أولئك الظرفاء الذين يأخذون على عاتقهم القيام بأشقّ المهام التي قد يفكّر المرء في القيام بها: إضحاك النّاس؛ تلك المهمّة التي يعترف النّاس بفضل من يؤدّيها ويجازونه عليها بألف طريقةٍ؛ وبالطّبع حين ينسى النّاس تصفية ذمّتهم، وذاك ما يحدث من حين إلى آخر، فإنّ المهرّج يتدّخل في تلك الحال ويذكّرهم بأنّهم مدينون له.

على أنّ هذه المهمّة التي كان يضطلع بها في ما مضى تريبوليه ولانجيلي داخل قصر الملك فرانسوا الأوّل والملك لويس الثالث عشر، كان يضطلع بها في مزرعة السيّد دو ماليدي رجلٌ قصير القامة، ذو جذعٍ ممتلئٍ تسنده قدمان نحيفتان حتّى ليحار النّاظر إليه للوهلة الأولى كيفَ قيّضَ لذاك الاجتماع أن يحصل. عدا ذلك، كان التوازن المختلّ يُستعاد عند طرفيّ الجسم، حيث يحمل الجذع رأساً صغيراً ذا صفرةٍ فاقعة، بينما تنتهي السّاقان النّحيفتان برجلين ضخمتين. أمّا الذّراعان فكانتا هائلتَي الطول، وأشبه ما تكونان بأذرع القردة حين تتمّشى على قوائمها الخلفية وتلتقط دون أن تنحنيَ الأشياءَ الملقاة على طريقها.

وعن ذاك الدمج بين الأشكال غير المتناسقة والأطراف غير المتناسبة، الذي تتصّف به الشّخصية التي سلّطنا عليها الضوء منذ قليل، ينتج خليط فريدٌ من الشّناعة والفظاعة؛ خليطٌ ينتصر فيه القبح بالنّسبة لرجل أوروبي، لدرجة أنّه قد يخلّف في نفسه منذ النظرة الأولى شعوراً بالغاً بالاشمئزاز؛ بيد أنّ الزّنوج، وهم أقلّ انتصاراً للجمال وأقلّ اكتراثاً للشّكل منّا، ما كانوا ينظرون إليه على العموم سوى من زاوية الفكاهة، وإنْ كانَ النّمرُ يشقّ بين الفينة والأخرى جلدَ القردِ ويظهر مكشّراً عن مخالبه وأنيابه.

Twitter: @ketab_n

كانَ اسمه أنطونيو، وكان قد ازداد في تنغورام[1]؛ وحتّى يتمّ تمييزه عن باقي من يحملون اسم أنطونيو، والذين كان سيَجرَحهم الخلطُ بينهم وبينه، كان يُنادى عادةً باسم أنطونيو الماليزيّ.

كانت البرلوكا إذن حزينة كما قلنا، حين تسلّل أنطونيو إلى المشهد، دون أن يلحظه أحد، حتّى بلغ آخِر الأعمدة التي تقوم عليها السّقيفة، ومدّ رأسَه الأصفَر، وأطلق صفيراً شبيهاً بالفحيح الذي يطلقه ثعبان الكوبرا، وهو أحد الثعابين الأشدّ رعباً في شبه الجزيرة الماليزيّة. ولو أنّ ذاك الصّفير كان قد أُطلقَ في سهول تِناسِريم (برمانيا) أو في أهوار جزيرة جاوة (أندونيسيا) أو على رمال جزيرة كيلوا (تنزانيا)، لكان جمّد من الرّعب أيّ شخص يسمعه؛ لكنْ في جزيرة موريس، حيث لا وجود لأيّ حيوان خطير ما خلا أسماك القرش التي تسبح في أسراب قرب الشواطئ، ما كان لذلك الصّفير من أثر سوى ذاك الذي جعلَ الزّنوج المجتمعين يُبدون عيوناً جاحظة وأفواهاً فاغرة. ثمّ استدارت الرّؤوس جميعها شطْرَ أنطونيو، كأنّما وجَّهها الصّوتُ المنطلقُ، وصاح الجميع بصوتٍ واحدٍ:

- أنطونيو الماليزيّ! يحيا أنطونيو!

على أنّه كان ثمّة زنجيّان أو ثلاثةٌ انتفضوا وقاموا شبه منتصبين؛ كانوا في الواقع من الملغاشيّين والوولوف والزنجباريّين، الذين سبق لهم في شبابهم أن سمعوا ذاك الصّفير، وما نسوه.

لا بل إنّ واحداً منهم انتصب بكامل قامته: كانَ شابّاً أسودَ حسنَ الوجه، لدرجة أنّه لولا لونه لَحَسِبَ المرء أنّه من أبناءِ أجوَد الأصولِ

(1) لم نجد أثراً لأيّ منطقة جغرافية تحمل هذا الاسم في المناطق التي يجري فيها السّرد هنا، والنّتيجة نفسها انتهى إليها ليون فرانسوا هوفمان في طبعته للكتاب في سلسلة فوليو كلاسيك/غاليمار، على أنّه يشير إلى وجود منطقة بهذا الاسم في شمال برمانيا.

Twitter: @ketab_n

القوقازية. لكن ما إن عرف مصدر الصوت الذي سحبه من منامه، حتّى عاد إلى النّوم هامساً باحتقارٍ يعادل فرح باقي العبيد:

- أنطونيو الماليزيّ!

وبثلاثِ قفزاتٍ من ساقيْه الطويلتين ألفى أنطونيو نفسه في وسط الحلقة؛ ثمّ قفز فوق النّار، وتدحرج إلى الجانب الآخر ثمّ جلس على طريقة الخيّاطين[1].

صاحت الأصوات جميعها:

- أغنية، يا أنطونيو! أغنية.

وبخلاف الموهوبين الواثقين في تأثيرهم على النّاس، لم ينتظر أنطونيو أن يرجُوَه الآخرون ليبدأ؛ وأخرج من جرابه قيثارة غامبارديّة[2]، ووضعها في فمه، وشرع يطلق منها بعض الأصوات التمهيديّة التي يمكن اعتبارها بمثابة مستهلّ للاستعراض؛ ثمّ أطلق العنان لأغنيته مع مصاحبةِ كلماتها بإيماءاتٍ فظّة تناسبُ المقامَ:

1

أنا بقيتُ في كوخ صغير
حيث ينبغي أن أنحنيَ لأدخله
رأسي يمسّ سقفه
حين تمسّ قدمايَ أرضيّته.

---

(1) أي ساقاه مثنيّتان إلى تحت، وركبتاه تلامسان الأرض.

(2) آلة موسيقية تقليدية صغيرة وبسيطة تُستعمل في الموسيقى الشّعبية أساساً، تتكوّن من هيكل نصف دائريّ تُبّت عليه من طرف واحد لسان صغير من المعدن أو الخشب أو قصب البامبو، يُحرّك بإصبع ليُحدث رنيناً يضخّمه العازف بفمه الذي يشكّل بالتصاقه بالآلة صندوقاً للرّنين. الآلة قديمة وثمّة شواهد على استخدامها في الصين قبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون.

Twitter: @ketab_n

أنا لا أحتاج إلى النّور
مساءً حين أريد أن أنام؛
لأنّي أجد القمر مضيئاً
فلا أضيع الطريق إلى جُحري، حمداً لله!

2

سريري حصيرٌ ملغاشيٌّ صغير
ووسادتي قطعةُ خشبٍ بيضاء
قرْبتي من خشبٍ عتيق
أملؤها بالعرَق في رأس السنة
وحينَ تقوم زوجتي بالأشغال المنزليّة
ويصل موعد العشاء يومَ السّبت
أطهو في كوخي الصّغير
الموزَ تحت الرّماد المتّقد

3

خزْنتي لا قفلَ بها
ولم أغلقها يوماً
ففي قصب البامبو، ودون غطاء
من ذا الذي سيأخذ غليوني؟
ويوم الأحد إذا ما كسبتُ قوت يومي
أشتري قليلاً من التّبغ
وأدخّنه طيلة الأسبوع
في غليوني الكبير.

Twitter: @ketab_n

على القارئ أن يعيش وسط ذاك النّوع من النّاس البسطاء والبدائيّين، الذين يُدهشهم كلّ شيء، ليدركَ التأثيرَ الذي خلّفته أغنية أنطونيو على فقرِ قوافيها وبساطةِ أفكارها. فعند نهاية المقطعين الغنائيّين الثاني والثالث، كان ثمّة ضحكات وتصفيقات؛ وعند نهاية المقطع الثالث، صيحاتٌ وهتافاتٌ وهياج. وحده الزنجيُّ الشّابّ الذي أبدى احتقاره لأنطونيو، هزّ كتفيه وعلى وجهه تعبير اشمئزاز.

أمّا أنطونيو، فبدلاً من أن يبتهج لنجاحه كما قد يخطر بالبال، وبدلاً من أن يزهوَ بالتصفيقات، أسندَ مرفقيه إلى ركبتيه، وترك رأسه يتدلّى على راحتيه، وبدا أنّه قد أسلم نفسه لتأمّل عميق. وبما أنّ أنطونيو كان هو منشّط الجلسة بالضرورة، فقد غشيَ الحزنُ الجمعَ بِسُكوته. ترجّاه الحضور أن يحكي حكاية أو يغنّي أغنية أخرى. لكنّ أنطونيو صمّ أذنيه، ولم تجد أكثر توسّلاتهم إلحاحاً من جواب سوى ذاك الصّمت الغامض العنيد.

وانتهى المطاف بأحد أولئك الذين كانوا يجلسون لصقه إلى أن ضربه على كتفه قائلاً:

- ما بك أيّها الماليزيّ؟ هل متّ؟

أجابه أنطونيو:

- كلّا، ما زلت حيّاً.

- وما الذي تصنعه إذن؟

- أفكّر.

- وفيمَ تفكّر؟

- أفكّر في أنّ وقت البرلوكا وقت ممتع. عندما يسحب الرّب ضوء الشّمس، وتصل ساعة البرلوكا، يصير كلّ واحد يعمل بمتعةٍ؛ لأنّ

Twitter: @ketab_n

كلّ واحد آنذاك يعمل لنفسه، وإن يكنْ ثمّة بعض الكسالى الذين ينفقون وقتهم في التدخين، مثلكَ يا توكال؛ أو بعض الشّرهين الذين يستمتعون بطهيِ الموز مثلك يا كامبيبا. لكن كما قلت، ثمّة من يعملون. أنت مثلاً يا كستور، أنت تصنع كراسيّكَ؛ وأنت يا بونوم تصنع ملاعقك الخشبية؛ وأنت يا ناظم تصنع كسلك.

أجابه الزنجي الشّابّ:

- ناظم يفعل ما شاء. ناظم هو أيّل جزيرة أنجوان[1]، مثلما أنّ لايزا أسدُها، ولا شأن للثعابين بما تفعله الأسود والأيائل.

عضّ أنطونيو على شفتيه؛ وبعد لحظة صمت، بدا أثناءها أنّ صوت العبد الشابّ الحادّ لا يزال يتردّد، استأنف كلامه:

- كنت أفكّر إذن، وقلت لكم إنّ وقتَ البرلوكا وقتٌ ممتع؛ لكن، حتّى لا يشقّ عليكما العمل يا كاستور، أنت وبونوم؛ وحتّى تُلفيَ مذاقَ تبغك أفضلَ يا توكال؛ وحتّى لا يأخذك النّعاس وأنت تطهو موزك يا كامبيبا، ينبغي أن يكون ثمّة من يحكي لكم الحكايات ويغنّي لكم الأغاني.

أجاب كاستور:

- أنت محقّ، وأنطونيو يعرف حكاياتٍ جميلة جدّاً، وأغاني رائعة.

أجاب الماليزيّ:

- لكن عندما لا يغنّي أنطونيو أغانيه ولا يحكي حكاياته، ما الذي يحلّ بكم؟ يرقد الجميع، لأنّ الجميع يكون متعباً من اشتغال الأسبوع بأكمله. وآنئذ لا تكون ثمّة برلوكا: آنئذ لا تصنع كراسي البامبو يا كاستور؛ ولا أنت تصنع ملاعقك الخشبية يا بونوم؛ وأنت يا

---

(1) جزيرة ذات حكم ذاتيّ، تابعة لجمهورية جزر القمر.

Twitter: @ketab_n

توكال، تترك غليونك ينطفئ؛ وأنت يا كامبيبا، تغفل عن موزك فيحترق؛ أليس كذلك؟

أجاب الجميع ككورس: «بلى»، الجميع، بما فيهم أولئك الذين لم يذكرهم أنطونيو بالاسم، باستثناء ناظم الذي حافظ على صمته المزدري.

عليكم إذن أن تشكروا ذاك الذي يحكي لكم حكايات جميلة حتّى تظلّوا مستيقظين، ويغنّي لكم أغانٍ جميلة لتضحكوا.

صاحوا جميعهم:

- شكراً يا أنطونيو، شكراً!

- وبعدَ أنطونيو، من بوسعه أن يحكيَ لكم حكاياتٍ جميلة؟

- لايزا: ليزا أيضاً يعرف حكايات جميلة.

- أجل، ولكنّها حكايات تجعلكم ترتعدون.

أجاب الزّنوج:

- أجل، إنّك محقّ.

- وبعد أنطونيو، من يستطيع أن يغنيَ لكم أغاني؟

- ناظم: ناظم أيضاً يعرف أغانٍ جميلة.

- أجل، ولكنّها أغانٍ تجعلكم تبكون.

قال الزّنوج:

- أجل، إنّك محقّ.

- وحده أنطونيو إذن، يعرف أغاني وحكايات تضحككم.

أجاب الزّنوج:

- أنت محقّ في هذا أيضاً.

- ومن ذا الذي غنّى لكم أغنيةً منذ أربعةِ أيّام؟

- أنت أيّها الماليزيّ..

Twitter: @ketab_n

- ومن ذا الذي حكى لكم حكايةً منذ ثلاثة أيّام؟
- أنت أيّها الماليزيّ.
- ومن ذا الذي غنّى لكم أغنيةً أوّل أمس؟
- أنت أيّها الماليزيّ.
ومن ذا الذي حكى لكم أمس حكاية؟
- أنت أيّها الماليزيّ.
- ومن ذا الذي غنّى لكم اليوم أغنيةً، وسيحكي لكم حكايةً بعد قليل؟
- أنت أيّها الماليزيّ، دوماً أنت.
- وإذن، إذا كنت أنا سبب سعادتكم وأنتم تعملون، وسبب متعتكم وأنتم تدخّنون، والسّبب الذي يمنعكم من النّوم وأنتم تطهون موزكم؛ فمن العدل إذن أن تعطوني شيئاً، أنا الذي لا أستطيع أن أفعل شيئاً ما دمت قد وهبت نفسي لكم.

صدمت صحّة ملاحظته الجميع؛ بيد أنّ تحري الصّدق، على عادة المؤرّخين، يحتّم علينا الإقرار بأنّ القليل فقط من الأصوات السّليمة النيّة، أجابت موافقة.

أكمل أنطونيو كلامه:
- وعليه، يقتضي العدل أن يعطيني أنطونيو القليلَ من التبغ لأدخّنه في غليوني؛ أليسَ كذلك يا كامبيبا؟

صرخ كامبيبا متهلّلاً إذ لم يقع الحكمُ عليه:
- بلى، إنّك محقّ.

واضطرّ توكال إلى اقتسام تبغه مع أنطونيو.

اِستمرّ أنطونيو في كلامه:

Twitter: @ketab_n

- وذاك اليوم أضعت ملعقتي الخشبية. ولا نقود عندي لأشتري واحدة، فأنا بدلاً من أن أعمل أنفقت وقتي أغنّي لكم أغاني وأحكي لكم حكايات؛ يقتضي العدل إذن أن يعطيني بونوم ملعقة خشبيّة لأتناول بها حسائي؛ أليس كذلك يا توكال؟

صرخ توكال مبتهجاً إذ لم يكن الوحيد الذي وقع عليه حكم أنطونيو:

- بلى، إنّك محقّ.

ومدّ أنطونيو يده لبونوم، الذي أعطاه الملعقة التي كان فرغ من صنعها توّاً.

اِستأنف أنطونيو كلامه:

- والآن، ها قد صار عندي تبغ أدخّنه في غليوني، وملعقة أشرب بها حسائي؛ لكنّي لا أملك نقوداً أشتري بها ما أضعه في مرَقي. يقتضي العدل إذن أن يعطيني كاستور الكرسيّ الجميل الذي يصنعه، كي أبيعه في السّوق وأشتري بثمنه قطعةً صغيرة من لحم العجل؛ أليس كذلك يا توكال؟ أليس كذلك يا بونوم؟ أليس كذلك يا كامبيبا؟

صاح توكال وبونوم وكامبيبا:

- بلى، أنت محقّ! بلى، أنت محقّ!

وسحب أنطونيو من بين يدي كاستور الكرسيّ الذي كانَ قد سمّر فيه للتوّ آخر ساق بامبو؛ سحبَه معتمداً على شيء من قوّته وشيء من حسن النيّة، ثمّ استأنف كلامه:

- والآن، ها أنا ذا قد غنّيت لكم أغنية أتعبتني، وسأحكي لكم حكاية ستتعبني أكثر. يقتضي العدل إذن أن آكل شيئاً أستعيد به قوايَ؛ أليسَ كذلك يا توكال؟ أليك كذلك يا بونوم؟ أليسَ كذلك يا كاستور؟ .

Twitter: @ketab_n

صاح المتواطئون الثلاثة بصوت واحد:

- بلى، إنّك محقّ!

راودت كامبيبا فكرةٌ مرعبة. وقال أنطونيو مكشّراً عن فكّين عريضين وبرّاقين كفكّي ذئب:

- لكنّي، لكنّي لا أملك ما أضعه بين أسناني الصّغيرة.

أحسّ كامبيبا بقشعريرة وقف لها شعر رأسه، وبحركة آليّةٍ مدّ يده نحو الموقد.

اِستأنف أنطونيو كلامه:

- يقتضي العدل إذن أن يعطيني كامبيبا موزةً صغيرة؛ أليس كذلك؟

صاح توكال وبونوم وكاستور في آن:

- بلى، بلى، إنّك محقّ، بلى، إنّك محقّ: موزة يا كامبيبا! موزة يا كامبيبا!

وانطلقت الأصوات جميعها مثل كورس:

- موزة يا كامبيبا!

نظر الشقيّ إلى الجمع بعينين فزِعتَين وهرع إلى الموقد لإنقاذ موزته؛ بيد أنّ أنطونيو اعترضه وأمسك به بقبضة ما كان أحدٌ ليتصوّر قوّتها، وباليد الأخرى أمسك بالحبل الذي كان يُستخدَم في رفع أكياس الدرة إلى الجرن؛ وضع خطّاف الحبل في حزام كامبيبا وأشار إلى توكال كي يجرّ الطرف الثاني من الحبل. فهِم توكال إشارة أنطونيو بسرعة يدين بها إلى ذكائه؛ ودون أن يتوقّع كامبيبا ما سيحصل له، ألفى نفسه معلّقاً في الهواء وكلّ من في الجمع يسحبونه إلى أعلى بمرح صاخب. وعندما بلغ تقريباً ارتفاعَ عشر أقدام من الأرض، كفّت الأيادي عن الرفع، وظلّ كامبِيبا معلّقاً يمدّ يديه المتوتّرتين إلى موزته المسكينة، والتي ما عاد بمقدوره أن يحول بينها وبين عدوّه.

Twitter: @ketab_n

صرخ الحضور جميعهم وهم يشدّون على بطونهم من الضّحك: «برافو، أنطونيو! برافو، أنطونيو!»، بينما أنطونيو، وقد صار السيّد المطلق على موضوع النزاع، نكش الرّماد وأخرج منه الموزة التي كانت قد نضجت تماماً وتحمّرت حتّى غدا الرّيق يتحلّب لمرآها.

صرخ كامبيبا بصوت يحمل أعمقَ أمارات اليأس:

- موزتي، موزتي!

فردّ عليه أنطونيو وهو يمدّ إليه يده:

- هي ذي.

- هو بعيد، أنا لا يستطيع بلوغه[1].

- هل تريد منها؟

- أنا لا يستطيع بلوغه.

ردّ أنطونيو وهو يحاكي لكنة المعلّق المسكين محاكاةً ساخرةً:

- أنا إذن يأكلُ هوَ، ليمنع هوَ من أن يفسد.

وشرعَ أنطونيو بتقشير الموزة برصانة هزلية جعلت الضحكات تصبح هستيريّة.

صرخ كامبيبا:

- أنطونيو، أنطونيو، أنا يترجّى أنتَ يعيدُ إليَّ موزتي؛ الموز كان لامرأتي أنا المسكينة، التي كان مريضاً والتي لن يستطيع أكلَ شيء آخر. أنا سرقَ الموز، أنا يحتاج الموز.

أجابه أنطونيو متفلسفاً وهو لا يزال يقشّر الموزة:

- الحرام لا يدوم!

(1) يتحدّث كامبيبا الفرنسية بلكنة كريولية، وحاولنا إخضاع الجملة العربية لنفس منطق الفرنسية التي يتحدّثها حفاظاً على أثر النّص.

Twitter: @ketab_n

- آه! المسكينة نارينا، المسكينة نارينا! لن يبقَى لها ما تأكله، وستجوع، ستجوع!

قال زنجيّ أنجوان الشابّ، وكان الوحيد الذي ظلّ صارماً وكئيباً وسط مرح الجميع:

- اِرحموا هذا المسكين!

أجابه أنطونيو:

- ليست بالفكرة الغبيّة!

اِستأنف ناظم كلامه:

- لستَ أنت من أكلّمه.

- ومن إذن؟

- أكلّم الرّجال.

فردّ عليه أنطونيو:

- أمّا أنا فأكلّمك وأقول لك: صه يا ناظم.

ردّ ناظم بنبرة تحمل من عزّة النّفس ما قد يفخر بامتلاكها ملك:

- فكّوا وثاق كامبيبا.

اِستدار توكال، الذي كان ممسكاً بالحبل، شطْرَ أنطونيو، غير واثق ممّا إذا كان عليه أن يستجيب للأمر. لكنّ أنطونيو دون أن يردّ على استفهامه الصّامت قال:

- قلت لك: «صه يا ناظم»، لكنّك لم تصمت.

- عندما ينح الكلب خلفي، أكمل طريقي دون أن أجيبه. أنت كلبٌ يا أنطونيو.

قال أنطونيو وهو يهزّ رأسه:

- اِنتبه لما تقول يا ناظم؛ عندما لا يكون أخوك لايزا هنا، لا تكون

Twitter: @ketab_n

قادراً على شيء. وإنّي لمتأكّد من أنّك لن تكرّر ما قلتَه.

كرّر ناظم كلامه وهو يقف منتصباً:

- أنت كلب يا أنطونيو.

تفرّق كلّ الزنوج الذين كانوا ما بين ناظم وأنطونيو، حتّى ألفى زنجيّ أنجوان الحسَنُ الوجه والماليزيّ القميءُ نفسيهما وجهاً لوجه، تفصل بينهما عشرة أمتار.

اِستطرد أنطونيو، وهو يصرّ أسنانه من الغضب:

- تقول ذلك لأنّك بعيد يا ناظم.

صاح ناظم:

- وأعيده من مسافة قريبة.

ثمّ، بقفزة واحدة صار على بعد خطوتين من أنطونيو، وقال له بصوت مزدرٍ ونظرة متعالية ومنخرين منتفخين، للمرّة الثالثة:

- أنت كلبٌ يا أنطونيو!

ولو أنّ رجلاً أبيضَ واتته القوّة لارتمى على عدوّه وخنقه. لكنّ أنطونيو تراجع خطوةً إلى الخلف، وانثنى على ساقيه الطويلتين مثل حيوان زاحفٍ، وأخرج مديته من جيب سترته، ثمّ فتحها في وجه ناظم:

رأى ناظم حركة أنطونيو وخمّن نيّته؛ لكن لم تصدر عنه أيّ حركة دفاع، وظلّ واقفاً صامتاً وساكناً ينتظر مثل إلهٍ نوبيّ.

مسح الماليزيّ عدوّه لحظةً بنظراته، ثمّ صرخ وهو يقفز بمرونة ثعبان وخفّته:

- ويلكَ يا ناظم! لايزا ليسَ هنا.

أجابه صوت قويٌّ:

- لايزا هنا.

Twitter: @ketab_n

ذاك الذي نطق بتلك العبارة، نطقها بنبرة صوته المألوفة؛ دون أن يضيف إليها أيّة حركة، أو يصاحبها بإشارة، ومع ذلك توقّف أنطونيو ما إن سمع ذاك الصّوت، وأفلت من يده مديته التي لم يكن يفصل بينها وبين صدر ناظم سوى بوصتين.

صرخ الزنّوج جميعهم: « لايزا!» وهم يستديرون صوب الواصل حديثاً، متّخذين في اللّحظة نفسها سمتَ الخضوع.

وكان الرّجل الذي بوسع كلمةٍ واحدةٍ منه أن تخلّف ذلك الأثر القويّ على الجميع، بما فيهم أنطونيو، أقول كان فتىً في عنفوان شبابه، ذا قامة عاديّة، بيد أنّ أطرافه كانت مشدودة العضلات جدّاً، وتفصح عن قوّةٍ هائلة. كان يقف ساكناً، ضامّاً ذراعيه؛ ومن عينيه شبه المغمضتين كأنّه أسدٌ يتأمّل، كانت تنبعث نظرة برّاقة هادئة وقاهرة. ومن رأى أولئك الرّجال، الصّامتين بوقار، منتظرين كلمة أو إشارة من ذلك الرّجل، حسبَ أنّه أمام عشيرة أفريقية تنتظر من ملكها إشارة الحرب أو السلام؛ ولكنّه لم يكن مع ذلك سوى عبد بين عبيد.

وبعد دقائق من سكون الأصنام، رفع لايزا يده ببطء نحو كامبيبا، الذي كان طيلة ذلك الوقت لا يزال معلّقاً عند طرف الحبل يحوم، صامتاً مثل الجميع، يتابع الواقعة بعينيه. وفوراً أرخى توكال الحبل، فنزل كامبيبا مبتهجاً إلى الأرض. وكانت أوّل حركة يقدم عليها هي البحث عن موزته، بيد أنّ الموزة كانت قد اختفت وسط الهرج والمرج اللّذين أعقبا الواقعة.

وبينما كامبيبا يبحث عن موزه، كان لايزا قد خرج؛ لكنّه ما لبث أن عاد حاملاً على كتفيه خنزيراً بنيّاً ألقى به قرب الموقد قائلاً:

– هاكم، أيّها الأولاد، لقد فكّرت فيكم، خذوه واقتسموه.

Twitter: @ketab_n

ومسّ الفعل الذي أقدم عليه لايزا، والكلمات السّخية التي رافقته، أشدّ الأوتار الحسّاسة في قلوب الزّنوج؛ وتر الشره ووتر الحماسة، فظهر أثرهما. أحاطوا جميعهم بالحيوان، مبدياً كلّ واحد منهم حماسته بطريقته الخاصّة:

قال أحد المالاباريين:

- أوه! أيّ عشاء طيب هذا المساء!

وقال ملغاشيّ:

- إنّه أسود مثل موزمبيقيّ.

وقال موزمبيقيّ:

- إنّه سمين مثل ملغاشيّ.

بيد أنّ من السّهل التخمين أنّ إعجابهم ذاك كان شعوراً مثاليّاً بشكل مبالغ فيه، وأنّه لن يطول به الأمر ليتحوّل إلى شيء أكثر عمليّة. وفي رمش العين تمّ تمزيق الحيوان، وادّخار جزء منه إلى الغد؛ بينما قُطّع الجزء الثاني إلى مِزَقٍ رقيقة بما يكفي نُشرت على الفحم، وقطعة واحدة أشدّ سمكاً وضعت لتنضج أمام النّار.

فعاد كلّ واحد منهم إلى مكانه متهلّل الوجه، إذ كانوا جميعاً ينتظرون عشاءً طيّباً. وحده كامبيبا انتبذ لنفسه مكاناً معزولاً وظلّ واقفاً حزيناً.

سأله لايزا:

- ماذا تفعل هنا يا كامبيبا؟

أجابه كامبيبا بنبرة حزينة:

- أنا لا يفعل شيئاً، بابا لايزا.

و«بابا» ذاك، كما يعرف الجميع، لقبُ تشريف عند الزنوج، وكلّ سكان المزرعة، من أصغرهم سناً إلى أكبرهم، كانوا يطلقونه على لايزا.

Twitter: @ketab_n

سأله الزّنجيّ:

- هل ما زلت تتألّم من أثر الحبل الذي شدّ وسطك؟

- أوه! كلّا، بابا، أنا ليسَ على ما يرام.

- أنت حزينٌ إذن؟

ولم يُجب كامبيبا هذه المرّة إلّا مؤكّداً بهزّة رأس من أعلى إلى أسفل.

- ولِمَ أنتَ حزين؟

- أنطونيو أخذ موزتي، الذي أنا اضطرّ يسرقه ليعطيه زوجتي التي كانت مريضة، وأنا الآن ليس لدي شيء يعطيه إليها.

- آه هكذا، أعطها إذن قطعة من هذا الخنزير البريّ.

- هي لا يقدر يأكل اللّحم. كلّا، لا يقدر، بابا لايزا.

قال لايزا بصوت مرتفع:

- يا أنتم! من لديه هنا موزٌ يعطينيه؟

إذ ذاك خرجت من تحت الرّماد دستة موزات. أخد لايزا أفضل موزة وأعطاها كامبيبا، الذي ركض مسرعاً حتّى قبل أن يشكر لايزا؛ ثمّ استدار صوب بونوم الذي كان صاحب الثّمرة:

- لن تخسر شيئاً يا بونوم؛ لأنّك بدلاً من الموزة ستأخذ حصّة أنطونيو من اللّحم.

قال أنطونيو بوقاحة:

- وأنا، ما الذي سآكله إذن؟

أجابه لايزا:

- أنت ستأكل الموزة التي سرقتها من كامبيبا.

أجابه الماليزيّ:

- ولكنّي فقدتها.

Twitter: @ketab_n

- الأمر لا يعنيني.

قال الزنوج:

- برافو! الحرامُ لا يدوم.

نهض الماليزيّ، ونظر نظرة جانبية إلى الرّجال الذين كانوا منذ حين يهتفون له وهو يضطهد كامبيبا، وها هم أولاء يهتفون لعقوبته؛ ثمّ غادر السّقيفة.

قال ناظم للايزا:

- اِحذر منه يا أخي. إنّي أعرفه، سيدبّر لك مكيدة ما.

- اِنتبه لنفسك أنت يا ناظم، أمّا أنا فلن يجرؤ على الاقتراب منّي.

قال ناظم:

- حسناً سأنتبه لك وستنتبه لي. لكن ليس الآن وقت ذلك، وثمّة كما تعلم موضوع آخر ينبغي أن نتحدّث فيه.

- أجل، لكن ليسَ هنا.

- لنخرج إذن.

- سنخرج بعد قليل، حين ينشغل كلّ واحدٍ بوجبته، فلا ينتبه إلينا أحد.

- إنّك محقّ يا أخي.

وبدأ الزّنجيان يتحدّثان فيما بينهما بصوت خفيض في أشياء غير ذات شأنٍ؛ لكن ما إن نضجت القطع، واستوى اللّحم المشويّ، حتّى استغلّا ذاك الانشغال الذي يحصل عادةً في اللّحظات التي تسبق وليمةً تصاحبها شهيّةٌ طيّبة، وانسلّا معاً إلى الخارج دون أن يلحظ باقي الجمع اختفاءهما، تماماً مثلما قدّر لايزا.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الثامن

زينة الزّنجي الآبق

كان الوقت يشارف العاشرة مساءً؛ واللّيلةُ لا بدرَ فيها، جميلةٌ ومرصّعةٌ بالنّجوم على عادة اللّيالي الاستوائية نهايةَ الصّيف: وكان بالإمكان رصد بعض مواكب النّجوم، تلك التي ألفناها منذ طفولتنا تحت أسماء: الدّب الأصغر، وكوكبة الجبّار، ونجوم الثريّا، لكنّ رصدها كان يتمّ في مواضع مختلفة عن تلك التي ألفنا مشاهدتها منها، حتّى أنّ رجلاً أوروبيّاً لا يكاد يراها؛ وبخلاف ذلك، كانت كوكبة صليب الجنوب التي لا تظهر في النّصف الشّمالي حيث نعيش نحن، تتلألأ في الوسط. ولم يكن يجرح صمتَ الغابة سوى صوت جذوع الأشجار إذ تقرضها الطناريقُ[1] التي تعمّر أحياء النّهر الأسود، وزقزقة طيور أشجار التّين الزّرقاء وعنادل مدغشقر وطيور الدُّخلَّة[2] والعنادل؛ والصّوتُ الذي لا يكاد يسمع، صوتُ انسحاقِ العشب اليابس تحت أقدام أخوَيْن.

كانّ الزّنجيان يسيران صامتين، وينظران حولهما من حين إلى آخر نظراتٍ قلقةً، ويتوقّفان ليصيخا السّمع، ثمّ يكملان طريقهما؛ وإذ بلغا موضعاً محجوباً بكثافة نباتاته، دخلا إلى ما يشبه غابة صغيرة من قصب البامبو، وحين وصلا إلى وسطها نظرا مرّة أخرى حولهما. ولا ريب في أنّ تقصّيهما الأخير ذاك كان أكثر مبعثاً على الاطمئنان، إذ تبادلا بعده نظرات

(1) من الثديّيات آكلات الحشرات التي تعيش على جزيرة مدغشقر، وهو شبيه بالقنفذ.

(2) طائر من فصيلة الجواثم.

Twitter: @ketab_n

آمنة وقعدا معاً أسفل شجرة موز بريّ تمدّ أفنانها العريضة كمراوح رائعة، بين الأوراق الغضّة لشجيرات الورود الدقيقة التي تحيط بها.

كان ناظم هو البادئ إلى الكلام، وسأل بنفاد الصبر نفسه الذي خفّف لايزا من حدّته حين أوشكَ أن يسأله وسط باقي الزنوج:

- وإذن يا أخي؟

قال لايزا:

- أما زلت عازماً على الأمر إذن يا ناظم؟

- أكثر من أيّ وقت مضى يا أخي. سأموت هنا، أرأيت؟ حتّى اليوم كنت قد أخذت على عاتقي أن أعمل، أنا ناظم، أنا، ابن القائد، أنا، أخوك؛ لكنّي سئمت هذه الحياة البئيسة: سأعود إلى أنجوان أو أموت.

تنهّد لايزا. ثمّ قال:

- المسافة إلى أنجوان بعيدة.

أجابه ناظم:

- لا يهمّ!

- إنّه فصل الرّياح.

- ستدفعنا الرّيح أسرَعَ.

- وإذا ما غرق القارب؟

- سنسبح جَهدَ قوانا؛ وحين لا يعود بمقدورنا أن نسبح، سنرى السّماء لآخر مرّة هناكَ حيث تنتظرنا الرّوح الكبيرة، وسنغرق متعانقَين.

قال لايزا:

- وا أسفاه!

Twitter: @ketab_n

فردّ ناظم:

- ذاك أهون من أن يظلّ المرء عبداً.

- هكذا إذن، تريد الرّحيل عن جزيرة موريس؟

- أجل، أريد ذلك.

- وتغامر بحياتك؟

- أغامر بحياتي.

- احتمالُ عدمِ بلوغك أنجوان عشرُ فُرَصٍ مقابلَ فرصةٍ واحدة.

- أملكُ فرصةً مقابلَ عشر.

قال لايزا:

- حسناً، ليكن ما شئتَ يا أخي. لكنّي أطلب منك أن تعيد التفكير في الأمر.

- سنتان وأنا أفكّر في الأمر. منذ أسرني قائد المونغالو في معركة، مثلما أُسرت أنت نفسك قبل ذلك بأربع سنوات، اتّخذت قراري في تلك اللّحظة نفسها. حاولت أن أخنق نفسي بقيودي، فأوثقوني إلى ركيزة. حاولت إذّاك أن أكسر رأسي على جدار السّفينة فوضعوا القشّ أسفل رأسي؛ تركتُني أموت جوعاً، ففتحوا فمي، وإذ لم يستطيعوا إجباري على الأكل، أجبروني على شرب الماء. وكانَ لزاماً عليهم الإسراع ببيعي، فأنزلوني هنا وباعوني بنصف الثمن، وكانَ سعراً مرتفعاً مع ذلك؛ كنت عازماً على إلقاء نفسي من أوّل مرتفع أصعده. ثمّ فجأةً سمعت صوتك يا أخي؛ فجأةً ضممتُ قلبي إلى قلبك؛ فجأةً أحسست بشفتيك فوق شفتيّ، وألفيتُني سعيداً، حتّى حسبت أنّ بوسعي العيش. لقد دام الأمر سنة. اعذرني أخي، لم تكن صحبتك وحدها لتكفيني بعد ذلك. تذكّرت

Twitter: @ketab_n

جزيرتنا، تذكّرت أبي، تذكّرت إرنا. وبدت لي أشغالنا شاقّة، ثمّ مهينة، وفي الأخير صارت لا تطاق. فقلت لك إنّي أريد الهرب، أريد العودة إلى أنجوان، أريد أن أرى إرنا مرّة أخرى، أن أرى والدي، أن أرى جزيرتنا؛ فكنتَ سنَدي كما في كلّ مرّة، وقلت لي: اِرتحْ يا ناظم، إنّك خائر القوى، سأعمل أنا، فأنا قويّ. وصرتَ تخرج كلّ مساء مدّة أربعة أيّام، تخرج للعمل بينما أنا أرتاح. أليسَ كذلك يا لايزا؟

قال لايزا وهو يرفع جبينه:

- بلى يا ناظم؛ لكن اسمعْ: يجدر بنا التريّث قليلاً. فاليوم نحن من العبيد، من يدري ما نكون بعد شهر، أو ثلاثة أشهر، أو بعد سنة، ربّما أصبحنا من الأسياد.

قال ناظم:

- أجل، أجل، أعرفُ خططكَ، أعرف ما تصبو إليه.

- هل تدرك، إذن، ما معنى أن يحين دَور البِيضِ القساة المعتدّين بأنفسهم، ونراهم مهانين يترجّوننا؟ هل تدركُ ما معنى أن نجعلهم يشتغلون بدورهم اثنتَي عشرةَ ساعةً في اليوم؟ هل تدركُ ما معنى أن نضربهم بدورهم ونجلدهم بالسّياط ونسحقهم بالعصيّ؟ هم اثنا عشر ألفاً ونحن ثمانونَ ألفاً، وحين تأزف ساعة الحساب سيتيهون في وسطنا.

- سأعيد عليك ما قلتَ لي يا لايزا؛ احتمالُ فشَلِكَ عشرُ فرَصٍ مقابلَ فرصةِ نجاح واحدة.

- ولقد أجبتك بما أجبتني يا ناظم، أملك حظّاً مقابل عشرة. لنبقَ إذن...

Twitter: @ketab_n

- لا أستطيع يا لايزا، لا أستطيع... لقد أتتني روح أمّي؛ قالت لي أن أعود إلى بلدي.

- هل رأيتها؟

- أجل؛ منذ خمسة عشر يوماً، يأتيني كلّ مساءٍ عندليبٌ ملغاشيٌّ ويحطّ عند رأسي: هو نفسه ذاك الذي كان يغنّي فوق قبرها بأنجوان. لقد عبر البحر بأجنحته الصّغيرة وجاء: لقد تذكّرت غناءه؛ اِسمع، هوَ ذا.

وبالفعل، في تلك اللّحظة نفسها حطّ عندليب ملغاشيّ على أعلى غصنٍ في الشّجرة الضّخمة التي كان الأخوان يتّكئان تحتها، وبدأ غناءه العذبَ فوق رأس الأخوين. أخذا يستمعان بجبينَين منحنيَين بشجنٍ، إلى أن توقّف العازف اللّيليّ، وحلّق في اتّجاه وطن العبْدَين، وعندما صار على بعد عشرين خطوةً منهما أعاد عزف الألحان نفسها؛ ثمّ طار مرّة أخرى في الاتّجاه نفسه، وكرّر غناءه مرّة أخيرة مثل صدى بعيد عن الوطن، صدىً لا يمكن سماع سوى أنغامه الأعلى مقاماً؛ ثمّ طار مرّة أخرى، لكنّه صار هذه المرّة بعيداً، بعيداً جدّاً، وعبثاً أصاخ المنفيّان السَّمعَ؛ ما عاد بالإمكان سماع شيء.

قال ناظم:

- لقد رحل إلى أنجوان، وسيعود لتذكيري وليريني الطّريق، مرّات ومرّات إلى أن أعود.

- اِذهب إذن.

سأله ناظم:

- أرحل هكذا؟

- كلّ شيء جاهز. لقد اخترتُ عند النّقطة الأشدّ قفراً من النّهر

Twitter: @ketab_n

الأسود، قبالةَ الكئيب، إحدى أضخم الأشجار التي استطعت العثور عليها، ونحتُّ قارباً داخل جذعها، ثمّ من أغصانها صنعت مجدافَين؛ نشرتُ الشّجرة فوق موضع النّحت وتحته، لكنّي لم أسقطها مخافة أن يلاحظوا أنّ ثمّة قمّة ناقصة بين قمم الأشجار؛ لا ينقص الآن سوى دفعها وستسقط، ولن يكون عليك سوى جرّ القارب حتّى النّهر وترْكه يسبح مع التّيار؛ وما دمت تريد الرّحيل يا ناظم، ليكن ما شئتَ، سترحل اللّيلة.

سأله ناظم:

- وأنت، ألن تأتي معي يا أخي؟

- كلّا، أنا سأبقى.

تنهّد ناظم بدوره، ثمّ بعد لحظةِ صمتٍ قال:

- وما الذي يمنعك من العودة معي إلى أرض أجدادنا؟

- لقد أخبرتك بما يمنعني يا ناظم: منذ أكثر من سنة قرّرنا أن ننتفض، وقد اختارني أصدقاؤنا لأقود ثورتهم. لا أستطيع أن أخذل أصدقاءنا وأرحل.

ردّ ناظم وهو يهزّ رأسه:

- ليسَ ذلك ما يمنعك من الرّحيل يا أخي، ثمّةَ شيء آخر.

- وما هو الشّيء الآخر التي تعتقد أنّ بوسعه منعي من الرّحيل يا ناظم؟

أجابه ناظم وهو يحدّق بعينيه مباشرةً:

- تمنعك وردةُ النّهر الأسود.

اِنتفض لايزا، ثمّ بعد هنيهة صمت قال:

- أجل، إنّي أحبّها.

Twitter: @ketab_n

- مسكين يا أخي! وماذا أعددت للأمر؟
- لا شيء.
- فيمَ تأمل؟
- أن أراها غداً، مثلما رأيتها أمس، مثلما رأيتها اليوم.
- لكن، هل لديها علم بوُجودِك؟
- أشكّ في ذلك.
- هل سبق أن كلّمتك.
- كلّا، إطلاقاً.
- والوطن؟
- نسيتُه.
- ونيسالي؟
- ما عدت أذكرها.
- ووالدنا؟

أرخى لايزا رأسه على راحتيه، وبعد هنيهة قال:

- اِسمع، كلّ ما يمكنك أن تقوله لي لتقنعني بالرّحيل، سيكون عبثاً، شأنه شأن كلّ ما بوسعي أن أقوله لك لأقنعك بالبقاء. هي كلّ شيء بالنّسبة لي، هي الأهل والوطن! أحتاج إلى رؤيتها لأظلّ حيّاً، مثلما أحتاج إلى الهواء الذي تتنفّسه هيَ لأتنفّس. ليتبعْ كلّ واحدٍ منّا إذن طريق قدَره: ناظم يعود إلى أنجوان، وأنا أظلّ هنا.
- وماذا أجيب والدي حين يسألني لمَ لم يعد لايزا معي؟

أجاب الزّنجي بصوت مخنوق:

- قل له إنّ لايزا قد مات.

أجاب ناظم هازّاً رأسه:

Twitter: @ketab_n

- لن يصدّقني.
- ولَمَ؟
- سيقول لي: «لو أنّ ولدي ماتَ، لزارتني روح ولدي؛ لم تزُر روحُ لايزا والدَهُ: لايزا إذن لم يمت».
- قل له إذن إنّه أحبّ فتاةً بيضاءَ ليلعَنَني. أمّا أن أترك الجزيرة وهي لا تزال عليها، فمُحالٌ ذلك!

قال ناظم وهو ينهض من مكانه:

- ستُلهِمُني الرّوح الكبيرة ما أقول يا أخي؛ هيّا، قُدني إلى القارب.
- اِنتظر.

تقدّم الزّنجيّ صوبَ جذعِ شجرةٍ محفور، وأخرج منه شقْفة زجاجٍ وقربةً مليئة بزيت جوز الهند.

سأله ناظم:

- ما هذا؟
- اِصغ إليّ يا أخي: من الممكن بفضل الرّيح ومجدافيك، أن تبلغ مدغَشقر، أو حتّى الأرض الكبرى، في ثمانية أيّام أو عشرة. لكنْ واردٌ أيضاً أن تلقي بكَ ريحٌ عنيفةٌ غداً أو بعد غدٍ إلى الشّاطئ. وسيكون أمرك قد كُشِفَ والإشارات قد أُطلِقت للبحث عنك في الجزيرة بأكملها، إذّاك ستكون مضطرّاً لتسلكَ كعبدٍ آبقٍ، وأن تفرّ من غابة إلى غابة، ومن جبل إلى آخر.

قال ناظم:

- أخي، لقد كانوا يدعونني أيّل أنجوان، مثلما كانوا يدعونك الأسد.
- أجل، لكنّك قد تسقط كالأيّل في الشَّرَك. لذا ينبغي أن ألّا نترك لهم أيّ سبيل للإمساك بك؛ عليك أن تنزلق من بين أيديهم. هي

Twitter: @ketab_n

ذي شقْفة زجاج لنجزّ شعرك، وقليل من زيت جوز الهند لندهن أطرافك. هيّا أخي، تعالَ أضع لك زينةَ العبد الآبق.

اِختارَ ناظم ولايزا فُرجةً جلسا تحتها، وعلى ضوء النّجوم شرعَ لايزا بقصّ شعر أخيه بواسطة شقْفة الزّجاج. حلقَ شعره بالكامل ودون أدنى جرح، تماماً مثلما يستطيع أن يفعل أمهر الحلاّقين بواسطة أمضى موسى. وإذ فرغا من ذلك، نزع ناظم سترتَه، وصبّ أخوه على كتفيه قدراً من زيت جوز الهند الذي كانت تحويه القربة، ودَهنه بيديه على كامل جسمه. وإذ صار زنجيّ أنجوان مدهوناً من أعلى رأسه حتّى أخمص قدميه باتَ شبيهاً بمُبارز قديم يستعدّ للمعركة.

وكان يلزمهما اختبار الأمر ليطمئّن قلب لايزا. ومثل ألسيداماس[1] كانَ لايزا يستطيع أن يوقف حصاناً من قائمتيه الخلفيتين، وعبثاً يحاول الحصان أن يفلتَ من يديه. ومثل ميلون الكروتونيّ[2]، كان لايزا يمسك بالثّور من قرنيه ويحمله على كتفيه أو يجعله يخرّ عند قدميه. إذا ما استطاع ناظم إذن أن يفلت من بين يديه فسيفلت من بين يديّ أيّ كانَ. أمسك لايزا بناظم من ذراعه وغذّى أصابعه بطاقة عضلاته الحديدية كلّها. سحب ناظم ذراعه فأفلت من بين يديّ لايزا مثلما يفلت الحنكليس من بين يديّ صيّاد؛ ضمّ لايزا ناظم إلى صدره، وضغط عليه مثلما ضغط هرقل على أنتيه؛ ضغط ناظم بقبضتيه على كتفي لايزا وأفلت من بين ذراعيه وصدره، مثلما يفلت الثعبان من بين مخالب الأسد. إذّاك فقط اطمأنّ الزّنجيّ؛ ما عاد بالإمكان أخذُ ناظم على حين غرّة، أمّا عندما

(1) لم نعثر على أثر للشخصيّة المذكورة، على أنّه قطعاً ليس ألسيداماس السفسطائي تلميذ غورجياس.

(2) أحد أشهر الرّياضيّين الأولمبيين في الإغريق القديمة، وينسب إلى مدينة كروتوني التي كانت آنذاك مستعمرة يونانية وتقع اليوم في إيطاليا.

Twitter: @ketab_n

يجري فبوسعه أن يسبق حتّى الحيوان الذي يلقّب هو باسمه.

ثمّ إنّ لايزا أعطى ناظم القربة المليئة ثلاثةُ أرباعِها بزيت جوز الهند، وأوصاه بأن يحرص عليها أكثر ممّا يحرص على جذور المنيهوت التي ستقيه الجوع، وعلى الماء الذي سيجنّبه العطش. وضع ناظم القربة في حزام وتمنطقَ به.

ثمّ رفع الأخوان عينيهما يستقصيان السّماء، فبدا لهما من مواقع النّجوم أنّ الوقت منتصف اللّيل. اِنتهجا طريقهما صوب كثيب النّهر الأسود، ولم يمض وقت طويل حتّى اختفيا بين الأشجار التي تغطّي سفح جبل «الحلمات الثلاث»؛ لكنْ خلفهما، وعلى بعد عشرين خطوةً من دغل المامبو حيث جرى بينهما الحوار الذي نقلناه هنا، كان ثمّة رجلٌ ظلَّ حتّى تلك اللّحظة ساكناً لا يتحرّك، حتّى أنّ المرء قد يحسبه جذع شجرة بين الجذوع التي كان يرقد وسطها؛ وإذ ابتعد الأخوان، نهض بهدوء، وانزلق كالظّل داخل الأجمة، ثمّ برز لوهلةٍ عند طرف الغابة، وشيّع الأخوَين بنظراتٍ وعيدٍ إلى أن اختفيا فشقّ طريقه صوب بور لويس.

كان الرّجلُ هو أنطونيو الماليزيّ الذي تعهّد بالانتقام من لايزا وناظم، ولسوف يُتمّ وعده.

والآن، مهما حثّ السّير على ساقيه الكبيرتين، ينبغي أن يسمح لنا قرّاؤنا بأن نسبقه إلى عاصمة جزيرة موريس.

Twitter: @ketab_n

الفصل التاسع

وردةُ النّهر الأسوَد

بعدما دفعت الفتاة التي التقيناها للحظةٍ عند عتبة بابها لميكو-ميكو ثمنَ المروحة الصّينية التي أخبرها جورج، أمام عظيمِ دهشتها، بثمنها، عادت إلى بيتها متبوعةً بمربّيتها، بينما زنجيّها يساعدَ التّاجر في تحميل بضاعته. كانت فرِحةً أيّما فرحٍ بغنيمتها التي سيكون مصيرها الإهمال غداً، وذهبت بتلك المِشية المرِنة اللامبالية التي يكمن فيها سرّ جاذبية النّساء الكريوليّات كلّه، تستلقي بتكاسُلٍ على كنبةٍ عريضةٍ، يبدو جلياً بأنّها قد قيّض لها أن تلعب دوراً مزدوجاً: دورَ السّرير ودورَ الكرسيّ. وكانت تلك الكنبة موضوعة أقصى خدْرٍ جميلٍ تزيّنه أواني الخزف الصينيّ والمزهريات اليابانيّة؛ أمّا النُّجُود المعلّقة على الجدران فقد كانت من تلك النّجُود الهنديّة الجميلة التي يجلبها سكّان جزيرة موريس من ساحل كوروماندِيل ويسمّونها «باتْنا». وأخيراً، وكما هو معتاد في البلدان ذات المناخ الحّار، كانت الكراسيّ والمصاطب مصنوعةً من القصب، وثمّة نافذتان متقابلتان، تنفتح إحداهما على حديقة مزروعةٍ أشجاراً، بينما تنفتح الثانية على فناء فسيح، وتسمحان معاً للهواء بأن يتسلّل خلَل الستائر المصنوعة من البامبو، حاملاً معه نسيم البحر وأريج الزّهور. وما إن استلقت الفتاة على كنبتها حتّى حلّق ببّغاء صغير أخضرٌ ذو رأسٍ رماديّ، في حجم طائرِ الدّوريّ؛ تركَ عارضته وأتى ليحطّ على كتفها ويتسلّى بنقر طرف. المروحة اليدويّة التي كانت سيّدته تتسلّى بفتحها

Twitter: @ketab_n

وإغلاقها بحركةٍ آليّة.

قلنا بحركة آليّة، لأنّه كانَ واضحاً أنّ المروحةَ، على روعتها وعلى الرّغم من الرّغبة التي أبدتها الفتاة في الحصول عليها، ما عادت هي ما يشغل بالها. فبالفعلِ، كانت عينا الفتاة تبدوان ثابتتين تحدّقان بنقطة ما من شقّتها، بيد أنّهما ما كانتا تنظران إلى شيء محدّد، وإنّما انصرفتا عن التّحديق بالأشياء الحاضرة إلى متابعة حلم من أحلام فكرها. لا بل أكثر من ذلك: لقد بدا ذاك الحلم وكأنّه يحوز في نظرها كلّ مظاهر الحقيقة؛ إذ من حين إلى آخر، كانت تعبر شفتيها ابتسامة خفيفة، أو تتحرّك شفتاها مجيبتين بصوت خافتٍ على ذكرى خافتة. وقد كان ذاك الانشغال غريباً عن عادات الفتّاة، حتّى أنّه لم يمضِ الكثير من الوقت قبل أن تلاحظه مربّيتها؛ وبعد أن تابعت مامي هنرييت صامتةً للحظاتٍ لعبةَ السِّيماء التي انخرطت فيها تلميذتها، سألتها:

- ما بكِ عزيزتي سارة؟

أجابت الفتاة منتفضةً كمن انتبه فزِعاً من نومه:

- أنا؟ لا شيء. إنّي ألعب كما ترَين مع ببّغائي ومروحتي، وهذا كلّ ما في الأمر.

- أجل، إنّي أرى أنّك تلعبين بمروحتك وببّغائك؛ غير أنّي متأكّدة من أنّي ساعة استللتُك من حلمك، ما كنت تفكّرين في هذه ولا في ذاك.

- أوه! مامي هنرييت، أقسم لك...

قاطعتها المربّية:

- ليس من عاداتك الكذب يا سارة، ولا سيّما معي؛ فهل ستبدئين اليوم؟

Twitter: @ketab_n

تضرّجت وجنتا الفتاة بحمرةٍ ضاجّة؛ ثمّ، بعد لحظةِ تردّدٍ قالت:

- إنّك محقّة يا مربّيتي العزيزة؛ كنت أفكّر في شيء آخر.

- فيمَ كنتِ تفكّرين؟

- كنت أتساءل من عساهُ يكون ذاك الشابّ الذي مرّ من هناك في الوقت المناسب ليخلّصنا من ورطتنا. لم يسبق لي أن رأيته من قبل، ولا ريب في أنّه وصل على الباخرة التي حملت الحاكم. هل من العيب أن أفكّر في ذاك الشابّ؟

- كلّا يا طفلتي، ليسَ عيباً أن تفكّري فيه؛ لكنّك كذبت حين قلت لي بأنّك كنت تفكّرين في موضوع آخر.

قالت الفتاة:

- أخطأتُ، سامحيني.

ومدّت رأسها الجميل إلى المربّية التي مالت عليها وقبّلتها على جبينها.

ظلّتا صامتتين معاً برهةً؛ لكن بما أنّ مامي هنرييت، وهي الإنجليزية الصّارمة، لم ترغب في أن تترك مخيّلة تلميذتها تتوقّف طويلاً عند ذكرى شابّ، وبما أنّ سارة كانت تشعر بورطة الصّمت، فقد فتحتا فميهما معاً في الآن نفسه لتبدآ طرْقَ موضوعٍ جديد. بيد أنّ أولى الكلمات المنطوق بها تصادت نوعاً ما، فتوقّفت كلّ واحدة منهما مفسحةً المجال أمام الأخرى لتتكلّم، فَرَانَ الصّمت من جديد. وكان أن قطعته سارة هذه المرّة:

- ما الذي كنت تودّين قوله مامي هنرييت؟

- أنت أيضاً كنت تريدين قول شيء، ما الذي كنت تودّين قوله يا سارة؟

- كنت أقول، إنّي أودّ لو أعلم ما إذا كانَ حاكمُنا رجلاً شابّاً.

- وفي تلك الحال سترتاحين أكثر يا سارة. أليس كذلك؟

Twitter: @ketab_n

- بلى. بلا ريب. فإن كان الحاكم رجلاً شابّاً فسيُقيم الولائم والحفلات والمهرجانات، فيغمر النّشاط مدينتنا وتخرج من كآبتها! فقط لو ينظّم حفلات رقص!

- تحبّين الرّقص إذن يا طفلتي؟

صاحت الفتاة:

- آه! كم أحبّه!

اِبتسمت مامي هنرييت، فسألتها سارة:

- هل ثمّة عيبٌ في الشّغف بالرّقص؟

- ثمّة عيبٌ في الإقدام على كلّ شيء بشغف، كما تفعلين يا سارة.

أجابت سارة بشيء من الغنج المفعم بالجاذبية، والذي كانت تحسن استغلاله:

- وما العمل يا مربّيتي العزيزة، أنا هكذا: إمّا أن أحبّ وإمّا أن أكرهَ، ولا أعرف السّبيلَ إلى إخفاء كرهي أو حبّي. أوَ لم تقولي لي غير ما مرّةٍ إنّ كتمان المشاعر عيبٌ شنيع؟

أجابت الإنجليزية الصارمة التي يزعجها أحياناً منطق تلميذتها المندفع، مثلما يقلقها أحياناً زخَمُ طبيعتها البدائية:

- بلا ريب؛ لكن ثمّة فرق كبير بين أن يكتم المرء مشاعره وأن يطلق العنان لرغباته.

- أجل، أعلم أنّك قلت لي ذلك غير ما مرّة يا مامي هنرييت. وأعرف أنّ نساء أوروبا، أقلّه أولئك اللّواتي نسمّيهن النّساء اللاّئقات، استطعن أن يجدن منطقةً وسطاً رائعةً ما بين الصّراحة والكتمان: وهي صمتُ الصّوت وسكون سيماء الوجه. أمّا بالنسبة لي أنا يا عزيزتي، فلا ينبغي أن تكوني متطلّبة بإفراط، فلستُ امرأةً

Twitter: @ketab_n

متحضّرة، أنا متوحّشة صغيرة تربّت وسط الغابات وعلى ضفاف الأنهار. حين يعجبني ما أراه، أشتهيه، وحين أشتهيه، أريده. ثمّ إنّي كنت مدلّلةً، أنت أيضاً دلّلتِني مامي هنرييت؛ وبسبب ذلك صرت فتاةً عنيدة. حين كنت أطلبُ، كنتم تعطونني؛ وحين كنتم ترفضون إعطائي، كنت آخذ بنفسي، فتتركونني آخذ.

- وكيف إذن ستصيرين زوجة السيّد هنري مع هذا الطّبع؟

قالت سارة ببراءة تامّة:

- أوه! هنري فتىً طيب؛ لقد اتّفقنا أنا وهو على أن أتركه يفعل ما يشاء، ويتركني أفعل ما أشاء. أليس كذلك يا هنري؟

تساءلت وهي تنظر في اتّجاه الباب الذي انفتح ودخل منه السيّد دو ماالميدي وابنه.

تساءل الشابّ وهو يقترب منها ويقبّل يدها:

- ماذا هنالك عزيزتي سارة؟

- أليس صحيحاً أنّنا حين سنتزوّج لن تعارضني أبداً، وستمنحني كلّ ما يسعدني؟

عقّب السيّد دو ماالميدي:

- يا للهَول! هي ذي امرأة تُقدِم على وضع شروط مسبقاً!

اِستأنفت سارة كلامها:

- أليس صحيحاً أنّني ما دمت أحبّ الحفلات الرّاقصة، فسترافقني إليها وتبقى معي ما طاب لِيَ أن أبقى، بخلاف أولئك الرّجال السيّئين الذين يغادرون بعد الرّقصة السّابعة أو الثامنة؟ أليس صحيحاً أنّي إن رغبت في قبّعة جميلة من فرنسا، فستشتريها لي؟ وإن رغبت في حصان إنجليزي أو عربي جيّد فستشتريه لي؟

Twitter: @ketab_n

قال هنري مبتسماً:

- بلا شكّ. وعلى ذكْر الخيول العربيّة، لقد رأينا اليوم حصانين عربيّين جميلين، وإنّي لأشعر بالارتياح لأنّك لم تريهما عزيزتي سارة. ذاك أنّهما ليسا للبيع، وما كنت لأستطيع تقديمهما لك لو رغبتِ فيهما.

قالت سارة:

- لقد رأيتهما؛ ألستَ تقصد حصانَي ذاك الشابّ ذي الخمس وعشرين سنةً أو أكثر بقليلٍ، ذاك الشابّ الأسمر ذي الشّعر الجميل والعينين الرّائعتين؟

قال هنري:

- تبّاً يا سارة! يبدو أنّكِ انتبهتِ للخيّال أكثر ممّا انتبهت للخيول؟

- الأمر بسيط يا هنري: لقد اقترب الخيّال منّي وكلّمني، بينما لم أرَ الخيولَ إلّا من بُعدٍ معيّن، ولم تصهل حتّى!

- كيفَ كلّمك ذاك الرّجل يا سارة؟ وما المناسبة؟

سألَ السيّد دو ماليدي:

- أجل ما المناسبة؟

- أوّلاً لم أرَ فيه ذرّة واحدةً من الكبْر، وهي ذي مامي هنرييت لم ترَ ذلك أيضاً؛ ثمّ ما المناسبة؟ آه، يا إلهي لا شيء أبسط من ذلك: كنتُ عائدةً من الكنيسة حين وجدت صينيّاً ينتظرني عند باب المنزل واضعاً سلّتين مليئتين بالعُلَب والمراوح اليدويّة وحافظات النّقود، والعديد من الأشياء الأخرى. سألته عن ثمن هذه المروحة... أنظر كم هي جميلة يا هنري؟

سألها السيّد دو ماليدي:

- حسناً، ماذا بعد؟ كلّ ما قلته إلى الآن لا يفسّر لنا كيف حدّثك ذلك

Twitter: @ketab_n

الشابّ.

أجابت سارة:

- سأصِل إلى تلك النّقطة يا عمّي، سأصل. سألتُه عن الثّمن إذن؛ لكن كان ثمّة مشكلة في الأمر، فالرّجل لا يتحدّث سوى الصّينيّة. كنّا إذن واقعتين في مطبّ أنا ومامي هنرييت، وأخذنا نسأل المارّة الذين يتوقّفون لتفحّص الأشياء التي نشرها التّاجر على الأرض، عمّا إذا كان فيهم من يستطيع أن يترجم لنا. وإذّاك انبرى شابّ، واستدار شطرَنا ثمّ قال: «ثمانون قرشاً». إنّها ليست غالية، أليس كذلك يا عمّي؟

قال السيّد دو ماليدي:

- همم! ذاك هو السّعر الذي كنّا ندفعه ثمناً لزنجيّ، قبل أن يمنعَ الإنجليزُ الاتّجار بالعبيد.

تساءل هنري مندهشاً:

- ذاك الرّجل إذن يتحدّث اللّغة الصّينية؟

أجابت سارة:

- أجل.

صاح هنري منفجراً من الضّحك:

- أوه يا أبي! أوه! لم تكن تعلم: إنّه يتحدّث الصّينية!

سألته سارة:

- وما المضحك في الأمر؟

اِستأنف هنري قهقهته:

- أوه! لا شيء. وكيف! إنّها موهبةٌ رائعة تلك التي يمتلكها ذاك الغريب الوسيم. إنّه رجلٌ محظوظ. بوسعه الحديث مع علب

Twitter: @ketab_n

الشّاي والسّتائر.

أجابها السيّد دو ماليدي:

- الحقيقة أنّ الصّينيّة لغةً قليلة التداول.

قال هنري وكان لا يزال يهزأ بالغريب الذي ظلّت نظراته المزدرية تعتمل في قلبه:

- يتحدّثها فقط أولئك الموظّفون الصّينيّون[1].

أجابته سارة:

- بأيّة حالٍ هو موظّف صينيّ متعلّم، ذاكّ أنّه بعدما تحدّث مع الصّيني، كلّمني أنا ومامي هنرييت بالفرنسيّة والإنجليزية.

قال السيّد دو ماليدي:

- يا للهول! ذاك الجسور إذن يتحدّث اللّغات جميعها؟ إنّي بحاجة إلى رجل مثله في إدارة أعمالي.

قالت سارة:

- للأسف يا عمّي، يبدو لي أنّ الرّجل الذي نتحدّث عنه قد عمِل في خدمة شخصٍ تهون أمامه خدمة أيّ شخصٍ آخر.

- من؟

- لقد خدم ملك فرنسا. أولم ترَ على صدره وسامَ جوقة الشّرف والوسام الآخر؟

- أوه! في هذا الزّمن صار بوسع المرء أن يحصل على تلك الأوسمة دون أن يلتحق بالخدمة العسكريّة.

---

(1) يستعمل الكاتب كلمة Mandarin وهي كلمةٌ تنطوي على معنيين، الموظّف الكبير في الامبراطورية الصّينية الكبيرة، ومعنى هزليّ يقصد الموظّف الهيّن. قد يقترب المعنى الثاني من كلمة «الأفندي» الشائعة في بعض اللهجات العربية، لكنّنا فضلنا المعنى الحقيقيّ المباشر مع توضيحه هنا في الحاشية.

Twitter: @ketab_n

اِستأنفت سارة كلامها، وقد أحرجها كلام السيّد دو ماليدي دون أن تعيَ ذلكَ، فأخذت تدافع عن الغريب بذاك النزوع الطبيعيّ الذي يدفع القلوبَ الطيّبة إلى الدّفاع عمّن يُهاجَمُ ظلماً:

- لكن من يحصل على تلك الأوسمة ينبغي أن يكون رجلاً مميّزاً على العموم.

قال هنري:

- لقد قلّدوه الوسامَين لأنّه يعرف اللّغة الصّينية! وهذا كلّ ما في الأمر.

أكملَ السيّد دو ماليدي بنبرة تشي بأنّه لم ينتبه البتّة للتجريح الذي تُبودِلَ بين سارة وهنري:

- ستتبيّن كلّ ذلك؛ فالرّجل قد وصل في مركب الحاكم، والنّاس لا تأتي إلى جزيرة موريس كي تغادرها بعد يومٍ واحد. ستسنح لنا الفرصة للقائه دون ريب.

وفي تلك اللّحظة دخل خادمٌ يحمل رسالةً عليها ختم الحاكم، وقد وصلت للتوّ من عند اللّورد موريه. كانت الرّسالة دعوة إلى السيّد دو ماليدي وهنري وسارة لحضور الوليمة التي يقيمها الحاكم الاثنين التّالي، والحفل الراقص الذي سيلي العشاء.

لم يخب ظنّ سارة في الحاكم. كان رجلاً راقياً، ذاك الذي سيدشّن حضوره في الجزيرة بدعوةٍ إلى عشاءٍ وحفلٍ راقصٍ؛ فأطلقت سارة صيحة فرحٍ وهي تتصوّر أنّها سترقص ليلة بأكملها؛ لقد جاءت الدّعوة في وقتها المناسب، ذاكَ أنّ السّفينة القادمةَ من فرنسا كانت قد حملت لها أطعمة شهيّة، وفساتين مزيّنة بالزهور الاصطناعية لم تُفرحها نصف الفرحة التي كان ينبغي أن تشعر بها، إذ ما كانت تدري من قبل متى

Twitter: @ketab_n

ستسنح لها الفرصة لعرضها.

أمّا هنري، فعلى الرّغم من التّكريم الذي تمنحه مثل تلك الدّعوة، ما كان في العمق يأبه للأمر؛ كانَ هنري ينظر إلى نفسه كواحد من أكثر فتيان الجزيرة وسامةً، وهو محقّ في ذلك؛ ثمّ إنّ اقترانه المنتظر بابنة عمّه ما كانَ ليمنعه من إقامة علاقات مع نساء أخريات. كان الأمر يسيراً عليه، لا سيّما وأنّ سارة، سواء بدافع من اللامبالاة أو العادة، لم تُبدِ يوماً أدنى أمارةِ غيرة.

أمّا السيّد دو ماليدي فقد امتلأ زهواً وهو يستلم تلك الدّعوة التي قرأها ثلاث مرّات، وأعطته فكرة أوفى عن مكانته؛ فالحاكم لم يمضِ على وصوله إلى الجزيرة أكثر من ثلاث ساعات، وها هو ذا يوجّه إليه دعوة للعشاء معه، وذاك شرف لن يحوزه على الأرجح سوى صفوَة الصّفوة.

عدا ذلك، غيّر الأمر بعضاً من برامج عائلة دو ماليدي. إذ ضرب هنري صفحاً عن حملة صيد أيائل، كان قد أعدّ لها العدّة للأحد والاثنين التّاليين، في منطقة المفازات التي تكون مقفرة في ذاك الموسم وتأوي إليها الطرائد بوفرة. وبما أنّ موقع الصّيد كان ضمن نطاق ممتلكات والده، فقد دعا ثلّة من أصدقاءه إلى الالتحاق به صباح الأحد، في منزل ريفيّ جميل، كان يملكه على ضفاف النّهر الأسود وهي إحدى أروع مناطق الجزيرة. لكن ما عاد بإمكانه الالتزام بالموعد، ما دام أحد اليومين المعنيّين هو نفسه اليوم الذي اختاره الحاكم لإقامة الحفل الرّاقص. من المُلحّ إذن تقديم موعد الصّيد أربعاً وعشرين ساعةً، ليسَ فقط من أجل السيّدين دو ماليدي، وإنّما أيضاً من أجل ضيوفهما الذين سيكونون بالطّبع مدعوّين أيضاً إلى وليمة اللّورد موريه. عاد هنري إذن إلى بيته كي يحرّر دستةً من الرّسائل يحملها خادمه جوهرة إلى أصحابه، مخطِراً إيّاهم بالتّغيير الذي

Twitter: @ketab_n

طرأ على موعد الصّيد.

وتحلّل السيّد دو ماليدي من رفقة سارة متحجّجاً بموعد هامّ ينتظره؛ لكنّه في الواقع كان ذاهباً ليعلم جيرانه بأنّه بعد ثلاثة أيّام سيكون قد كوّن رأياً صريحاً عن الحاكم، إذ من المنتظر أن يتعشّى معه يوم الاثنين.

أمّا سارة فقد أعلنت أنّها بسبب ما طرأ بات يلزمها أن تقوم بعدّة استعدادات، لذلك لن يمكنها مرافقة السّادة إلى الصّيد صباح السّبت، وإنّما ستلحق بهم مساءَ السّبت أو صباح الأحد.

قضت الفتاة ما تبقّى من ذاك النّهار ونهار اليوم التّالي في التّحضير لأمسيتها الهامّة، وبفضل الهدوء الذي أضفته مامي هنرييت على تلك التحضيرات، استطاعت أن تنهي الأمر وتلحق بالسّادة صباح الأحد مثلما وعدت عمّها؛ فالأهمّ قد أُنجزَ: قِيسَ الفستانُ، وأخبرتها الخيّاطة، وهي امرأة خبيرةٌ، بأنّه سيكون جاهزاً صباح الغد؛ وإذا ما كان ينقصه شيء فسيكفي ما تبقّى من اليوم لإصلاحه.

كانت سارة تملك إذن كلّ أسباب الفرح: فبعد الحفلات الرّاقصة لم تكن تحبّ شيئاً أكثر من حبّها للرّيف؛ إذ يمنحها الرّيفُ حريّة الكسل، أو حريّة إطلاق العنان لحركاتها، تلك الحريّة التي لا تجدها حقّاً في المدينة. هكذا كانت في الرّيف تتحلّل من كلّ سلطة، بما في ذلك سلطة مامي هنرييت التي تملك اليد العليا عليها. هناك تُسلم روحها إلى الكسل، وتختار باقة من أشجار تفّاح الأرض أو اللّيمون الهندي ترقد وسطها؛ وهناك تحيا حياة الزّهور، فتتشرّب الأريج والهواء وأشعّة الشّمس من مسامها كلّها، وتصغي إلى زقزقة طيور التّين الزرقاء والعنادل الملغاشيّة، وتستمتع بمشاهدة القرود تقفز من غصن إلى آخر أو تتدلّى متعلّقة بذيولها، وتتابع بعينيها الحركات السريعة المتقنة للسّحالي الخضراء المنقّطة

Twitter: @ketab_n

والمخطّطة بالأحمر، تلك السّحالي المنتشرة بكثرة في جزيرة موريس، حتّى أنّ المرء ليُجفِلُ ثلاثاً أو أربعاً منها كلّما خطى خطوة؛ وتظلّ الفتاة هناك ساعات بأكملها تتواصل والطّبيعة، تصغي إلى أصواتها الألف وتتفحّص أبعادها الألف، وتقارن بين أنغامها الألف. فعلى خلاف جسمها يكون ذهنها نشطاً، فلا تظلّ فتاةً، وإنّما تتحوّل إلى غزالة، إلى عصفور، إلى فراشة؛ تصعد الجداول ملاحقةً اليعاسيب ذات الرّؤوس البرّاقة كالياقوت؛ وتنحني على جرفٍ لتقطف منه القُويصات[1] ذات الأوراق العريضة، حيث قطرات الطلّ تترقرق ككريّات الزّئبق؛ وتمرّ مثل حورية من تحت شلّال، فيغلّفها غباره المبلّل مثل غلالةٍ شفّافة، وإذ ذاك، على خلاف النّساء الكريوليات اللّواتي بصعوبةٍ تتلوّن بشرتهنّ الكامدة، تصطبغ بلونٍ قرمزيّ حارّ، حتّى أنّ الزنوج الذين ألِفوا بفضل لغتهم الشّعرية الملوّنة أن يعطوا كلّ شيء اسماً دالّاً، كانوا يسمّونَ سارة وردةَ النّهر الأسود.

كانت سارة إذن، كما أسلفنا الذّكر، محظوظةً، إذ كانت تُشرِف على الشّيئين اللّذين تحبّهما أكثر من أيّ شيء آخر؛ اليومَ الرّيف، وغداً الحفل الرّاقص.

---

(1) القويصة أو القويسيّة، نبات عطري ذو خصائص علاجية.

Twitter: @ketab_n

الفصل العاشر

الاستحمام

في ذلك العهد، ما كانت الجزيرة تشبه في شيءٍ ما هي عليه الآن؛ إذ لم تكن بعد تخترقها الطّرق التي تسمح للعربات بالذّهاب إلى مختلف أحياء المستعمرة، وكانت وسائل النّقل الوحيدة آنذاك هي الخيول والهوادج. وكلّما رافقت سارة هنري والسيّد دو ماليدي إلى الرّيف، كانت تختار دون تردّدٍ الذّهاب على ظهر حصانٍ، إذ كان ركوب الخيل من النّشاطات التي تمارسها الفتاة بكلّ يُسر. بيد أنّها حين كانت تسافر مع مامي هنرييت بمفردهما، كانت تضطرّ إلى التّخلّي عن وسيلة نقلها المفضّلة وركوب الهودج الذي كانت الإنجليزية تفضّله أكثر من غيره. هكذا كانتا تسافران على هَوْدَجَين يحمل كلّاً منهما أربعةُ زنوج، وخلَلَ ستائر الهودجَين كانتا تتحدّثان، بينما حاملوهما، وقد كانوا متيقّنين من أنّ السّيدة ستنفحهم إكراميّةً جيّدةً، يصدحون بأعلى صوتهم متغنّين على مسامع المارّة بكرم سيّدتهم الشابّة.

أمّا فيما عدا ذلك، فقد كانت سارة ومامي هنرييت تشكّلان أشدّ أنواع التبايُن الجسديّ والذهنيّ التي يمكن تخيّلها. ولمّا كان القارئ يعرف من قبلُ من هي سارة، تلك الفتاة ذات الشعر الأسود، والعينين السوداوين، والبشرة المتقلّبة تقلّبَ مزاجها، وأسنانِ اللّؤلؤ، وأطرافِ الأطفال، والجسدِ المرن المتموّج كجسد السِّلفَة[1]، فليسمح لنا الآن بأن

(1) السِّلفة أو السيلفيدة، من الكائنات الخرافية في الميثولوجيا الأيرلندية، وترمز إلى عنصر الهواء.

Twitter: @ketab_n

نحدّثه قليلاً عن مامي هنرييت.

وُلدت هنرييت سميث في العاصمة البريطانية: كانت ابنةَ أستاذ، وإذ هيّأها والدها هي أيضاً لممارسة التعليم، فقد علّمها منذ طفولتها اللّغتين الفرنسيّة والإيطاليّة؛ حتّى صارت، بفضل احتكاكها المبكّر بهما، تتقنهما قدرَ إتقانها لسانَها الأمّ. وكما يعلم الجميع، فإنّ التدريس مهنةٌ لا يحصّل من يمارسها الكثير من المال. فكان أن مات جاك سميث تاركاً خلفه فتاةً متعدّدة المواهب، لكنّها لا تمتلك شَروى نقيرٍ للصّداق؛ وبالتالي بلغت الفتاة سنّ الخامسة والعشرين دون أن تتزوّج.

وآنذاك، اقترحت عليها إحدى صديقاتها، وكانت موسيقيّةً موهوبةً مثلما هي نفسها لغويّة موهوبة، اقترحت عليها أن تضمّا موهبتَيْهما معاً وتُنشآ معهداً تتقاسمان تكاليفه. وكان العرض مقبولاً، فقبلت به. لكن على الرّغم من أنّ الشّريكتين بذلتا قصارى جهدهما وعنايتهما وتفانيهما في تعليم الفتيات اللّواتي عُهد إليهما بهنَّ، لم يزدهر المعهد، فاضطرّت المعلّمتان إلى فضّ شركتهما.

وإثر ذلك، تلقّى أحد آباء تلميذات الآنسة هنرييت سميث، وكان واحداً من تجّار لندن الأثرياء، رسالةً من السيّد دو ماليدي، وكانَ أحدَ زبائنه، يطلب إليه فيها مساعدته في العثور على مربّية لابنة أخيه، ويعِدُ المربّية بمزايا كافية لتعويض تضحيتها وقبولها هجرةَ أرضها. تمَّ إبلاغُ الآنسة هنرييت بفحوى الرّسالة. لم تكن الفتاة المسكينة تمتلك أيّ موردِ رزقٍ، وما كانت متعلّقة بالوطن، وما كان لها من مناصٍ من الموت جوعاً. فتلقّت العرض الذي قُدّم إليها كمن يتلقّى نعمةً إلهيّة، واستقلّت أوّل مركبٍ نشرَ ألويتَه صوبَ جزيرة موريس، بعدما تمّ تقديمها إلى السيّد دو ماليدي بوصفها شخصيّةً مميّزة تستحقّ كلّ تقدير. اِستقبلها السيّد

Twitter: @ketab_n

دو مالميدي إذن، وكلّفها بتربية ابنته التي لم يكن عمرها يتجاوز آنئذ تسع سنوات.

وأوّل سؤالٍ عنَّ ببالِ الآنسة هنرييت طرْحُه على السيّد دو مالميدي كان نوع التربية التي يرغب في أن يمنحها لابنة أخيه. أجابها السيّد دو مالميدي بأنّ ذاك آخر ما يشغل باله؛ وأنّه إنّما أتى بها لتحمل عنه عبءَ الاعتناء بابنة أخيه، وأنّ عليها، هي الآنسة التي أطرَوْا على معارفها، أن تنفحَ سارة من عِلمِها؛ فقط كتذييل على اتّفاقهما، وضّحَ السيّد دو مالميدي أنّ الفتاة موعودة، إلى الأبد ودون قيدٍ أو شرط، لأن تصير زوجةَ ابن عمّها هنري؛ وعليه، وجبَ ألّا تميل إلى أيّ رجل آخر. ولم يكن قرار السيّد دو مالميدي، بخصوص اقتران ابنه بابنة أخيه، نابعاً من الحبّ الذي يحمله لهما معاً فحسب، وإنّما أيضاً لأنّ سارة حين تيتّمت وهي في سنّ الثالثة، ورثت من أبيها ما يقارب المليون، وهو مبلغ قد تضاعف بلا ريبٍ أثناء الفترة التي كان فيها السيّد دو مالميدي وصيّاً قانونيّاً عليها.

في البداية خافت سارة كثيراً من تلك المُدرّسة التي أُتِيَ بها من وراء البحار؛ وينبغي الاعتراف أيضاً بأنّ مظهر الآنسة هنرييت لم يكن ليبعث الطمأنينة في نفس الفتاة من أوّل نظرة. فقد كانت آنذاك فتاةً في الثانية والثلاثين من عمرها، أصبغت عليها حياة المعهد تلك السّيماء الحادة القاسية التي تنطبع عادةً على وجه المدرّسات: كانت نظرتها باردةً، وبشرتها شاحبةً، وشفتاها رقيقتين، ما يمنحها طابعاً آلياً، فيشقّ على شعرها الأشقر المتوهّج أن يدفّئ برودة الكلّ. ومنذ الصّباح تكون الآنسة هنرييت قد ارتدت ملابسها وسوّت هيئتها وصفّفت شعرها، حتّى أنّ سارة لم يحدث لها يوماً أن رأتها مهملةَ الهيئة، فظلّت تحسب لزمن طويل أنّ مربّيتها بدلاً من أن تنام على سرير مثلما يفعل جميع البشر، تُعلّق

Twitter: @ketab_n

نفسها مثل الدّمى داخل حفّاظة فساتين، وتخرج منها في اليوم التّالي مثلما دخلتها في اللّيلة السّابقة. فكان أن أطاعت سارة مربّيتَها في الأيّام الأولى طاعةً تكاد تكون تامّة، فتعلّمت شيئاً من اللّغتين الإنجليزيّة والإيطاليّة. أمّا عن الموسيقى، فقد كانت سارة كالعندليب انتظاماً، وكانت تعزف البيانو والقيثار بالسّليقة تقريباً، ولو أنّ آلتها الموسيقية المفضّلة، تلك التي تمحضها حبّاً يسمو على كلّ آلة سواها، كانت هي القيثارة الملغاشية، التي كانت تعزف عليها ألحاناً تُبهج أمهر العازفين الملغاشيّين في الجزيرة.

على أنّ كلّ ذاك التّطور في الشخصية قد تمّ دون أن يمسّ في شيءٍ شخصيّة سارة، ودون أن يغيّر شيئاً من طبيعتها الأولى. ومن جهتها ظلّت هنرييت كما صوّرها الله وشكّلتها التربية؛ فبقيت تلك البِنيتان المختلفتان تعيشان جنباً إلى جنب دون أن تقتحم إحداهُما حصونَ الأخرى. لكن بما أنّ كلتيهما كانتا شخصيّتين متميّزتين، كلّ على شاكلتها، فقد انتهى المطاف بمامي هنرييت إلى التّعلق بتلميذتها أشدّ ما يكون التّعلق، وبسارة إلى الارتباط بمربّيتها بعُرى صداقةٍ حميمة. وتجلّى أثر ذاك التعاطف في أنّ المدرّسة صارت تنادي سارة «طفلتي»، وفي أنّ سارة، بعدما ألْفَت أنّ تسميةَ «مِيسْ» و«مادموزيل» لا تعكسان حرارة الشّعور الذي تحمله تجاه مدرّستها، اخترعت لها تسمية أشدّ حميميّة وهي «مامي هنرييت».

وبقيت مامي هنرييت متحفّظة تجاه التمارين البدنية التي ما كانت لتستسيغها إذ عمِلَ نوع التّدريس الذي حصّلته على صقل ملكاتها الذّهنية، تاركاً ملكاتها الجسدية على تلبّكها الفطريّ: وعلى الرّغم من كلّ الإغراءات التي قدّمتها لها سارة لم ترضَ يوماً بأن تركب الخيلَ، لم ترضَ أن تركب حتّى على ظهر برلوك، وهو مُهرٌ مسالم من جاوة يملكه البستانيّ. وكانت الطرق الضّيقة تصيبها بالدّوار لدرجة أنّها كانت تفضّل أن تسلك

Twitter: @ketab_n

طريقاً منعطِفةً فرسخاً أو فرسخين، على أن تحاذيَ شفيرَ جرف. كما أنّها ما كانت تضع قدمها داخل مركب حتّى تكون قد تلت في قلبها صلاةً عميقة، وما إن يتحرّك القارب حتّى تدّعي أنّها أُصيبت بدوّار البحر، ذاك الدوّار الذي لم يبارحها طيلة سفرها من بورتسموث إلى بور لويس، أي أنّه لازمها لأكثر من أربعة أشهر. فكان أن عاشت مامي هونريت حياتها بالقرب من سارة متوجّسةً توجّساً دائماً، وحين كانت تراها تجرؤ مثل الفارسات القديمات على ركوب خيلِ ابن عمّها، أو تراها تثب خفيفةً كظبية من صخرةٍ إلى أخرى، أو تسبح برشاقةِ حوريّةٍ على سطح الماء أو تغطس إلى الأعماق؛ حينما كانت تراها تفعل شيئاً من ذلك، كان قلبها، الذي يكاد يكون قلب أمٍّ، ينقبض من الرّعب، وتصير مثل تلك الدّجاجة التي نجعلُها تحضن بيض البجع، وحين تفقس البيضات وتقفز فراخ البجع إلى الماء، تظلّ هي على الشاطئ غير مصدّقة أنّى لكتاكيتها تلك الجرأة، تقوقئ بحزنٍ مناديةً صغارها الذين يعرّضون أنفسهم لمثْل ذاك الخطر.

وهكذا، فمع أنّ مامي هنرييت كانت محمولةً على هودج ناعم وآمن، فإنّ بالها لم يهدأ، بل بقي مشغولاً يفكّر في مبلغ القلق الذي ستعرّضها له سارة؛ بينما الفتاة منتشيةٌ بالتفكير في يومَي السّعادة المقبلة هي عليهما.

ينبغي الإشارة أيضاً إلى أنّ ذلك الصّباح كان صباحاً جميلاً. كان أحد تلك النهارات الجميلة التي تميّز بداية الخريف، إذ أنّ شهر ماي، شهرَ فصلِ الرّبيع عندنا نحن في فرنسا، يوافقُ خريفَ جزيرة موريس؛ وفيه تستعدّ الطبيعة لتكتسيَ رداءً من مطرٍ مُودِّعةً الشّمسَ بأرقّ ما يكون الوداع. وبقدر ما كان الموكب يتقدّم في السّير كان المنظر يصير ريفيّاً أكثر. مرّوا فوق جسورٍ ارتعدت مامي هنرييت لشدّة هشاشتها، فقطعوا منبعَي

Twitter: @ketab_n

نهر «السّور الكبير»، وشلاّلات نهرِ تاماران. وإذ بلغوا جبل «الحلمات الثلاث»، استقصت سارة عن عمّها وابنه، فعلمت أنّهم كانوا في تلك اللّحظة يصطادون برفقة أصدقائهم ما بين الحوض الكبير وسهل سان بيار. وأخيراً، اجتازوا «نهر القُرَيدس»، وداروا حول كثيب النّهر السود، فصاروا قبالةَ مسكنِ السيّد دو ماليدي.

بدأت سارة بتفقُّد حيوانات المنزل التي لم تكن رأتها منذ خمسة عشر يوماً؛ ثمّ عرّجت على مَطْيَرتها، وكانت عبارةً عن قفص من أسلاك الحديد يحيط دغلاً بأكمله ويؤوي مجموعةً من طيور التِّرغلَة وطيور التّين الزّرقاء وعنادل مدغشقر وديَكة الغاب[1]. ثمّ انطلقت بعد ذلك لتفقّد زهورها التي أتت بها جميعاً من العاصمة: نباتات مسك الرّوم الدّرني، والقرنفل الصّيني، وشقائق النّعمان، وزهور الحوذان، والورد الهنديّ، وفي وسط كلّ تلك النبّاتات تنتصب زهرةُ «الخالدةِ» الجميلةُ؛ وتحوط كلّ ذلك أسيجَةٌ من الياسمين الهنديّ وورود الصّين، التي تزهر طيلة السّنة شأنها شأن ورودنا، وورودِ الفصولِ الأربعَة. كانت تلك مملكة سارة؛ أمّا باقي الجزيرة، فكانَ مجالَ فتوحاتها.

وما دامت سارة في حديقة المنزل، فإنّ مامي هنرييت مطمئنةٌ، بين الطرُق الرملية والظلال الرّطبة والهواء المشبع بالعطور. لكن كان من الواضح أنّ لحظات الطمأنينة تلك لا تدوم طويلاً. فقط ما يكفي من الوقت لتحيّة المولّدة العجوز التي كانت تخدم سارة والتي أصبحت تقضي أيّامَ هرمِها بجوار النّهر الأسود، وتقبيلِ ترغلتها المفضّلة، وقطفِ زهرةٍ أو زهرتين تضعهما في شعرها، ويكون الأمر قد قضيَ. يصل موعد النّزهة، فيبدأ قلق المربّية. في بداية الأمر سعت مامي هنرييت إلى التّصدي

(1) ديك الغاب: طائر من الجواثم، سمين متوسّط الحجم، يعيش في الغابات ومن هنا اسمه.

Twitter: @ketab_n

للصّغيرة المتحرّرة، وحرفِ ميلِها شطرَ مُتَع أقلّ اندفاعاً، لكنّها ما لبثت أن أقرّت باستحالة الأمر. كانت سارة تفلَت من بين يديها وتُتمّ تجوالها من دونها؛ فانتهى المطاف بالمربّية، وقد تعاظم خوفها على تلميذتها، إلى أن أخذت على عاتقها مهمّة مرافقتها. صحيحٌ أنّها كانت تكتفي بالقعود في موضع مرتفع لتتابع بعينيها الفتاة صاعدةً أو نازلةً، لكنّها كانت تحسبُ أنّها كانت تشدّها بحركتها عن بُعدٍ وتدعَمُها بنظرتها. وككلّ مرّة، ما إن رأت مامي هنرييت في ذلك اليوم سارةَ تستعدّ للانطلاق حتّى تناولت كتاباً تقرؤه بينما سارة تركض، وتأهّبت لمصاحبتها.

لكنّ سارة كانت تحضّر هذه المرّة لشيء آخر غير النّزهة: كانت تستعدّ لتسبح، لتأخذَ حمّاماً كانت قد وعدت نفسها به؛ حمّاماً في خليج النّهر الأسود الجميل الآمن والشّديد الهدوء؛ أن تسبحَ في تلك المياه الصّافية لدرجة أنّ المرء قد يرى فيها على عمق عشرين قدماً الشُّعَبَ المرجانيةَ التي تنمو على الرّمل، والقشريّات التي تتجوّل بينها. لكنّها، على عادتها، لم تقل شيئاً لمامي هنرييت؛ وحدها المولّدة العجوز كانت على علمٍ بالأمر، وكان عليها أن تنتظر سارة ببذلة السّباحة، في الموعد المحدّد.

هبطت المربّية والفتاة إذن محاذيتَيْن ضفافَ النّهر الأسود، الذي كان يزداد اتّساعاً حتّى يبزغ عند طرفه الخليج كمرآةٍ فسيحةٍ؛ وعند كلّ ضفّة من ضفّتي النّهر يمتد سياجٌ غابيّ عالٍ، تنتصب أشجاره كأعمدةٍ فارعةٍ باحثةً عن نصيبها من الهواء والشّمس، مشكّلةً حقلاً شاسعاً من الأوراق السّميكة التي لا تكاد تترك من حين إلى آخرَ فرجاتٍ يستطيع المرء أن يرى السّماءَ خللَها؛ بينما جذورها إذ تعجز عن اختراق الصّخور التي لا تكفّ عن التّدحرج من قمّة الكثيب، تلتفّ حولها وتطويها. وبقدر ما يتّسع عرض النّهر، تنحني أشجار الضّفتين، مستغلّةً المسافةَ التي يتركها

Twitter: @ketab_n

الماءُ، وتشكّل ظُلّةً شبيهةً بخيمةٍ عملاقة؛ كان المنظر كلّه غامضاً ومتوحّداً وهادئاً وصامتاً، مفعماً بشعريّة باعثةٍ على الشّجن وغموضٍ مُلغز. الصّوت الوحيد الذي يُسمَع في الأفق هو الغناء الأجشّ للببّغاء ذي الرّأس الرّماديّ؛ والكائناتُ الحيّةُ الوحيدة التي تظهر على امتداد البصر هي بعض تلك القرَدة الصّهباء التي يسمّونها هنا القردة المقنزَعة والتي تنتشر على نطاقٍ واسعٍ في الجزيرة حتّى أنّ كلّ محاولات التّخلص منها باءت بالفشل. وفقط من حين إلى آخر، يطير رفرافٌ أبيضُ الحنجرة والبطن من بين تعريشات القرام[1] التي تنقع جذورها في النّهر، وقد أفزعه ضجيج سارة ومربّيتها، فيطلق صيحةً حادّةً شاكيَةً، ويمرق كالسّهم لامعاً مثل زمرّدة، ليختفيَ بين أشجار الضّفة الأخرى. وتلك الطّبيعة مجتمعة: النّباتات المداريّة، وتجلّيات العزلة العميقة، والتّناغمات المتوحّشة التي تشكّل فيما بينها نسيجاً شديد التّجانس: الصّخور، والأشجار والنّهر؛ تلك الطّبيعة مجتمعة كانت هي الطّبيعة كما تحبّها سارة؛ كانت هي المنظر الطبيعيّ كما يستطيع أن يستوعبه خيالها الخامّ؛ كانت هي الأفق الذي لن يستطيع محاكاتَه لا اليراعُ ولا القلمُ ولا الرّيشةُ، ولكن يتمثّله ذهنُها.

لم تكن مامي هنرييت، والحقّ يقال، باردةَ الإحساس تجاه ذلك المنظر، بيد أنّ مخاوفها الأبديّة كانت تمنعها من التّمتّع به تمامَ المتعة. وإذ بلغت قمّة تلٍّ صغير، حيث بالإمكان الإحاطة بمساحة أرضية كبيرة، جلست، ثمّ بعد أن دعت سارة إلى الجلوس قربها دون أملٍ في استمالتها، أخذت تراقب الفتاة الرّشيقة تبتعد واثبةً؛ وأخرجت من جيبها الجزء العاشرَ أو الثانيَ عشر من رواية «كلاريسا هارلو»[2]، روايتها المفضّلة، وشرعت

(1) شجر من فصيلة النقعيّات، يصنع منه نوع من الخمر.

(2) «كلاريسا هارلو Clarissa Harlowe أو حكاية فتاة شابّة»، رواية إنجليزية لصامويل ريتشاردسون، صدرت سنة 1748.

Twitter: @ketab_n

تقرؤها للمرّة العشرين.

أمّا سارة، فاستمرّت في التّوغل على ضفاف الخليج، ولم يمضِ وقت طويل حتّى اختفت خلف دغلٍ كثيفٍ من قصب البامبو: هناك كانت تنتظرها المولّدة حاملةً لباس السّباحة.

تقدّمت الفتاة حتّى بلغت حافة النّهر، ووثبت من صخرة إلى أخرى، مثل طائرِ ذُعرَةٍ يقفز إلى الماء؛ ثمّ بعدما تيقّنت بعفّةِ حوريّةٍ عتيقةٍ أنّ المكانَ خالٍ من الأعين، نضت عنها ثيابها واحداً بعد الآخر، وارتدت لباساً من الصّوف الأبيض، مشدوداً عند العنق والصّدر، ونازلاً إلى أسفل الرّكبة، تاركاً اليدين والقدمين عاريةً ممّا يمنحها حريّةَ الحركة. وإذ وقفت الفتاة مرتديةً بذلتها، بدت شبيهة بديانا إلهة الصّيد وهي تستعدّ للنزول إلى الماء.

تقدّمت سارة حتّى طرف صخرةٍ تشرف على الخليج، عند موضع مياهُه عميقة. ثمّ، واثقةً من سداد حركتها وقوّتها، ومتأكّدةً من تفوّقها في مجالٍ يمكن القول إنّها ولدت فيه مثل فينوس، قفزت إلى الماء، واختفت فيه ثمّ عادت للظهور، سابحةً مسافةَ بضعِ أقدامٍ حول المكان الذي ارتمت فيه.

وفجأةً سمعَتها مامي هنرييت تنادي؛ رفعت رأسها، وجاست لحظاتٍ باحثةً بعينيها؛ ثمّ عثرت عليها في نهاية المطاف، بعدما دلّها نداء آخر، فوَقعت عيناها على مستحمّةٍ جميلةٍ وسط الخليج، جنيّةِ مياهٍ تمرُق على سطح اليمّ. فكان أن نادتها المربّية المسكينة؛ لكنّها إذ كانت على علم بلا جدوى ذلك، اكتفت بأن أشارت لها إشارةً عاتبةً، ثمّ قامت ودَنَت من حافة النّهر قدرَ ما يسمح به جرفُ الصّخرة التي كانت تجلس عليها.

وفي الواقع كان انتباهها آنذاك مشتّتاً بفعل الإشارات التي كانت تبعث بها سارة. إذ كانت الفتاة تسبح بذراع واحدةٍ وتشير بالأخرى إلى عمق

Twitter: @ketab_n

الغابة مُخطِرةً مربّيتَها بشيءٍ ما يقع داخل تلك الأقبية الخضراءِ المظلمة. أرهفت مامي هنرييت السّمع، فتناهى إليها نباحُ زمرةِ كلابٍ بعيدة. وبعد لحظة خُيّل إليها أنّ النّباح بات يقترب، وتأكّد تخمينها بعد تلقّيها إشاراتٍ جديدةً من سارة؛ وبالفعل، كان الصّوت يزداد وضوحاً، بين الفينة والأخرى، وما هي سوى لحظات حتّى ارتفع وقعُ أقدامٍ راكضة فوق ذاك المرج المرتفع؛ ثمّ بغتةً، على بعد مائتَي قدم من الموضع الذي انتبذته مامي هنرييت، انبثق من بين الأشجار أيّلٌ أملَحُ يركض مُثنياً قرنيه إلى الخلف، وعبَر النّهر بوثبة واحدةٍ قبل أن يختفيَ في الضّفة الأخرى.

وبعد لحظةٍ، ظهرت الكلاب بدورها، واجتازت النّهر من الموضع نفسه حيث قفز الأيّل، ثمّ توغّلت في الغابة مقتفيةً أثره.

تابعت سارة المشهد بحماسةِ صيّادةٍ حقيقيّة. وحينَ اختفى الأيّل وتبعته الكلاب أطلقت صيحة ابتهاج فعليّة؛ لكنّ صيحةَ الابتهاج تلك أجابتها صيحةُ رعبٍ عميقة جعلت مامي هنرييت تستدير فزِعة. كانت المولَّدة العجوز واقفةً على الضّفة، مثل تمثالِ الرّعب، تشير بيدها إلى قرش عظيم استطاع بفضل قوّة التّيار أن يجتاز الحاجزَ وصارَ على بعد ستّين قدماً من سارة، وهو ذا يقترب منها بسرعة مذهلة. لم تجد المربّية حتّى ما يكفي من الوقت للصّراخ: خرّت على ركبتيها.

اِستدارت سارة على صراخ المولَّدة، فلمحت الخطر الذي يتهدّدها. فكان أن قصدت، بثباتِ ذهنٍ مذهلٍ، أقربَ منطقة من الضّفة إليها. بيد أنّ أقرب مناطق اليابسة إليها كانت تبعد عنها بأربعين قدماً، وكان من الظّاهر أنّها مهما بلغت سرعة سباحتها ومهارتها، ستقع بين فكّي الوحش قبل أن تبلغ اليابسة.

وفي تلك اللّحظة سُمعت صيحةٌ أخرى، وقفز من بين الأشجار التي

Twitter: @ketab_n

تحفّ الضّفةَ زنجيّ يحمل بين أسنانه سكّيناً، وبقفزةٍ واحدةٍ بلغ ثلث عرضِ الخليج؛ ثمّ صار يسبح بقوّة تتجاوز قوّة البشر، ساعياً إلى قطع الطريق على القرش الذي كانَ في تلك الأثناء يتقدّم بسرعة مذهلةٍ صوبَ الفتاة دون أن يسرّع حركة ذيلِه، كأنّما هو واثقٌ من إصابة فريسته. وكانت الفتاة كلّما جذّفت بذراعها استدارت لترى عدوّها وحاميها يقتربان بالسّرعة نفسها تقريباً.

مرّت لحظات ترقّب رهيبة على العجوز المولَّدة ومامي هنرييت، بينما تتابعان السّباق المرعب من على نقطة مرتفعة؛ كانت كلٌّ منهما تصرخ باسطةً ذراعيها وفاغرةً فمها، لا تملكان لسارة شيئاً سوى صرخات متقّطعة تطلقانها عند كلّ لحظةِ خشيةٍ أو رجاءٍ؛ لكن لم يمض وقت طويل حتّى انتصرت الخشيةُ على الرّجاء، إذ كان القرش يكسب المسافةَ على حساب السبّاح رغم جهوده. كان الزّنجيّ لا يزال على بعد عشرين قدماً من الوحش، بينما لم يكن يفصل الوحش عن سارة سوى بضع أذرع. وضربَ بذيله ضربةً رهيبةً فازداد دنوّاً منها. وصار بوسع الفتاة الشّاحبة كالموتِ أن تسمع خبطَ الماء خلفها. ألقت نظرة أخيرة إلى الضّفة التي ما عاد بوسعها بلوغها. أيقنت أنْ لا فائدة من التشبّث بحياةٍ صادَرَها القدَر؛ رفعت عينيها إلى السّماء، وضمّت يديها خارج الماء، وصلّت لله الذي وحدهُ يستطيع نجدتها. في تلك اللّحظة استدار القرش ليتمكّن من فريسته، وبدا بطنُه الفضيّ بدل ظهره. وضعت مامي هنرييت يديها على عينيها كي لا ترى ما سيقع؛ لكن، في تلك اللّحظة المهيبة، انطلقت رصاصتانِ بسرعة البرق، ورجّتا الماء مرّتين، وأعقبهما صوت هادئٌ مُرجَّع قائلاً بنبرةِ رضاً من ذاك الرضا الذي يحسّه الصّياد الذي أحسنَ صنعاً:

Twitter: @ketab_n

- أصبتُه!

اِستدارت مامي هنرييت، فرأت شابّاً، هيمَن وجودُه على المشهدِ المرعب بأكمله، يحمل بيدٍ بندقيّته التي كان لا يزال دخانها يتصاعد، ويمسك باليد الأخرى عودَ قِرفةٍ، متابعاً من فوقِ شفا صخرةٍ نَزْعَ القرش.

وما حدثَ هو أنّ الحيوان الذي أصيب مرّتين، استدار على نفسه كأنّما يبحث عن العدوّ الذي أصابه؛ فلمح آنذاك الزّنجيّ الذي لم يعد يفصله عنه سوى ثلاث أذرع أو أربع، فترك سارة لينقضّ عليه؛ لكنّ الزّنجيّ، وقد اقترب منه الوحش، غطس واختفى تحت الماء. غطس القرش بدوره؛ وبعد لحظات ارتجّت المياه بضرباتِ ذيلِ القرش، واصطبغت صفحةُ الماء بلون الدّم، فصار جليّاً أنّ صراعاً نشبَ في أعماق الماء.

وهبطت مامي هنرييت، أو بالأحرى تركت نفسها تنزلق، أثناء ذلك من صخرتها، ووقفت عند الضّفة باسطةً ذراعها لسارة، التي خارت قواها، وما كانت تصدّق أنّها حقّاً نجت من خطرٍ مثل ذاك، فخرّت على ركبتيها ما إن لامست قدماها الأرضَ. أمّا مامي هنرييت، فما إن تيقّنت من أنّ تلميذتها صارت بمأمَنٍ، حتّى ما عادت تمتلك قوّة للوقوف، فسقطت مغشيّاً عليها.

حين استعادت المرأتان وعيهما، كان أوّل ما وقع عليه بصرهُما هو لايزا منتصباً يقطر دماً، ذراعه وفخذه ممزّقتان، بينما جثّة القرش تطفو على سطح الماء.

ثمّ رفعتا عينيهما معاً في الآن ذاته وبحركة تلقائيّةٍ صوبَ الصّخرة التي ظهر فوقها الملاكُ المخلِّص. كانت الصّخرة فارغةً: لقد اختفى الملاك المخلّص، لكنّه لم يختفِ بسرعةٍ، وإنّما كان للمرأتين ما يكفي من

Twitter: @ketab_n

الوقت لأن تتعرّفا عليه، كانَ هو نفسه الشابّ الغريب الذي التقتاه في بور لويس.

اِستدارت سارة شطرَ الزنجيّ الذي قدّم لها منذ قليلٍ دليلاً دامغاً على الإخلاص. لكن، بعد لحظات من التأمّل الصّامت قفز الزّنجيّ بين الأشجار، وعبثاً بحثت عنه سارة بعينيها: لقد اختفى الزّنجيّ مثلما اختفى الغريب.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الحادي عشر

سِعرُ الزّنوج

في تلك اللّحظة نفسها هبّ رجلان راكضين، وكانا قد تابعا، من موضع أعلى من النّهر، جزءاً ممّا جرى: كانا السيّد دو مالميدي وابنه هنري.

تنبّهت الفتاة إلى أنّها كانت شبْه عاريةٍ، وخجلت من أنّها قد شُوهدت كذلك، فنادت المولّدة كي تمدّها بمئزرٍ، واستندت على ذراع مامي هنرييت التي كانت لا تزال ترتجف من الرّعب، وتقدّمت صوبَ عمّها وابن عمّها.

كانا قد اقتفيا أثر الحيوان حتّى ضفّة النّهر، ووصلا في اللّحظة نفسها التي انطلقت فيها رصاصتا جورج؛ وقد ظنّا في البداية أنّه أحد رفاقهما وقد صوّب ناره على الأيّل؛ فرفعا أعينهما شطرَ الموضع الذي انطلق منه صوت الطّلقة، فشاهدا، مثلما أسلفنا قوله، بشكلٍ مبهمٍ جزءاً من الواقعة التي روَيناها.

وخلف السّيدين دو مالميدي وصل باقي الصّيّادين.

وسريعاً ما ألْفَت سارة ومامي هنرييت نفسيْهما وسطَ الجَمع. سُئلتا عمّا وقعَ، لكنّ مامي هنرييت كانت لا تزال متأثرة ومضطربة، فكان أن رَوَت سارة ما حدث.

ثمّة فرق بين أن يكون المرء شاهداً على واقعةٍ مرعبةٍ مثل تلك التي حاولنا نقلها منذ قليل، أن يشهدَ تفاصيلَها جميعها بعَينَين فزِعتَين، وبين أن تُروى له، وإن سمِعَها مرويّة من فم تلك التي كادت أن تضطلعَ

Twitter: @ketab_n

بدور الضّحية في أحداثِها، أو كان هو نفسه يقف على المسرحِ الذي شهد فصولَها. لكن، بما أنّ دخان البندقيّة كان للتوّ قد انقشعَ، وجثّة الوحش لا تزال هنالك طافية على سطح الماء تنازعُ وتصدرُ حشرجة الموتِ، فقد وقعت روايةُ سارة في نفوس السّامعين وكان لها بالغ الأثر. كلّ واحدٍ منهم أسِفَ بشجاعةٍ لأنّه لم يكن هناك في مكان الغريب أو الزّنجيّ. وكلّ واحد منهم أكّد أنّه كان سيسبح بمهارة الزّنجي نفسِها، ويصوّب بدقّة مماثلةٍ لدقّة الغريب. بيد أنّ صوتاً سِريّاً كان يهمس في قلب سارة رادّاً على كلّ ادّعاءات الإخلاص والسّداد تلك، قائلاً: «لا أحد غيرهما، يستطيع أن يفعل ما فعلاه».

وفي تلك اللّحظة عرف الصيّادون، من نباح الكلاب، أنّ الأيّل حوصر ولا سبيل له إلى الخلاص. ونعلم مقدار الابتهاج الذي تخلّفه في نفوس الصيّادين الحقيقيّين مشاهدةُ سقوطِ حيوانٍ طاردوه صباحاً بأكمله. لقد نجت سارة، وما عادت معرّضةً للخطر. لا فائدة إذن من أن نضيع في الشكوى من حادثٍ، ما كانت له من نتيجةٍ سيّئةٍ في نهاية المطاف، وقتاً بالإمكان استثماره في شيءٍ آخرَ؛ غابَ صيّادان أو ثلاثةٌ ممّن كانوا بعيدين عن الفتاة، سالكينَ الطريقَ التي يأتي منها الصّوت؛ فتبعهم أربعةٌ أو خمسةٌ آخرون. اِنتبه هنري إلى أنّ من غير اللاّئق ألّا يرافق أولئك الذين استدعاهم بنفسه والذين ينبغي أن يُكرِم ضيافتهم إلى أن يغادروا؛ وبعد عشر دقائق، لم يبقَ برفقة سارة ومامي هنرييت سوى السيّد دو ماليدي.

عادوا ثلاثتهم إلى المنزل حيث كان ينتظر الصيّادينَ عشاءٌ فاخر، ولم يتأخّر الصيّادون في الوصول يتقدّمهم هنري؛ حمل لابنة عمّه قائمةَ الأيّل التي قطعها بنفسه، حتّى يقدّمها إليها تذكارَ نَصر. شكرتْه سارة على

Twitter: @ketab_n

بادرته الحسنَة، وهنّأها هو على استعادتها لونها الطبيعيّ الجميل، حتّى أنّ الناظر إليها ما كان سيحسب أنّها قد تعرّضت لحادثٍ خطيرٍ؛ انظمّ باقي الصيّادينَ إلى هنري وشكّلوا جوقة.

كانت الوليمة بهيجة. بيد أنّ مامي هنرييت طلبت الإذنَ بعدم حضورها، فقد ذُعرت المسكينة حتّى أصابتها الحمّى. أمّا سارة، فقد كانت مثلما قال هنري تبدو، ظاهريّاً على الأقل، في قمّة الهدوء، وأشرفت بنفسها على العشاء بالكرمِ المعهود فيها.

وعند طبق التّحليَة رُفعت العديد من الأنخاب، ولمّح بعضهم إلى حادثة الصّباح؛ لكن لا أحد ممّن رفعوا تلك الأنخاب أتى على ذكر الزنجيّ المجهولِ أو الصيّاد الغريب؛ وإنّما سعى الجميع إلى إرجاع الفضل في تلك المعجزة إلى العنايةِ الإلهية التي رغبت في أن تحفظَ للسيّد دو مالميدي وهنري ابنةَ أخٍ وخطيبةً عزيزة جدّاً.

ومع أنّ أيّاً من الحاضرِين لم يذكر، أثناء رفع الأنخاب، اسم لايزا أو جورج، وما كان أصلاً أحدٌ منهم يعرف اسميهما، فإنّ كلّاً منهم تحدّث بالمقابل عن بسالته وانجازاته الشّخصيّة، بينما سارة توزّع عليهم واحداً واحداً، بتهكّم بديعٍ، حصصَهم من المديح والثناء التي يستحقُّها كلٌّ منهم نظيرَ سدَاده وشَجاعته.

وإذ همّوا بالقيام عن المائدة، دخلَ قائد الحرس وأعلم السيّد دو مالميدي بأنّهم أمسكوا زنجيّاً كان يحاول الهربَ، وأتوا به إلى مقرّ العبيد. وبما أنّ ذلك من الأمور التي تحدث كلّ يوم، اكتفى السيّد دو مالميدي بالرّد:

- حسناً، عاقبوه العقابَ المعتاد.

سألته سارة:

Twitter: @ketab_n

- ماذا هنالك يا عمّي؟
فأجابها:
- لا شيء، يا صغيرتي.
واستأنفوا حديثهم السّابق.

وبعد عشر دقائقَ، أُعلِموا بأنّ الجيادَ صارت جاهزة. وبما أنّ اليوم التّالي كان يومَ موعدِ حفل اللّورد مورّيه، فقد رغب الجميع في أن يغتنموا النّهار كلّه في الاستعداد له؛ فتقرّرت العودة إلى بور لويس عقبَ العشاء مباشرةً.

مرّت سارة على غرفة مامي هنرييت: كانت المسكينة لا تزال ترتجف، وإن لم تكن مريضةً حقّاً، فألزمتها سارة بأن تظلّ في ناحية «النّهر الأسود»؛ ثمّ إنّ سارة كانت ستربح شيئاً من تمديد إقامة مربّيتها هناك، وهو عودتها على ظهرِ الحصانِ بدلاً من العودة محمولةً على الهودج.

وأثناء مرور الخيّالة، لمحت سارة بعض الزّنوج يفرغون أحشاءَ القرش؛ فقد وصفت لهم المولّدة موضعَ جثّةِ الحيوان، فذهبوا لإخراجها من الماء واستخلاص الزّيت منها.

وإذ اقتربوا من جبل «الحلمات الثلاث»، لمح الصّيادون من بعيدٍ الزّنوجَ مجتمعينَ. وحين وصلوا موضع تجمّعهم، علموا أنّهم اجتمعوا لحضور عمليّة عقاب، فالمألوف في المناسبات المشابهة هو جمع كلّ زنوجِ الحيّ وإجبارهم على مشاهدة عقابِ رفيقهم الذي ارتكبَ الخطأ.

وكان المتّهم فتىً في السّابعة عشرة من عمره، ينتظر مُوثّقاً ومُقيّداً إلى المرقاةِ التي سيُمدّ عليها حين تحينُ لحظةُ العقاب؛ وقد تمّ تأخير لحظة العقاب إلى حين مرور الخيّالة، استجابةً لطلب زنجيّ آخر ادّعى أنّ لديه سرّاً يريد أن يفشي به للسيّد دو ماليدي.

Twitter: @ketab_n

وبالفعل، ما إن وصل السيّد دو ماليدي قبالةَ المعنيّ بالعقاب، حتّى وقف زنجيّ كانَ جالساً بالقرب منه يضمدّ جرحاً أصابه في رأسه، واقترب من الطريق، لكنّ القائد منعَه من العبور.

سأله السيّد دو ماليدي:

- ماذا هنالك؟

ردّ قائد الحرس:

- إنّه الزّنجيّ ناظم يا سيّدي، الذي سيُضرب المائة وخمسين جلدةً التي حُكم عليه بها.

سألته سارة:

- ولِمَ حُكم عليه بمائة وخمسين جلدة؟

أجابها القائد:

- لأنّه أَبِقَ.

قال هنري:

- آه! آه! هو إذن ذاك الذي جاؤوا يعلمونَنا بهربه؟

- هو بعينه.

- وكيف أمسكتم به؟

- أوه! يا إلهي! إنّ الأمر في غاية البساطة: لقد انتظرتُ حتّى صار بعيداً عن الشاطئ بحيث ما عاد بإمكانه العودة إليه إن تجديفاً أو سباحةً، وانطلقت آنذاك في أثره على متن قارب جيّد برفقة ثمانية مُجدّفين. وإذ جاوَزنا الرّأس الجنوبيّ-الغربيّ لمحناه في البحر على بعد فرسخَين تقريباً. وبما أنّه ما كان يملك سوى ذراعينِ مقابلَ أذرعِنا السّت عشرة، وقارباً بائساً مقارنةً مع زورقنا الجيّد، أدركناه بسرعة. فقفز إلى الماء، وحاول بلوغ الجزيرة سباحةً، وكان يغطس

Twitter: @ketab_n

كخنزير، لكنّه ما لبث أن كَلَّ قبْلنا، وبما أنّ الأمر غدا متعِباً فقد أخذت من أحد الرّجال مجدافه، وفي اللّحظة التي عاد فيها إلى سطح الماء ضربته على رأسه ضربةً قويّة حتّى أنّي حسبت أنّه سيغطس بعدها إلى الأبد. لكنّنا ما لبثنا أن لمحناه يصعد مرّة أخرى، وكان مغميّ عليه. ولم يستعد وعيه حتّى بلغنا كثيب براابان، وها هو ذا.

قالت سارة بحُميّا:

- لكنّ الشّقيّ قد يكون مصاباً إصابةً بليغة.

أجابها القائد:

- أوه! يا إلهي، كلّا يا آنستي، إنّه خدش فحسب، فجِلدُ هؤلاء الزّنوج الملاعين غضّ للغاية.

قال السيّد دو ماليدي:

- ولِمَ إذن تأخرتم في إلحاق العقوبة التي يستحقّها به؟ بحسب الأمر الذي أعطيته كان ينبغي أن يكون الأمر قد تمّ.

أجاب القائد:

- كان الأمر سيتّم يا سيّدي، لولا أنّ أخاه، وهو أحد عمّالنا الأشدّاء، أصرّ على أنّ لديه شيئاً هامّاً يخبرك به قبل تنفيذ الحكم. وبما أنّك كنت ماراً من هنا، وأنّ الأمر لن يتأخّر لأكثر من ربع ساعة، فقد أخذت على عاتقي تأخيرَ الحكم.

قالت سارة:

- وقد أحسنتَ صنعاً. أين هو؟

- من؟

- أخو هذا الشّقيّ؟

سأل السيّد دو ماليدي:

Twitter: @ketab_n

- أجل، أينَ هو؟

تقدّم لايزا قائلاً:

- ها أنذا.

أطلقت سارة صيحةَ دهشةٍ؛ لقد عرفتْه. كان شقيقُ المحكوم هو نفسه الزّنجيّ الذي ارتمى بشجاعة وإخلاص لإنقاذ حياتها. على أنّ المدهش في الأمر هو أنّ الزّنجيّ لم يرفع بصرَه البتّة نحوها؛ بدا الزّنجيّ كأنّما لا يعرفها؛ بدل أن يطلب الزّنجي وساطتها، وذاك حقُّه، أكمل تقدّمه صوب السّيد دو مالميدي. وما كان ثمّة من مجال للاشتباه في الأمر، لقد كان هو حقّاً زنجيَّ الصّباح، وما زالت آثار أسنان القرش داميةً على ذراعه وفخذه.

قال السيّد دو مالميدي:

- ماذا تريد؟

أجاب لايزا بصوتٍ خفيضٍ حتّى لا يسمعه أخوه الذي كان على بعد عشرينَ قدماً منه، محاطاً بزنوجٍ آخرين يراقبونه:

- جئت ألتمسُ منكَ عطفاً.

- أيّ عطف؟

- ناظم ضعيف، ناظم مجرّد طفلٍ، ناظم مصابٌ في رأسه وقد نزف كثيراً؛ ناظم ليس قويّاً بما يكفي ليتحمّل العقوبة التي يستحقّ؛ قد يموت بينما يُجلَد، فتخسر زنجيّاً يساوي، على الأقلّ، مائتي قرش...

- وإذن، إلى ماذا ترمي؟

- أريد أن أقترح مبادلة.

- أيّة مبادلة؟

Twitter: @ketab_n

- اِجلدني بدلاً عنه، اِضربني المائة وخمسين جلدةً التي يستحقّها. إنّي قويّ وسأتحمّلها؛ ولن يمنعني الأمر من أن أكون غداً صباحاً في العمل كالعادة، أمّا هو، فأكرّرها عليك: إنّه مجرّد طفلٍ وسيموت.

أجاب السيّد دو مالميدي: «الأمرُ غير ممكنٍ»، بينما سارة تحدّق بالرّجل بعينين ملؤُهما الدّهشة.

- ولِمَ هذا غير ممكن؟

- لأنّه غير عادل.

- إنّك مخطئ يا سيّدي، لأنّي أنا المذنب الفعليّ!

- أنت!

- أجل، فأنا من حثَّ ناظم على الفرار، وأنا من صنع القارب الذي استخدمَه، وأنا من حلَقَ رأسه بشقْفة زجاجٍ، وأنا من أعطاه زيتَ جوزِ الهند ليدهن به جسمَه. أَرأيت إذن، إنّي أنا من ينبغي أن يُعاقَب وليسَ ناظم؟

أجاب هنري مُدلياً بدَلوِه في الحوار:

- إنّك مخطئ، ينبغي أن تعاقبا معاً، هو لأنّه أبِقَ وأنت لأنّك ساعدته على الفرار.

- اِجلدني إذن الثلاثمائةَ جلدةً كاملة.

قال السيّد دو مالميدي:

- أيّها القائد، اجلد كلّ واحدٍ منهما مائةً وخمسين جلدةً، ولننتهِ من الأمر.

قالت سارة:

- لحظة يا عمّي، إنّي أطالب بالصّفح عن هذين الرّجلين.

سألها السيّد دو مالميدي دهشاً:

Twitter: @ketab_n

- ولِمَ؟
- لأنّ هذا الرّجل هو من ارتمى في الماء بشجاعةٍ لإنقاذي هذا الصّباح.
صاح لايزا:
- لقد عرفَتني!
صاحت سارة:
- لأنّه لا يستحقّ عقاباً، وإنّما مكافأة.
قال لايزا:
- وإذن، إذا كنتَ ترى أنّي أستحقّ مكافأة، فلتمنحْ ناظم عفوكَ.
قال السيّد دو مالميدي:
- اللّعنة! اللّعنة! هل أنت من أنقذ ابنةَ أخي؟
أجاب الزّنجيّ:
- لست أنا من أنقذها، لولا الصيّاد الغريب ما كانت لتنجو.
صاحت الفتاة:
- ولكنّه فعل ما بوسعه يا عمّي، لقد صارع القرشَ. وانظر، انظر إلى جراحه التي لا تزال دامية.
اِستطرد لايزا:
- لقد صارعتُ القرش، لكن دفاعاً عن نفسي. لقد اندفع القرش نحوي، وكان عليّ أن أقتله لأنقذني.
سألته سارة:
- وإذن يا عمّي، هل سترفض طلبي الصّفحَ عنهما؟
أجابها السيّد دو مالميدي:
- أجل بلا ريب، فلو أنّي منحت هذين الزّنجيّين عفوي في ظروف مثل هذهِ، فسيفرّون جميعهم، آملين في أنّ أفواهاً جميلةً مثل فمك

Twitter: @ketab_n

ستتوسّط لهم.

- لكن يا عمّي...

قال السيّد دو مالميدي بنبرةٍ واثقةٍ وهو يستدير شطر الشبّان الذين يحيطون بابنِه:

- سَلِي كلّ هؤلاء الرّجال عمّا إذا كان الأمر ممكناً.

أجابوا جميعاً:

- الحقيقة أنّ عفواً مثل هذا سيكون مثالاً سيّئاً.

- هل رأيتِ يا سارة؟

قالت سارة:

- لكنّ رجلاً جازف بحياته من أجلي، لا يمكن أن يُعاقَب في اليوم نفسه الذي خاطر فيه بحياته من أجلي؛ لأنّه إن كان يحقّ عليه عقابُك، فإنّي يحقّ عليّ مكافأتُه.

- لكلّ منّا إذن دَينُه، وحينَ أفرَغ من عقابه، كافئِيه.

- لكن يا عمّي، فيمَ يهمّك في آخر المطاف خطأ هذين الشّقيّين؟ أيّ أذىً سبّباه لك؟ ما داما لم يستطيعا تحقيق نيّتهما.

- أيّ أذىً ألحقاه بي؟ لقد فقدا جزءاً من قيمَتِهما. إنّ عبداً حاول الفرارَ يفقد مائةً بالمائة من سعره. وها هما عبدان كان أحدهما يساوي بالأمس خمسمائةِ قرشٍ والآخر ثلاثمائة، أي أنّ سعرهما معاً كان يساوي ثمانمائة قرش. لو أنّي أطلب فيهما اليوم ستمائة قرش، فلا أحد سيرضى بدفعها.

قال أحد الصيّادين الذين كانوا يرافقون هنري:

- الحقّ أنّني لن أعطيك فيهما الآن ستمائةِ قرش.

فأجابه صوتٌ اقشعرّ لنبرتِه بدنُ سارة:

Twitter: @ketab_n

- أمّا أنا فسأكون أكثر سخاءً منك يا سيّدي، وسأعطي مقابلهما ألفاً.

اِستدارت الفتاة وتبيَّنت غريبَ بور لويس، ملاكَ الصّخرة المخلِّص. كان يقف، مرتدياً بذلةَ صيدٍ أنيقةً، مستنداً إلى بندقيّته ذات الفوهَتين. وقد سمع كلّ ما قيل.

قال السيّد دو ماليدي، بينما تلبّس هنري إحساسٌ جعل الدّم يصعد إلى وجهه:

- آه! هو أنت إذن؛ تقبّل منّي كلّ الشكر، فقد أخبرَتني ابنة أخي أنّك أنتَ من أنقذت حياتها. ولو أنّي علمتُ موضعَك، لأتيت فوراً لرؤيتك، ليسَ بقصدِ تخليص ذمّتي تجاهك، فذاك أمرٌ مستحيل، وإنّما لأعبّر لك عن خالص امتناني.

دون أن يردّ الغريبُ بكلمةٍ، انحنى بتواضعٍ ساخرٍ، لم ينطلِ على سارة. وأسرعت الفتاة مضيفةً:

- عمّي محقٌّ يا سيّدي؛ إنّ جميلاً مثل هذا لا يُرَدّ؛ لكن تيقّن، أنّي سأذكر ما حَيِيت أنّي مَدينة لك بحياتي.

- إنّ عبوتَي بارودٍ ورصاصتَين لا تستوجب كلّ هذا الشّكر آنستي؛ سأكون محظوظاً إذن، لو قبِل السيّد دو ماليدي التخلّي مقابلَ المبلغ الذي قلتُ عن الزّنجيّين اللّذين أحتاجهما.

قال السيّد دو ماليدي بصوت خفيض:

- ألم يخبرونا أنّ ثمّة في الجزيرة باخرةً للمتاجرة بالعبيد؟

أجاب هنري:

- أجل، يا أبي.

تابع السيّد دو ماليدي محدّثاً نفسه:

- حسناً! نستطيع تعويضهما.

Twitter: @ketab_n

قال الغريب:

- أنتظر جوابَك سيّدي.

- وكيف يا سيّدي! على الرّحب والسّعة. هما لكَ، بوسعك أخذهما؛ لكنّي لو كنت مكانك، لأعطيتهما اليومَ الجزاءَ الذي يستحقّانه، وإن كلّفني الأمر ثلاثةَ أيّامِ عملٍ أو أربعة.

قال الغريب باسماً:

- تلك مهمّتي. وستصلُك القُروشُ الألْف هذا المساء.

قال هنري:

- عفواً سيّدي، إنّك مخطئ، فوالدي لا ينوي بيعكَ العبدين، وإنّما إعطاءك إيّاهما. لا يمكن أن يستوي امتلاك عبدين بئيسين والحياةَ الثّمينةَ لابنة عمّي. لكن دعني على الأقل أمنحك ما أملكه وما تبدو راغباً فيه.

قال الغريب، وهو يرفع رأسه بشموخ، بينما السيّد دو مالميدي يشير بطرف خفيّ إلى هنري مبيّناً له أنّه قد أخطأ تفسير نيّاته:

- لكنْ يا سيّدي...

قالت سارة:

- حسناً، اسمح لنا بأن نقدّم لك شيئاً، خذ هذين العبدين إرضاءً لتلك التي أنقذتَ حياتها.

قال الغريب:

- أشكرك سيّدتي؛ من السّخافة أن أُصِرّ أكثر. أقبل عطاءكم إذن، وأنا الآن المدينُ لكم.

ثمّ تراجع الغريب منحنياً خطوةً إلى الخلف، علامةً على أنّه لا يودّ أن يُؤخّر أكثرَ من ذلك الجمعَ المحترمَ عن استكمال طريقه الطويلة.

Twitter: @ketab_n

تبادل الرّجال التّحيّة، بينما تبادلت سارة وجورج نظرة.

تابع الخيّالة طريقهم، وشيّعهم جورج لحظة بعينيه وهو يحرّك حاجبيه على عادته حين تستبدّ به فكرة مريرة. ثمّ اقترب من ناظم وأمرَ قائد الحرس:

- فكّ وثاق هذا الرّجل، فهو وأخوه ملكي الآن.

ولم يبدِ القائد الذي سمع المحاورة كلّها، أيّ إشارة تمنّع. صار ناظم ولايزا إذن ملكاً لسيّدهما الجديد.

سحبَ الغريب من جيبه صرّةً مليئةً بقطع الذّهب، وقال متوجّهاً بالكلام إلى الزّنوج:

- والآن يا أصدقائي، ما دمت قد تلقيت هديّة من سيّدكم، يقتضي العدل أن أمنحكم عطّيةً صغيرة. خذّوا هذه الصرّة واقتسموا ما بها.

مدّ الصرّة إلى أقرب الزّنوج إليه؛ ثمّ استدار إلى زنجيّيه اللّذين كانا خلفه ينتظران الأوامر:

- أمّا أنتما، فافعلا ما شئتما، اذهبا حيث شئتما، أنتما حُرَّان.

أطلقَ لايزا وناظم صيحة فرحٍ مشوبةً بالتوجّس، إذ كان يشقّ عليهما التّصديق في أنّ سخاءً مثل ذاك يصدرُ عن رجلٍ لا يدين إليهما بأيّ شيء؛ لكنّ جورج كرّر كلامه، فانحنى لايزا وناظم على ركبتيهما، وأخذا يقبّلان بعرفانٍ اليدَ التي حرّرتهما.

أمّا جورج، وقد بدأ الوقت يتأخّر، فقد وضع على رأسه قبّعة القشّ التي كان يمسك بها في يده طيلة الوقت، ورمى بندقيّته على كتفه، ثمّ انتهج طريق موكا.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني عشر

الحفل الرّاقص

كان اليوم التّالي، كما أسلفنا، هو اليوم المقرّر فيه إقامة وليمة العشاء والحفلِ الرّاقص في قصر الحاكم، والذي هيّج الإعلان عنه مدينة بور لويس.

ومن لم يعِش في المستعمرات، وخاصةً في جزيرة موريس، لن يستطيع تصوّر حياة الرّفاهية التي تسود على ارتفاع عشرين درجةً من البحر. ففضلاً عن تلك الرّوائع الباريسية التي تقطع البحار لتزيّن كريوليّات جزيرة موريس الكريمات، كان لأولئك النّسوة حظّ الاختيار، قبل غيرهنّ، بين أحجارِ فيزابور (آسيا) الكريمة، ولآلئ أوفير (البحر الأحمر) وكشمير سيّام (تايلاند) وأثواب الموسلين الرفيعة القادمة من كلكوتا (الهند). فلا واحدة من تلك السفن الآتية من عالم ألف ليلة وليلة لتتوقّف في جزيرة موريس ترحل دون أن تترك هناك جزءاً من الكنوز التي تنقلها إلى أوروبا؛ والشّيء نفسه ينسحب على الرّجال الذين ألِفوا أناقةَ باريس وترفَ الإنجليز، فهم أيضاً يجدونها فرصةً رائعةً تلك التي تجعلهم يتألقون جميعاً أثناء مناسبةٍ تجمعهم على جزيرة موريس.

وهكذا فإنّ صالونَ الحاكم، الذي استطاع اللّورد موريه أن يجدّده في ثلاثة أيّام، وهو ابن الموضة والرّفاهية الأرقى، صار يبدو في الرّابعة مساءً مثل شقّةً من شقق شارع «الجبل الأبيض» بباريس أو ريجنتس ستريت («شارع الوصيّ») بلندن: كانت أرستقراطية المستعمرة كلّها مجتمعةً

Twitter: @ketab_n

هناك، رجالاً ونساءً. الرّجال في ذاك السّمت البسيط الذي فرضته علينا الأزمنة الحديثة؛ والنّساء تغطّيهن المجوهراتُ وينضحنَ باللآلئ، كأنّما هنَّ قد بدأن الحفل الرّاقص من الآن، ولا شيء يميّز بينهنّ وبين نسائنا الأوروبيات، سوى تلك الرّقة الحُلوة والمتراخية التي هي خاصّةُ النّساء الكريوليّات. وكلّما تمّ النّطق بِاسمٍ من الأسماء، تستقبلُ ابتسامةٌ عامّة الشخصَ المعنيَّ؛ لأنّ الجميعَ في بور لويس يعرف الجميعَ، والفضولُ الوحيد الذي يرافق دخولَ امرأةٍ ما إلى الصالون، هو معرفة الفستان الذي اشترته حديثاً، ومن أين أتت به، ومن أيّ نسيج هو، وأيّ الحليٍّ تصاحبه. على أنّ أكثر ما كان يثير فضول النّساء الكِريوليات بهذا الصّدد هو أزياء النّساء الإنجليزيّات، إذ في خضّم صراع الغزو الأبديّ الذي تمثّلُ بور لويس مسرحَه، يعدّ هزم الغريبات في معركة الرّفاهية مسألة ملحّة بالنّسبة للأهالي. فمن الطّبيعيّ إذن أن تكون الهمساتُ التي تصاحب كلّ مرّةِ الإعلانَ عن وافدٍ جديد، والوشوشات التي تعقب دخولَه، أطولَ حين ينطق الحاجب باسم بريطانيّ، اسمٍ من تلك الأسماءِ التي تتنافر رنّتها مع رنّة أسماءِ أبناء البلدَ، بالقدر نفسهَ الذي تتنافر به سمرةُ عذراوات المناطق المدارية مع شُقرةِ بنات الشّمال وشحوبهنّ. وكلّما دخل شخص جديد، يتحرّك اللّورد مورّيه بتلك اللّباقة المألوفة في الإنجليز المرموقين، ويقف أمامه: فإن كان القادم امرأةً قدّم إليها ذراعه وقادها إلى موضعها، وفي الطّريق يقول لها عبارةً مجامِلَةً؛ أمّا إن كانَ القادم رجلاً، فإنّه يمدّ له يدهُ مصافحاً ويُسمِعه كلمةَ ترحيبٍ؛ وكان يحسن ذلك لدرجةِ أنّ الجميعَ اتّفقوا على أنّ الحاكمَ الجديد رجلٌ لطيف.

أعلن الحاجبُ وصولَ السّيّدين والآنسة دو ماليدي، وهو إعلان كان يترقّبه الجميع، ليس لأنّ السيّد دو ماليدي كان بالفعل أحد أغنى أثرياء

Twitter: @ketab_n

الجزيرة فحسب، وإنّما لأنّ سارة كانت أيضاً إحدى أغنى نساءِ الجزيرة وأكثرهنّ أناقة. فتابع الجميع حركة اللّورد مورّيه حين تقدّم لمرافقتها؛ لأنّها هي تحديداً من كانت زينتها تشغل بال أجملَ الضّيفات.

وعلى خلاف عادة النّساء الكِريوليّات، وبالضدّ من التّوقعات العامّة، كانت زينةُ سارة كأبسط ما يكون: كانت ترتدي فستاناً من ثوب الموسلين الهنديّ، شفّافاً وخفيفاً مثل ذاك الشفّ الذي يسمّيه جوفينال[1] الهواءَ المنسوجَ، ولم يكن على ثوبها أيّ تطريز، كما أنّها ما كانت ترتدي أيّة لؤلؤة أو جوهرة، تزيّنت فقط بغُصنِ زعرورٍورديّ؛ وكانت تضع على رأسها إكليلاً من النّبتة ذاتها، وعند حزامها تتحرّك حزمةُ ورودٍ من الصّنف نفسه؛ ولا سوار يبرز لونَ بشرتها الذّهبيّة، اكتفت فقط بقرطيها الطويلين اللّذين يلامسان كتفيها، وحملت بيدها تلك المروحة التي تُعدّ أعجوبةَ الصّناعةِ الصّينية والتي كانت قد اشترتها من ميكو-ميكو.

وكما قلنا كان الجميع على جزيرة موريس يعرف الجميع؛ بحيث أنّه ما إن دخل السّيّدان والآنسة دو ماليدي حتّى أدرك الجميع أنّه ما عاد ثمّة مجال لانتظار أحدٍ، إذ أنّ جميع أولئك الذين ألِفوا التواجد مجتمعين، بفضل ثرواتهم وانتمائهم الطّبقيّ، كانوا هناك: فكان من الطّبيعيّ أن تتحوّل الأنظارُ عن الباب الذي ما عاد يُنتظر أن يدخل منه أحد. وما هي إلّا عشر دقائق حتّى عاد الجميع إلى التّساؤل من ذا الذي بوسعِ اللّورد مورّيه انتظاره، حين نادى الحاجب بأعلى صوته:

- السيّد جورج مونييه.

ولو أنّ الصّاعقة نزلت على الجمع، الذي وضعناه منذ قليل نُصبَ

---

(1) يقصد على الأرجح الشّاعر اللاّتيني جوفينال (ولد سنة 60 وتوفي سنة 130، بعد ميلاد المسيح).

Twitter: @ketab_n

عين القارئ، لما كان لها الوقع ذاته الذي كان لذاك الإعلان البسيط. اِستدار الجميع صوب الباب متطّلعين ومتسائلين، من عساه يكون هذا الذي سيدخل؛ لأنّ الاسم وإن كان مألوفاً، فإنّ صاحبه غاب زمناً طويلاً حتّى كاد وجودُه يُنسى.

دخل جورج.

كانَ شابّاً مولّداً تزيّا ببساطةٍ، لكن في الآن نفسه بذوق رفيع. لباسُه الأسودُ المتناسب تماماً وجسَده، والعروة التي قيّدت إليها سلسلةٌ وَضع عند طرفها الوسامين اللّذين وُشّح بهما، كانا يبرزان كلّ بهاء قامته. وسرواله الذي يكاد يبدو ملتصقاً بجسمه يُبرز تضاريس الجسد الأنيقة والنّحيلة المميِّزة للرّجال الملوّنين. وبخلاف أولئك الرّجال ما كان يضع حليّاً سوى سلسلة ذهبيّة دقيقة مماثلة لتلك التي شدّها إلى عروته، لا يَظهر سوى طرفها، وتختفي داخل سترته المصنوعة من المضرَّب الأبيض. فضلاً عن ربطة عنق معقودة بتلك الطريقة المهملة التي لا تتأتّى إلّا لمن تمرّس على الأناقة، تتدلّى عليها ياقة قميص دائريّة، محيطةً بوجهه الوسيم الذي يزيد شاربُه من بروزِ شحوبِ بشرتِه الكامدة.

تقدّم اللورد مورّيه لاستقبال جورج أبعد ممّا تقدّم لأيّ واحد آخر، وأخذه من يده ثمّ قدّمه إلى النساء الثلاث أو الأربع والضّباط الإنجليز الخمسة أو الستّة الذين كانوا في الصّالون، بصفته رفيقَ سفرٍ لم يكفّ عن تهنئة نفسه به طيلة رحلتهما؛ ثمّ استدار شطر باقي الضيوف قائلاً:

- أيّها السّادة، لست بحاجة إلى أن أعرّفكم على السيّد جورج مونييه؛ إنّه ابن بلدكم، ولا ريب في أنّ عودة رجلٍ مميّز مثله تكاد ترتقي إلى مرتبة العيد الوطنيّ.

اِنحنى جورج علامةَ امتنانٍ؛ لكن على الرّغم من الاحترام الواجب

Twitter: @ketab_n

للحاكم، ولا سيّما في بيته، فإنّ صوتين أو ثلاثة لم تكد تؤاتيهم القوّة للغمغمة ببعض الكلمات رداً على التّقديم الذي خصّ به اللّورد مورّيه مدعوّه جورج.

لم ينتبه اللّورد مورّيه للأمر، أو بدا كأنّه لم ينتبه للأمر، وإذ أعلن الخادم أنّ المائدة جاهزة، تأبّط اللّورد مورّيه ذراعَ سارة وتوجّه الجميع إلى غرفة الأكل.

ومن مزاج جورج المعروف، يسهل التّخمين أنّه لم يتأخّر في الوصول عبثاً: فإذ كان يستعدّ لخوض معركته ضدّ الحكم المسبق الذي تعهّد هو بمحاربته، كانَ يودّ أن يقابل خصمه من اللّحظة الأولى وجهاً لوجهٍ؛ وكانَ له ما أراد؛ فإعلانُ اسمه وطريقته في الدّخول لم يمرّا دون أن يخلّفا الأثر الذي توقّعه.

لكنّ أشدّ الحضور الكرام تأثّراً كانت سارة. فإذ علمت الفتاة أنّ صيّاد النّهر الأسود كان قد وصل إلى بور لويس رفقة اللّورد مورّيه، فقد توقّعت أن تراه. وربّما من أجل الوافد الجديد من أوروبا اختارت أن تتزيّن بتلك البساطة المحبّبة عندنا هنا، والتي علينا الاعتراف بأنّها غالباً ما تُقابِلُ بذخَ المستعمرات المبالغ فيه. كما أنّها ما إن دخلت حتّى بحثت بعينيها في كلّ مكان عن الشابّ الغريب. وكانت نظرة واحدة كافية لتدرك أنّه غير موجود؛ وإذّاك فكّرت في أنّه سيأتي، وأنّه لحظةَ وصوله سيتمّ الإعلان عنه، فتعرفُ اسمه ومن يكون، دون أن تحتاج إلى طرح أيّ سؤال.

وقد تحقّقت تطلّعات سارة كما رأينا، فما إن أخذت مكانها بين النّساء، والتحقَ السّيدان دو ماليدي بجماعة الرّجال، حتّى أُعلِنَ عن وصول السيّد جورج مونييه.

Twitter: @ketab_n

وما إن نُطِقَ بالاسم الشّهير في الجزيرة، وإن كان غيرَ مألوفٍ سماعُه في وضعياتٍ مثل تلك، حتّى ارتجفت بشعور حدسيّ، واستدارت قلقة. فوقع بصرها على شابّ بور لويس الغريب، بمشيته الواثقة وجبهته الهادئة ونظرته السّاخرة وشفتيه المرفوعتين ازدراءً، ولنعجّل بالقول إنّه بدا لها، في ظهوره الثّالث هذا، أكثر وسامةً وشعريّةً من المرّتين السّابقتين.

ولم تتابع الفتاة التقديمَ الذي خصّ به اللورد موريه جورج بعينيها فحسب، وإنّما أيضاً بقلبها، قلبها الذي انقبض حين عبَّر الحضورُ بالصّمت عن رفضهم للمولَّد الشابّ؛ وبعينين تكادان تكونان مليئتين بالدّمع، ردّت على النّظرة الخاطفة المخترقة التي رماها بها جورج.

ثمّ كان أن أخذها اللّورد موريه من ذراعها، فما رأت شيئاً بعد ذلك؛ إذ طيلة الوقت الذي كانت نظرةُ جورج تقع فيه عليها، كانت تحسّ بنفسها تتورّد وتشحب في آنٍ؛ وإذ كانت موقنةً أنّ جميع العيون كانت تحدّق بها، فقد توارت عن الأنظار لحظة. لكنّها كانت مخطئة بهذا الصّدد، فلا أحد كانَ يعير الأمر اهتماماً، لأنّه باستثناء السيّد دو مالميدي وابنه، ما كان أحدٌ على علم باللّقاءين السّابقين اللّذين جمعا الشابّ بالفتاة، وبالتّالي ما كان أحد ليفكّر في أنّ ثمّة ما يجمع الآنسة سارة دو مالميدي بالسيّد جورج مونييه.

وحين جلسوا إلى المائدة شرعت سارة في استطلاع ما حولها. كانت جالسةً إلى يمين الحاكم، الذي كانت تجلس إلى يساره زوجة قائد الجزيرة العسكريّ؛ وقبالتها كان يجلس ذاك القائد نفسه، محاطاً بسيّدتين من العائلات الأرقى في الجزيرة. ثمّ إلى يسار السّيدتين ويمينهما جلس السيّدان دو مالميدي، وهكذا دواليك؛ أمّا جورج فقد كان يجلس، إمّا صدفةً أو حرصاً من اللّورد موريه، بين إنجليزيّتين.

Twitter: @ketab_n

تنفّست سارة الصّعداء: كانت تعلم أنّ الحكم المسبق الذي يلاحق جورج ما كان له من اعتبار لدى الأجانب، وأنّه ينبغي لسكّان العاصمة البقاء فترةً طويلة في المستعمرات حتّى ينتقل إليهم ذاك الحكم. هكذا لاحظت كيف كان جورج يتصرّف بكامل اللّباقة المنتظرة من ضيف مهذّب، بين مواطنتَي اللّورد مورّيه السّعيدتين بمجاورة رجل يتحدّث لغتهما كأنّه وُلد في إنجلترا.

وإذ أعادت سارة عينيها إلى المائدة، انتبهت إلى أنّ عينَي هنري كانتا تحدّقان بها. أدركت تماماً ما يمكن أن يجول بخاطر خطيبها، فأخفضت عينيها محمرّة، بحركة تكاد تكون لا إرادية.

كان اللّورد مورّيه سيّداً بكلّ معنى الكلمة، يعرف كيف يضطلع بدور سيّد المنزل، ذاك الدّور الذي يصعب على المرء الاضطلاع به ما لم يكن يؤدّيه غريزيّاً، أيّ بالسّليقة؛ ثمّ إنّه، ما إن اطمأنّ إلى انقشاع تلك الخشية وذاك القلق الذي يرافق بدايةَ تقديم وليمةِ عشاءٍ حتّى انصرف إلى الحديث مع كلّ ضيفٍ من ضيوفه، مثيراً مع كلّ واحد منهم الموضوع الذي يسهل عليه الحديث فيه، مذكّراً الضبّاط ببعض المعارك الجيّدة، والتّجار ببعض المضاربات الكبرى؛ وفي خضّم ذلك كلّه كان بين الفينة والأخرى يلقي إلى جورج عبارةً تؤكد أنّه الوحيد الذي بوسعه الحديث معه في أيّ فنّ شاء، وأنّ اللّورد مورّيه حين يكلّمه فإنّه يتوجّه إلى مثقّفٍ واسع الإلمام وليس إلى رجل قَصَر اهتمامه على التّجارة أو الحرب.

على هذه الوتيرة اِنقضى العشاء. ولقد أجاب جورج على أسئلة اللّورد جميعها، مبيّناً للضّباط أنّه شارك في الحرب مثلهم، وللتّجار أنّه لم ينأَ بنفسه عن الاهتمامات التّجارية، تلك التي تجعل من البشر أسرةً واحدةً تربط بين أفرادها أواصرُ المنفعة؛ وأثناء ذاك الحديث المقتطّع كانت تتناثر برّاقةً

Twitter: @ketab_n

أسماءُ أولئك الذين يحتلون أعلى المناصب في فرنسا وإنجلترا وإسبانيا، سواءً على المستوى السّياسيّ أو الأرستقراطيّ أو الفنّيّ؛ وكلّما ذُكر اسم أحدهم صاحبت ذكرَه ملاحظة تشير إلى أنّ المتحدّث عارفٌ تمام المعرفةِ بشخصيّةِ صاحب الاسم وبدرجة فطنته ومكانته.

وعلى الرّغم من أنّ شذرات كلامه قد مرّت فوق الرّؤوس، إن جاز لنا التّعبير، إلّا أنّه كان ثمّة العديد من الرّجال المميّزين ممّن بوسعهم إدراك مدى التّفوق المتضمَّن في حديث جورج: من هنا فإنّ شعور الرّفض الذي أظهره الحضور تجاه المولَّد الشابّ، لئن ظلّ هو هو إلى حدّ بعيد، إلّا أنّه أفسح المجال قليلاً للدّهشة التي عظُمت، وعظُمت معها الغيرة في نفوس بعضهم. لا سيّما هنري، الذي شغلته فكرة أنّ سارة قد نظرت إلى جورج أكثر ممّا تسمح به وضعيّتُها كمخطوبة وكرامتُها كامرأةٍ بيضاءَ؛ فسرى في قلبه إحساس بالمرارة، وما كان لديه من سبيل لتفاديه؛ ثمّ إنّه حين سمع اسمَ مونبيه استيقظت فيه ذكريات الطّفولة: تذكّر يوم أراد أن يسلب جورج العَلَم الذي غنمه والده فلَكَمه أخوه جاك لكمةً قويّة في وجهه. أخذت مخاوفه القديمة من الأخوين تنبض في صدره بصمتٍ، وكون سارة قد أُنقذت أمس على يد واحدٍ منهما، بدلاً من أن يمحوَ حقدَ الماضي، لم يزد البغضَ إلّا اضطراماً. أمّا السيّد دو ماليدي الأب فقد ظلّ طيلة السّهرةِ غارقاً في نقاش مع أحد مجاوريه حول طريقةٍ جديدةٍ لتحسين السّكّر، ممّا يجعل أرضه تعطي ثلث غلّة إضافيّاً إلى غلّتها المعتادة. وفي المحصّلة، باستثناء كونه قد دُهِش لأنّ مخلّصَ قريبته هو جورج، وأنّه صادف جورج عند اللّورد موريّه، لم يُعر الأمر اهتماماً أكبر.

لكن كما أسلفنا، لم يكن الأمر كذلك بالنّسبة لهنريّ؛ فلم يُفلت هو عبارةً واحدةً من العبارات التي وجّهها اللّورد موريّه إلى جورج، ولا

Twitter: @ketab_n

إجابةً واحدةً من الإجابات التي ردّ بها هذا الأخير. وفي كلّ إجابة من إجاباته كان يتعرّف على عقل راجح وفكر راقٍ؛ ثمّ إنّه فحص نظرتَه الصّارمة، تلك النظرة التي تفصح عن إرادة راسخة، فأيقن أنّ الماثل أمامه ليس هو ذاك الصّبي المضطهد الذي غادر بور لويس، بل خصم قويّ أتى يضرِب ضرباتِه.

ولو أنّ جورج، حين عودته إلى جزيرة موريس، كان قد تواضع وركنَ إلى الموضع الذي خصّته به الطّبيعة في نظر البِيض؛ لو أنّه تاه في عتمة طفولته، لما كانَ هنري أعارَه بالاً، ولا كان احتفظ بأيٍّ من تلك الضغائن التي كان يحملها تجاهه منذ أربع عشرة سنة. لكنّ الأمر لم يجرِ على هذا النّحو، فقد أعلن الشابّ الفخورُ عن نفسه في وضح النّهار، واقتحم حياةَ العائلة من باب المعروف الذي أسداه لهم؛ وأتى يجالس هنري على الطاولة نفسها، كمساوٍ له في الوضعية الاجتماعيّة ومتفوّقٍ عليه في حصافةِ الفكر: فاق الأمرُ طاقةَ هنري، وها هو يعلن الحربَ في داخله.

وبعد أن قاموا عن المائدة، وانطلقوا إلى الحديقة، اقترب هنري من سارة التي كانت قد اتّخذت مجلسها بين عدّة نساء في موضع موازٍ للموضع الذي جلس الرّجال يحتسون فيه القهوة. كانت سارة ترتعد، إذ حدست أنّ كلام ابن عمّها سيتطرّق بالضّرورة إلى جورج.

قال هنري وهو يسند ذراعه إلى مقعد البامبو الذي تجلس عليه الفتاة:

- وإذن يا ابنة عمّي الجميلة، كيف كان العشاء؟

أجابته سارة باسمة:

- لا أحسب أنّك تقصد الجانبَ الماديّ؟

- كلّا، يا ابنة عمّي العزيزة، وإن لم يكن سؤالٌ كهذا في غير محلّه

Twitter: @ketab_n

بالنّسبة لبعض الضيوف، ممّن لا يعيشون مثلك على الطلّ والهواء والأريج. كلّا، إنّي أقصد الجانب الاجتماعيّ، إن جاز لي القول.

- حسناً، كان العشاء مفعماً بأمارات الذوق الرّفيع. وبدا لي أنّ اللّورد مورّيه قد أكرم وفادة الجميع، وسعى إلى أن يكون لطيفاً ما أمكنه مع الجميع.

- أجل، بالتّأكيد! لكنّي أيضاً أعجب عميقَ العجبِ، كيف لرجل رفيع مثله أن يخطئ في حقّنا هذا الخطأ!

ومع أنّ سارة كانت تعرف مبتغى ابن عمّها، تساءلتْ:

- أي خطأٍ تقصد؟

كانت قد شحذت كلّ طاقتها المخفيّة في أعماق القلب، كي تنظر في عينَي ابن عمّها وهي تسأله ذاك السّؤال.

أجابها هنري متضايقاً ليس فحسب من نظرتها الثابتة، وإنّما أيضاً من الصوت الذي غدا يهمس في أعماقه:

- أخطأ حين دعا السيّد جورج مونييه إلى الجلوس معنا على طاولة واحدة.

- أمّا أنا يا هنري، فثمّة شيء يدهشني، ليس أقلّ من دهشتك؛ وهو أنّك لم تترك لأحد آخر غيرك أن يبلغني هذه الملاحظة.

- ولِمَ يُحرّم عليّ إبداء هذه الملاحظة دون سواي؟

- لأنّه لولا جورج، الذي ترى حضوره غير لائق هنا، لكنتَ الآن أنت وأبوك قد حملتُما نعشَ ابنةِ عمٍّ وابنةِ أخ، ولكنتما تبكيان حداداً عليّ.

أجابها هنري وقد تضرّج وجهه بالحُمرة:

- أجل، بلا ريب؛ أجل، إنّي لأدرك كلّ العرفان الذي ندين به إلى

Twitter: @ketab_n

السيّد جورج نظيرَ إنقاذه حياةَ شخص عزيز مثلك؛ وقد رأيتِ بأمّ عينك كيف سارعت إلى إعطائه العبدين اللّذين كان يرغب أبي في معاقبتهما، ما إن أبدى هو رغبته في شرائهما.

- وهل تحسب أنّك حين أعطيته العبدين برّأتَ ذمّتك تجاهه؟ شكراً إذن يا ابن عمّي، شكراً لأنّك قدّرت أنّ حياة سارة دو مالميدي تساوي ألفَ قرش.

- يا إلهي! أيّ طريقة تؤوّلين بها الأمور هذا اليوم يا عزيزتي سارة! هل تعتقدين أنّي قد أفكّر ولو للحظةٍ في تسعير حياةٍ أنا مستعدّ لأفتديها بحياتي؟ لقد أردت فقط أن أنّبهك إلى بعض الأمور، منها مثلاً: أيّ مأزق قد يتسبّب فيه اللّورد مورّيه لامرأةٍ لو أنّ جورج طلب منها أن تراقصه.

- وفي نظرك يا عزيزي، هل على تلك المرأة أن ترفض دعوة جورج إنْ هو دعاها إلى الرّقص؟

- بلا ريب.

- دون أن تفكّر فيما إذا كانت برفضها ذاك تسيء إلى رجلٍ لم يسئ إليها بشيء، لا بل قد يكون قد أسدى إليها خدمةً ما، وقد يطلب من أبيها أو أخيها أو زوجها تفسيراً لرفضها؟

- أحسب، أنّ المنطق يقتضي في هذه الحال أن يعيد جورج النظّر في نفسه، وسيقتنع أنّ شخصاً أبيضَ لن ينزل به المستوى إلى مقايسة نفسه بشخصٍ مولَّد.

قالت سارة:

- عفواً يا ابن عمّي، لتغفر لي جرأتي على قول هذا؛ قد لا أكون فهمتُ السيّد جورج .فهماً جيّداً، لكنّي أحسب أنّه حين يتعلّق الأمر

Twitter: @ketab_n

بالشّرف فإنّ رجلاً مثله، رجلاً يحمل وسامَين على صدره، لن يوقفه إحساس المهانة الدّاخليّ الذي تلصقُه به اعتباطاً كما أحسب.

استأنف هنري كلامه وقد احمرّ وجهه غضباً:

- على كلّ حال، آمل يا عزيزتي أنّ خشيتك من تعريضنا أنا وأبي إلى غضب السيّد جورج لن تجعلك ترتكبين هفوة الرّقص معه، لو تجرّأ هو وطلب منك ذلك؟

أجابته سارة ببرود:

- لن أراقص أحداً يا سيّدي.

وقامت تستند إلى ذراع سيّدة إنجليزية كانت تجلس إلى الطاولة المجاورة لجورج، وكانت إحدى صديقاتها.

ظلّ هنري للحظة ذاهلاً أمام تلك الصّرامة التي لم يكن يتوقّعها؛ ثمّ ما لبث أن قصدَ زمرةً من الكريوليّين الشّبان، واختلط بهم؛ وبلا ريبٍ ألفى بينهم قبولاً لأفكاره الأرستقراطية أكثر ممّا ألفاه عند ابنة عمّه.

وأثناء ذلك، كان جورج يتوسّط زمرةً أخرى من الضّباط والتّجار الإنجليز، الذين ما كانوا يعتنقون الأحكام المسبقة نفسها التي يعتنقها فرنسيّو الجزيرة، أو كانوا يعتنقونها بحدّة أقلّ.

اِنقضت على ذاك النّحو ساعةٌ، وأثناءها كانت تتمّ التحضيرات للحفل الرّاقص؛ ثمّ إذِ انقضت تلك السّاعة، أُشرعَت الأبواب عن غرفٍ أُزيح أثاثُها وتلألأت أضواؤُها. وفي اللّحظة نفسها دخلت الأوركسترا معلنة بداية رقصة الكدريل[1].

مارست سارة على نفسها قمعاً كبيراً حين حكمت على نفسها بأنّها لن تراقص أحداً؛ لأنّها، كما أسلفنا، كانت شغِفة بالرّقص أيّما شغف. لكنّ

(1) رقصة شعبية إنجليزيّة الأصل.

Twitter: @ketab_n

كلّ مرارة تضحيتها ستسقط على رأسِ من فرض عليها اتّخاذ ذاك القرار، بينما بدأت تحسّ نحوَ ذاك الذي من أجله فرضتْ على نفسها ما فرضتْ، أقول بدأت تحسّ نحوَه في دواخلها بشعور أعمق وأرقّ من أيّ شعور خالَجها من ذي قبل. ذلك أنّ من الفضائل الرائعة التي حبَتِ الطبيعةُ بها النّساءَ ميلهنّ إلى التّعاطف مع المضطهَد، وإلى الإعجاب أيّما إعجابٍ بمن يرفض أن يُضطَهد.

وإذ كان هنري متأكّداً من أنّ ابنة عمّه لن تستطيع مقاومةَ اللاّزمة الموسيقيّة الأولى، رغم الجواب الذي كانت قد أدلت به، فقد أتاها يطلب أن تراقصه، مثلما اعتادا، رقصةَ الكدريل الأولى. اِكتفت سارة هذه المرّة بأن أجابته:

- أنت تعرف بأنّي لن أرقص هذه اللّيلة يا ابن عمّي.

عضّ هنري على شفتيه حتّى أدماهما، وبحركةٍ غريزيّة، أجال بصره باحثاً عن جورج. كان جورج قد اتّخذ موضعه بين الرّاقصين، مراقصاً الإنجليزيّةَ التي كان قد قادها فيما قبل من ذراعها إلى المائدة. وبإحساسٍ ليس من اللّطف في شيء، نظرت سارة في الاتّجاه نفسه حيث نظر ابن عمّها. فانقبض قلبها.

جورج يراقص امرأة أخرى، لعلّ جورج لا يفكّر حتّى في سارة، سارة التي ضحّت من أجله تضحية ما كانت تخال نفسها تستطيع أن تقوم بها مقابل أيّ شيءٍ في العالم. كانت المدّة التي استغرقتها رقصة الكدريل تلك إحدى أشقّ اللّحظات التي عاشتها سارة وأشدّها ألماً.

اِنتهت الرّقصة، لكنّ سارة لم تستطع أن تحيد ببصرها عن جورج. قاد الفتى الإنجليزيّةَ إلى موضعها، ثمّ بدا كأنّه يبحث بعينيه عن شخص ما. كان يبحث عن اللّورد موريّه. وما إن لمحه، حتّى تقدّم صوبه وقال له

Twitter: @ketab_n

بضعَ كلماتٍ، ثمّ توجّها معاً صوب سارة.

أحسّت سارة بدمها كلّه يتدّفق في اتّجاه قلبها.

قال اللّورد مورّيه:

- آنستي، هو ذا أحد رفاق سفري. إنّه يبدو ملتزماً قليلاً أكثرَ ممّا يجب بقواعد سلوكنا الأوروبية، حتّى أنّه لا يجرؤ على دعوتك للرّقص قبل أن يتعرّف إليك. اِسمحي لي إذن بأن أقدّم لك السيّد جورج مونييه، أحدّ أشدّ الرّجال الذين أعرفهم تميّزاً.

قالت سارة بصوتٍ استطاعت أن تجعله يبدو حازماً لفرط ما ضغطت على نفسها:

- مثلما تقول يا ميلورد، إنّها خشيةٌ مبالغ فيها تلك التي منعت السيّد جورج من التّقدم، ذاك أنّنا صرنا متعارفَين منذ مدّة. فيَوم وصوله أسدى لي السيّد جورج خدمةً؛ وأمس قدّم لي أكثر من ذلك، لقد أنقذ حياتي.

- كيف! هل الصّياد الذي تواجد لحسن الحظّ في الوقت المناسب وأطلق النّار على القرش الذي كاد يهاجمك بينما تسبحين، هو السيّد جورج؟

تابعت سارة كلامها، وقد علتها حمرة الخجل إذ تذكّرت لتوّها أنّ جورج كان قد رآها في ثوب السّباحة:

- أجل إنّه هو نفسه، يا ميلورد؛ وأمس كنت شديدة الانفعال والتأثّر لدرجة أنّي لم تكد تواتيني القوّة لشكر السيّد جورج. وها أنا اليوم أجدّد له عميق امتناني على حسن تسديده وبرودة أعصابه اللّذين لولاهما ما كنت لأشارككم هذه الحفلة يا ميلورد.

أضاف هنري وقد اقترب من المجموعة الصّغيرة التي كانت ابنة عمّه

Twitter: @ketab_n

في مركزِها:

- ونحن أيضاً نجدّد شكرنا للسيّد جورج؛ لأنّنا نحن أيضاً كنّا أمس متأثّرين ومنشغلين جدّاً بالحادث، لدرجة أنّنا لم نكد نستطيع توجيه بعض كلماتِ الامتنان للسيّد جورج.

أمّا جورج الذي لم يكن قد نبس حتّى تلك اللّحظة بأيّة كلمة، لكنّ عينيه المخترِقتين استطاعتا أن تنفذا إلى أعماق قلب سارة وتقرآ سطورَه كلّها، فقد انحنى علامةَ امتنانٍ، لكن دون أن يوجّه أيّ ردٍ إلى هنري.

قال اللّورد مورّيه:

- أحسب إذن أنّ التماس السيّد جورج سيعرف طريقه وحده، أترك إذن لَمحمِيّي الحديثَ عن نفسه بنفسه.

قال جورج وهو ينحني مرّة أخرى:

- هل تمنحني الآنسة سارة شرف هذه الرّقصة؟

أجابت سارة:

- أوه! يا سيّدي، إنّي آسفة حقّاً، وأتمنّى أن تتفهّمني. لقد رفضت للتوّ طلباً مماثلاً من ابن عمّي، إذ لا أنوي أن أرقص هذا المساء.

اِبتسم جورج ابتسامةَ من حزرَ كلّ شيءٍ، ثمّ ألقى على هنري نظرةً شديدة الازدراء، حتّى أنّ اللّورد مورّيه أدرك من تلك النّظرة ومن نبرة السيّد دو ماليدي أنّ الرّجلين تجمعهما كراهيةٌ عميقةٌ راسخة. لكنّه احتفظ بذلك في سرّه، وقال متوجّها إلى سارة، كمن لم يلاحظ شيئاً:

- هل رعبُ أمسِ هو ما يمنعك اليوم من إشباع مُتَعِك؟

أجابت سارة:

- أجل يا ميلورد؛ حتّى أنّي أشعر بمعاناة تدفعني إلى أن أطلب من ابن عمّي أن يُبلّغ السيّد دو ماليدي أنّي راغبةٌ في الذّهاب، وأنّي

Twitter: @ketab_n

أعوّل عليه في مرافقتي للمنزل.

تحرّك هنري واللّورد مورّيه لتنفيذ رغبة الفتاة. فمال عليها جورج هامساً:

- إنّ لك قلباً نبيلاً يا آنستي، إنّي لأشكرك.

اِرتجفت سارة، وأرادت أن تجيبه، لكنّ اللّورد مورّيه كان قد اقترب. فلم تملك غير نظرة تبادلتْها، شبهَ مرغمةٍ، مع جورج.

قال الحاكم:

- أمتأكّدة أنت إذن من أنّك تودّين المغادرة آنستي؟

أجابت سارة:

- نعم، للأسف! وددتُ حقّاً لو أبقى يا ميلورد، لكنّي... أعاني فعلاً.

في هذه الحال، ستكون أنانيّة منّي أن أحاول إبقاءك؛ وبما أنّ عربة السيّد دو مالميدي لن تكون على الأرجح قريبةً من الباب، فسأطلب منهم أن يجهّزوا أحصنة عربتي.

وانصرف اللّورد مورّيه فوراً، فقال جورج:

- سارة، عندما غادرتُ أوروبا عائداً إلى هنا، كان منتهى أملي أن أصادف قلباً مثل قلبك؛ لكنّي لم أكن أتصوّر أنّي سأعثر عليه.

همست سارة، وقد سيطرت عليها نبرة جورج العميقة:

- سيّدي، لا أفهم ما تقصد.

- أقصد أنّي، منذ اليوم الذي وصلت فيه، حلمت حلماً، ولو كان لحلمي أن يتحقّق فسأكون أسعد الرّجال.

ودون أن ينتظر منها جواباً، انحنى جورج أمام سارة، وإذ لمح السيّد دو مالميدي وابنه يقتربان، تركها مع عمّها وابن عمّها.

وبعد خمس دقائق عاد اللّورد مورّيه يُعلِم سارة أنّ العربةَ جاهزة،

Twitter: @ketab_n

وأعطاها ذراعه ليقودها عبرَ الصّالون. وإذ وصلت الفتاة إلى الباب، ألقت نظرة أخيرة على الحفل الرّاقص الذي كانت قد وعدت نفسها بالنّهل ما طاب لها من متعِه، وها هو ذا وعدها يتقوّض.

لكنّ نظرتها التقت بنظرة جورج، تلك النظرة التي يبدو أنّها ستلاحقها منذ ذلك اليوم فصاعداً.

وحين عاد الحاكم بعدما أوصلَ الآنسة دو مالميدي إلى العربة، التقى بجورج في البهو، وهو يستعدّ للمغادرة بدوره.

قال اللّورد:

- هل ستغادر أنت أيضاً.

- أجل يا ميلورد؛ فلا يخفى عليك أنّي أقيم الآن في موكا، ما يعني أنّ عليّ قطع حوالى ثمانية فراسخ كي أصل إلى البيت؛ لحسن الحظّ، مع حصاني أنتريم لا يتعدّى الأمر ساعة.

سأل الحاكم بنبرة اهتمام:

- هل ثمّة شيء بينك وبين السيّد هنري دو مالميدي؟

أجاب جورج مبتسما:

- كلّا يا ميلورد، ليس بعد؛ لكن على الأرجح لن يتأخرّ ذلك.

قال الحاكم:

- إن لم أخطئ التّقدير، فإنّ أسباب الشّقاق بينك وبين هذه العائلة تعود إلى زمن بعيد؟

- أجل يا ميلورد، إنّها مشاكسات أطفال، تحوّلت إلى كراهية رجالٍ عميقة؛ ووخزات دبابيس تتهيّأ لأن تغدوَ ضربات سيوف.

تساءل الحاكم:

- أوَ ليسَ ثمّة من سبيل لإصلاح الأمر؟

Twitter: @ketab_n

- لقد أمِلتُ في ذلك للحظة يا ميلورد؛ ظننت أنّ أربع عشرة سنةً من الهيمنة الإنجليزية على الجزيرة كفيلة بأن تقضي على الحكم المسبق الذي عدت لأحاربه؛ كنت مخطئاً: لم يعد للمصارع سوى أن يدهن جسده بالزّيت وينزل إلى الحلبة.

- أَفلن تصادفَ من الطواحين أكثر ممّا تصادف من العمالقة يا عزيزي دون كيخوته؟

أجاب جورج باسماً:

- أُحكم بنفسك يا ميلورد. أمس، أنقذتُ حياة الآنسة سارة دو ماليدي!... أو تعلم كيف شكرني ابن عمّها اليومَ؟

- لا.

- شكرني بمنعها من الرّقص معي.

- مستحيل!

- مثلما أقول لك يا ميلورد.

- ولِمَ؟

- لأنّني مولَّد.

- وماذا تنوي أن تفعل؟

- أنا؟

- عفواً على تدخّلي في الأمر؛ لكنّك تعلم مكانتك عندي، وأنّنا صديقان قديمان.

قال جورج باسماً:

- ماذا أنوي أن أفعل؟

- أجل؛ لا ريب في أنّك قد قرّرت بعض الأمور؟

- اليوم تحديداً، بدأتُ بأحدها.

Twitter: @ketab_n

- ماذا قرّرت؟ قل لي، حتّى أعلمك ما إذ كنت أشاطرك الرّأي.

- قرّرت أنّي بعد ثلاثة أشهر سأكون زوج الآنسة سارة دو مالميدي.

وقبل أن يعطيه اللّورد مورّيه رأيه في المسألة، كان جورج قد حيّاه وانصرف. وعند الباب كان ينتظره خادمه الأفريقيّ المسلم برفقة جوادَيه العربيّين.

اِمتطى جورج ظهر أنتريم وانطلق خبباً صوب موكا.

وحين وصل إلى مقرّه، سأل الشابّ عن والده، فأخبروه أنّه خرج منذ السّابعة مساءً، ولم يعد حتّى ذاك الحين.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث عشر

النخاس

وصباح اليوم التّالي، كان بيار مونييه هو من أتى عند ابنه أوّلاً.

كان جورج منذ رجوعه قد جاب عدّة مرّاتٍ المزرعة الجميلة التي يملكها والده، وبفضل عقليّته المهنيّة الأوروبية أثار عدّة أفكار ترمي إلى تطويرها، تلك الأفكار التي فهمها والده فوراً بفضل قدرته العمليّة؛ بيد أنّ تطبيق تلك الأفكار كان يستلزم الزّيادة في عدد السّواعد العاملة. وبما أنّ توقيع الاتّفاقية السيّاسية قد رفع سعر الزّنوج كثيراً، فقد كان يشقّ على الرّجل وابنه أن يحصلا، دون تضحيات كبيرة، على الخمسين عبداً أو السّتّين الذين كانا يحتاجان إليهم لتوسيع مزرعتهما. تلقّى بيار مونييه إذن، في تلك العشيّة التي غاب فيها ابنه، بفرحٍ خبرَ وصول سفينةِ نخاسة. وحسبَ العرف السّاري بين سكّان المستعمرات وبين التّجار من ذوي البشرة السّوداء، ذهب الرّجل ليلاً إلى الشّاطئ ليردّ على إشاراتِ النّخاس بإشارات أخرى تبيّن استعداده للتّعامل معه. وقد تمّ تبادل الإشارات وعاد بيار مونييه حاملاً البشرى إلى ولده. واتّفق الرّجلان على أن يكونا معاً في التّاسعة مساءً في «رأس الأقبية»، بجوار كثيب «مالابار الصغيرة». وما إن حدّدا الموعد حتّى خرج بيار مونييه يراقب على عادته أشغال الزّراعة، وانطلق جورج، على عادته كذلك، ليستغرق في أحلامه وسطَ الغابة.

ما قاله جورج.اللّيلةَ السّابقة إلى اللّورد مورّيه لم يكن مجرّد كلامٍ تباهٍ؛

Twitter: @ketab_n

وإنّما كان، على خلاف ذلك تماماً، قراراً حازماً؛ لقد سبق أن أشرنا إلى أنّ حياة المولَّد الشابّ كانت تدور كلّها حول المحور التالي: جعْل إرادته تتغذّى من قوّة عبقريته وعزمِها. فعلى الرّغم من أنّه قد بلغ مستوىً من التفوّق في كلّ شيءٍ؛ تفوُّق لو كانت أضيفت له ثروته لَكان ضمِنَ له بلا ريب مكانةً رفيعةً بفرنسا أو إنجلترا، في لندن أو باريس، لكنّه كانَ متعطّشاً إلى النّضال، فعاد إلى جزيرة موريس. ففيها كان يهيمن الحكمُ المسبق الذي كانت شجاعتُه تعتقد بأنّها منذورة لمصارعته، وكان اعتدادُه بنفسه يحسب أنّ في وسعه هزمَه. عاد إذن، وكان يملك ميزة الغفليّة، التي كانت تسمح له بأن يدرس خصمَه دون أن يعرف خصمُه أيّ شيء عن الحرب التي كان قد أعلنها في داخله، وكان يتحيّن الفرصة للانقضاض على عدوّه من حيث لا يحتسب، ويبدأ تلك المعركة التي لا يمكن أن تنهيَ إلّا بموتِ رجلٍ أو فناءِ فكرة.

وما إن وضع جورج قدمه على المرفأ والتقى الرجال ذاتهم الذين كان قد تركهم عند رحيله، حتّى أدرك الحقيقة التي لطالما شكّك فيها أثناء مقامه في أوروبا؛ حقيقةَ أنّ كلّ شيء في الجزيرة ظلّ على حاله، دع عنك أنّ أربع عشرة سنة مرّت على مغادرته الجزيرة، ودع عنك أنّ الجزيرة قد آلت إلى الإنجليز بعدما كانت في يد الفرنسيّين، وصارت تسمّى جزيرة موريس بدلَ جزيرة فرنسا. لذا أفاق من غفلته منذ اليوم الأوّل، وتأهّب لخوض المبارزة الذهنيّة التي أتى هو باحثاً عنها، مثلما يتأهّب مصارع آخر لخوض مبارزة جسديّة، إن جازَ لنا القول؛ وحاملاً سيفه في يده، ترصّد المناسبة التي تسنح له لتوجيه أولى الضّربات إلى خصمه.

ومثل سيزار بورجيا[1]، الذي كان بعد وفاة والده قد أعدّ بعبقريّته

---

(1) سيزار بورجيا أو تشيزاري بورجا، مغامر إيطالي وابن البابا ألكسندر السّادس، اشتهر =

Twitter: @ketab_n

العدّةَ لغزو إيطاليا وفكّر من أجل ذلك في كلّ شيء، باستثناء أنّه هو نفسه سيحتضر في تلك الفترة، فإنّ جورج ألفى نفسه منخرطاً في العمليّة بشاكلة هو نفسه ما كان ليتوقّعها، وضربَ ضربته في الأوان ذاته الذي كان يودّ أن يضربها فيه. فيَوم وصوله إلى جزيرة موريس التقى بفتاةٍ ارتسمت ذكراها رغماً عنه في باله. ثمّ إنّ القدرَ قاده إلى اللّحظة والموضع المناسِبَين لإنقاذ تلك الفتاة نفسها التي مذ رآها وهو يحلم بها بشكلٍ غامض؛ حتّى أنّ ذاك الحلم قد تغلغل عميقاً في كيانه. ثمّ إنّ القدر جمعهما ليلة البارحة، وكانت نظرةٌ واحدةٌ تكفيه ليدركَ أنّها تحبّه، في الوقت نفسه الذي تيقّن من حبّه لها. ومنذ تلك اللّحظة اتّخذ نضاله هدفاً جديداً، هدفاً ترتبط به سعادته ارتباطاً مضاعفاً، ذاكَ أنّه من تلك اللّحظة ما عاد يصارع إرضاءً لفخره فقط، وإنّما أيضاً لحبّه.

على أنّه، وكما أسلفنا، حين طُعِنَ في اللّحظة نفسها التي أعلن فيها المعركة، راح يفقد برودة دمه أكثر فأكثر؛ لكنه، والحقّ يقال، قد كسب بدلاً منها ضراوةَ الشّغف.

وإذا ما كان مرأى الفتاة قد خلّف في كيانٍ منهكٍ وقلبٍ ذابلٍ، مثل كيانِ جورج وقلبِه، ذلكَ الأثرَ الذي بسَطناه فيما سبق، فإنّ هيئة الشابّ والملابسات التي ظهر فيها قد خلّفا أثراً مغايراً في كيان سارة اليافع وفي روحها العذراء. فإذ تمّت تربيتها، منذ أن فقدت والديها، في بيت السيّد دو ماليدي، وكانت منذورةً منذ ذاك العهد إلى مضاعفة ثروةِ وريثِ البيت، فقد درجت على النّظر إلى هنري باعتباره زوجها المقبلَ؛ ولم تجد صعوبة في تقبّل الأمر، إذ كان هنري شابّاً وسيماً وشجاعاً، يعدّ من بين أغنى المستوطنين وأكثرهم أناقةً، ليس في بور لويس فحسب

= بمشاكله الكثيرة التي كادت أن تودي بحياته غير ما مرّة، وبسعيه الفاشل إلى توحيد الدّول.

Twitter: @ketab_n

وإنّما في الجزيرة بأكملها. أمّا باقي الشبّان، أصدقاء هنري، أولئك الذين كانوا رفاقها في الصّيد والرّقص، فكانت تعرفهم منذ زمنٍ طويلٍ، زمنٍ أطولَ من أن يسمح لها بأن تميّز أحدهم عن الآخرين؛ لقد كانوا بالنّسبة لها أصدقاء طفولة، أصدقاءً من المفترض أن ترافقها صداقتهم الهانئة ما تبقّى من حياتها، وهذا كلّ ما في الأمر.

كانت سارة إذن خليّة البال، إلى أن رأت جورج أوّل مرّة. وإنّ ظهور شابّ غريبٍ بتلك الأناقة وذاك التميّز في حياة فتاةٍ، لَهوَ حدثٌ فعليّ في أيّ مكان، ولا سيّما في جزيرة موريس.

لقد انطبعت صورة الغريب ونبرة صوته والكلمات التي قالها في ذاكرة سارة، دون أن تجد تفسيراً للأمر؛ انطبعت تلك الأشياء جميعها، مثلما ينطبع في الذّاكرة لحنٌ نسمعه مرّة واحدة ومع ذلك لا نكفّ عن ترديده في سرّنا. ولا ريب في أنّ سارة كانت ستنسى كلّ ذلك بعد أيّام لو أنّها فقط التقت الشابّ ضمن ملابسات معتادة؛ لا بل لربّما كان لقاء ثانٍ، تفْحصُه فيه أكثرَ، قميناً بأن يبعده عن حياتها بدل الإمعان في تقريبه منها. لكنّ الأمر لم يجر على ذلك النّحو، فقد أراد الله أن يلتقيا مرّة أخرى في لحظةٍ مهيبة: واقعة النّهر الأسود. اِنضافت إلى الفضول الذي صاحب اللّقاء الأوّلَ شعريّةُ العرفان التي حَفَّت اللّقاء الثاني. وفي لحظة واحدة، تحوّل جورج في عيون الفتاة. لقد صار الغريبُ الملاكَ المخلِّص. لقد دفعَ عنها جورج الموتَ المؤلم الذي كانت تُوعَدُ به. وكلّ مباهج الحياة التي تنفتح أمام فتاة في ربيعها السّادس عشر، أعادها لها هو في اللّحظة نفسها التي كانت ستفقدها فيها. ثمّ إنّها حين التقته وكلّمته دون أن تلتقيَه وتكلّمه حقّاً، وكانت على وشك أن تُلفي نفسها قبالته، وأن تغدق عليه كلّ ما تحويه روحها من عرفانٍ له، حرموها من أن تمنح ذاك الرّجل ما كانت

Twitter: @ketab_n

ستمنحه إلى أوّل غريب يطلبه منها، لا بل أكثر من ذلك، لقد أمروها بأن تسبّ ذاك الرّجل مسبّة ما كانت لتوجّهها إلى أرذل الرّجال. فكان أن تحوّل العرفان الذي كتمته في قلبها إلى حبّ؛ وكانت نظرة واحدةٌ كافيةً لكي تفصح لجورج عن كلّ شيء، مثلما أفصحت كلمة واحدة منه لسارة عن كلّ شيء. لم تستطع سارة أن تنكر شيئاً، فكان بوسع جورج إذن أن يأملَ في كلّ شيء؛ ثمّ بعد الانطباع حان الدّور للتّفكير. لم تستطع سارة أن تمنع نفسها من المقارنة بين سلوك هنري، زوجها الموعود، وبين سلوك الغريب الذي لم يكن حتّى أحد معارفها الأباعد. ففي اليوم الأوّل كانت سخرية هنري من الشابّ المجهول قد جرحتها. ثمّ طعنت قلبَها لامبالاةُ هنري، حين ركض للمشاركة في مطاردة الأيّل بعدما نجت خطيبته من موتٍ محقّق بلحظات؛ وأخيراً، جرحت كبرياءَها نبرة السيّد التي حدّثها بها هنري ليلةَ الحفل الرّاقص: لدرجة أنّها، في تلك اللّيلة التي كان من المفترض أن تكون ليلة جميلة، وحوّلها هنري إلى ليلةِ عزلةٍ كئيبة، تساءلت لأوّل مرّة في حياتها، وخَلُصت، لأوّل مرّة في حياتها، إلى أنّها ما كانت تحبّ ابن عمّها. وإذّاك لم تبق أمامها سوى خطوة واحدة للإقرار بأنّها تحبّ أحداً آخر.

فحدث ما يحدث في مواقف مماثلة. وكان أن نظرت سارة إلى نفسها، ثمّ نظرت إلى ما حولها، فوضعت في الميزان سلوك عمّها إزاءها، وتذكّرت أنّ ثروتها تقدّر بحوالى مليونٍ ونصف المليون، ما يعني أنّها أغنى مرّتين تقريباً من ابن عمّها؛ وتساءلت عمّا إذا كان عمّها سيُعاملها بقدر الحُنوّ والعناية اللّذين يعاملها بهما، لو أنّها بدلاً من أن تكون وريثة وحيدة لتلك الثروة، كانت يتيمة مُعدمة. فرأت في عناية عمّها بها ما كان حقيقةً، أي رأت فيه أباً يحضّر لابنه زواجاً مربحاً. ولا ريب في أنّ كلّ ذلك كان

Twitter: @ketab_n

قاسياً بعض الشّيء، لكنْ هكذا هي القلوب المجروحة، يندثر عرفانها حين تُجرَح، ويصير الألم فيها قاضياً صارماً.

وكان جورج قد قدّر كلّ ذلك، وقرّر أن يستغلّه لتحقيق غايته وضرْب مآرب خصمه. ولذا فبعد عميقِ تفكيرٍ قرّر ألّا يبدأ تحرّكه ذلك اليوم، مع أنّه ما كان يطيق في أعماق قلبه صبراً على سارة. لذا وضع بندقيّته على كتفه، وانطلق ناشداً السلوان في هوايته المفضّلة، هواية الصّيد، تلك التي ستساعده على قضاء نهاره. لكنّه كان مخطئاً، فصوت سارة كان يصرخ في قلبه بأعلى من كلّ إحساس سواه. وإذ شارفت السّاعة على الرّابعة، وما عاد صاحبنا قادراً على أن يكتمَ، لا أقول رغبته في رؤية الفتاة، إذ ما كان بوسعه الاقتراب من مسكنها، وغايةُ أملِه كانت هي ملاقاتها صدفةً، وإنّما حاجته إلى الاقتراب منها، أقول إذ لم يعد الفتى يستطيع أن يكتم ذلك، ألجمَ أنتريم، ثمّ أرخى العنان لابن الصّحراء الرّشيق، وما هي إلّا ساعة حتّى كان في عاصمة الجزيرة.

ولم يأتِ جورج إلى بور لويس سوى على أملٍ واحدٍ، لكنّه كان أملاً خاضعاً كليّاً إلى الصدفة كما أسلفنا. بيد أنّ الصّدفة عاندته هذه المرّة. عبثاً جابَ جورج كلّ الأزقّة المجاورة لمنزل آل ماليدي؛ وعبثاً قطع مرّتين حديقةَ «الرّفقة الطيّبة»، حيث يتجوّل عادةً سكّان بور لويس؛ وعبثاً دارَ ثلاث مرّات حول مضمار مارس لسباقات الخيل، حيث يتمّ التّحضير للسّباق المقبل؛ عبثاً فعل كلّ ذلك، فلم يظهر من أيّ مكان، ولا حتّى من بعيد، طيفُ امرأةٍ بإمكان قدِّها أن يوهمه في شيء.

وعند السّاعة السّابعة، كان جورج قد فقد كلّ أمل، وبقلبٍ منقبضٍ كأنّ مكروهاً أصابه، قلبٍ مكسور كأنّه عانى مشقّةً، أخذ طريق النهر الكبير عائداً، على أنّه كان عائداً الهوينى هذه المرّة ومُلجِماً حصانَه. ذاك أنّه

Twitter: @ketab_n

هذه المرّة كان يسير مبتعداً عن سارة التي لم تعرف أنّه طاف أكثر من عشر مرّات «شارع الكوميديا» و«شارع الحكومة»، أي على بعد مائة مترٍ منها فقط. وكان مارّاً وسط حيّ السّود الأحرار الموجود خارج المدينة، ممسكاً لجام أنتريم الذي لم يفهم سبب الإيقاع غير المعتاد الذي كانا يسيران به، حين خرج فجأةً رجل من أحد الأكواخ وارتمى على سرج حصانه، ثمّ طوّق ركبتيه بيده وأخذ يقبّل يده. كان الرّجل هو التّاجر الصينيّ، رجل المروحة، كان هو ميكو-ميكو.

وعلى الفور أدرك جورج الفائدة التي قد يجنيها من الرّجل الذي تسمح له تجارته بأن يدخل البيوت جميعها، ولا يشكّل أيّ خطر، ما دام لا يعرف اللّغة.

نزل جورج عن صهوة حصانه، ودخل محلّ ميكو-ميكو الذي عرض أمامه فوراً كلّ كنوزِه. وما كان ثمّة من مجال للتّشكيك بالشّعور الذي يحمله المسكينُ تجاه جورج، ذاك الشّعور الذي يخرج من أعماق قلبه مع كلّ عبارة. والأمر بسيط: فباستثناء ثلاثة أو أربعة تجّار من أبناء وطنه، هم بالضرورة خصومُه، أو على الأقلّ منافسوه، لم يصادف ميكو-ميكو حتّى تلك اللّحظة أيّ شخص يتحدّث لسانَه في بور لويس. لذا سأل جورج عمّا إذا كان ثمّة من خدمة يستطيع عبرها شكره على السّعادة التي يدين بها إليه.

وما كان جورج يريده كان في غاية البساطة: تصميمٌ داخليّ لمنزل آل ماليدي، تصميم قد يسمح له، إذا ما اقتضى الحال، بالوصول إلى سارة.

وما إن نطق جورج أولى كلماته حتّى كان ميكو-ميكو قد فهم كلّ شيء: ألم نقل إنّ الصّينيّين هم يهودُ جزيرة موريس؟

وحتّى ييسّر مساومات ميكو-ميكو مع سارة، وربما بِنيّةٍ أخرى

Twitter: @ketab_n

كذلك، دوّن جورج على إحدى بطاقاته الشّخصيّة أثمنةَ كلّ البضائع التي قد تثير اهتمام الفتاة، وأوصى ميكو-ميكو بألّا يظهر البطاقة إلّا لسارة.

ثمّ أعطى البائعَ قطعةً ذهبيّة من صنف الأربعة، وطلب منه أن يكون غداً، حوالى السّاعة الثالثة عصراً، بموكا.

وعده ميكو-ميكو بأن يكون في الموعد، كما أخذ على عاتقه أن يحمل في ذاكرته تصميماً للمنزل يكون بدقّة تصميمِ مجسَّمٍ يرسمه مهندس معماريّ.

وبعد ذلك، وبما أنّ السّاعة كانت تشير إلى الثّامنة وكان جورج ملتزماً بلقاء والده عند «رأس الأقبية»، فقد امتطى صهوة جواده وقصَدَ طريق «النّهر الصّغير»، بقلبٍ أكثر اطمئناناً، ما دام يكفي القليل من الحبّ لتتغيّر ألوان الأفق.

وكان اللّيل قد أطبقَ حين وصل جورج إلى الموعد. أمّا أبوه، وبحسب العادة التي كسبها من وجوده مع البيض، عادةِ أن يصل دائماً مبكّراً، فقد وصل قبل ذلك بعشر دقائق. وفي التّاسعة والنّصف بزغ القمر.

وكانت تلك هي اللّحظة التي كان ينتظرها جورج وأبوه. فرفعا عينيهما فوراً ما بين جزيرة بوربون وجزيرة الرّمال، وهناك لمحا إشارةً تبرقُ ثلاث مرّات. وكانت تلك الإشارة المتعارف عليها، إشارة مرآة تعكس ضوء القمر. وعند تلك الإشارة التي ألِفها سكّان المستعمرة، قام تليماك، وقد رافق سيّديه، بإشعال نارٍ على الشّاطئ، ثمّ ما لبث أن أطفأها بعد خمسِ دقائق، ومكثوا ينتظرون.

ولم تكد تمضي نصف ساعة حتّى لمحوا في البحر خطّاً أسود شبيهاً بأسماك تسبح على السّطح؛ ثمّ ما لبث ذلك الخطّ أن أخذ يكبر ويتّخذ هيئةَ

Twitter: @ketab_n

قارب. وبعد برهة يسيرة توضّحت ملامح زورق كبير وصار بالإمكان رؤية اهتزاز صورة القمر على الماء، وحركة المجدّفين الذين يضربون الماء، وإن لم تكن الأصوات تُسمَع بعد. وما لبث الزّورق أن دخل جوْنَ النّهر الصّغير، ورسا عند الجدول الصّغير الموجود قبالة القلعة الصّغيرة.

تقدّم جورج ووالده على السّاحل. وكان الرّجل الذي شوهد من بعيدٍ جالساً على كوثل السّفينة، قد وضع قدميه على البرّ.

ونزلت خلفه مجموعة نُوتيّة مسلّحين بالبنادق والسّواطير. وهم أنفسهم من كانوا يجدّفون واضعين بنادقهم على أكتافهم. أومأ لهم الرّجل الذي نزل أوّلاً بإشارةٍ، فبدؤوا بإنزال الزّنوج. كانوا ثلاثين زنجيّاً محشورين في قعر القارب؛ وكان من المنتظر أن يأتيَ زورقٌ آخر حاملاً عدداً مماثلاً منهم.

اِقتربَ المولّدان والرّجل الذي نزل أوّلاً أحدهم من الآخر، وتبادوا بعض العبارات. فكان أن تيقّن جورج ووالده ممّا كانا قد اعتقداه: لقد كانا بالفعل في حضرة القبطان النّخاس نفسه.

كان ابن ثلاثين، طويل القامة، ويملك كلّ أمارات القوّة التي تفرض الاحترام تلقائياً على الآخرين: كان شعره أسودَ جعْداً، وقد أرخى عارضَيه الكثيفَين أسفل رقبته حتّى التقيا بشاربه؛ أمّا ذراعاه ووجهه فقد لوّحتها شمس المدارَين حتّى شاكلتْ لونَ بشرة هنودِ تيمور أو بيغو. كان يرتدي سروالاً من الكتّان الأزرق، ذاك الذي يميّز صيّادي جزيرة موريس، ومثل صيّادي جزيرة موريس كان يعتمر قبّعة قشّ ويرمي بندقيّته على كتفه: غير أنّه كان يزيد عليهم بسيف يعلّقه في حزامه، سيف منحنٍ كمثْلِ السّيوف العربيّة، لكنّه أوسع منها وذو قبضة شبيهةٍ بقبضة السيّوف الاسكتلنديّة.

Twitter: @ketab_n

وإذا ما كان القبطان النّخاس قد خضع لفحص دقيق من طرف ساكنَيْ موكا، فإنّهما بدورهما قد خضعا من قِبله لتفتيش لا يقلّ دقّة. كانت عينا التّاجر تتنقّلان بينهما بالقدر نفسه من الفضول، ويبدو أنّهما تزدادان تعلّقاً بهما كلّما فحصتاهما أكثر. ولعلّ جورج ووالده لم ينتبها إلى ذاك الإلحاح، أو لم يخالا أنّه قد يشكّل إزعاجاً بالنّسبة لهما؛ إذ أنجزا الصّفقة التي قدِما من أجلها، وشرعا يفحصان واحداً واحداً الزنوجَ الذين حملهم الزّورق الأوّل، وكانوا جميعاً من الجهة الغربية لأفريقيا، أي من السّنغال-غامبيا[1] ومن غينيا؛ وهو ما يرفع من قيمتهم، ما داموا لا يملكون الأمل الذي يملكه الملغاشيّون والموزمبيقيّون والكفريّون[2] في العودة إلى بلدانهم، وبالتّالي لن يفكّروا أبداً في الفرار. لكنْ على الرّغم من تلك الميزة التي ترفع سعرهم، فإنّ القبطان قد طلب ثمناً معقولاً، وما إن وصلت الشحنة الثانية حتّى كانت الشّحنة الأولى صفقةً ناجزة.

وسارت الشّحنة الثّانية مسرى الأولى؛ كان القبطان متفهّماً جدّاً، وأبدى معرفةً كبيرةً بالأمر. لقد كان يمثّل حظّاً فعليّاً بالنّسبة لجزيرة موريس التي أتاها أوّل مرّة، إذ درجَ على تحميل العبيد إلى جزر الأنتيل.

ولمّا أُنزل العبيدُ جميعهم، وتمّت الصّفقة، دنا تليماك من الزّنوج، وكانَ هو نفسه ذا أصول كونغوليّة، وخاطبهم بلغتهم: كان خطابه يرمي إلى مدح نعيم الحياة المقبلين عليها، مقارنةً بالحياة التي يعيشها أبناء وطنهم عند باقي مُزارعي الجزيرة، وبيّن لهم مدى سعدهم الذي أوقعهم بين يدَي السيّدين بيار وجورج مونييه، أي بين يدي أفضل سيّدين في الجزيرة. دنا

(1) في تلك الفترة التاريخية كان يُشار إلى السنغال وغامبيا كمنطقة جغرافية واحدة، وهو ما حاول البلَدان استعادته سنة 1982 في إطار شراكة جمعتهما.

(2) تشير كلمة كفري Cafre إلى سكان منطقة في أفريقيا الجنوبية، والرّاجح أنّ الاسم ينحدر من كلمة «كفّار» العربية والتي تحمل آثار تجارة العرب بالعبيد.

Twitter: @ketab_n

إذّاك الزّنوج من المولَّدَين وأقسموا بلسان تليماك أنّهم سيكونون أهلاً للسّعادة التي كتبتها لهم الأقدار.

وإذ سمع القبطان، الذي كان قد تابع خطاب تليماك بانتباهٍ يشي بأنّه قد حرصَ على تعلّم مختلف الألسن الأفريقيّة، أقول إذ سمعَ اسمَي بيار وجورج مونييه انتفضَ وأمعن النّظر أكثر في الرّجلين اللّذين أنجز لتوّه معهما صفقة تقدّر قيمتها بما يقرب من مائة وخمسين ألف فرنك. بيد أنّ جورج ووالده لم ينتبها، لا في تلك اللّحظة ولا قبلها، إلى كون الرّجل لم يكن ليحيدَ ببصره عنهما. ثمّ آن الأوان لدفْع ثمن الصّفقة. سأل جورج النّخاسَ عمّا إذا كان يفضّل أخذ نقوده قطعاً ذهبيّة أم على هيئة كمبيالات، وكان أبوه قد حمل الذّهب في خرجَي حصانه مثلما حمل الكمبيالات في محفظته، تحسّباً لأيّ أمر. فضّل النّخاس الذهب. فعدّوا النّقود، وحُمِّلت على الزّورق الثاني؛ ثمّ صعد النّوتيّة، لكن أمامَ عظيمِ دهشةِ جورج ووالده لم يصعد معهم القبطان إلى أحد الزّورقين اللّذين تلقّيا منه أمر الانطلاق فانتهجا طريقهما مبتعداً عن السّاحل.

تبع القبطان القاربين بعينيه للحظاتٍ؛ ثمّ، إذ صارا بعيدين عن مدى العين والأذن، استدار صوب المولّدين الذاهلين، وتقدّم نحوهما فارداً ذراعيه لهما، وخاطبهما قائلاً:

- مرحباً أبي!... مرحباً أخي!

وإذ تردّدا أضاف:

- وإذن، ألم تعرفاني، أنا جاك؟

كلاهما أطلق صيحةَ دهشةٍ وفتحَ ذراعيه له. اِرتمى جاك بين ذراعَي والده؛ ثمّ انتقل إلى ذراعَي أخيه؛ ثمّ أتى الدّور على تليماك، وإن لم يستطع، والحقّ يقال، لمسَ يدَي نخّاسٍ إلّا مرتعداً.

Twitter: @ketab_n

لقد عملت صدفة غريبة، في واقع الأمر، على الجمع في عائلة واحدة بين الرّجل الذي انحنى طيلة حياته أمام الحُكم المسبق الذي يلاحق الملوَّنين، والرّجل الذي يراكم ثروته من استغلال ذلك الحُكم المسبق، والرّجل الذي يتأهّب للتضحية بحياته من أجل محاربته.

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع عشر

فلسفةُ نِخاسة

كان الرّجل هو حقّاً جاك؛ جاك الذي لم يره أبوه منذ أربع عشرةَ سنة، ولا رآه أخوه منذ اثنتي عشرة سنة.

وكان جاك، كما أسلفنا، قد رحل في سفينة قرصنةٍ، سفينة من تلك السّفن التي تكون مزوّدةً برخصة ملاحة فرنسيّة، وتنطلق بغتةً كالنّسر، ملاحقَةً السّفن الإنجليزيّة.

وكانت تلك السّفينةُ مدرسةً قاسية، تُعادل مدرسةَ الملاحة الإمبراطورية، لا بل إنّ سفن الإمبراطوريّة في ذلك العصر كانت عادةً ما تكون راسيةً، محصورة في مرافئنا، بينما تلك السّفينة الخفيفة والحرّة تجري في البحر أغلب الوقت. وكان كلّ يومٍ مناسبةً لخوض المعارك، ليس لأنّ قراصنتنا، على قوّتهم، كانوا يبحثونَ عن المتاعب مع السّفن الحربيّة، وإنّما لأنّ ولعهم ببضائع الهند والصّين كان يجعلهم يهاجمون تلك البوارج الضّخمة الممتلئةَ الجوفِ القادمةَ من كالكوتا أو بوينس آيريس (الأرجنتين) أو فيرا كروز (المكسيك). على أنّ تلك البوارج كانت إمّا تأخذ على عاتقها التّسلّح وحماية نفسها بنفسها، أو تلوذ بحماية بعض الفرقاطات الإنجليزية التي تذود عنها مهما كلّف الثمن. وفي الحالة الأولى يكون الأمر مجرّد لهو، ولا تمضي ساعتان من الاشتباك حتّى يكون الأمر قد قُضيَ؛ أمّا في الحالة الثانية، فإنّ الأمور تتغيّر كليّاً: تصير المسألة أخطر؛ فيتمّ تبادل عدد لا بأس به من القذائف، ويقضي عدد لا يستهان

Twitter: @ketab_n

به من الرّجال، ويتكبّد الجمعان قدراً معتبراً من الخسائر؛ ثمّ يحين دور الاقتحام، فينتقل الرّجال من القصف عن بُعدٍ إلى التقاتل عن قرب.

وأثناء ذلك كلّه، تتسلّل السّفينة التّاجرة هاربةً، وفي حالِ ما إذا لم يكن مصيرها مصيرَ حمارِ الأمثولةِ وتلتقي بقراصنة آخرين يسطون عليها، فإنّها تصل أحد مرافئ إنجلترا وسط الرّضا الغامر لشركة الهند البريطانيّة التي تعطي حُماتَها بعضاً من أرباحها. هكذا كانت تجري الأمور في ذلك العصر، ومن بين الأيّام الثلاثين أو الواحد والثلاثين التي تؤلّف الشّهر، كانوا يتعاركون مدّة عشرين يوماً أو خمسة وعشرين، ويستغلّون الأيّام العاصفة ليرتاحوا من المعارك.

على أنّ المرء، ونكرّر قول ذلك، إنّما يتعلَّم بسرعة في مثل تلك المدارس. فبما أنّه لم يكن مرخَّصاً للسّفينة تجنيد الملاّحين، ولأنّ حروب الهواة الصغرى التي ينخرطون فيها كانت تقضي على عدد لا يستهان به من الرّجال، فإنّ طاقم السّفينة لم يحدث أن كان تامّاً. صحيح أنّ الكيف كان يعوّض الكمّ ما دام النّوتيّة كانوا جميعهم متطوّعين؛ وفي ساعة المعركة أو العواصف، ما كان لأحد منهم وظيفة ثابتة؛ فالجميع يصلح للقيام بكلّ شيء. عدا ذلك، كانوا يطيعون قائدهم في حضوره طاعةً عمياءَ، وفي غيابه يطيعون نائبه. وقد نشب على متن كاليبسو، هكذا كانت تسمى السّفينة التي اختارها جاك لتعلّم الملاحة، أقول نشب على متنها، مثلما قد ينشب في أيّ مكان آخر، تمرّدان في غضون ستّ سنوات؛ قام بأوّلهما نورمانديّ بينما قام بالآخر غاسكونيّ؛ أحدهما ضدّ سلطة القبطان، بينما الثّاني ضدّ سلطة نائبه.

بيد أنّ القبطان شقّ رأس أحدهم بالسّاطور بينما فجّر الملازم صدر آخر بطلقة مسدّس؛ وكلاهما مات فوراً. وبما أنّ لا شيء يزعج العمّال

Twitter: @ketab_n

بقدر جثّة، فقد ألقيت الجثّتان في البحر، وما عاد ثمّة مجال للحديث عن التّمرد. على أنّ تلك الحادثتين، وإن لم تخلّفا ذكرى إلّا في أذهان الحاضرين، إلّا أنّهما أثّرتا أيّما تأثير على النّفوس إذ لم يجرؤ أحدٌ بعدها على إثارة القبطان برتران أو نائبه ريبار. وكان ذانك اسمَي الرّجلين الباسلين، اللذين بسطا بعد ما حدث سلطة شاملة على متن الكاليبسو.

لطالما كان جاك نزّاعاً إلى حياة البحر: فمذ كان طفلاً كان يصعد دائماً إلى البوارج الرّاسية في مرفأ بور لويس، متسلّقاً الصواري، صاعداً إلى منصّاتها، متأرجحاً على الدَّوقَل[1]، ومنزلقاً على الحبال: وبما أنّه كان يمارس تمارينه تلك على السّفن التي يتعامل معها والده، فقد كان القباطنة شديدِي اللّطف معه، يشبعون فضولَه الطّفوليّ، ويشرحون له كلّ شيء، ويسمحون له بأن يصعد من الحوض إلى السّارية وينزل من السّارية إلى الحوض. فكان أن صار جاك منذ سنّ العاشرة نوتيّاً صغيراً لا ينقصه سوى السّفينة، وكان كلّ شيء حوله يمثّل بالنّسبة له سفينةً، فكانَ يتسلّق الأشجار جاعلاً منها صواريَ، ويتأرجح على التعريشات كأنّها حبالٌ؛ وإذ صار يعرف، وهو بعد في سنّ الثانية عشرة، كلّ الأشغال التي تتمّ على متن السّفينة، فقد كان بوسعه الالتحاق كبحّارٍ متمرّنٍ من الدّرجة الأولى بأوّل بارجة تأتي.

بيد أنّ والده، كما سبق أن رأينا، كان له رأي آخر، وبدلاً من أن يرسله إلى المدرسة البحريّة انسجاماً مع ميوله، فقد قرّر إرساله إلى كوليج نابليون. فكانت تلك مناسبةً للتحقّق مرّة أخرى من صدق المثل القائل: «العبدُ في التّفكير، والرّب في التّدبير». وبعدما قضى جاك سنتين في رسم تصاميم السّفن على دفاتره، وإطلاق الفرقاطات في حوض لوكسمبورغ،

---

(1) عارضة الصواري.

Twitter: @ketab_n

استغلّ أوّل فرصة سنحت له لينتقل من التنظير إلى التطبيق، وإذ صعد على متن الكاليبسو أثناء زيارةٍ لبريست، أعلن لأخيه أنّ بوسعه العودة إلى البرّ وحيداً، أمّا هو فقد اتّخذ قراره، وسيصير بحّاراً.

فكان أن فعل الأخَوان ما قرّره جاك، وعاد جورج، مثلما أسلفنا، بمفرده إلى كوليج نابليون. أمّا جاك الذي راقت القبطانَ ملامحهُ الواضحة وهيئته الجريئة، فقد تمّ ترفيعه إلى رتبة بحّار، الأمر الذي قابله زملاؤه بالكثير من الصّراخ.

وقد تركهم جاك يصرخون: إذ كان يملك في ذهنه تصوّراً دقيقاً عن الحقّ والباطل؛ وأولئك الذين صرخوا ما كانوا يعرفون قيمتَهُ الحقيقيّة، لذلك من الطّبيعيّ أن يرَوا في إعطاءِ مُستجدٍّ تلك المرتبةَ أمراً باطلاً؛ لكنْ عند أول عاصفةٍ، قطع شراعاً من أشرعة الصّارية الذي كانَت به عقدة معقودة بشكل سيّئ، ممّا يعوق تحرّكه، ويهدّد بتحطيم الصّارية التي كان ذاك الشّراع مربوطاً إليها. وعند أوّل مواجهة، قفز إلى سفينة العدوّ قبل القبطان نفسه: فكانت مكافأته ضربة من قبضة القبطان، ظلّت توجعه ثلاثة أيّام، ذاك أنّ القانون السّاري على سفينة كاليبسو كان يقضي بأن يكون القبطان دائماً أوّل من تمسّ قدماه أرضية مركب العدوّ. وبما أنّها كانت غلطة مبتدئ، غلطةً من تلك التي بوسع رجلٍ شجاع أن يغفرها لرجل شجاع آخرَ، فقد قبلَ القبطان اعتذاره وبيّن له أنّ القانون يفرض أن يكون القبطان أوّل الصّاعدين إلى المركب، يليه نائب القبطان، ثمّ له بعد ذلك أن يصعد متى شاء. وعند المواجهة الثانية كان جاك ثالثَ من صعد.

ومنذ تلك اللّحظة أوقف النّوتيّة وشوشاتهم ضدّ جاك، حتّى أنّ القدامى منهم تقرّبوا منه، وكانوا البادئين إلى مدّ أيديهم له.

Twitter: @ketab_n

سار الأمر على ذاك المنوال حتّى سنة 1815. قلتُ حتّى سنة 1815، لأنّ القبطان برتران، وقد كانَ رجلاً متشكّكاً، رفض تصديق سقوط نابليون: ولعلّ مردّ ذلك أيضاً إلى أنّه، إذ لم يكن لديه ما يفعله، كان قد قام برحلَتين إلى جزيرة إلبا[1]، وهناك تشرّف بلقاء من كان سيّد العالَم. ما الذي دار بين القرصان والإمبراطور؟ لم يعرف أحد ذلك قطّ؛ ما لوحظ بالمقابل هو أنّ القرصان عاد إلى السّفينة منشداً:

ران تان بلان ترلير[2]

كم سنضحك!

وهو ما كان يشي بأنّ القبطان برتران كان يعيش أقصى درجات الرّضا الدّاخليّ؛ ثمّ عاد القرصان إلى بريست، وهناك، دون أن يخبر أحداً بشيء، شرع في إصلاح الكاليبسو، وتعبئتها بالذّخيرة من البارود والطّلقات، وتشغيل ما ينقصه من الرّجال، حتّى يصير طاقمه تاماً.

ينبغي للمرء أن يكون جاهلاً تمام الجهل بالقبطان برتران كي لا يدرك أنّه كان يخفي خلف أشرعته استعراضاً سيذهَل له المشاهدون.

فبعد سفر القبطان برتران الأخير إلى بورتو فرّاجو (إيطاليا) بستّة أسابيع، نزل نابليون في خليج جوان؛ وبعد نزوله بخليج جوان بأربعة وعشرين يوماً، دخل باريسَ؛ وبعد دخول نابليون باريسَ باثنتين وسبعين ساعة، انطلق القبطان برتران من بريست ناشراً اللّواء الثلاثيّ الألوان.

ولم تكد تمضي ثمانيّة أيّام حتّى عاد القبطان برتران ساحباً خلفه سفينةً

---

(1) جزيرة إيطاليّة صغيرة نُفي إليها نابليون بونابرت في 1814 من قِبل العواهل الأوروبيّين المتحالفين ضدّه. عيّنوه امبراطوراً لها، ولكنّه تمكّن في العام التالي من مغادرتها واسترداد عرشه امبراطوراً لفرنسا لمائة يوم، قبل أن يشهد نفيه الثاني، والنهائيّ، إلى جزيرة سانت هيلين.

(2) لازمة لحنيّة بلا معنى، تنسجم في الفرنسية تماماً مع قافية الشّطر الثاني.

Twitter: @ketab_n

إنجليزيّة رائعة ثلاثيّة الصّواري، محمّلة بأرقى توابل الهند، سفينة ذهل طاقمها عظيم الذهول حين رأوا العلم الثلاثيّ يرفرف، بعدما خالوه انقرضَ؛ حتّى إنّهم ما فكّروا حتّى مجرّد تفكير في المقاومة.

أسالت تلك الغنيمة لعاب القبطان برتران. ولذا فإنّ الأمر لم يطل عليه قبل أن يبيع غنيمته بسعر مناسب، وما إن وزّع على رجاله، وقد وقفوا يتدافعون بعدما قضوا ما يقارب عاماً من الخمول المملّ، أقول ما إن وزّع عليهم أسهمَهم حتّى انطلق بحثاً عن ثلاثية صوارٍ أخرى. لكن كما نعلم، ما كلّ ما يطلبه المرء يدركه: ذات صباحٍ جميل، بعد ليلة ليلاء، وجدت الكاليبسو نفسها وجهاً لوجهٍ مع فرقاطة. وكانت تلك الفرقاطة هي اللايسستر، أي الفرقاطة نفسها التي شهدناها تحمل الحاكم وجورج إلى بور لويس.

كانت اللايسستر تفوق الكاليبسو بعشرة مدافع وستّين رجلاً. بعبارة أخرى، ما كان ثمّة هذه المرّة أدنى شحنة قرفة أو سكّر أو بنّ، وإنّما كان هنالك مخزن للذخيرة مشحون تماماً، وترسانة من المدافع الرّشاشة والقذائف معبّأة عن آخرها. وهي ما إن لمحت الكاليبسو وعرفت انتماءها، ودون حتّى أن تطلق أدنى إنذار، أرسلت لها عيّنة من بضاعتها: قذيفةً من فئة الستّة والثلاثين، اخترقت هيكلها.

وبخلاف شقيقتها غالاتي، التي تهرب كي تُرى، كانت الكاليبسو ستفضّلَ أن تفرّ دون أن تُرى. فليس ثمّة ما يمكن أن يُكسَب من اللايسستر حتّى لو أمكن هزمها؛ مع أنّ هزمها هو أصلاً فرضيّة أبعد ما تكون عن الإمكان. ولسوء الحظّ لم تكن فرضيّة إمكان الفرار منها بأقلّ استحالة من فرضيّة هزمها؛ فقد كان قائدها هو اللّورد مورّيه، الذي ما كان قد ترك بعدُ الخدمة البحريّة في ذاك العهد، والذي على الرّغم من

Twitter: @ketab_n

منظره الجذّاب الذي اِزاددت جاذبيّته منذ التحاقه بصفّ الدبلوماسيّة، كانَ أحد أكثر ذئاب البحر ضراوةً من مضيق ماجلان إلى خليج بافان.

سحب القبطان برتران إذن إلى الخلف أكبر قطعتين يملكهما، وانطلق يطارد اللايسستر.

كانت الكاليبسو مركبةَ مطاردة فعليّة، صُمّمت للسبّاق، ذات هيكل خفيف منبسط؛ لكنّ سنونوّة البحار المسكينة تلك كانت تواجه عُقاب المحيطات؛ ولذا فعلى الرّغم من خفّتها، ما هي سوى برهةٍ حتّى بدا أنّ الفرقاطةَ لا محالةَ غالبةُ الزّورقَ الشّراعيّ.

وسريعاً ما بدأ فارق السرعة ما بين المركبين يصير أوضحَ، لدرجة أنّ اللايسستر كانت ترسل كلّ خمس دقائق رسُلاً من البرونز تستدعي الكاليبسو إلى التّوقف؛ فتردّ عليها الكاليبسو مطلِقةً من قذّافاتها رسُلاً من النوّع ذاته.

وأثناءَ ذلك كان جاك يراقب بانتباهٍ كبيرٍ متانة أشرعة السّفينة، ويشير للنائب ريبار إشارات نبيهة تتضمن ما عليه القيام به، حسبَ ما إذا كانت الكاليبسو في وضعية ملاحقة أو فرار. وكانَ ثمّة على وجه التّخصيص تغيير جذريّ ينبغي القيام به على مستوى الصّارية؛ وكان جاك قد أنهى شرحه ولا يزال يشير إلى المنطقة التي ينبغي القيام فيها بالتّغيير، حينَ لم يتلقّ أيّ ردٍ، فأنزل ناظره من السّماء إلى الأرض، وعلم سبب صمت مخاطبه: لقد قصمت قذيفةُ مدفع النائبَ نِصفين.

صارت الوضعيّة شديدة الخطورة، وصار جليّاً أنّ المركبين سيصيران جنباً لجنب بعد أقلّ من نصف ساعة؛ وسيتعيّن عليهم آنذاك الاشتباكَ مع طاقم يفوقهم بالثّلث. وإضافة إلى نفسه، نقل جاك تلك الملاحظة التي لا تبعث على الاطمئنان إلى أحد المصوِّبَين اللّذين كانا قائمين على

Twitter: @ketab_n

المدفعين، لكن أثناء ذلك تعثّر المصوِّب بينما ينحني ليصوِّب، فسقط أنفه على مؤخّرة مدفعه. وإذ رأى جاك أنّ الرّجل قد تأخّر في استعادة توازنه أكثر ممّا يلزم رجلاً مكلفاً بمهمّة بذاك القدر من الأهمّيّة، أمسكهُ من ياقته وأعاده إلى الوضع العموديّ. وإذّاك انتبه إلى أنّ المسكين قد ابتلع قذيفةَ بِسكيّة[1]؛ لكنّ القذيفة بدلاً من أن تكمل طريقها رأسيّاً، انحرفت أفقيّاً. وذاك سبب الحادث. لقد مات المصوّب المسكين، بعسرِ هضمٍ سبّبه الحديد المصهور، كما يقال.

فانحنى جاك، الذي ما كان يملك خياراً أفضل، بدوره على المدفع وعدّل زاوية التّصويب بعقدة أو عقدتين، ثمّ صاح:

- أطلقوا النّار!

وفي اللحظة نفسها دوّى هدير المدفع، وإذ كان جاك يتوق لمعرفة نتيجة تصويبه، قفزَ على السياج حتّى يستطيع ما أمكنه متابعة القذيفة التي رمى بها عدوّه.

كانت النّتيجة فوريّة. اِنكسرت صارية شراع المقدِّم فوق المنصّة الكبيرة بقليل، ومالت كشجرة طواها الرّيح، ثمّ سقطت بتصدّعٍ مهول، رادمةً جسر الأشرعة والعتاد، ومحطّمةً جزءاً من جدار مَيمنَة الفرقاطة.

اِنطلقت صيحة فرح كبيرة على متن الكاليبسو. لقد توقّفت الفرقاطة في منتصف السّباق، تنغمر في البحر بجناحها المكسور، بينما السّفينة الشّراعية تكمل طريقها، وقد تخلّصت من ملاحقة عدوّها.

وكان أوّل ما حرص عليه القبطان، إذ ألفى نفسه في منأىً عن الخطر، هو تعيين جاك نائباً له، بدلَ ريبار: وكان قد رسخَ في نفوس رفاقه منذ مدّة

(1) رصاصة كرويّة تنطلق عادة من بندقيّة البسكيّة وهي بندقية حصار تكون عادة على متن الفرقاطات.

Twitter: @ketab_n

طويلة أنّه في حالٍ ما إذا صار المنصب شاغراً، فإنّ جاك هو من سيتولاّه. فكان أن استُقبلَ تنصيبُه بهتافات الإجماع.

ومساءً، أقيم قدّاسٌ جماعيّ للموتى. وكان كلّما مات أحدهم، أُلقيت جثّته فوراً في البّحر، ولم يتمّ الاحتفاظ سوى بجثمان الرّجل الثّاني حتّى يتلّقى التّكريم الذي يستحقّه. ويتجلّى التّكريم في تكفينه بمحمل مع قذيفةِ مدفعٍ من صنف الستّة والثلاثين في كلّ واحدة من قدميه. وقد تمّ الطّقس كما ينبغي، ولحق المسكين ريبار برفاقه الذين لم يفُقهم سوى بامتياز بسيط، امتياز أن يغوص عميقاً في الماء بدلاً من أن يطفوَ على السّطح.

ومساءً استغلّ القبطان برتران العتمة كي يموّه على مساره، أي أنّه أفاد من هبّة ريح مواتية، وعاد أدراجه، بحيث رجع إلى بريست، بينما كانت اللايسستر التي سارعت إلى إصلاح صاريتها، تلاحقه على طريق الرّأس الأخضر.

وغضب النقيب مورّيه أيّما غضب، وأقسم أنّه في حال ما إذا وقعت الكاليبسو مرّة أخرى بين يديّ اللايسستر، فلن تفلت في المرّة الثانية مثلما أفلتت في الأولى.

وما إن أصلح القبطان برتران أعطاب سفينته حتّى انطلق إلى القرصنة، بمساندة من جاك، وحقّق العجائب: لكن للأسف وقعت معركة واترلو، وبعد واترلو التنحّي الثاني، وبعد التنحّي الثاني السّلام. وآنذاك ما عاد ثمّة مجال للشكّ. لقد شاهد القبطان بأمّ عينيه أسيرَ أوروبا لمّا اقتادوه على متن بارجة بيلّيروفون، وبما أنّه كان يعرف جزيرة سانت هيلين، حيث سبق أن رسا مرّتين، فقد أيقن أنْ لا سبيل إلى النّجاة منها،

Twitter: @ketab_n

فهي ليست مثل جزيرة إلبا[1].

وألفى القبطان برتران مستقبله ينجرفُ في غمرة الكارثة التي حطّمت الكثير من الأشياء. فكان عليه أن يجد البديل: كان يملك سفينة شراعية جميلة وفي حالة جيّدة، ومائة وخمسين رجلاً مستعدّين لأن يتبعوه في السّراء والضرّاء؛ فكان من الطّبيعيّ أن يفكّر في تجارة العبيد.

وفي الواقع، كانت تلك تجارة مربحة قبل أن تتضرّر المهنة بعديد الخطب الفلسفية التي ما كان أحد يفكّر فيها من قبل. وأولئك الذين كانوا السبّاقين إلى ممارستها، جنوا ثروةً فعليّة. إنّ الحرب التي تخمد من حين إلى آخر في أوروبا تظلّ مشتعلةً أبداً في أفريقيا؛ وثمّة دائماً شعوب عطشى للشّراب، لدرجة أنّ سكّان هذا البلد الجميل قد لاحظوا أنّ أضمن السّبل للحصول على الأسرى هي التوفّر على كميّة كبيرة من المشروبات الكحوليّة. وكان يكفي في ذاك العصر أن يبحر المرء محاذياً شواطئ السنغال-غامبيا أو الكونغو أو الموزمبيق أو زنجبار حاملاً بيديه قارورتَي كونياك، ليكون متأكّداً من أنّه سيعود متأبطاً زنجيّاً تحت كلّ ذراع. وعندما يعزّ وجود الأسرى، فإنّ النّساء يبعن أطفالهنّ نظيرَ شربةِ خمر. وصحيح أنّ كلّ ذاك الحشد من الأطفال ما كان يساوي في نظر النخّاسة شيئاً، لكنّ العبرة كانت بالكمّ.

لقد مارس القبطان برتران تلك التّجارة بنجاحٍ وفخرٍ، وجنى أرباحها مدّة خمس سنوات، أي من سنة 1815 حتّى سنةَ 1820، وكان ينوي أن يستمرّ في ممارسها لسنواتٍ بعدُ، لولا أنّ حادثاً مباغتاً أنهى حياته. فذات يومٍ، بينما كان يصعد نهرَ الأسماك الواقع على ساحل أفريقيا الغربيّ، برفقة

(1) إشارة إلى منفيَي نابليون بونابرت، سبق التعريف بهما.

Twitter: @ketab_n

أحد القادة الهوتنتوت[1] كان من المفترض أن يسلّمه، نظيرَ برميلَين من شراب الرّوم، جزءاً من صفقة عبيد ناماكيّين كان قد اتّفق عليهم وحضّر مسبقاً لبيعهم في جزيرة المارتنيك وجزر غوادلوب، أقول بينما كان يفعل ذلك وضع قدمه صدفةً على ذيل أفعى بوكيرا كانت تتدفّأ في الشّمس. وكما هو معلوم فإنّ ذاك النّوع من الثعابين ذات الذّيول الحسّاسة جدّاً قد حبته الطّبيعة في ذيله بعدد لا يحصى من الأجراس التي تنبّه السائر حتّى لا يطأها. لقد انتصبت الأفعى بسرعة البرق ولدغت القبطان برتران في يده. وعلى الرّغم من قوّة جلَد القبطان على الألم، فقد أطلق صرخة. اِستدار قائد الهوتنتوت ورأى ما جرى، فقال بنبرة جادّة:

- رجلٌ ملدوغٌ هو رجلٌ ميّت.

أجابه القبطان:

- أعلم ذلك بحقّ السّماء! ولذلك صرخت.

ثمّ إرضاءً لنفسه، أو إماطةً لأذى الثعبان عن الآخرين، أمسك الحيوان بيده، ودكّ عنقه. لكنّه ما إن فرغ من ذلك حتّى كانت قواه قد خارت، فسقط ميتاً قرب الزّاحف.

وقد جرى كلّ ما سبق بسرعة كبيرة لدرجة أنّ جاك، الذي كان متخلّفاً عن القبطان بعشرين قدماً، ما إن وصل قربه حتّى كان القبطان قد صار أخضر كالسّحليّة. أراد أن يقول شيئاً، لكنّه غمغم بمشقّةٍ بكلمات لا معنى لها، ثمّ مات. وبعد عشر دقائق علَت جسدَه بقعٌ سوداء وصفراء، وصار شبيهاً تمام الشّبه بفطر سامّ.

ولم يكن وارداً حمل جسد القبطان إلى الكاليبسو، خاصةً وأنّ قوّة

(1) من أقوام أفريقيا الجنوبية، اسمهم الحقيقيّ «الخوي-خويْ»، وسمّاهم أوربيّو أفريقيا الجنوبية (الأفريكانير) الهوتنتوت وتعني «المتأتئين» بباعث من لغتهم التي تعتمد كثيراً على أصوات يُحدثونها بضربات من اللّسان والشفتين.

Twitter: @ketab_n

السّم قد عجّلت بتحلّل الجسد. فحفر جاك والاثنا عشر نوتيّاً خندقاً سجّوا جثمانَ القبطان داخله ووضعوا عليه كلّ الأحجار التي طالتها أيديهم حتّى يضمنوا عدم وصول أنياب الضباع وبنات آوى إليه. أمّا الثعبان المُجلجِلُ فقد تكلّف به نوتيّ تذكّر أنّ خاله، وكانَ صيدلانيّاً في بريست، كانَ قد أوصاه إن هو صادف ثعباناً مماثلاً أن يحمله إليه حيّاً أو ميتاً، حتّى يضعه في قارورة عند مدخل محلّه، ما بين قارورة مليئة بماء أحمر وأخرى مليئة بماء أزرق.

ثمّة قول تجاريّ مأثورٌ يقول: «الصفقات تعلو على ما سواها». ومصداقاً لذلك القول قرّر جاك وقائد الهوتنتوت أنّ الفاجعة التي وقعت ينبغي ألّا تقف في وجه إتمام الصفقة. توجّه جاك إذن إلى القرية المجاورة طلباً للخمسين ناماكياً الذين تمّ الاتفاق عليهم، وبعد ذلك عاد معه قائد الهوتنتوت إلى السّفينة كي يأخذ قنينتيّ الرّوم اللتين وُعِد بهما. وقد انصرف كلا الرّجلين راضياً عن الصّفقة، وتواعدا على ألّا تكون تلك الصّفقة نهاية علاقتهما التّجارية.

ومساءً جمع جاك كلّ الرّجال من رئيس النوتيّة حتّى آخر بحّار مستجِدّ.

وبعد خطابٍ موجز وبليغ، عدّد فيه خصال القبطان برتران، اقترح على الطّاقم أمرين: إمّا أن يبيعوا حمولتهم التي كانت مليئة، ويبيعوا البارجة أيضاً، وبعد ذلك يقتسمون ما تحصّل لهم بحسب النّصيب المقدّر لكلّ منهم، ثمّ يفترقوا أصدقاءَ؛ أو أن يعيّنوا قبطاناً آخر بديلاً للقبطان برتران، ويواصلوا التجارة تحت شعار «كاليبسو وشركائها»، معلناً أنّه يلتزم مسبقاً بخوض الانتخابات كأيّ منهم، بغضّ النّظر عن أنّه كان النائب قبطان، وأن يكون أوّل من يعترف بمن يفوز في التصويت. وبعد

Twitter: @ketab_n

خطابه وقع ما كان ينبغي أن يقع، لقد اختير جاك قبطاناً بالهتافات.

واختار جاك فوراً نائبه، وهو رئيس النوتيّة، وكان رجلاً بروتونيّاً من مواليد لوريان، وقد كان يلقَّب بـ «رأس الحديد»، إشارةً إلى صلابة جمجمته.

وفي المساء نفسه، بيّنت الكاليبسو أنّها أسرع نسياناً من الحوريّة التي سُمّيت هي على اسمها، ونشرت أشرعتها صوب جزر الأنتيل، وكان يبدو أنّها قد تعزّت عن رحيل الرّجل، نقصد رحيل القبطان برتران وليس الملك عوليس.

إن كانت السفينة قد فقدت قائدها، والحقّ يقال، فإنّها كسبت قائداً آخر لا يقلّ قيمة عنه. لقد كان الفقيد أحد ذئاب البحر تلك التي تقوم بكلّ شيء بدافعٍ من العادة، وليس إلهاماً، بينما لم يكن جاك من ذلك الصّنف. كان جاك رجلَ الملابسات، عليماً بكلّ أمور الملاحة؛ عارفاً كيف يقود الطّاقم في المعارك والزّوابع، مثل أفضل أميرال، وكيف يعقد حبلاً مثل أبسط ملاّح مستجدّ. ومع جاك، ما كان من فسحة للاستراحة، وبالتّالي لا إمكان للشّعور بالملل. وكلّ يوم كان يضيف تحسينات إلى الذّخيرة وإلى السّفينة. كان جاك يحبّ الكاليبسو مثلما يحبّ المرء عشيقته. لذا كان منشغلاً دائماً بإضافة أشياء إلى زينتها، فحيناً يضيف إليها حاجزاً واقياً بعد أن يغيّر شكلَه، وطوراً يضيف إليها دوقلاً ييسّر حركتها. كما أنّها، وهي المغناج، كانت تطيع سيّدها الجديد كما لم تطع أحداً من قبل، فتتحرّك لصوته، وتنحني وتميل بين يديه، وتخبّ تحت قدميه مثل حصان يحسّ وخز المهماز؛ كان يوافقان ذاتهما تماماً لدرجة يخال معها المرء أنّهما وُلدا ليكونا معاً، ويشقّ عليه تخيُّل أنّ أحدهما قد يستطيع العيش يوماً دون الآخر.

Twitter: @ketab_n

وإذا ما استثنينا ذكرى أبيه وأخيه التي كانت تمرّ من حين إلى آخر كغمامة فوق جبينه، كان جاك أسعد رجلٍ في البرّ والبحر. فهو لم يكن واحداً من أولئك النّخّاسين الشّرهين الذين يخسرون نصف أموالهم وهم يحاولون كسب الكثير، كما لم يكن ممّن تحوّلت النّخاسة عندهم بدافع العادة من عمل شرّير إلى عمل ممتع. كلّا، لقد كان تاجراً يتقن عمله، ويعتني بزنوجه الكفريّين والهوتنتوت والسنغاليّين-الغامبيّين، قدر اعتناء تاجرٍ بأكياس سكّر أو حقائب أرزّ أو كرات قطن. كان يطعمهم جيّداً، وكانوا ينامون على القشّ وكانوا يصعدون إلى سطح السّفينة لشمّ الهواء مرّتين في اليوم. لم يكن يقيّد سوى المتمرّدين، وكان يحرص عامّة على بيع الرّجال مع زوجاتهم، والأمّهات مع أطفالهنّ؛ وهو ما كان يشكّل رقّة غريبة، يعزّ نظيرها بين زملاء جاك. ولذا كان زنوج جاك على العموم يصلون إلى وجهاتهم مرتاحين وفرحين، فيبيعهم غالباً بسعر أعلى.

ومن البديهيّ أنّ جاك ما كان يقيم على البرّ ما يكفي من الوقت ليقيم ارتباطاً جادّاً. وبما أنّه كان يتدحرج على الذّهب ويتدثّر بالنّقود، فلقد حاولت الكريوليّات الجميلات في جامايكا وجزر غوادلوب غير ما مرّة إغراءه؛ لا بل إنّ بعض الآباء ممّن يجهلون أصله المولّد كانوا يحسبونه نخّاساً أوروبياً فيفاتحونه في موضوع الزّواج. لكنّ جاك كان يمتلك فلسفته الخاصّة في الحبّ. فقد كان جاك على دراية بميثولوجيا الحبّ وتاريخه المقدّس: كان يعرف أمثولة هرقل وأمفال، وحكاية شمشون ودليلة[1]. ولذا قرّر ألّا يتزوّج امرأة سوى الكاليبسو. أمّا العشيقات،

(1) في الميثولوجيا الإغريقيّة، يبيع هرقل نفسه عبداً لأومفال، ملكة ليديا، للتكفير عن جريمة قتل كان قد ارتكبها، فتشغّله هي في أعمال عديدة. أمّا شمشون فحكايته في العهد القديم معروفة: يقهر أعداءه بفكّ حمار ولكنّ زوجته دليلة تعرف منه أنّ سرّ قوّته كامن في شعره، فتجزّ شعره وهو نائم فيظفر به أعداؤه.

Twitter: @ketab_n

فلسن هنّ ما كان ينقصه: كان له عشيقات سوداوات وذوات بشرات حمراء وصفراوات وبلون الشكولاتة، بحسب تنقّله ما بين الكونغو وجزر فلوريدا والبنغال ومدغشقر. في كلّ رحلة كان يتّخذ لنفسه عشيقة جديدة، وما إن يصل حتّى يهديها إلى صديق يوقن هو من أنّه سيعاملها معاملة حسنة. لقد ارتضى لنفسه نظاماً يقوم على عدم الاحتفاظ البتّة بامرأة مهما كان لونها، خشية أن تؤثّر عليه، إذ ينبغي الإقرار بأنّ ما كان جاك يحبّه في المقام الأوّل هو: الحريّة.

ولنوضّح أنّ جاك كان يحرص على عددٍ من الملذّات الأخرى. لقد كان جاك شهوانيّاً مثل كريولي. كلّ أشياء الطّبيعة العظيمة كانت تترك في نفسه أثراً عجيباً؛ على أنّها بدلاً من تمسّ روحه، كانت تثير حواسّه. كان يحبّ الشّساعة، ليس لأنّها تذكّره بالله، وإنّما لأنّه كلّما اتّسع الفضاء حسُنَ التّنفس؛ وكان يحبّ النّجوم، ليس لأنّها عوالم أخرى تسبح في الفضاء، وإنّما لأنّه يرى أنّ من الرّائع أن توجد فوق رأس المرء قبّة زرقاء موشّاة بالجواهر؛ وكان يحبّ الغابات الكثيفة، ليس لأنّ أعماقها ملأى طرقاً ملغزة وشعريّة، وإنّما لأنّ قبابها السّميكة تلقي ظلالاً يمتنع على أشعّة الشّمس اختراقها.

أمّا عن وجهة نظره من المهنة التّي يمارسها، فقد كان يرى نفسه يمارسُ نشاطاً قانونياً. فطيلة حياته كان يرى الزّنوج يباعون ويُشترون؛ فكان في قرارة نفسه يعتقد أنّ الزّنوج خُلقوا ليباعوا ويشتروا. أمّا عن مدى صواب الحقّ الذي منحه الإنسان لنفسه في بيع أخيه الإنسان، فما كانَ يعنيه في شيء؛ كانَ يشتري ويدفع، وبالتّالي كانَ يملك حقّ التّصرف في ما اشتراه وملكَه، بما في ذلك حقَّ أن يعيد بيعه: ثمّ إنّ جاك لم يحذُ قطّ حذوَ زملاء مهنته، ممّن سبق له أن رآهم يأسرون الزّنوج بأنفسهم ويبيعونهم؛

Twitter: @ketab_n

فقد كانَ يرى في أسْر كائن حرّ، إن بالقوّة أو مكراً، وجعْله عبداً أمراً غير عادل؛ لكن ما إن يصير الحرُّ عبداً، لظروف لم يتدخّل هو نفسه، أي جاك، فيها، حتّى لا يعود يرى من حرجٍ في معاملته معاملةَ الشّيء الذي يمتلكه.

على أنّنا ندرك أنّ الحياة التي كان يعيشها جاك، كانت حياةً ممتعةً، لا تقلّ متعة عن تلك التي كان يحياها أيّام معارك القبطان برتران. لقد وُضع حدٌّ للاتّجار بالسّود بقرارٍ حكوميّ، بعدما ارتأت الحكومة، على الأرجح، أنّها تضرّ بالاتّجار بالبيض؛ بحيث أنّه كان يحدث من حين إلى آخر أنّ بعض البوارج التي تتدخّل في ما لا يعنيها كانت ترغب في معرفة ما تفعله الكاليبسو على سواحل السنغال أو المحيط الهندي. وإذّاك، إن كان مزاج القبطان جاك رائقاً، فإنّه يبدأ بتسلية بحّارته الفضوليّين بعرض ألوية من مختلف الألوان أمامهم؛ ثمّ إذ يكلّ من لعبة الأحاجي، يُخرج عَلمه الخاصّ، علم به ثلاثة رؤوس سوداءَ موضوعة على نسيج أحمر؛ وإذّاك تبدأ الكاليبسو بالمطاردة، وتبدأ الحفلة.

فضلاً عن المدافع العشرين التي كانت تزيّن فتحاتها، كانت الكاليبسو تحمل في مؤخّرها قِطعتَي قصف من فئة السّتة والثلاثين، يتجاوز مدى تصويبهما مدى تصويب البوارج العاديّة، مخصّصتَين فقط لمثل تلك المناسبات؛ وبما أنّها كانت سفينة شراعيّة ممتازة، وكانت تطيع قائدها بإشارة من إصبعه أو عينه، فقد كان جورج يكتفي بنشر الأشرعة التي تمكّنه من جعل البارجة التي تلحق به طوعَ قذائف قطعتَي قصفه. فينتج عن ذلك أن تهويَ قذائف الخصوم عند أعتاب سفينة جورج، بينما، صدِّقوا الأمر، تخترق قذائف جورج، الذي لم ينسَ بعد مهنته القديمة كمصوِّب، أقول تخترق السّفينةَ ذات النّزعة العدائية تجاه الزّنوج، من أقصاها إلى أقصاها. وكان الأمر يستمرّ ما يكفي من الوقت ليقوم جاك

Twitter: @ketab_n

بما يسمّيه لعبته، لعبة الكرة والأولاد؛ وإذ يقدِّر أنّ البارجة الفضوليّة قد نالت العقاب الذي تستحقّه على فضولها، يزيد بعض أشرعة مقدّم الصّارية، وبعض الأشرعة الإضافيّة المربّعة، وبعضاً من قلوع الزّاوي[1] التي ابتكرها بنفسه، يضيف كلّ ذلك إلى الأشرعة المنشورة أصلاً، ويطلق باتّجاه ندّه كريّتين ناريّتين، إشارةَ وداعٍ، وينطلق فوق الماء مثل طائر بحريّ متأخّرٍ يقصد وكرَه. هكذا يترك الخصمَ وراءه يسدّ ثقوب سفينته ويصلح أعطابها ويعيد ربط حباله، بينما يختفي هو في الأفق.

ومن البيّن أنّ عمليات الفرار تلك قد صعّبت دخوله إلى الموانئ؛ لكنّ الكاليبسو كانت مغناجاً تستطيع أن تغيّر وجهتها وحتّى وجهها بحسب الظروف. فحيناً كانت تتّخذ اسماً من الأسماء العذريّة، وإهاباً غرّاً، فتطلق على نفسها اسم «الحسناء جيني» أو «فتاة الأولمب»، وتصل لابسةً سيماءَ البراءة، سيماء تسرّ النّاظرين؛ فتدّعي أنّها حملت للتوّ الشّايَ إلى كانتون أو القهوة إلى موكا أو البهارات إلى سيلان. تقدّم عيّنات من حمولتها، وتستقبل طلباتٍ، وتطلب مسافرين على متنها. ويقدّم القبطان جاك نفسه كمزارعٍ بروتونيّ، بسترته الواسعة، وشعره الطّويل، وقبّعته العريضة، أي متّخذاً تماماً هيئة المرحوم برتران المهملة. وطوراً تُبدّل الكاليبسو جنسها، فتُسمّى «أبا الهول» أو «اللّيونيداس»[2]؛ يلبس طاقمها الزيّ الفرنسيّ، وتدخل إلى الميناء ناشرةً الرّاية البيضاء، محيِّيةً القلعة بلباقة، فتردّ هذه بدورها التّحية بلباقة. وإذّاك يكون قائدها، بحسب رغبته، إمّا ذئب بحر قديماً، لعّاناً وسبّاباً وشتّاماً، لا يتكلّم إلّا مستخدماً كلماتٍ من قبيل «الميمنة» و«الميسرة»، ولا يفهم فيمَ قد تفيد اليّابسة اللّهمَ إلّا في تعبئة المياه

(1) الزّاوي، قلع مربّع الزّاوية يرفع في مؤخّر السّفينة.
(2) أحد ملوك اسبرطة، اعتلى العرش من 489 إلى 400 قبل الميلاد.

Twitter: @ketab_n

وتجفيف الأسماك؛ أو يكونَ أحد الضّباط الوسيمين العصريّين، تخرّج حديثاً من المدرسة، ونظير الخدمات التي قدّمها أسلافه، كافأته الحكومة بأن أسندت له قيادةً كان يصبو إليها عشرة ضبّاط قدامى. وفي هذه الحال يطلق القبطان جاك على نفسه اسمَ السيّد دو كرغوران أو السيّد دو شان فلوري؛ ويكون حسيرَ البصر، لا ينظر دون أن يرمش بعينيه، ويلثغ في الحديث. وكانت تلك التمثيليّات سريعةَ الانكشاف في موانئ فرنسا وإنجلترا؛ لكنّه بالمقابل كان يحصد نجاحاً باهراً في كوبا أو المارتنيك أو جزر غوادلوب أو جاوة.

أمّا عن مصير الأرباح التي يجنيها من تجارته، فقد كان بالنّسبة لجاك، الذي لا يفهم في أمور المال كلّها، أبسطَ المسائل: كان يشتري بذهبه ونقوده في فيجابور وغوزارات أجمل الجواهر التي يصادفها. حتّى أنّ المطاف انتهى به إلى الاشتهار في مجال الجواهر قدر شهرته في مجال النّخاسة. وكان يرصف المجوهرات التي اشتراها حديثاً لصق مجوهراته القديمة في حزام يرتديه دائماً. وحين تعوزه النّقود كان يفتّش في حزامه، ويخرج واحدةً بحسب المناسبة، إمّا جوهرةً برّاقةً في حجم حبّة الحمص أو أخرى في حجم حبّة البندق، ثمّ يدخل عند أحد اليهود، ويزِن الجوهرةَ في الميزان ويبيعها له حسب التّعريفة. ومثل كليوباترا التي كانت تشرب الجواهر التي يعطيها لها أنطونيو، كان هو يأكل مجوهراته؛ على أنّ جورج، بخلاف ملكة مصر، كان يصنع من جواهره وجبات عديدَة.

وبفضل ذاك النّظام الاقتصاديّ بات جورج مالكاً لثروة تقدّر قيمتها بمليونين أو ثلاثة، يحملها معه طيلة الوقت، ثروة كان يستطيع عند الاقتضاء إخفاءها: إذ لم يكن يخفى على جاك أنّ مهنة مثل تلك التي يزاولها تنطوي على إمكان الحظّ السّعيد مثلما تنطوي على إمكان الحظ

Twitter: @ketab_n

العاثر؛ وأنّ الأمور ليست ورديةً دائماً، وقد يصير بعد سنين السّعد إلى أيّام الضّنك.

لكنْ في انتظار ذاك اليوم غير المعلوم كان جاك، كما أسلفنا، يحيى حياة النّعيم، حياةً ما كان ليبدّلها بحياة أيٍّ من الملوك، لا سيّما وأنّ مهنة الملوك كانت قد بدأت في ذلك العصر تصير إلى مهنةٍ ذات مردودٍ هزيل. كان مُغامرنا إذن سعيداً، سعيداً لولا أنّ ذكرى والده وأخيه جورج كانت تأتيه أحياناً فتغتمّ أفكارُه. ولذا فإنّه، ذاتَ يوم صافٍ، وقد غلَبَه الشّوق، وإذ كان قد حمّل شحنةً من السّنغال-غامبيا والكونغو وأتى يكمل حمولته من على سواحل الموزمبيق وزنجبار، قرّر أن يكملَ مسيرته حتّى جزيرة موريس ويستقصيَ عمّا إذا كان أبوه لا يزال على قيد الحياة، وهل رجع أخوه. فكان أن أرسل إشاراتِ النّخاسين المعتادة، فتلقّى إشارات الرّد. وشاءت الصّدفة أن تُبودِلت تلك الإشارات بين الأب وابنه، بحيث أنّ جورج لم يُلفِ نفسه مَساءً على ساحل مسقط رأسه فحسب، وإنّما بين أذرعِ من أتى مستقصياً عنهما.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس عشر

علبةُ باندورا[1]

من البيّن أنّها كانت فرحةً عظيمةً تلك التي جمعت ذاك الأب وذينك الأخوين، بعد غيابٍ طويل، وفي لحظة ما كانوا يتوقّعون فيها حدوث ذلك: ولأنّ جورج كان لا يزال يحتفظ في نفسه ببعضٍ من بقايا التربيّة الأوروبيّة، فقد أحسّ، للوهلة الأولى، بأسفٍ في قلبه إذ ألفى أخاه منخرطاً في الاتّجار بالبشر؛ على أنّ ذاك الأثر الأوّل سرعان ما تبدّد. أما بيار مونييه، الذي لم يسبق له أن غادر الجزيرة، وبالتالي كان ينظر للأمر نظرةَ أحد مستوطني المستعمرات، فلم يُعِر الأمر أيّ اهتمام. لا بل إنّ الأب المسكين قد كان ذاهلاً في خضمّ الفرحة النّاجمة عن لقاء ولديه.

قصد جاك موكا لينام، كأنّ شيئاً لم يحدث. أمّا جورج ووالده فلم يفترقا حتّى وقت متأخرٍ من اللّيل. وأثناء حديثهم الهادئ، بثّ كلّ واحد منهم للآخرَين لواعج نفسه وما يعتمل في قلبه؛ فبسطَ بيار مونييه فرحته بعودة ولدَيْه: لا شيء كانَ يملأ قلبه قدرَ حبّه الأبويّ. أما جاك فقد حكى عن مغامراته ومتعه الغريبة وسعادته المختلفة. ثمّ أتى الدّور على جورج، فباحَ بحبّه.

وبينما كان جورج يحكي، كان بيار مونييه يرتعد بكلّ أطرافه: جورج،

---

(1) بحسب الأسطورة الإغريقيّة، كانت باندورا، وهي أوّل امرأة على الأرض، تمتلك صندوقاً يحرّم عليها فتحه، لكنّ الفضول دفع بها إلى فتحه، فخرجت منه الشّياطين وظهر الشّر الذي لم يكن موجوداً من قبل.

Twitter: @ketab_n

المولَّد وابن المولّد، يفصح عن حبّه لامرأة بيضاء، بل ويدّعي أنّ تلك المرأة ستكون له. لقد كانت الكبرياء المتضمّنة في كلامه تنطوي على جرأة غير مسبوقة، جرأة لم تشهد المستعمرات لها مثيلاً؛ ومن يحمل في قلبه مثل تلك الكبرياء ستنهال عليه كلّ آلام الأرض وكلّ ويلات السّماء.

أمّا جاك، فقد كان يتفهّم تماماً أن يُغرمَ أخوه بامرأة بيضاء، وإن كان هو يفضّل النّساء السوداوات لألفِ سبب. لكنّ جاك كان يمتلك ما يكفي من الحسّ الفلسفيّ ليدرك اختلافَ الأذواق ويحترمَه. لذا كان يرى أنّ جورج، وهو الفتى الوسيم الثريّ المتفوّق على ما عداه من الرّجال، يستطيع أن يطمح إلى الارتباط بأيّ امرأة بيضاء، حتّى لو كانت ألين، ملكةَ غلوكندة[1] نفسها!

وفي جميع الأحوال قدّمَ لأخيه حلّاً ييسّر كلّ الأمور؛ ففي حالٍ ما إذا رفض السيّد دو مالميدي طلب جورج، سيخطف سارة ويرحل بها بعيداً إلى أيّ مكان تشاء، وهناك يلحق بها جورج. شكرَ جورج أخاه على عرضه اللّطيف، لكن ما دام يمتلك في الوقت الرّاهن خطّة أخرى مُحكمة، فقد رفض.

وفي اليوم التّالي اجتمع أهل موكا ما إن طلع الصّباح، إذ كان لديهم العديد من الأشياء التي نسوها في العشيّة، وكان ينبغي أن يقولوها لبعضهم البعض. وعند السّاعة الحادية عشرة رغب جاك في زيارة أماكن طفولته، فاقترح على والده وأخيه القيام بجولة ذكريات. قبِل العجوز مونييه الاقتراح، أمّا جورج الذي كان ينتظر، كما نعلم، أخباراً من المدينة، فقد اضطرّ إلى تركهما يرحلان والبقاء منتظِراً ميكو-ميكو حيث ضربَ

(1) من الممالك الهنديّة القديمة، كانت قائمة بين 1364 و1512. ولعلّ دوما يُلمّح هنا إلى أوبرا الباليه التي تحمل عنوان «مليكة غلوكندة»، والتي وقّعها مشيل-جان سودين Micher-Jean Sedaine وعرضت أوّل مرّة سنة 1766.

Twitter: @ketab_n

له موعداً.

وما هي إلّا نصف ساعة حتّى لمح جورج رسوله قادماً؛ كان يحمل قصبتَه الطويلة وسلّتَيه، كأنّما كان يتاجر بالمدينة؛ فالتّاجر الصّينيّ الحريص، كان قد فكّر في أنّه قد يصادف في طريقه بعض هواة البضائع الصّينيّة. وبرغم قوّة التّحكم بالانفعالات التي اكتسبها جورج بمشقّة، فإنّ قلبه كان يقفز بينما يفتح الباب، فالرّجل الذي ينتظره قد قابل سارة، وسيحدّثه عنها.

كانت الأمور كلّها قد جرت بأيسر ما يمكن تخيّله. استغلّ ميكو-ميكو امتيازَ إمكان دخوله حيث شاء، كي يدخل منزل السيّد دو مالميدي. وبما أنّ الزّنجيّ جوهرة كان قد سبق له أن شاهده يبيع سيّدتَه سارة مروحةً، فقد قاده مباشرةً إليها.

وما إن لمحت سارة البّائع حتّى ارتجفت، إذ عبر تداعٍ طبيعيّ للأفكار والظروف، كانَ مرأى ميكو-ميكو يذكّرها بجورج: كانت إذن حريصةً على استقباله، ولا يؤسفها غير اضطرارها إلى أن تكلّمه بلغة الإشارات. أخرج ميكو-ميكو من جيبه البطاقة التي دوّن عليها جورج بخطّ يده لائحة أسعار البضائع التي حسب ميكو-ميكو أنّها ستمسّ قلبَ سارة، وناولها إلى الفتاة مبيّناً الجهة التي كتب عليها الاسم.

تضرَّج وجه سارة بحمرة الخجل رغماً عنها. لقد كانَ واضحاً أنّ جورج، بعدما امتنعت عليه رؤيتها، لجأ إلى تلك الحيلة التي تُذكّرها به. اِشترت من التّاجر كلّ البضائع التي دوّن الشابّ أثمنتها بيده، دون أن تساومه على سعرها: ثمّ، إذ لم يفكّر التّاجر في أن يطلب منها استعادة البطاقة، لم تفكّر هي أيضاً في إرجاعها له.

وإذ كان ميكو-ميكو يهمّ بالخروج أوقفه هنري، فاصطحبه معه

Twitter: @ketab_n

ليريه كلّ بضاعته الرّخيصة. لم يشترِ هنري شيئاً بعدُ، لكنّه أفهمَ البائع أنّه سيتزوّج قريباً من ابنة عمّه، وسيحتاج كلّ النّفائس التي بوسع البائع جلْبها له.

وقد أفاد البائع من زيارته المزدوجة تلك، إلى الفتاة وابن عمّها، في ملاحظة المنزل في أدقّ تفاصيله. وبما أنّ من بين الملَكات التي تسكن جمجمة ميكو-ميكو الصلعاء، كانت ملكة تذكُّر الأمكنة والمواضع في أقصى درجات قوّتها، فقد استطاع أن يستوعب التّوزيع الهندسيّ لمسكن السيّد دو ماليدي.

كان للمسكن ثلاثة مداخل: أحدها، وسبق أن رأيناه، كان يفضي إلى جسر يقطع جدولَ حديقةِ «الرّفقة الطيّبة»؛ والثاني يفضي، من الجهة المقابلة، بفضل زقاقٍ مزروع بالأشجار، إلى «شارع الحكومة»؛ ثمّ المدخل الثالث، وهو مدخل جانبيّ ينفتح على «شارع الكوميديا».

وإذ نلجُ المنزلَ من المدخل الرّئيس، أي عبر الجسر الذي يقطع الجدولَ ويفضي إلى حديقة «الرّفقة الطيّبة»، نلفي أنفسنا أمام فناءٍ واسع مربّع الشّكل، مزروع بأشجار المانغا واللّيلك الصينيّ، بين الظّلال والأزهار التي نرى خلَلها المسكن الرّئيس الذي نلجه عبر باب مُوازٍ لمدخل الشّارع. وإذ نلج المنزل على هذا النّحو، نترك في المستوى الأوّل، على يميننا أكواخ السّود، وعلى يسارنا الحظائر، وفي المستوى الثاني، على يميننا، شقّة منفردة تظلّلها شجرة من فصيلة شجر «دم الأخوَين»[1]؛ وقبالة الشقّة مسكناً آخر مخصّصاً أيضاً للعبيد. وأخيراً، في المستوى الثالث، ثمّة إلى اليسار المدخل الجانبيّ الذي ينفتح على «شارع الكوميديا»، ويميناً ممرّ يفضي إلى سلّم صغير ويتّجه صوبَ الزّقاق المزروع بالأشجار مُشكّلاً سطيحة

(1) شجر ظليل، من الفصيلة النّخلية.

Twitter: @ketab_n

تفضي من جهتها إلى واجهة المسرح.

هكذا، إن نحن تبعنا الوصف الذي قدّمناه، لاحظنا أنّ الممرّ يفصل الشقّة عن باقي أجنحة المسكن. وبما أنّ تلك الشقّة كانت هي ملاذ سارة المفضّل، حيث تقضي أغلب وقتها، فليسمح لنا القارئ إذن بأن نضيف بعض الأشياء لما سبق أن قلناه في الفصول السّابقة.

كان لهذه الشقّة أربع واجهات، وإن كانت لا تُرى سوى من ثلاث واجهات. ذلك أنّ إحدى تلك الواجهات تطلّ على أكواخ الخدم السُّود. أمّا الثلاث الباقية فكانت إحداها تطلّ على الفناء المزروع بأشجار المانغا واللّيلك الصّينيّ وشجرة «دم الأخوين»، وتطلّ الثّانية على الممرّ المُفضي إلى السلّم الصّغير، بينما تطلّ الأخيرة على مَرْكم[1] خشبٍ، يكاد يكون مهجوراً، يطلّ بدوره على الجدول الذي يُتاخم إحدى واجهات منزل السيّد دو ماليدي الخارجيّة. وفي الجهة المقابلة، لصقَ الزقاق المزروع أشجاراً والمرتفع بستّة أقدام عن المرْكم، يوجد منزلان أو ثلاثة متزاحمة، أسقفها منحنية قليلاً، ممّا يشكّل معبراً مثالياً لكلّ من يرغب، لغرض من الأغراض، في أن يتجنّب الطريق التي يسلكها النّاس عادةً، ويلج مرْكم الخشب عبر الزّقاق، دون أن يلحظه أحد.

للشقّة المذكورة ثلاث نوافذ، وبابٌ يفضي، كما أسلفنا، إلى الفناء. وكانت إحدى تلك النوافذ تُفتح قريباً من الباب، بينما تنفتح الثانية على الممرّ، والثالثة على مرْكم الخشب.

وبينما كان ميكو-ميكو يسرد ما سبق، ابتسم جورج ثلاث مرّات، لكن كلّ مرّة بتعبير مختلف. اِبتسم أوّل مرّة حين أخبره رسوله بأنّ سارة احتفظت ببطاقته؛ وابتسم ثانيةً حين حدّثه عن زواج هنري بابنة عمّه؛

---

(1) مكان تجميع الخشب أو الحطب.

Twitter: @ketab_n

وثالثةً حين أخبره أنّ بوسع المرء التّسلل إلى الشقّة عبر نافذة المرْكم.

وضع جورج أمام ميكو-ميكو قلماً وورقة، وبينما يرسم التّاجر تصميماً للمنزل، توخّياً للمزيد من الأمان، أخذ جورج يراعاً وشرع في تدبيج رسالة.

فرغا من رسم تصميم المنزل وكتابة الرّسالة في الآن نفسه.

ثمّ قام جورج باحثاً في غرفته عن علبة مجوهرات صغيرة رائعة، علبة استحقّت أن تكون في ملْك مدام دو بامبادور[1]، ووضع بداخلها الرّسالة وأقفلها، ثمّ أعطى العلبة والمفتاح إلى ميكو-ميكو ثمّ أعطاه بعض التّعليمات؛ حصل ميكو-ميكو على عُملة رباعيّة أخرى نظيرَ خدمته الجديدة، ثمّ وضع ساق البامبو على كتفيه واتّخذ طريق المدينة محتذياً الخطوات نفسها التي قادته إلى موكا، بحيث كان يلزمه أربع ساعات ليصل عند سارة.

وإذ اختفى ميكو-ميكو عند طرف ممشى الأشجار الذي يفضي إلى المزرعة، دخل جاك ووالده من الباب الخلفيّ. وفوجئ جورج، الذي كان يستعدّ للّحاق بهما، من عودتهما المباغتة. كان جاك قد لاحظ في الأفق أمارات عاصفة تقترب، ورغم ثقته بنائبه رأس الحديد، كان يحبّ الكاليبسو حبّاً كبيراً يستحيل معه أن يتركها لتدبير شخص آخر في ظروف مماثلة. جاء جاك إذن يودّع أخاه؛ إذ كان قد لاحظ من علياء «جبل الإبهام» الذي تسلّقَه للتأكّد ممّا إذا كانت السّفينة لا تزال رابضة في مكانها، أقول لاحظ أنّ الكاليبسو تقاوم تيّاراتٍ على بعد فرسخين من الشّاطئ، فأرسل إلى نائبه الإشارات التي اتّفقا على تبادلها في حالة ما إذا

---

(1) هي جين دو أنتوانيت بواسون (1721—1764)، ارستقراطية فرنسية أثّرت بعمق في الحياة السياسية والثقافية الفرنسية، وكانت عشيقة للويس الخامس عشر.

Twitter: @ketab_n

أجبرته ظروف مماثلة على العودة إلى السّفينة. اُلتقِطت الإشارة، ولم يكن لدى جاك شكّ في أنّ المركب الذي أحضرَه سيكون مستعداً لنقله بعد ساعتين.

وحاول الأب وُسعَ جهده كي يثنيَ ابنه عن الرّحيل، بيد أنّ جاك أجابه بصوته الهادئ:

- الأمر غير ممكن يا أبي.

ومن نبرة الصّوت الهادئة الحازمة، أيقن الأب أنّ ابنه قد اتّخذ قراراً لا رجعه فيه، فلم يلحّ أكثر.

أمّا جورج، فقد كان يدرك جيّداً الدّاعيَ الذي يدفع أخاه إلى المغادرة، فلم يكلّف نفسه عناء ثنيه عن قراره. على أنّه قد أعلن بالمقابل أنّه وأباه سيرافقانه إلى ما بعد سلسلة جبال بيتربوت بحيث يستطيعان متابعته بعينيهما من جانبها الآخر، حتّى يركب القارب الذي سيحمله إلى الكاليبسو، وحين يصير في البحر سيشيّعانه حتّى يبلغ القاربُ البارجَةَ.

رحل جاك إذن بصحبة جورج ووالده، وعبر مسارب لا يعلمها إلّا الصّيادون، وصلوا ثلاثتهم إلى منبع «نهر اليقطين». وهناك ودّع جاك رفيقَي قلبه، وإن لم يرَهما إلّا قليلاً، واعداً بأن يعود لرؤيتهما قريباً.

وبعدَ ساعةٍ، كان جاك قد ركب القارب وانطلق، مدفوعاً بالعشق الذي يحمله البحّار لسفينته، نحوَ الكاليبسو لينقذها، أو يقضيَ معها.

وما إن صعد جاك على متن السّفينة، التي كانت لا تزال تقاوم التّيارات، حتّى بسطوا الأشرعة وانطلقوا مسرعين باتّجاه الشّمال.

وأثناء ذلك كان البحر والسّماء قد غدوا أكثر خطورة. فالبحر قد ارتفع على مرمى البصر وإن لم تكن تلك السّاعة ساعةَ مدّ. أمّا السّماء، فكأنّها أرادت أن تنافس البحرَ، فأخذت تكوّر أمواجَ سحبٍ تجري

Twitter: @ketab_n

بسرعةٍ وتتمزّق مفسحةً المجال أمام هبّاتِ ريح متغيّرة ما بين رياح شرقية-جنوبيّة-شرقيّة ورياح جنوبيّة-شرقيّة وأخرى جنوبيّة-جنوبيّة-شرقيّة. على أنّ تلك الأمارات ما كانت لتشير بالنّسبة لأيّ ملاح سوى بعاصفة عادية. وقد شهدت تلك السّنة العديد من الأعراض المشابهة، دون أن تتبعها أيّ كارثة. بيد أنّ جورج ووالده، حين عادا إلى منزلهما، أقرّا بمدى سداد نظرة جاك. لقد نزل زئبق البارومتر إلى إشارة ثمانية وعشرين بوصة.

ولهذه البواعث طلب بيار مونييه من القيّم على مزرعته فوراً قطع سيقان المنيهوت، كي ينقذ جذورها على الأقلّ، لأنّه في حال ما إذا لم يلجا إلى هذا الاحتياط ستقتلعها الرياح وتحملها معها.

أمّا جورج فقد أمر عليّاً بأن يسرج أنتريم كي يركبه في السّاعة الثّامنة.
اِرتعد بيار مونييه لدى سماعه ذاك الأمر، وسأل ابنه واجفاً:

- ولِمَ تسرج حصانك؟

أجابه جورج:

- ينبغي أن أذهب إلى المدينة في السّاعة الثامنة يا أبي.

صاح الشّيخ:

- لكنّ هذا مستحيل!

قال جورج:

- عليَّ أن أفعل ذلك يا أبي.

وأدرك الشّيخ في نبرة جورج، مثلما كان قد أدرك في نبرة أخيه، إصراراً لا ينثني، فخفض رأسه وتنهّد دون أن يلحّ أكثر.

وأثناء ذلك كان ميكو-ميكو يتمّ مهمّته. فما إن بلغ بور لويس حتّى توجّه إلى منزل السيّد دو ماليدي، وفتحت طلبيّة هنري البابَ أمامَه.

Twitter: @ketab_n

وحضر هذه المرّة بثقة أكبر، لا سيّما وأنّه كان قد لمح أثناء مروره بالمرفأ هنري ووالدَه يتابعان البوارج الرّاسية والتي كانَ قباطنتها يضاعفون مراسيها تحسّباً لقوّة العاصفة. دخل البائع إذن إلى بيت دو ماليدي، غير متوجّس من أن يشوّش عليه أحدٌ مهمّته؛ وقاده الخادم جوهرة، الذي كانَ قد شهد مفاوضاته صباحاً مع سيّده ومع تلك التي يعتبرها سيّدته القادمة، أقول قاده مباشرةً إلى سارة التي كانت على عادتها في شقّتها.

وكما قدّر جورج، كانَ أوّل ما أثار فضول الفتاة الكريوليّة، من بين كلّ الأشياء التي حملها لها التّاجر، هو العلبة. قلبّتها سارة بين يديها من جميع نواحيها، وبعدما أُعجبت بخارجها، أرادت تفحّصها من الدّاخل، فطلبت المفتاح من البائع كي تستطيع فتحها. تظاهر ميكو-ميكو بالبحث عن مفتاحه في كلّ المواضع، لكنّ بحثه ذهب سدىً. أشار لها بأنّ المفتاح ليسَ معه، وبأنّه قد نسيَه بلا ريب في المنزل، وأنّه سيذهب ليحضره، ثمّ خرجَ تاركاً العلبة بين يدَي الفتاة وواعداً بالعودة حاملاً المفتاح.

بعد عشر دقائق، وفيما الفتاة تقلّب العلبة السّحريّة بفضول طفوليّ، دخلَ جوهرة وأعطاها المفتاح الذي اكتفى ميكو-ميكو بإرساله مع أحد الزّنوج.

وما كانت سارة تعبأ بالطّريقة التي وصلها بها المفتاح؛ أخذته إذن من يد جوهرة الذي انصرف لإقفال كلّ مصاريع المنزل التي تتهدّدها العاصفة. وإذ ألْفت نفسها وحيدة، عجّلت بفتح العلبة.

وكما نعلم لم يكن بالعلبة سوى ورقة واحدة، ليست حتّى موضوعة في مظروف، وإنّما فقط مطويّة إلى أربع.

كان جورج قد حسب حساب كلّ شيء. على سارة أن تكون بمفردها ساعة العثور على الرّسالة؛ وكان ينبغي أن تكون الرّسالة مفتوحة، حتّى

Twitter: @ketab_n

لا تعيدها سارة قائلة إنّها لم تقرأها.

ثمّ إنّ سارة حين ألْفت نفسها وحيدةً، تردّدت لحظة؛ لكنّها إذ كانت تعلم مُرسِل الورقة، وإذ كان يجذبها الفضول والحبّ، وكلّ تلك المشاعر الألف التي تغلي في قلوب الفتيات، لم تستطع أن تقاوم الرّغبة في قراءة ما أرسل لها جورج. أخذت الورقة إذن، وقد أخذ منها الانفعال والحمرة أيّما مأخذ، وفردتْها، ثمّ قرأت ما يلي:

« سارة،

لستُ محتاجاً إلى أن أقول لك إنّي أحبّك. فأنت تعلمين ذلك. لقد كانت أمنية حياتي كلّها أن التقي صاحبةً مثلك. بيد أنّه ثمّة في الحياة تلك المواقف المميّزة وتلك اللّحظات الأسمى، حيث تسقط مواضعات المجتمع أمام الحاجة الرّهيبة.

- هل تحبّينني يا سارة؟

ضعي في كفّة ميزان ما يمكن أن تكونه حياتُك مع السيّد دو ماليدي، وفي كفّة أخرى ما ستكونه حياتك معي.

معه ستحظين بتقدير الجميع.

معي سينالك عارُ حكم مسبق.

غير أنّي أحبّك، أكرّرهاً لك، أحبّك أكثر ممّا أحبَّكِ أيّ شخص أخر.

أعلم أنّ الشابّ دو ماليدي يتوق للّيوم الذي سيصير فيه زوجَك؛ لذا ليس لديّ وقت أضيعه؛ أنت حرّة يا سارة: ضعي يدك على قلبك واختاري بيني وبين السيّد هنري دو ماليدي.

سيكون ردّك مقدّساً ومُلزماً بالنّسبة لي، بقدر أمرِ من أوامر أمّي. هذا المساء، في السّاعة العاشرة سأكون عندك في شقّتك كي أعرف الرّدّ.

جورج».

Twitter: @ketab_n

اِلتفت سارة حول نفسها مرعوبة. كانت تحسب أنّها سترى جورج عند التفاتها.

وفي تلك اللّحظة فُتح الباب، وبدلاً من أن يدخل جورج دخل هنري، فأخفت الرّسالة في صدرها.

كان هنري، كما رأينا، يثير لدى ابنة عمّه ما يكفي من المشاعر السيّئة؛ وما كانَ هذه المرّة أكثر حظّاً من ذي قبل. فما كان الوقت مناسباً للظهور أمام سارة في الوقت الذي كانت فيه منشغلة بسواه.

قال هنري:

- اِعذريني عزيزتي سارة، لأنّي دخلت عليك دون أن استأذن، لكنّ ما يجمع بيننا، والوضع الذي يحكم علاقة شخصين سيصيران زوجين بعد خمسة عشر يوماً، يسمحان لي بأشياء من هذا القبيل. ثمّ إنّي قد أتيت أنبّهك إلى أنّه في حال ما إذا كانت لديك في الخارج زهور تحبّينها، فعليك التّعجيل بإدخالها.

سألته سارة:

- ولَمَ؟

- ألا ترين أنّ ثمّة عاصفةً تتهيّأ في الأفق، وأنّ الأجدر للزّهور كما للنّاس أن يكونوا في هذه الأثناء بالدّاخل عوض الخارج.

صاحت سارة وهي تفكّر في جورج:

- يا إلهي! ثمّة خطر إذن؟

أجابها هنري:

- لا، ليس بالنّسبة إلينا، نحن الذين نمتلك منزلاً متيناً؛ أمّا بالنّسبة لأولئك الأشقياء المساكين ممّن يسكنون الأكواخ، أو ممّن يضربون الأرض، فأقرّ بأنّي لا أودّ أن أكون مكانهم.

Twitter: @ketab_n

- أتعتقد ذلك يا هنري؟
- بحقّ السّماء! وكيف لا! اِنتبهي، ألا تسمعين؟
- ماذا؟
- أشجار الكازوارينا[1] في حديقة «الرّفقة الطيّبة».
- أجل، أجل، إنّها تتأوّه، هي إشارة العاصفة، أليس كذلك؟
- وانظري إلى السّماء كيف يغشاها الغيم. أكرّر لك، إن كانت لديك أزهار تودّين إدخالها، فليس لديك وقت تضيعينه؛ سأذهب أنا لتقييد الكلاب.

وخرج هنري لإيواء قطيع كلابه من العاصفة.

والحقّ أنّ اللّيلَ هبط قبل وقته المعتاد، إذ تغطّت السّماء بغيوم سوداء كبيرة؛ ومن حين إلى آخر كانت تهبّ رياح قويّة، فيهتزّ المنزل ثمّ ما يلبث أن يستعيد كلّ شيء هدوءَه. لكنّه كانَ هدوءاً ثقيلاً، هدوءاً يبدو كأنّه احتضارُ الطّبيعة اللاّهثة. نظرت سارة إلى الفناء، ورأت أشجار المانغا ترتعد، كأنّما أوتيت الإحساس واستشعرت الصّراع الذي يكاد ينشب بين الرّيح والأرض والسّماء، بينما أشجار اللّيلك الصّينيّ تخفض ورودَها حزينةً نحو الأرض. شعرت الفتاة، لمرأى ذلك، برعب كبيرٍ، فضمّت يديها هامسةً:

- إلهي، اِحمِه يا إلهي!

وفي تلك اللّحظة سمعت الفتاة صوت عمّها ينادي. ففتحت الباب.

قال السيّد دو ماليدي:

---

(1) شجرة إبريّة منتشرة في أستراليا وإندونوسيا وماليزيا وجزر المحيط الهادئ وجزر الأنتيل، سمّاها المؤلّف باسمها المحليّ: filaos، وعرّفها في حاشية بأنّها «من أشجار المستعمرات، وتعوّض أشجار السّرو التي يزرعها الفرنسيّون فوق الأضرحة». وهي معروفة أكثر باسمها اللاتينيّ «كازوارينا».

Twitter: @ketab_n

- سارة، تعالي هنا يا ابنتي، لن تكوني بمأمنٍ في الشقّة.

قالت الفتاة:

- ها أنا ذي يا عمّي.

ثمّ خرجت مُقفلةً الباب خلفها وساحبةً المفتاحَ حتّى لا يدخل إلى الشقّة أحدٌ في غيبتها.

لكنّها بدلاً من أن تنضمّ إلى هنري ووالده، دخلت إلى غرفتها. وبعد لحظة أتى السيّد دو مالميدي يستطلع ما تفعله. كانت راكعة أمام المسيح المعلّق عند طرف سريرها.

قال لها:

- ما الذي تفعلينه هنا، بدلاً من أن تأتي لشرب الشّاي معنا؟

أجابت سارة:

- أصلّي للمسافرين يا عمّي.

- آه! بحقّ السّماء! إنّي على يقين من أنّه ليس ثمّة في الجزيرة كلّها من يبلغ به الجنون حدّ أن يجرأ على السّير في هذا الجوّ.

قالت سارة:

- ليسمع منك الرّب يا عمّي!

وتابعت صلاتها.

وبالفعل، لم يعد ثمّة شكّ في الأمر، لقد تحقّق ما تنبّأت به عين البحّار جاك: كانت تتهدّد جزيرة موريس واحدةٌ من تلك الزّوابع التي تبثّ الرّعب في المستعمرات. لقد هبط اللّيل، كما أسلفنا، بسرعة مذهلة؛ بيد أنّ البروق تتالت وبشدّة كبيرة، حتّى أنّ العتمة انقلبت إلى نهارٍ مُزرَقّ شاحب، نهارٍ يصبغ الأشياء بصبغة جثثيّة فتصير أشبه ما تكون بعوالم

Twitter: @ketab_n

بايرون الفانية التي زارها قابيل وكانَ الشّيطان دليله فيها[1]. وعند كلّ واحدةٍ من تلك الفُسَح القصيرة التي يسمح فيها البرقُ، الذي لا يكاد يتوقّف، أقول يسمح للعتمة بأن تبسط سطوَتها على الأرض، كان يملأ الأفاقَ هديرُ الرّعد الصّاخب الذي ينشأ خلف الجبال، ويبدو كأنّما يتدحرج على سفوحها، ويرتفع فوق المدينة ثمّ يضيع في أعماق الأفق. ثمّ، وكما أسلفنا، تنطلق عقِبَ العاصفةِ المسافرةِ دفقاتُ رياحٍ قويّة، ما تلبث أن تمرّ بدورها، وأثناء مرورِها تنحني أمامها أعتى الأشجارِ كأنّها عيدانٌ، ثمّ تنهض ببطءٍ ملأى توجّساً، وتنحنيَ مجدّداً، وتشكو وتئِنّ تحت وطأة عصْفة أقوى من سابقتها.

وفي قلب الجزيرة تحديداً، أي في حيّ موكا وسهول وليامز، حيث كانت العاصفة حرّة وجذلى بحريّتها، قلنا هناك تحديداً كان بالإمكان تأمّل روعة العاصفة. وكان رعب بيار مونييه مضاعفاً، وهو الذي شهد رحيل جاك واستعداد جورج للخروج، بيد أنّ ضعفه الدّائم أمام أيّ قوّة ذهنيّة، جعله يرضخ، ورغم ارتجافه عند كلّ عصفة ريحٍ، وشحوبه عند كلّ هدير رعد، وارتعاده عند كلّ برقٍ، لم يجرؤ على أن يثنيَ جورج عن الذهاب. أمّا بالنّسبة للشابّ، فيمكن القول إنّه كانَ يكبرُ مع كلّ دقيقة تدنيه من الخطر؛ وبخلاف والده، كان يرفع رأسه مع كلّ صوتٍ وعيدٍ، ويبتسم لكلّ برقٍ؛ لقد قارع الشابّ حتّى ذلك الحين كلّ أشكال الصّراع مع بني البشر، وبالإمكان القول إنّه، مثل دون جوان، كان يتلهّف لمجابهة الرّب.

وعليه، فما إن حانت ساعة الرّحيل حتّى اقترب جورج، بالعناد الذي يميّز طبعه، ذاك العناد الذي لم يتلقّه من الآخرين وإنّما تعلّمه بنفسه، أقول

(1) إشارة إلى مؤلّف «قابيل» أو «قايين» الذي أصدره بايرون سنة 1822.

Twitter: @ketab_n

اقترب من والده ومدّ إليه يده. ودون أن يبدوَ عليه أنّه يدرك ارتجاف الشّيخ، غادرَ بخطواتٍ حازمةٍ ووجهٍ هادئ، مثلما يغادر في ظروف الحياة الاعتيادية. وعند الباب ألفى عليّاً واقفاً بحيادية الانصياعِ الشّرقيّ، ممسكاً بلجام أنتريم المُسرَج. وكأنّما تعرّف ابن الصّحراء على ريح السّموم وريح الخمّاسين فجفل وصهل؛ لكن ما إن سمع صوت فارسه حتّى هدأ ونظر نحوه بعينه الجافلة ومنخريه النّاريّين. داعبه جورج لحظات بيده وهو يوشوش له كلماتٍ عربيّة؛ وبخفّة مروّض جياد محنّك قفز إلى السّرج دون أن يستعين بالرِّكاب؛ وفي الآن نفسه أرخى عليٌّ العقال فانطلق أنتريم بسرعة البرق، حتّى أنّ جورج لم يتمكّن من النّظر إلى أبيه، الذي فتح الباب حتّى ييسّر فراق ابنه، وشيّعه بعينيه إلى أن غاب عند طرف الطريق المؤدّية إلى المزرعة.

وعدا ذلك، كانَ رائعاً منظرُ الرّجل الذّي ينخرط في ركض سريعٍ سرعةَ العاصفة التي يمرّ عبرها، ويخترق الفضاء مثل فاوست حين عرّج على بروكين أثناء رحلته الجهنّميّة. وحوله ما كان ثمّة سوى الفوضى والضّجيج. وما كانَ يُسمَع سوى انكسار الأشجار التي تضربها أجنحة الرّيح، وتطايُر قصب السكّر ونباتِ المنيهوت في الهواء كأنّها ريش تطيّره الرّيح. وبعض الطّيور التي قُضّ مضجعها طارت على غير هدىً، وكانت تمرّ قرب جورج أثناء طيرانها مطلقةً صيحات حادّة، بينما كانت بعض الأيائل التي جفلت تعبر الطّريق بسرعة السّهم. بينما كان جورج سعيداً لأنّه كان يحسّ بقلبه مفعماً بالكبرياء؛ وحده كان هادئاً وسط الخراب الكونيّ، وبينما كان كلّ شيء حوله ينحني وينكسر، كان هو يكمل طريقه نحو الهدف الذي حدّدته إرادته، دون أن يستطيع شيء تحريفه عن طريقه، أو ثنيَه عن هدفه.

Twitter: @ketab_n

سار ما يقرب السّاعة على ذلك النّحو، مخترقاً جذوع الأشجار المكسورة، والجداول التي صارت تيّارات جارفة، والصخور التي اقتُلعت وتدحرجت من أعلى الجبال؛ ثمّ لمحَ البحر هائجاً مخضرّاً مزبداً وهادراً تماماً، يضرب الشّواطئ بصخب عنيف، كأنّما يد الرّب ما عادت هناك لتحتويه. وصل جورج عند سفح «جبل الإشارات»، ودار حول قاعدته، محمولاً بسرعة حصانه المدهشة، ثمّ عبر «جسر البورجوازيّ»، وانعطف يمينَ شارع «ساحل الذهب»، وتفادى جدران الحيّ من الخلف، وإذ عبر المتراس، نزل عبر «شارع المنحدر» إلى حديقة «الرّفقة الطيّبة». ومن هناك، صاعداً المدينةَ الخالية وسط ركام المداخن المحطّمة والأسوار المنهارة والقرميد المتطاير، تابع طريقه عبر «شارع الكوميديا»، وانعطف بغتةً إلى اليمين، ليسلك «شارع الحكومة»، واندفع مخترقاً الحاجزَ الموجود قبالة المسرح، ثمّ قفز من على حصانه، وفتح العارضة التي تفصل الحاجز عن الزّقاق المزروع بالأشجار الذي يشرف على منزل السيّد دو ماليدي. أقفل العارضة خلفه، ثمّ ألقى اللّجام على رقبة أنتريم، الذي ما عاد أمامه منفذ يمكن أن يهرب منه؛ انزلق بعد ذلك فوق سطوح المنازل المتلاصقة، وقفز منها إلى الأرض، فألفى نفسه وسط مرْكم الخشب الذي تنفتح عليه نوافذ الشقّة التي وصفناها.

وأثناء ذلك، كانت سارة في غرفتها تسمع زمجرة الرّيح، وترسم علامة الصّليب عند كلّ برق، وتصلّي دون انقطاع طالبةً العاصفة، إذ كانت تحسب أنّ العاصفة ستثني جورج. ثمّ ما تلبث أن تنتفض، وهي تخاطب نفسها بصوت خفيض قائلةً إنّ رجلاً مثله إن قال إنّه فاعلٌ شيئاً، فسيفعله حتّى لو انهار العالم على رأسه. فتدعو الله آنذاك أن يهدّئ الرّيح ويُخمد البروق: كانت تتخيّل جورج منسحقاً تحت شجرة أو محطّماً

Twitter: @ketab_n

بصخرة متدحرجة أو منجرفاً مع سيلٍ، فتدرك السّرعةَ التي تمكّن بها منها منقذُها؛ وكانت تحسّ أنْ لا فائدة ترجى من معاندة ذاك الانجذاب، وأنّ من العبثِ الصّراعُ ضدّ الحبّ الذي وُلدَ أمس فقط وتمكّن من أن يصير بهذه القوّة، حتّى أنّ قلبها لا يستطيع سوى الاستسلام والتّأوّه مقرّاً بهزيمته دون حتّى أن يحاول المقاومة.

وبقدر ما كان الوقت يمرّ، كان انفعال سارة يزداد حدّة. كانت عيناها مثبتتان على البندول تتابعان حركة العقارب، وصوت يهمس داخل قلبها مع كلّ دقيقة تمرّ: إنّ جورج يقترب منها. أشارت عقارب البندول إلى السّاعة التّاسعة ثمّ إلى التّاسعة والنّصف فالعاشرة إلّا ربعاً، وبدلاً من أن تهدأ العاصفة لم تكن تزداد إلّا ضراوة. كان المنزل يهتزّ بكلّ عمَده، وبدا كأنّما سيُقتَلَع من أسُسه. ومن حين إلى آخر، وسط شكوى أشجار الكازوارينا، وصرخات الزّنوج الذين كانت أكواخهم الأقلّ متانة من منازل البيض تتحطّم تحت أنفاس العاصفة، مثلما يتحطّم تحت أنفاس الطّفل قصرُ الأوراق الذي صنّعه بنفسه؛ وسط ذلك كلّه كانت تُسمَع من حين إلى آخر نداءات النّجدة اليائسة التي تطلقها، ردّاً على هدير الرّعد، بعض السّفائن المنكوبة وهي واثقةٌ من أنّه لا كائن بشريّ يستطيع الردّ على ندائها.

وبين كلّ تلك الأصوات المختلفة، وأصداء الدّمار، خيّل إلى سارة أنّها سمعت صهيل حصان.

فقامت فجأةً؛ وكانت قد اتّخذت قرارها. إنّ رجلاً يخرج في هذا الوقت الذي يختفي فيه أشجع الشّجعان مرتعدين في بيوتهم، ويعرّض نفسه لتلك الأخطار، قاطعاً الغابات المقتلعة والتيّارات الجارفة والهُوَى الهائلة، كي يقول لها: «إنّي أحبّك يا سارة! هل تحبّينني؟». إنّ رجلاً يفعل

Twitter: @ketab_n

ذلك، هو رجلٌ جدير بحبّها.

وإن فعل جورج ذلك، جورج الذي أنقذ حياتها، فإنّها ستكون له مثلما هو لها. لم يعد الأمر يتعلّق بقرار تتّخذه برضاها، وإنّما كانت يدٌ إلهية تدفعها إلى الرّضوخ دون اعتراض إلى القدَر الذي سُطِّر مسبقاً: ما عادت تقرّر مصيرها بنفسها، وإنّما تخضع دون مقاومةٍ للقدر.

وإذّاك، متّخذةً القرارَ الذي يصدر عن اللّحظات المهيبة، خرجت من غرفتها، وبلغت أقصى الرّواق، ونزلت من السلّم الصّغير الذي سبق أن وصفناه، وبدا السلّم كأنّما يمور تحت قدميها، وألفت نفسها عند زاوية الفناء المربّع؛ تقدّمت مصطدمةً بحطام الأشياء عند كلّ خطوة، مستندة إلى جدار الشقّة حتّى لا تطيّرها الرّيح، وبلغت الباب. وفي اللّحظة التي وضعت فيها يدها على المفتاح لمع برقٌ، فاستطاعت أن ترى أشجار المانغا ملويّةً، واللّيلك وقد غدا أشعثَ، والزّهور محطّمةً؛ وإذّاك فقط استطاعت أن تدرك سَوْرة الغضب التي تملّكت الطّبيعة؛ ففكّرت في أنّها ستنتظر جورج، لكنّ جورج لن يأتي، لا لأنّ جورج خافَ، ولكن لأنّ جورج مات. وأمام تلك الفكرة اختفى كلّ شيء، ودخلت سارة إلى الشقّة بخطىً حثيثة.

قال صوت جعلها تنتفض حتّى أعماق قلبها:

- شكراً يا سارة! شكراً! أوه! لم أخطئ التّقدير: أنت تحبّينني يا سارة. ليباركك الرّب مائة مرّة!

وفي الوقت نفسه أحسّت سارة بيدٍ تمسك بيدها، وبقلبٍ يخفق لصق قلبها، وأنفاسٍ تقترب من أنفاسها. فسرى في جسدها كلّه إحساس غريب، إحساس سريعٌ ومضنٍ: لاهثةً ضائعةً، منحنيةً على نفسها مثلما تنحني الزّهرة على ساقها، تهاوت على كتف جورج. كانت قد استهلكت

Twitter: @ketab_n

كلّ طاقة روحها في الصّراع الذي دام ساعتين، وما عادت تملك سوى ما يكفي لكي تهمس:

- جورج! يا جورج! أشفق عليّ!

فهم جورج نداءَ الضعف ذاك يلوذ بالقوّة، نداء عفّة الفتاة تستنجد بولاء الحبيب. ربّما كان قد قدمَ لغرض آخر، لكنّه أحسّ أنّ سارة صارت له منذ تلك اللّحظة، وأنّ كلّ ما كان بوسعه أن يأخذه من الفتاة العذراء سيشكّل إنقاصاً للزّوجة؛ لذلك، وإن كان هو نفسه يرتجف حبّاً ورغبة وفرحاً، قنعَ بأنْ أخذ الفتاة قرب النّافذة ليتأمّلها في ضوء البروق، ومال برأسه على رأس الكريوليّة الشابّة قائلاً:

- أنت لي يا سارة، أليس كذلك؟ أنت لي مدى الحياة!

أجابت الفتاة:

- أوه! أجل، أجل! مدى الحياة!

- لا شيء سيفرّقنا، لا شيء سوى الموت؟

- لا شيء سوى الموت!

- أتقسمين على ذلك يا سارة؟

- بحقّ أمّي، يا جورج!

قال الشابّ منتفضاً من السّعادة والفخر:

- حسناً! من اللّحظة أنت زوجتي، والويل لمن يجرأ على منازعتي إيّاك!

وإذ قال جورج ذلك، وضع شفتيه على شفتَي الفتاة، وخوفاً من ألّا يستطيع كبح نفسه أمام ذاك القدْر من الحبّ والصّبا والجمال، قفز إلى الصالة المجاورة، التي كانت نافذتها أيضاً مفتوحة على مرْكم الخشب، واختفى.

Twitter: @ketab_n

وفي تلك اللّحظة ضرب رعدٌ شديد القوّة، لدرجة أنّ سارة سقطت على ركبتيها. وبعدَ قليلٍ فُتح باب الشقّة، ودخل السّيد دو مالميدي وابنه هنري.

Twitter: @ketab_n

الفصل السّادس عشر

طلب الزّواج

توقّفت العاصفة أثناء اللّيل؛ لكنّ الخسائر التي سبّبتها لم يُمكن معاينتها إلّا صباح اليوم التّالي.

لقد لحقت البوارج الرّاسية على المرفأ أضرارٌ فادحة؛ فالكثير منها أُلقيَ بعضه على بعض، فانكسرت جميعاً: أغلبها مُسحت معالمها وصارت مثل الطوّافات، واثنتان أو ثلاث جرّت مراسيَها حتّى «جزيرة صنّاع البراميل»، وأخيراً، كان ثمّة سفينة غرقت في المرفأ بطاقمها وعتادها، دون أن يستطيع أحد إغاثتها.

وما كانت الخسائرُ على البرّ أقلَّ. فقط بعض منازل بور لويس استطاعت أن تظلّ بمعزل عن الطوفان الرّهيب. لقد تطايرت كلّ الأسطح المصنوعة من الخشب أو القرميد أو النّحاس أو التنك. وحدها المنازل التي تحدّها «الأرغماسات»، أي السّطوح الهنديّة، استطاعت أن تنجو بأكملها. وفي الصّباح كانت الطرقات مليئة بالحطام، وبعض البنايات لم تظلّ قائمة إلّا بفضل العديد من الدّعامات. وانقلبت كلّ المنصّات التي أقيمت في مضمار مارس استعداداً للسّباق. ووُجدَ مدفعان كبيران من مدافع سريّة المدفعيّة جوارَ النهر الكبير، وقد قلبت الرّيح وجهتهما إلى المنحى المعاكس لذاك الذي تُركا عليه في اليوم السّابق.

وما كان منظر وسط الجزيرة أقلّ مدعاةً للأسف. فكلّ ما تبقى من الغلّة، ولحسن الحظّ أن الغلّة كانت قد قُطفت، انتُزع من جذوره: وفي

Twitter: @ketab_n

الغابة هكتاراتٌ بأكملها كانت تبدو مثل الزّرع الذي أصابه وابلٌ من المطر. لم تكد تصمد أيّ شجرة منعزلة أمام العاصفة، لا بل إنّ حتّى أشجار التّمر الهنديّ المعروفة بتجذّرها القويّ اقتُلعت، وهو أمر كان يعدّ في الجزيرة حتّى ذاك الوقت من المستحيلات.

وعانى منزل السّيد دو ماليدي، وهو أحد أعلى المنازل في بور لويس، ما عاناه. حتّى إنّه في لحظة من اللّحظات اشتدّت الهزّات، فقرّر السيّد دو ماليدي وابنه أن يحتميا بالشقّة المبنيّة بالطّوب والتي لا ترتفع سوى بطابق واحد وتحميها السّطيحة، ممّا يجعلها بالضّرورة أقلّ عرضة للرّياح. ركض هنري إذن صوب ابنة عمّه، لكنّه ألفى غرفتها فارغة، فخالَ أنّها فكّرت في ما فكّر فيه هو وأبوه، وقصدت الشقّة المنفردة للاحتماء بها. فنزلا إلى الشقّة، وبالفعل وجداها هناك. كان حضورها مبرّراً وما كانت تحتاج إلى الاعتذار عن رعبها. فلم يَرتب لا الأب ولا الابن من الدّواعي التي جعلت سارة تغادر غرفتها، وعَزَوا الأمر إلى دافع الخوف الذي لم يسلما منه هما أيضاً.

قلنا إنّ العاصفة هدأت حين شارف اللّيل على الانقضاء، ومع أنّ أيّاً من السكّان لم يغمض عينيه ليلاً، إلّا أنّ الجرأة لم تواتهم على الرّاحة، وانصرف كلّ منهم إلى معاينة نصيبه من الأضرار. وجاب الحاكم الجديد شوارع المدينة، منذ الصّباح، واضعاً في خدمتها جهود الحامية العسكرية. فكان أن اختفى جزء من أضرار العاصفة مع حلول المساء.

ثمّ ينبغي الإقرار بأنّ الجميع بذلوا ما في وسعهم كي تستعيد بور لويس المظهر الذي كانت تملكه بالأمس. كان مهرجان اليامسَيه على الأبواب، وهو أحد أهمّ الاحتفالات الرّسمية على جزيرة موريس. ونظراً لأنّ المهرجان، الذي لم يسمع أحد في أوروبا باسمه على الأرجح،

Twitter: @ketab_n

يرتبط ارتباطاً حميماً بأحداث قصّتنا، فليسمح لنا القارئ بأن نقول بعض العبارات التقديميّة التي لا نجد مندوحةً عنها.

نعلمُ أنّ الأمّة المحمّدية منقسمة إلى فريقين، ليس فقط مختلفين وإنّما متنازعَين، نقصد السّنةِ والشّيعة. أحد الفريقَين يرى أنّ الأحقّ بخلافة محمد هم أبو بكر وعمر وعثمان؛ بينما يرى الفريق الثّاني أنّ الخلفاء الثلاثة غاصبو حكم، وأنّ عليّاً، سند النبيّ وأحد آله، هو الأحقّ بخلافة النبيّ سياسيّاً ودينيّاً. وفي خضمّ الحروب الطّويلة التي جمعت أنصار الفريقين قُتل الحسين بن عليّ وستّون من شيعته ونُكّل بهم قرب مدينة كربلاء، بعد مقاومة بطوليّة. وذكرى تلك الواقعة هي ما يخلّده كلّ سنَة، في احتفالات مهيبة، الهنود المسلمون في الجزيرة. تسمّى تلك الاحتفالات باليامسَيه، تحريفاً للنّداءات التي تطلقها الكوارس الفارسيّة، نداءات: «يا حُسين! يا حُسين!». وقد غيّر الهنود تسمية الذكرى، مثلما غيّروا الاحتفال نفسه، مضيفين إليه عناصر من ثقافة بلدهم وأديانهم القديمة.

كان يوم الاثنين التّالي إذن، يومَ اكتمال القمر، هو اليوم الذي من المفترض أن يقيم فيه الشّيعة الهنود، بحسب عاداتهم، احتفالات اليامسَيه؛ ويقدّموا لسكان الجزيرة العرض الفريد الذي كانوا ينتظرونه في تلك السّنة بفضول يفوق أيّ سنة مضت.

فالواقع أنّ ثمّة ملابسات من المفترض أن تجعل الاحتفالات أروع من أيّ وقت مضى. فاللّاسكاريّون[1] منقسمون إلى فئتين، لاسكاريّو البحر، ولاسكاريّو البرّ. يمكن تمييز الفئة الأولى بملابسها الخضراء، وتمييز الفئة الثانية بملابسها البيضاء. وفي العادة، تحتفل كلّ فئة من الفئتين على حدة،

(1) اللّاسكاريّون أو اللّاسكار: يطلق دوما الاسم هنا على طائفة شيعة الجزر الهنديّة، وكان الاسم يُطلق بالأصل علي عامّة البحّارة الهنود المسلمين العاملين في السفن الفرنسيّة لما وراء البحار. ولعل اسمهم مشتقّ من «العسكر» أو كلمة قريبة من ذلك.

Twitter: @ketab_n

محاولةَ التألّق قدر استطاعتها حتّى تبرز تفوّقها على الفئة الأخرى: فيصير الأمر إلى منافسة تتحوّل إلى شنآن، ثمّ ما يلبث الشنآن أن ينقلب إلى شجار. وغالباً ما يتصدّى لاسكاريّو البحر، وهم أقلّ غنىً وأكثر شجاعةً، لتفوّق لاسكاريّي البرّ بالعصيّ وحتّى بالسّيوف، فتضطرّ الشرطة إلى التدخّل حتّى لا ينقلب الأمر إلى قتال دمويّ.

لكنّ تلك السّنة كانت تعد بشيء مختلف، إذ بفضل تاجر غنيّ لا يخلو من وازع دينيّ، تآلف الفريقان، وقرّرا إقامة احتفالات مشتركة. فسرى الخبرُ مُشيعاً أنّ العرض في تلك السّنة سيكون أكثر سلمية وتألّقاً من أيّ عرض مضى.

وندرك أنّ بقعةً جغرافيةً صغيرة مثل جزيرة موريس، بقعةً لا تمنح الكثير من أسباب التّسلية، من الطّبيعيّ أن يتوق سكّانها إلى مثل هذه المناسبات، وإن كانوا متعوّدين على حضورها منذ طفولتهم.

لذلك، شرع الجميع في الحديث عن الاحتفالات ثلاثة أشهر قبل موعدها، ولم يكن ثمّة من موضوع للحديث غير «الغون»، الذي يفترض أنّه زينة الحفل الرئيسة. والآن، وقد بسطنا القول في الاحتفال، لننتقل إلى توضيح ما نقصده بـ «الغون».

إنّ «الغون» ضربٌ من الباغودا[1] مصنوعٌ من قصب البامبو، يكون عادةً بارتفاع ثلاثة طوابق موضوعة الواحد فوق الآخر من الأكبر إلى الأصغر، ومغطّاة بأوراق من كلّ لون: يُصنَع كلّ طابق من تلك الطّوابق على حدة داخل كوخ خاصّ، كوخ يُحطَّم من جوانبه الأربعة كي يسمح للطّابق بالخروج؛ ثمّ تُنقَل الطوابق مجتمعة في كوخ رابع يسمح ارتفاعه بحملها واحداً فوق الآخر. وإذّاك تُشَدّ إلى بعضها البعض بواسطة أربطة،

---

(1) الباغودا: المعبد البوذيّ.

Twitter: @ketab_n

ويتمّ الاعتناء بالتّفاصيل الأخيرة؛ وحتّى يبلغوا النّتائج اللاّئقة بالشيء الذي يعرضونه، يجوب اللاسكاريّون قبل موعد الاحتفال بأربعة أشهر كلّ المستعمرة طلباً لأمهر الصنّاع؛ فيتوسّلون بالهنود والصّينيّين والسّود الأحرار والسّود العبيد، على أنّهم لا يؤدّون للسّود العبيد أجرهم، وإنّما يؤدّونه إلى أسيادهم.

وفي خضمّ الخسائر التي مُنيَ بها كلّ فرد، سُرّ الجميع لدى معرفتهم بأنّ «الغون»، الذي كان إعداده قد تمّ وبلغ مرحلة الكمال، قد سلم من العاصفة في مخبئه بفجّ «جبل الإبهام». لم يكن ينقص حفلة تلك السّنة إذن شيء، لا بل إنّ الحاكم، لكرمه، أضاف إلى الاحتفالات سباقاً سيتكلّف هو بجوائزه، شرطَ أن يركض أصحاب الخيول أنفسهم على ظهر خيولهم، تماماً كما هي عادة فرسان إنجلترا النّبلاء.

وكما نلاحظ، كان الجميع يتكاتفون لجعل المتعة الموعودة تمحو الأضرار التي خلّفتها العاصفة في النّفوس. وعليه، ففي اليوم التّالي للعاصفة كانت الاستعدادات للحفلة قد خلَفت انشغال السكّان بأضرار الكارثة.

وحدها سارة، وقد استغرقتها أمور يجهلها المحيطون بها، كانت تبدو، على غير عادتها، غير مشغولة بالاحتفالات التي طالما أثارت في السنّوات السّابقة غنجها الطّفوليّ. ففي الواقع، دأبت الطّبقة الأرستقراطية في الجزيرة جميعها على متابعة اليامسَيه والسّباقات، سواءً من منصّات مرتفعة، أو من هوادج مكشوفة: وفي الحالتين معاً، يكون الأمر مناسبة لكريوليّات بور لويس الشابّات كي يبدين أناقتهنّ الباذخة. فأخذ العَجبُ مَن شهدوا لامبالاة سارة، وهي التي كان يكفيها حفل راقص أو عرض كيفما كان، كي يأخذ بها التأثّر أيّما مأخذ. حتّى مامي هنرييت

Twitter: @ketab_n

التي ربّت الفتاة وصارت تستطيع استكناه أعماق روحها كأنّها تنظر عبر زجاج شفّاف، لم تفهم شيئاً ممّا جرى، وانشغلت بأمر تلميذتها.

ولنُشِرْ إلى أنّ مامي هنرييت، التي لم تسعفنا الفرصة، في خضمّ الأحداث الجليلة التي بسطناها، لنُعْلم القارئ بعودتها إلى بور لويس، أقول لنُشرْ إلى أنّها قد خافت كثيراً ليلة العاصفة، لدرجة أنّها تركت النّهر الأسود ما إن هدأت العاصفة، على الرّغم من أنّها كانت لا تزال تعاني تبعات هزّتها النّفسيّة السّابقة؛ فكان أن وصلت إلى بور لويس أثناء النّهار: فاجتمعت بتلميذتها التي أشرنا آنفاً إلى أنّ انشغالها غير المعتاد صار حقّاً يقلق المربّية.

ذاك أنّ طارئاً كان غيّر حياة الفتاة تغييراً عميقاً، منذ ثلاثة أيّام: من اللّحظة التي لمحت فيها جورج، وقعت في روحها صورةُ الفتى الوسيم والتفاتته وحتّى نبرة صوته؛ فصدرت عنها غير ما مرّة تنهيدة وهي تفكّر في زواجها المرتقب من هنري؛ ذاك الزّواج الذي منحته لعشر سنوات موافقتها الضّمنيّة، إذ لم يخطر لها على بالٍ قطّ أنّه قد يعْرض لها ما يجعل زواجها من هنري أمراً يشقّ عليها إتمامه. لكن منذ العشاء في بيت الحاكم، أحسّت أنّ زواجها من هنري سيكون تعاسة أبديّة. وأخيراً، أتى عليها حينٌ لم يعد فيه خوفها من الارتباط بهنري مجرّد قناعة، وإنّما عهداً قطعته لجورج بألّا تكون لرجلٍ سواه. وبالتّالي، كان من الطّبيعي بالنّسبة لصبيّة في ربيعها السّادس عشر أن تغرق في التّفكير في وضعيّتها تلك، وأن ترى من زاوية جديدة كلّ تلك الحفلات والمتع التي كانت هي حتّى ذلك الوقت تعتبرها أهمّ أشياء الحياة.

على أنّ السيّدين دو ماليدي لم يكونا منذ ما يقرب من أسبوعٍ خليّين من كلّ انشغال: فرفْضُ سارة أن ترقص مع أيّ كان، بعدما مُنعت

Twitter: @ketab_n

من الرّقص مع جورج؛ وانسحابها من الحفل الرّاقص في اللحظة التي بدأ فيها، هي التي ما كانت تترك الحفلات الرّاقصة حتّى آخر لحظة؛ والتزامها الصّمت دائماً كلّما أثار عمّها أو ابن عمّها مسألة الزّواج، كلّ ذلك ما كان طبيعيّاً. فقرّرا معاً أن يحضّرا للعرس دون مشاركة سارة، وأن يعلماها فقط حين يصير كلّ شيء جاهزاً. وكان الأمر بسيطاً، ما داموا لم يحدّدوا من قبل موعداً للزّواج، وما دام بلوغ سارة سنّ السّادسة عشرة يجعلها مؤهّلة لاستكمال المشاريع التي طالما وضعها السيّد دو ماليدي بخصوصها.

وكانت كلّ الهموم السّابقة تتضافر لتشكّل همّاً عامّاً أشاع البرودة التي صارت تطبع اجتماعات أفراد عائلة دو ماميدي منذ ثلاثة أيّام أو أربعة. كانت تلك الاجتماعات تتمّ عادة أربع مرّات في اليوم: صباحاً، ساعة الإفطار؛ وفي السّاعة الثّانية، أي ساعة الغذاء؛ وفي السّاعة الخامسة، أي ساعة شرب الشّاي؛ ثمّ في السّاعة التّاسعة، أي ساعة العشاء.

منذ ثلاثة أيّام، طلبت سارة أن تفطر في غرفتها، وقوبل طلبها بالموافقة. لقد جنّبها الاعتذار لحظة حرج وإزعاج؛ بيد أنّه كان لا يزال ثمّة ثلاثة مواعيد لا يمكنها أن تتفاداها إلّا بادّعاء وعكة صحيّة. على أنّ ادّعاءً مثل ذاك يظلّ ادّعاءً قصير الأمد. أخذت سارة إذن قرارها، وصارت تنزل في المواعيد المعتادة.

وفي اليوم التّالي للحادث، كانت سارة، حوالى السّاعة الخامسة، جالسةً تطرّز في صالون العائلة الكبير، ما يمنحها إمكان عدم رفع عينيها، بينما مامي هنرييت تعدّ الشّاي بكامل العناية التي توليها النّساء الإنجليزيّات لذاك الطّقس، والسيّدان دو ماليدي يتحدّثان بصوت خافت جنب المدفأة، حينَ فتح جوهرة الباب بغتةً، مُعلناً حضور اللّورد مورّيه والسيّد

Twitter: @ketab_n

جورج مونييه.

ومن السّهل إدراك أنّ وقع ذاك الإعلان سيكون مختلفاً على كلّ واحد من الحضور. فالسيّدان دو ماليدي، وقد خالا أنّهما لم يسمعا جيّداً، طلبا أن يُردَّد الاسمان على مسامعهما مرّة أخرى؛ وخفضت سارة، وقد تضرّج وجهها بالحمرة، عينيها على شغلها؛ بينما ذهلت مامي هنرييت، التي كانت قد فتحت للتوّ الصنبور فوق الإبريق، لدرجة أنّها، إذ ظلّت تنقل بصرها على التّوالي بين السيّدين دو ماليدي وسارة وجوهرة، غفلت عن الماء المغلّى، فبدأ يسيل من الإبريق على الطّاولة، ومن الطّاولة على الأرض.

أعاد جوهرة الاسمين اللّذين سبق أن نطق بهما مرافقاً نطقه بأبهى ابتسامة استطاع أن يتّخذها.

تبادل السيّد دو ماليدي وابنه النظرات بذهول متعاظم، ثمّ ما لبثا أن استشعرا أنّ عليهما إنهاء الأمر، فقال السيّد دو ماليدي:

- أدخلْهما!

دخل اللّورد مورّيه وجورج.

كلاهما كان يرتدي لباساً رسميّاً أسودَ، ممّا يشي بأنّهما كانا آتيَين في زيارة احتفاليّة.

تقدّم السيّد دو ماليدي خطوات صوبهما، بينما قامت سارة محمرّة، وبعد انحناءة احترام خجول، عادت للجلوس، أو بالأحرى تركت نفسها تسقط على كرسيّها، بينما انتبهت مامي هنرييت إلى الزّلة التي أوقعها فيها ذهولها، فسارعت إلى إقفال صنبور الغلاّية.

قرّب جوهرة، بإشارة من سيّده، أريكتين من الضّيفين، بيد أنّ جورج انحنى مشيراً إلى أنّه سيظلّ واقفاً.

Twitter: @ketab_n

قال اللّورد مورّيه موجّها كلامه إلى السيّد دو ماليدي:

- سيّدي، هو ذا السيّد جورج مونييه، وقد ترجّاني أن أرافقه وأن أدعمه بحضوري إذ ينوي أن يطلب منكم طلباً. وبما أنّ لي رغبة صادقة في أن تتحقّق أمنيته، لم يكن لي بدّ من مرافقته، لا سيّما وأنّ مرافقته تمنحني شرف مقابلتكم.

اِنحنى الحاكم، فردّ عليه الرّجلان بحركة مماثلة.

قال السيّد دو ماليدي:

- نحن مدينون للسيّد مونييه؛ وسيسرّنا أن نقدّم إليه شيئاً.

قال جورج:

- إذا ما كنت تلمع بكلامك يا سيّدي إلى إنقاذي الآنسة سارة من الخطر الذي كان يتهدّدها، فاعلم أنّني أنا المدين للربّ الذي قادني إلى حيث كان بإمكان أيّ كان أن يفعل ما فعلته.

ثمّ أضاف جورج مبتسماً:

- ثمّ إنّك ستلحظ يا سيّدي أنّ تصرّفي في تلك المناسبة لم يكن خلواً من بعض الأنانيّة.

قال هنري:

- معذرة سيّدي!، لكنّي لم أفهم.

فتابع جورج:

- اِطمئنّ يا سيّدي، فريبتك لن تطول، وسأشرح لك الأمر بوضوح.

- إنّنا نصغي إليك يا سيّدي.

تساءلت سارة:

- هل عليّ الانصراف يا عمّي؟

قال جورج وهو يلتفت قليلاً وينحني:

Twitter: @ketab_n

- إذا ما جرؤت على الطّلب، وكانت رغبتي تحظى بقبولك، فإنّي أرجوك أن تبقَي آنستي.

عادت سارة للجلوس. خيّمت لحظة صمت؛ ثمّ أومأ السيّد دو ماليدي بأنّه ينتظر.

قال جورج بصوت هادئ تماماً:

- سيّدي، أنت تعرفني وتعرف عائلتي وتعرف مقدار ثروتي. إنّي أملك الآن مليونين لي وحدي. واعذرني على الدّخول في هذه التّفاصيل، بيد أنّي أحسبها غايةً في الأهميّة.

قال هنري:

- على أنّي يا سيّدي، أتساءل عبثاً فيمَ يمكن أن تهمّنا هذه التّفاصيل.

قال جورج محافظاً على هدوء صوته بينما بدت أمارات نفاد الصّبر تظهر على هنري:

- لست أوجّه الكلام إليك يا سيّدي، وإنّما أنا أحدّث السيّد أباك.

- عفواً سيّدي، بيد أنّه لا أنا ولا أبي نرى في ما تسرده ما يمكن أن يعنينا في شيء.

تابع جورج كلامه ببرود:

- سوفَ تفهم يا سيّدي.

ثمّ ثبّت نظرته على السيّد دو ماليدي وقال:

- لقد جئت أطلب يد الآنسة سارة.

سأله السيّد دو ماليدي:

- تطلبها لمن؟

- أطلبها لنفسي، يا سيّدي.

صاح هنري وهو يشير إلى جورج إشارة قمعتها فوراً نظرةٌ من المولّد

Twitter: @ketab_n

الشابّ:

- تطلبها لنفسك!

شحبت سارة.

ثمّ سأله السيّد دو مالميدي:

- تطلبها لنفسك؟

أجاب جورج وهو ينحني:

- أجل سيّدي.

صاح السيّدَ دو مالميدي:

- لكنّك تعرف يا سيّدي أنّ ابنة أخي موعودة لتكون زوجة ابني؟

تساءل جورج بدوره:

- موعودة ممّن؟

- موعودة ممّن! موعودة ممّن!... بالطّبع موعودة منّي أنا السيّد دو مالميدي.

اِستأنف جورج كلامه:

- أثير انتباهك سيّدي إلى أنّ الآنسة سارة ليست ابنتك، وإنّما فقط ابنة أخيك، وبالتّالي هي لا تدين لك بالطّاعة المطلقة.

- لكن يا سيّدي، يبدو لي هذا الحديث شاذّاً.

قال جورج:

- عفواً سيّدي، بل إنّه حديث منطقيّ تماماً؛ أنا أحبّ الآنسة سارة، وأحسب أنّي مدعوّ لإسعادها؛ فأنا أتبع إذن نداءً مزدوجاً: رغبةَ قلبي وواجبَ ضميري.

صرخ هنري وقد جرفه طيشه المعتاد:

- ولكنّ ابنة عمّي لا تحبّك يا سيّدي!

Twitter: @ketab_n

أجابه جورج:

- كلّا، إنّك مخطئ يا سيّدي، وقد مُنحت حقّ إخبارك بأنّها تحبّني.

صاح السيّد دو ماليدي:

- هي تحبّك؟ مستحيل!

قامت سارة من موضعها وقالت:

- إنّك مخطئ يا عمّي، والسيّد لا يقول سوى الحقّ.

قال هنري موجّهاً إلى سارة ما يشبه الوعيد:

- كيف يا ابنة عمّي.. أوَ تجرئين؟

تحرّك جورج، فأوقفه الحاكم.

قالت سارة وهي تحدج وعيدَ هنري بنظرة ازدراء كبير:

- أجل، أجرؤ على تكرار ما قلت. حياتي التي أنقذها جورج هي ملك له، ولن أكون البتّة لغيره.

وإذ نطقت بذلك، مدّت يدها نحو جورج بحركةٍ ملؤها الرّقة والفخر، فانحنى الفتى وقبّل اليد الذي مُدّت إليه.

صاح هنري رافعاً في وجه جورج عوداً كان يمسك به:

- آه! الأمر تجاوز كلّ حدّ!

بيد أنّ اللّورد موريه أوقفه، مثلما أوقف جورج من قبل.

أمّا جورج، فاكتفى بأن رمى هنري بابتسامة احتقار، وقاد سارة إلى الباب، ثمّ انحنى مرّة أخرى. حيّته سارة بدورها، ثمّ أشارت إلى مامي هنرييت بأن تتبعها. عاد جورج، وقال مخاطباً السيّد دو ماليدي:

- لقد رأيت ما حدث يا سيّدي. لم يعد لك أن تشكّ في مشاعر الآنسة سارة تُجاهي. أجدّد لك إذن رغبتي في أن تردّ بالقبول على طلبي.

صاح السيّد دو ماليدي:

Twitter: @ketab_n

- تريد ردّاً يا سيّدي! تريد ردّاً! أ تواتيك الجرأة على أن تأمل أنّي قد أمنحك ردّاً غير ذاك الذي تستحقّه؟

- لا أفرض عليك أيّ ردّ يا سيّدي، ما أريده فقط، هو أن تعطيني ردّك، كيفما كان.

صاح هنري:

- آملُ في أنّك لا تنتظر منّا ردّاً غير الرّفض.

أجابه جورج:

- إنّي أسأل أباك، ولست أسألك أنت؛ دع والدك يجيبني، وسنتحدّث في أمورنا بعد ذلك.

قال السيّد دو ماليدي:

- حسناً، لا ريب في أنّك قد أدركت أنّي أرفض طلبك.

- حسناً؛ بيد أنّ الخطوة التي أقدمتُ عليها كانت بدافع من اللّياقة، وقد فعلتها.

ثمّ حيّا جورج السيّد دو ماليدي كما لو أنّ لا شيء حدث بينهما، واستدار شطر هنري قائلاً:

- لنأتِ الآن إلى ما بيننا. هذه هي المرّة الثانية التي ترفع فيها يدك في وجهي، وإن فصَلَت بين المرّتين أربع عشرة سنة. أوّل مرّة رفعت في وجهي سيفاً (ورفع جورج شعره كاشفاً عن أثر الجرح بجبينه)، وهذه المرّة ترفع في وجهي عوداً (وأشار بيده إلى العود).

قال هنري:

- وإذن؟

- وإذن، أسألك السبب الذي دفعك إلى إهانتي في المرّتين. أنت رجل شجاع، ولا شك عندي في ذلك، لذا لا أحسب أنّك سترفض

Twitter: @ketab_n

مواجهتي رجلاً لرجل.

أجاب هنري هازئاً:

- يسعدني أنّك على دراية بشجاعتي يا سيّدي. على أنّ رأيك بخصوص هذا الأمر وإن كان لا يهمّني في شيء، فهو يشعرني بالرّاحة حين أنطق بالجواب الذي سأقابل به طلبك.

- وما جوابك سيّدي؟

- جوابي هو أنّ طلبك الثّاني لا يقلّ وقاحة عن الطلب الأوّل. لن أبارز مولَّداً البتّة.

شحب وجه جورج شحوباً شنيعاً، ولاحت على فمه ابتسامة في غاية الغموض، وقال:

- هذا قرارك النّهائيّ؟

- أجل، سيّدي.

- حسناً سيّدي، الآن بتّ أعلم ما عليّ فعله.

ثمّ حيّا السيّدين دو ماليدي وانسحب متبوعاً بالحاكم.

قال اللّورد مورّيه عندما وصلا إلى الباب:

- كما توقّعتُ يا سيّدي.

فأجابه جورج:

- لم تتوقّع شيئاً أجهله يا ميلورد. بيد أنّي عدت هنا لأكمل مصيراً أُعِدّ لي. عليّ أن أذهب حتّى النّهاية. ثمّة حكم مسبق ينبغي عليّ أن أحاربه. فإمّا أن يسحقني أو أقضيَ عليه. وفي انتظار ذلك، تقبّلْ يا سيّدي جزيلَ شكري.

اِنحنى جورج وهو يصافح اليد التي مدّها إليه الحاكم، ثمّ قطع حديقة «الرّفقة الطيّبة». شيّعه اللّورد مورّيه بعينيه حتّى اختفى، ثمّ قال

Twitter: @ketab_n

في سرّه هازّاً رأسه:

- هو ذا رجلٌ يسعى مباشرةً إلى حتفه؛ إنّه لأمر محزن، فقد كان ذاك القلب يحضن شيئاً عظيماً.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل السابع عشر

السّباق

وكان السّبت التّالي هو يوم انطلاق احتفالات اليامسَيه؛ وقد أبدت المدينة حرصاً على مسح كلّ آثار العاصفة، لدرجة أنّ المرء يصعب عليه التصديق أنّها كانت منذ ستّة أيّام فقط على وشك أن تُدمَّر.

ومنذ الصباح، خرج لاسكاريّو البحر ولاسكاريو البرّ مجتمعين في فيلقٍ واحدٍ من ناحية مالابار الواقعةِ خارج المدينة، بين «جدول العذارى» و«جدول المتبجّح»، تسبقهم موسيقى متوحّشة تعزفها الدّفوف والنّايات وقياثر غامبارديّة؛ وأخذوا طريقهم صوبَ بور لويس، ليقوموا فيها بحملة لجمع التبرّعات. كانَ القائدان يمشيان جنباً إلى جنب، وقد تزيّا كلّ واحدٍ منهما بحسب الفرقة التي يمثّلها، فأحدهما يضع رداءً أخضر بينما يلبس الآخر زيّاً أبيض. وكان كلّ واحد منها يحمل في يده سيفاً مُشهَراً شُكّت في رأسه برتقالة. وخلفهما اثنان من الملالي يحملان طبقَين مليئَين بالسكّر وتغطّيهما أوراق الورد الصّينيّ. وخلف هذين تأتي جحافل الهنود في انتظام لا بأس به.

وبدءاً من أوّل منازل المدينة تنطلق الحملة. ذاك أنّ جامعي التبرّعات، بدافع من روح العدالة ولا شكّ، لا ينظرون نظرة ازدراء حتّى لأحقر الأكواخ التي من شأن عطاياها، أسوةً بعطايا أثرى المنازل، أن تغطّي جزءاً من التكاليف الضخمة التي بذلها أولئك الأهالي الفقراء كي يسبغوا على الاحتفالات أروع أبّهة ممكنة. لذا فإنّ الطريقة التي تُطلَب

Twitter: @ketab_n

بها العطايا كانت تفوح بالكبرياء الشّرقيّ، ولا تكاد تُستشفّ فيها أدنى أمارات الذلّ والخنوع، لدرجة أنّ الواهبين أنفسهم يحسّون في الأمر شيئاً من النّبل والعطف. وبعد أن يحيّي القائدان، اللّذان تُفتَح في وجوههم كلّ المنازل، أسيادَ المنزل خافضَيْن أمامهم سيفَيهما، يتقدّم المُلاّ ويقدّم للحضور السكّر وأوراق الورود. وأثناء ذلك يقوم بعض الهنود، ممّن يتمّ تعيينهم من طرف القائدَين، بجمع عطايا أسياد البيت في أطباق؛ ثمّ ينسحب الجميع قائلين: «سلام». فيبدو هؤلاء النّاس كأنّهم لا يطلبون حسنةً، وإنّما يدعون غرباء لمشاركتهم حسنات شعائرهم وهبات دِينهم.

وفي الحالات العاديّة، لا تشمل الحملة، مثلما أسلفنا، بيوت المدينة كلّها فحسب، وإنّما تمتدّ لتشمل حتّى البوارج الرّاسية في الميناء، والتي تدخل ضمن نطاق لاسكاريّي البحر. بيد أنّ الحملة كانت محدودة هذه المرّة، لا سيّما في ما يتعلّق بالبوارج التي تضرّرت بالعاصفة أيّما تضرّر، حتّى أنّ قباطنتها كانوا بحاجة إلى من يساعدهم أكثر من استعداهم للعّطاء.

على أنّه في اللّحظة التي بلغ فيها جامعو التبرّعات الميناء، ظهرت سفينة كان قد أُعلِن عن وصولها منذ الصّباح. ظهرت ما بين «حصن النحل الطنّان» و«القلعة البيضاء»، ناشرةً الرّاية الهولنديّة ومتقدّمة بكامل طاقتها، وهي تحيّي القلعة التي ردّت التّحية فوراً. ولا ريب في أنّ تلك البارجة كانت لا تزال على مسافة بعيدة من الجزيرة حين حدثت العاصفة، إذ لم يكن ينقصها شيء، ولا حتّى شراع واحد أو حبل؛ كانت تتقدّم مائلةً بلطفٍ، كأنّ يد إحدى إلهات البحر تدفعها على صفحة الماء. وبواسطة المناظير كان بالإمكان رؤية الملك غيّوم من بعيد، واقفاً على متنها، بكامل زيّه الرّسميّ، وجميعَ طاقم السّفينة الذين كانوا يضعون

Twitter: @ketab_n

لباسَ المعركة، أي لباس الحفلة، فقد كان من الواضح أنّهم آتون لحضور الشعائر. ومن السّهل تخمين أنّ هيئتها المرحة والوثيرة قد جعلت منها فوراً محورَ اهتمام القائدَين. فكان أن ركب زعيمُ لاسكاريّي البحر قارباً، فورَ إلقاء البارجة مرساتها، وقصدها يرافقه حاملو الأطباق وزمرة من أبناء قومه؛ وإذ دنوا منها تبيّن لهم بالفعل أنّها كانت تطابق الآمال التي عُقِدت عليها من مسافة معيّنة.

الحقّ إنّ النّظافة الهولنديّة، الذائعة الصّيت في جميع أرجاء العالم، إذا كانت استحقّت المديحَ، فسيكون مبعث المديح بلا ريبٍ مرأى هذه السّفينة الجميلة التي تبدو، بهيكلها العائم وسطحها الذي تمّ غسله وتنشيفه وفرْكه، قادرةً على أن تنافس في الأناقة أفخم الصّالونات. كانت زخارفها النّحاسيّة تلمع كالذّهب، وسلالمها المنقوشة من أفخم أنواع الخشب الهنديّ تبدو كنُصب زينة أكثر منها أدوات ذات فائدة عمليّة. أمّا الأسلحة فقد كانت تبدو مثل قطع أسلحة في متحف أثريّ أكثر منها قطع عتاد في سفينة.

وبدا أنّ القبطان فان دين بروك (هكذا كان اسم قبطان السّفينة)، وهو يرى اللاسكاريّين قادمين، كان على علم بما يجري، إذ تقدّم إلى قائدهم، وتبادل معه بعض الكلمات بلسانه، ممّا يشي بأنّها ليست المرّة الأولى التي يبحر فيها في الميّاه الهنديّة؛ ثمّ وضع هِبةً في الطّبق الذي قُدّم له. ولم تكن الهبة قطعةً ذهبيّة ولا حزمة نقود، وإنّما وضع القبطان في الطبق ألماسة صغيرة جميلة، ألماسة تساوي مائة لويسيّة، واعتذر بأنّه لا يملك غيرها، راجياً من قائد اللاسكاريّين تقبّل عطاءه. كانت الهبة تتجاوز بكثيرٍ تطلّعات تابع عليّ الشّجاع، ولا تتوافق مع البخل المعروف عن مواطني

Twitter: @ketab_n

جان دو فيت[1]، حتّى أنّ قائد اللاّسكاريّين ظلّ للحظة عاجزاً عن أن يأخذ ذاك الإسراف على محمل الجدّ، إلى أن طمأنه القبطان فان دين بروك على أنّ الألماسة كانت بالفعل هبةً مهداةً إلى فريق الشّيعة، الذين يكنّ هو لهم محبّة صادقة. وقد شكره قائدهم بأن قدّم إليه بنفسه أوراق الورد المرشوشة بالسكّر. أخذ القبطان قليلاً بأصابعه ووضعه في فمه متظاهراً بأكله، وسط رضا الهنود الغامر، الذين لم يغادروا البارجة المُضيفة إلّا بعد سلام حارّ. وأكمل اللّاسكاريّون سعيهم دون أن يفيدهم الحديث كلّ مرّة عن الهبة الفاخرة التي سقطت عليهم من السّماء، في أن يحصلوا على أُخرى مماثلة.

مرّ النّهار على ذاك النّحو، وكان الجميع يستعدّون لاحتفالات الغد التي سيشاركون فيها، إذ لم تكن احتفالات ذلك اليوم سوى تمهيد لما سيأتي.

وكان من المنتظر أن يشهد الغد السّباق. وكانت السّباقات العاديّة أصلاً من المناسبات الأشدّ إجلالاً في الجزيرة؛ فما بالك بسباق يأتي وسط الاحتفالات، سباقاً سيعطي انطلاقته الحاكم؟ لا ريب في أنّه سيكون سباقاً لم يُشهَد له مثيلٌ من قبل.

وهذه المرّة أيضاً، مثل جميع المرّات التي سبقتها، كان ميدان مارس هو المكان الموعود للاحتفالات. ومنذ الصّباح غصّ كلّ المجال غير المحجوز بالمتفرّجين؛ ذاك أنّه فضلاً عن السباق الرئيس، سباق السّادة الفرسان، كان من المفترض أن تسبقه العديد من السّباقات المُضحِكة، التي تحوز عند الشّعب أهميّة أكبر، لا سيّما وأنّ أبناء الشّعب هم بالذّات

---

(1) جان دو فيت (1625—1672)، سياسيّ بورجوازيّ هولنديّ، ظلّ رئيساً لحكومة جمهورية هولندا (جمهورية البلدان السّبعة) مدّة عشرين سنة.

Twitter: @ketab_n

من يشاركون فيها. وكان التّمهيد المرح للسّباقات عبارة عن سباق خنازير وسباقاً بالأكياس وسباقاً ثالثاً بالخيول القزمة. وكان الفائز في تلك السّباقات جميعها، شأنه شأن الفائز في السّباق الكبير، موعوداً بجائزة يسلّمها إليه الحاكم؛ فالفائز بسباق الخيول القزمة سيتسلّم بندقيّة جميلة من ذوات الطّلقتين، ويربح الفائز في سباق الأكياس مظلّة جميلة، بينما تكون جائزة الفائز في مسابقة الخنازير الخنزيرَ نفسَه.

أمّا جائزة السّباق الكبير فكانت كأساً من الفضّة المذهّبة كأبدع ما يكون، كأساً يفوق شغلُها مادّتَها بكثير.

قلنا إنّه منذ أن طلع النّهار، اكتظّ الملعب المتروك للجمهور بالمتفرّجين؛ لكنّ علية القوم لم يبدؤوا في الوصول إلّا حوالى السّاعة العاشرة. ومثلما تجري الأمور في لندن وباريس، وفي كلّ مكان تنظّم فيه السّباقات، كان ثمّة منصّات محجوزة لعلية القوم؛ لكنّ أجمل نساء بور لويس، سواء عن هوى شخصيّ أو رغبةً في عدم الاختلاط بالآخرين، قرّرن أن يشاهدن السّباق من هوادجهنّ. وباستثناء أولئك اللّواتي كنّ مدعوّات إلى الجلوس جنب الحاكم، أتين جميعهنّ للاصطفاف قبالة الهدف أو عند النّقاط الأقرب منه، تاركاتٍ المنصّات الأخرى للبرجوازيّين أو التجّار الثانويّين؛ أمّا الشّبان فقد امتطى أغلبهم صهوات جيادهم وكانوا يستعدّون لمتابعة المتسابقين في داخل الحلقة؛ بينما الهواة، أعضاء نادي الجوكي في جزيرة موريس فقد وقفوا عند حلبة السّباق، منخرطين في الرّهانات بالتّبذير اللاّمباليّ المعروف عن الكريوليّين.

وعند العاشرة والنّصف كانت بور لويس كلّها مجتمعة في مضمار مارس. ومن بين أجمل النّساء، وفي الهوادج الأكثر أناقة، كان بوسع المرء أن يرى الآنسة كودير، والآنسة سيبريس دوجرزيني، وكانت

Twitter: @ketab_n

آنذاك إحدى أجمل الصبايا، ولا تزال إلى اليوم إحدى أجمل نساء جزيرة موريس، امرأة صار يُضرَب المثل بجمال شعرها الأسود حتّى داخل الصّالونات الباريسيّة؛ ثمّ الآنسات درون الستّ، ذوات الشعور الشّقراء جدّاً، والنّاصعات البياض، والشّديدات النّعومة، والبالغات اللّطف، لدرجة أنّهن حين يخرجن مجتمعات يدعو النّاس عربتهنّ بسلّة الأزهار.

وعند العاشرة والنّصف كانت بور لويس كلّها مجتمعة في الميدان، وكانت منصّة الحاكم من جهتها تستحقّ أن تُنعَت باللّقب الذي تُنعَت به عادةً عربة الآنسات درون. ومن لم يتنقّل بين المستعمرات، ومن لم يزر خاصّةً جزيرة موريس، لن يكون بوسعه الإلمام بالفتنة والرّقة اللّتين تشعّان من كلّ تلك الوجوه الكريوليّة، ذات العيون المخمليّة والشّعور الفاحمة، التي تتفتّح في وسطها، مثل زهور شماليّة، بعضُ الفتيات الإنجليزيّات الشّاحبات ذوات البشرة الشّفافة والشّعر الخفيف، والجِيد المائل ميلاً ناعماً. ثمّ إنّ باقات الورد التي كانت تحملها تلك الفتيات بين أيديهنّ كانت تبدو، على الأرجح، في عيون الشبّان، أثمن من كلّ الكؤوس الّتي صنعها أوديو[1]، وكلّ بنادق مونتون[2] وكلّ مظلاّت فردييه[3]، التي بوسع الحاكم أن يهديهم إيّاها عربوناً على سعة كرمه.

وفي الصّف الأوّل من مدرّج اللّورد ويليامز كانت تجلس سارة بين السيّد دو ماليدي ومامي هنرييت: أمّا هنري فقد كان في حلبة السّباق

(1) جان باتيست كلود أوديو (1763–1850) صانع فرنسي، ذاع صيته فاستُقدِم إلى القصر الفرنسي، اشتهر بتصميماته للكؤوس والجوائز.

(2) من الواضح أنّ مونتون علامة أسلحة أو نوع من البنادق الرّفيعة، لكنّنا لم نجد أيّ أصل لها، والنّتيجة نفسها خلص إليها ليون فرانسوا هوفمان، الذي لم يجد أيّة علامة تجاريّة أو محلّ أو صانع يحمل الاسم. على أنّ الذي لم يذكره هوفمان في حاشيته، هو وجود مدينة فرنسية في منطقة الألب–ساحل اللاّزورد، تحمل الاسم نفسه.

(3) محلّ لبيع المظلات والعصيّ، كان يقع في شارع ريشليو بباريس.

Twitter: @ketab_n

يقبل كلّ الرّهانات التي كانت توضع ضدّه، والتي كانت، والحقّ يقال، قليلة. ففضلاً عن أنّه كان فارساً مشهوداً له، كان يملك آنذاك جواداً يقال عنه إنّه أسرع حصانٍ شهدته الجزيرة.

في السّاعة الحادية عشرة أعطت موسيقى الحامية العسكريّة، التي تمّ وضعها ما بين المدرَّجَين، إشارة انطلاق السّباق الأوّل. وكان السّباق الأوّل كما أسلفنا سباقَ الخنازير.

يعرف القارئ ذاك المرح الشّنيع المنتشر في العديد من القرى الفرنسيّة، والمتمثّل في دهن ذيول الخنازير بشحم الخنزير، ثمّ ترك المتنافسين واحداً تلو الآخر يحاولون القبض على الحيوان الذي يُمنع مسكه من أيّ نقطة في جسمه ما عدا الذّيل. ومن استطاع إيقافه كان الفائز. وبما أنّ ذاك السّباق يصنّف في خانة السّباقات المفتوحة، السّباقات التي من حقّ الجميع المشاركة فيها، فلم يسجّل أحد اسمه فيه.

أحضر الحيوانَ زنجيّان: كانَ خنزيراً أملَحَ، كأضخم ما يكون، وكانوا قد شحّموا ذيله وصار جاهزاً لدخول السّباق. وما إن لُمِحَ الحيوان حتّى انطلقت صيحة شاملة، وقفز الزّنوج والهنود والماليزيّون والملغاشيّون والأهالي فوق العارضة التي كانوا يقفون خلفها حتّى تلك اللّحظة، قفزوا فوقها وهرعوا إلى الحيوان الذي رُعب من الموجة التي انقضّت عليه، فبدأ الفرار.

لكن كان قد تمّ اتّخاذ الاحتياطات حتّى لا يفلت من ملاحقيه؛ فقد قُيّدت قائمتا الحيوان المسكين الأماميّتان مع قامتيه الخلفيّتين بالطّريقة نفسها التي تُقيَّد بها قوائم البهائم التي يُراد لها أن تسير الهوينى. وعليه ما كان بإمكان الحيوان أن يركض إلّا بخبب متوسّط السّرعة، ولم يمض وقت طويل حتّى لحق به المتنافسون وبدأت خيباتُ الأمل.

Twitter: @ketab_n

وكما يتوقّع المرء فإنّ ذاك النّوع من السّباقات لا يحالف فيها الحظّ من يكون بادئاً. فالذّيل المشحّم حديثاً يكون زلقاً ويجعل الخنزير يفرّ من ملاحقيه دون عناء؛ لكن مع توالي الضّغط تمّحي طبقات الشحم الأولى، فيبدأ الحيوان في ملاحظة أنّ محاولات الإمساك به لم تعد هيّنة مثلما كانت عليه في البداية. فينطلق قباعُه مصحوباً بصيحات حادّة. ومن حين إلى آخر، حين يحتدم الهجوم، يستدير صوب أعدائه الأشدّ حماسة، والذين يقرّرون، بحسب درجة شجاعتهم الفطريّة، الاستمرارَ في ملاحقته أو العدول عن الأمر. ثمّ يأتي على الذّيل حينٌ يفقد فيه كلّ سحره، ويعود إلى طبيعته الأصل، ويصير لا يكاد يُفلت، ثمّ ينتهي به المطاف إلى أن يخون صاحبَه، الذي يكافح، ويطلق قُباعه، ويصيح عبثاً، ويصير بمقتضى الهتافات العامّة في ملْك من هزَمه.

تلك المرّة، أخذ السّباق مساره المعتاد. وأفلت الخنزير التّعيس بسهولة بالغة من ملاحقيه الأوائل، وعلى الرّغم من رباطه استطاع أن يبتعد مسافةً عن جَمع مُطارديه. بيد أنّ مجموعة من أمهر العدّائين وأشدّهم ضراوة انطلقوا في أثره، وتناوبوا على إمساك ذيل المسكين بسرعة كبيرة لم تترك له لحظة راحة؛ سرعة كانت تؤكدّ له أنّه مهما طال استبساله واقعٌ لا محالة. ثمّ كان أن تخلّى عنه خمسة خصوم أو ستّة، بعدما تقطّعت أنفاسهم وصاروا يلهثون. لكن كلّما نقص عدد الملاحقين وازداد حظّ أولئك الذين يصرّون على الملاحقة، كانت قوّتهم وسدادهم يتضاعفان، متشجّعين بهتافات الجمهور.

ومن بين الملاحقين الذين قرّروا متابعة المغامرة حتّى نهايتها، كان ثمّة اثنان من معارفنا القدامى: أنطونيو الماليزيّ وميكو-ميكو الصّينيّ. كلاهما كان يلاحق الخنزير من نقطة الانطلاق، وهما لم يتركاه ولا لحظة:

Twitter: @ketab_n

ولأكثر من مائة مرّة كان ذيله قد أفلت من بين أيديهما؛ بيد أنّهما كان في كلّ مرّة يحسّان بالتّقدّم الذي يحرزانه. وبدلاً من أن تحبطهما تلك المحاولات الفاشلة، فإنّها زادت من عزمهما. ثمّ إنّهما، بعدما أُجهِد كلّ الخصوم الآخرين، ألفيا نفسيهما يلاحقانه بمفردهما. وكانت تلك هي اللّحظة التي بدأ فيها السّباق حقّاً، وبدأت المراهنات عليهما جديّاً.

اِستمرّ السّباق عشر دقائق أخرى؛ بحيث أنّ الخنزير، بعدما جابَ مضمار مارس بأكمله، عاد إلى ما يسمّى في لغة الصيّادين «انطلاقته»؛ كانَ يصيح ويُدمدم ويلتفت دون أن يبدو أنّ دفاعه المستبسل ذاك يُجفِل في شيءٍ عدوَّيه اللّذين كان يتناوبان على الإمساك بذيله بانتظام جدير برعاة فرجيل. ثمّ، للحظةٍ أوقف أنطونيو الحيوان الفارّ، فظنّ الجميع أنّ أنطونيو قد فاز. لكنّ الحيوان استجمع قوّته، واهتزّ اهتزازة واحدة أفلت بها للمرّة المائة من يد الماليزيّ. فكان أن أمسك به ميكو-ميكو، الذي كان يتربّص به، فوراً، فانقلب الحظّ، الذي كان يقف منذ قليل إلى جانب أنطونيو، إلى صالحه. وكما توسّم فيه جزء من المتفرّجين الذين راهنوا عليه، تشبّث بكلتا يديه، وتصلّب، وترك الخنزير يسحبه، حاشداً قوّته كلّها؛ وكان الماليزيّ يتبعه هازّاً رأسه علامة على اعتقاده بأنّه خسر اللّعبة، لكنّه ظلّ في جميع الأحوال متحسّباً لأن يخْلف ميكو-موكو، راكضاً بمحاذاة الخنزير، مُرخياً ذراعيه الطّويلتين، ذراعيه اللّتين كان يجعلهما تحتكّان بالأرض دون أن يكون بحاجة إلى الانحناء، حتّى يمنح نفسه المزيد من القدرة على المثابرة. لكنّ عناده للأسف سرعان ما بدا أنْ لا طائل يرجى منه. فكان من الواضح أنّ ميكو-ميكو أشرَف على الفوز. ذاك أنّ الخنزير بعدما سحب الرّجل الصينيّ مسافة عشر أقدامٍ خلفه، بدا أنّه قد أقرّ بهزيمته فتوقّف، وظلّ يسحب الرّجل إلى الأمام، بيد أنّ قوة

Twitter: @ketab_n

مماثلةً كانت تسحبه إلى الخلف. وبما أنّه متى كانت قوّتان متكافئتين فإنّهما تنتهيان إلى الحياد، فقد ظلّ الخنزير والرّجل الصينيّ جامدَين للحظاتٍ، وكلّ واحد منهما يبذل جهوداً قويّة واضحة، على أنّ أحدهما كان يبذل الجهود للاستمرار في التقدّم، بينما يبذل الآخر جهوده للثبات في موضعه، وكلّ ذلك أمام تصفيقات الحشد. واستمرّ الأمر بضع لحظات، وكان كلّ شيء يشير إلى أنّه سيطول ما طاب له أن يطول، وإذا بالمتصارَعين ينفصلان بغتةً بعنف. تدحرج الحيوان إلى الأمام، بينما تدحرج ميكو-ميكو إلى الخلف؛ تدحرَجا على النحو ذاته، مع فارق أنّ الأوّل تدحرج على بطنه بينما تدحرج الثاني على ظهره. وعلى الفور انطلق أنطونيو فرحاً، تحيط به تشجيعات أولئك الذين كان من مصلحتهم أن يفوز، وقد كانوا واثقين من أنّه فائز لا محالة هذه المرّة. بيد أنّ فرحته هذه المرّة لم تَطُل، وكان إحباطه قاسياً؛ إذ في اللّحظة التي همّ فيها بأن يمسك بالحيوان من العضو المقرّر إمساكه منه، بحث عنه عبثاً. كان الخنزير المسكين قد فقَد ذيله: كان الذّيل لا يزال بين يدي ميكو-ميكو الذي قام بهيئة المنتصر مُشهراً غنيمته على الملأ وملتمساً نزاهةَ حُكمِهم.

كانت الواقعة جديدةً كلّ الجدّة. فرفع الحضور أمرهم إلى المحكّمين. وبعد لحظة مشاورة، قرّر هؤلاء بأغلبية ثلاثة من خمسة أنّه «ما دام لا أحد يجادل في أنّ ميكو-ميكو كان سيوقف الحيوان، لولا أنّ الحيوان فضّل التخلّص من ذيله، فإنّ ميكو-ميكو يُعتبر فائزاً».

ونتيجة لذلك نوديَ باسم ميكو-ميكو، ثمّ سُمح له بأن يأخذ جائزته. ففهم الصينيّ الأمرَ إشارةً، وجواباً على ذلك أمسك بالحيوان من قائمتيه الخلفيّتين ودفعه أمامه كالعربة.

أمّا أنطونيو فقد انسحب مغمغماً، وذاب وسط الحشد الذي، بحسّ

Twitter: @ketab_n

العدالة الذي يميّزه، كرّمه باستقبالٍ يليق بالمهزومين العظام.

وسرى بين المتفرّجين هرج ومرج كبيران، على عادةِ ما يحدث عقب العروض التي تشدّ الانتباه؛ بيد أنّ الجميع ما لبثوا أن هدؤوا حين تمّ الإعلان عن بدأ سباق الأكياس، وعاد الجميع إلى موضعهم فرحينَ ما وسعَهم الفرح بالعرض الذي شهدوه، إلى درجة أنّهم ما كانوا ليخسروا شيئاً لو أنّهم فوّتوا مشاهدة العرض التّالي.

كانت المسافة التي ينبغي على المتسابقين قطعها تمتدّ من ميل دريبر إلى منصّة الحاكم، أي ما يقارب مائة وخمسين قدماً. وعند الإشارة خرج المتسابقون، وكانوا خمسين، قافزين من كوخ مرتفع كانوا ينأون فيه بأنفسهم، واصطفّوا في خطّ واحد.

ولا يأخذنّنا العجب من عدد المتسابقين، فقد سبق أن قلنا إنّ الجائزة كانت مظلّة رائعة، ولطالما كانت المظلّات شيئاً يثير طموح الزّنوج في المستعمرات، ولا سيّما في جزيرة موريس. من أين أتاهم ذاك التعلّق بالمظلّات الذي يبلغ حدّ الهوس؟ لست أملك أدنى فكرة، لا بل إنّ العديد ممّن يفوقونني علماً قد درسوا هذا الأمر دراسة عميقة وما طلعوا من دراستهم له بإجابة. لقد كان الحاكم إذن حصيفاً جدّاً حين اختار تلك القطعة جائزةً لمسابقة الأكياس.

وليس ثمّة قارئ واحد من قرّائنا لم يسبق له أن شهد سباقاً مماثلاً: كلّ واحد من المتسابقين يدخل في كيس تنغلق فوهته على عنقه، ويغلّف ذراعيه وساقيه. وإذّاك لا يعود ثمّة من مجال للرّكض، وإنّما للقفز؛ على أنّ هذا السّباق المعروف بطرافته يزداد إضحاكاً في ظروفٍ كهذه التي كان يُجرى فيها، لأنّ سمة التّهريج فيه تزداد لمرأى تلك الرّؤوس الغريبة تطلّ من الأكياس في تشكيلة عجيبة من الألوان المختلفة. وشأنه شأن سباق

Twitter: @ketab_n

الخنزير كان سباق الأكياس متروكاً للزّنوج والهنود.

وفي الصّف الأماميّ من أولئك الذين أكسبتهم انتصاراتهم العديدة في ذلك السّباق صيتاً كبيراً، كان ثمّة تليباك وجوهرة. وإذ ورث الزّنجيان أحقاد أسيادهما، فقد كان من النادر أن يلتقيا دون أن يتبادلا الشّتائم؛ شتائم قد تتطوّر، لشجاعتهما، إلى تلاكم بالأيادي. بيد أنّهما إذ كانا هذه المرّة أسيرَي اليدين والسّاقين فقد اكتفيا بتبادل نظرات احتقار، لا سيّما وأنّه كان يفصل بينهما ثلاثةُ منافسينَ أو أربعة. ولحظة الانطلاق قفز من الكوخ متسابق آخر (هو المتسابق رقم واحد وخمسين) وانضمّ إلى القافلة: كان ذاك أنطونيو الماليزيّ، مهزومَ السّباق الأوّل.

وعند الإشارة انطلق الجميع مثل مجموعة من حيوان الكنغر، قافزين بأغرب الطّرق، مصطدمين فيما بينهم، مهرّجين، متدحرجين، منتصبين مجدّداً، ثمّ مصطدمين من جديد. وطيلة السّتّين قدماً الأولى ما كان بالإمكان تخمين من سيكون الفائز: فقد كان ثمّة ما يقرب من عشرة متسابقين يسيرون متقاربين، بحيث أنّ عمليات السّقوط كانت غير متوقّعة لدرجة أنّها كانت تغيّر، في حال حدوثها، مسارَ الأمور؛ وفي طرفة عين كان المتسابقون، كأنّما هم على صراط الجنّة، يُلفون أنفسهم قد تقهقروا من المراتب الأولى إلى الأخيرة، أو تقدّموا من المراتب الأخيرة إلى الأولى. على أنّه ينبغي القول إنّه من بين أكثرهم خبرة، أولئك الذين ظلوا باستمرارٍ في المقدّمة، كان ثمّة تليباك وجوهرة وأنطونيو. وإذ ابتعدوا مائة قدم عن نقطة انطلاقهم، ظلّوا وحدهم في المقدّمة، فصار من الواضح أنّ الصراع سينحصر ما بينهم هم الثلاثة فحسب.

وببراعته المعهودة، استشفّ أنطونيو من النظرات الحاقدة التي يتبادلها جوهرة وتليباك الكره الذي يبديه كلّ منهما إلى الآخر، وقدّر أنّه سيعتمد

Twitter: @ketab_n

على ذاك الكره أكثر من اعتماده على خفّته الشّخصيّة. وبما أنّ الصدفة شاءت أن يكون هو في وسطهما، فقد استغلّ الماليزيّ الماكر إحدى سقطاته العديدة، كي يتموضع عقب وقوفه في أحد الجانبين تاركاً الخصمين متجاورَين. وحدث ما قدّره: فما إن شهد جوهرة وتليماك العقبة التي كانت تفصلهما قد زالت، وألفيا نفسيهما يزدادان اقتراباً باستمرار، حتّى شرعا يتبادلان نظرات رهيبةً، ويكشّران عن أسنانهما كقِردَين يتنازعان ثمرة جوز، وأخذا يضيفان إلى تلك الإيماءات المتوعّدة عبارات لاذعة: ولحسن الحظّ منعتهم وضعيتهم داخل الكيسَين من الانتقال من الكلام إلى الفعل. بيد أنّه كان واضحاً من هياج نسيج كيسيهما أنّهما يتحرّقان إلى الانتقام للشّتائم التي تخرج من فم كلٍّ منهما. ثمّ إنّهما، وقد أخذهما الكره المتبادل، اقتربا إلى حدّ محاذاة أحدهما الآخر، وصارا يحتكّان بكوعيهما عند كلّ قفزة، متبادلَين الوعيد بالعراك فورَ تحرّرهما من غِمدَيهما، عراك يفوق ضراوةً كلّ عراكٍ سبق أن جمعهما؛ وأثناء ذلك كان أنطونيو يزداد تقدّماً.

وإذ انتبها إلى أنّ الماليزيّ قد صار يسبقهما بخمس أقدام أو ستّ، سادت بينهما لحظة هدنة: وحاولا معاً، بقفزات تفوق كلّ القفزات التي كان قد قاما بها حتّى تلك اللحظة، أن يستعيدا المسافة الضائعة منهما. وبالفعل كان لهما ما أراداه، وبدا أنّهما لاحقان بالماليزيّ، لا سيّما منهما تليماك. ثمّ كان أن حملت سقطةٌ جديدةٌ الحظّ لتليماك، إذ تعثّر أنطونيو، وما إن قام مجدّداً حتّى كان تليماك يتصدّر السّباق.

وكانت الوضعية هذه المرّة صعبة، إذ لم تعد تفصل عن نقطة النّهاية سوى عشر أقدام. لذا أطلق جوهرة صيحة هادرة، وبمجهود يائس اقترب من منافسه؛ بيد أنّ تليماك لم يكن ممّن يسمحون بمجاوزتهم، فاستمرّ يقفز بمرونة متزايدة، لدرجة أنّ الجميع بدؤوا يقسمون إنّ

Twitter: @ketab_n

المظلّة ستكون من نصيبه. ثمّ كان أن زلّت قدما تليماك وتأرجح لحظةً وسط صياح الحشد، قبل أن يسقط. لكنّه، انسجاماً وحقدَه، وجّه سقطتَه بحيث صار جسده حاجزاً في طريق جوهرة. ولم يكن لجوهرة، المأخوذ بالسّباق، من سبيلٍ إلى تفادي جسد تليماك، فاصطدم به وتدحرج بدوره فوق التراب.

ثمّ خطرت ببالَيهما في الوقت نفسه فكرة واحدة: بدلاً من أن يترك أحدهما خصمه يفوز، لتكن الجائزة من نصيب طرف ثالث. وأمام عظيمِ دهشةِ المتفرّجين، بدلاً من أن يقوم الكيسان ويكملا سباقهما، ما إن وقَفا على أقدامهما حتّى اشتبكا، وأخذا يتلاكمان بقدر ما يسمح به سجن الخيش الذي كانا معتقلين فيه. ولقد توسّلا برأسيهما في العراك، على طريقة البروتونيّين، تاركين أنطونيو يكمل سباقه مرتاح البال من كلّ منافس. وبينما الزّنجيان يدوران سويّةً، وإذ كانت تعوزهما الأذرع والسّيقان التي يُمنَع عليهما استخدامها، فقد شرعا يعضّ أحدهما الآخر بالأسنان عضّاً.

وأثناء ذالك، كان أنطونيو قد بلغ النّهاية وفاز بالمظلّة التي أُعطيت له فوراً، وفتحها أمام أنظار الحضور، الذين كان أغلبهم من الزّنوج، والذين كانوا يغبطونه على حظّه الذي جعله يمتلك كنزاً مماثلاً.

فُضّ اشتباك جوهرة وتليماك اللّذين كانا لا يزالان يعضّ أحدهما الآخر عضّاً. وافترق الطّرفان بعدما قطع جوهرة طرفاً من أنف تليماك، وتليماك جزءاً من أذن جوهرة.

وأتى الدّور على الخيول القزمة: فخرج ثلاثون حصاناً صغيراً، تعود أصولها جميعاً إلى تيمور وبيغو، من خلف السّياج المخصّص لها، وكان يمتطيها فوارسُ سباقٍ هنود وملغاشيّون وماليزيّون. وحيّا الحشد ظهورَ

Twitter: @ketab_n

الخيول بضجّة شاملة، إذ كان ذاك السّباق من السّباقات التي تسلّي سكّان الجزيرةِ السّود. ذاك أنّ تلك الخيول شبه الوحشيّة والتي تكاد تكون غير مروّضة، تمنح المتفرّجين عروضاً غير متوقّعة أكثر ممّا تمنحهم الخيول العاديّة. ثمّ إنّ آلاف الصّيحات انطلقت في آنٍ مشجّعةً المتبارين الدّاكني البشرةِ، الذين تخبُّ تحتهم تلك الشّياطين التي كان فرسانها يحتاجون إلى بذلِ كاملِ طاقتهم ومهارتهم إن هم أرادوا السّيطرة عليها، والتي كانت تهدّد بأنْ لا تنتظر إشارة الانطلاق. أشار الحاكم بيده فأُعطيت إشارة الانطلاق.

وانطلق الجميع، أو لنقل طار الجميع، إذ كانت الخيول أقرب إلى العصافير التي تمسح الأرض منها إلى حيواناتٍ من ذوات الأربع راكضة على الأرض. لكن ما إن وصلت الخيول قبالة ضريح مالارتيك[1] حتّى تمرّدت على عادتها، أي أنّ نصفها فرّ إلى الغابة السّوداء حاملاً فوق ظهره فارسه، رغم محاولات الفرسان الجهيدة لثنيها عن ذلك وإبقائها داخل مضمار مارس. وعند الجسر اختفى ثلث من بقيَ منها، إلى درجة أنّ المتسابقين حين قاربوا خطّ النهاية لم يكن قد بقيَ منهم سوى سبعة أو ثمانية، لا بل إنّ اثنين أو ثلاثة من الخيول كانت قد تخلّصت من فوارسها وأكملت الجري بلا خيّال.

كان السّباق يتألّف من دورتين؛ فمرّ المتسابقون إذن على الهدف دون أن يتوقّفوا عنده، مَثَلهم كمَثَل زوبعة تحملها الرّيح. ثمّ اختفت الخيول عند المنعطف. فانطلقت الصيحات الكبيرة، ثمّ الضّحكات، ثمّ لا شيء بعد، لم تعد تُسمع سوى همهمات مبهمة. لقد هربت باقي الخيول، ولم يعد

---

(1) حاكم فرنسيّ لجزيرة موريس بين 1792 و1800، بنى له الفرنسيّون، على نفقة أهالي الجزيرة، ضريحاً في أحد أركان مضمار مارس.

Twitter: @ketab_n

في حلبة السّباق أيّ منها؛ اختفت جميعاً: بعضها عند غابة «خزّان الماء»، وبعضها الآخر عند جداول المنخفض، والباقي على الجسر. مرّت عشر دقائق على ذاك النّحو.

ثمّ ظهر بغتةً عند المنحدر الصّاعد جوادٌ بلا فارس؛ كانَ قد دخل المدينة ودارَ حول الكنيسة ثمّ عادَ من زقاق يفضي إلى ميدان مارس؛ ثمّ أكمل سباقه دون توجيه من أحد، متّبعاً هواه وغريزته فحسب، بينما بدأت الخيول الأُخرى تظهر خلفه آتيةً من كلّ صوب، لكنّها كانت متأخّرة جدّاً. وفي لمح البصر اخترق الجواد الذي ظهر أوّلاً المسافة التي تفصله عن الهدف، وتجاوزه بحوالى خمسينَ قدماً، ثمّ ما لبث أن توقّف من تلقاء نفسه كأنّما أدرك أنّه فاز.

وكانت الجائزة كما أسلفنا بندقيّة مونتون جميلة، وقد سُلّمت إلى صاحب الحيوان الذّكيّ. وكان مستوطناً يحمل اسم سونديرس.

وأثناء ذلك وصل البقيّة من كلّ صوب، مثل حمائمَ أفزعها صقرٌ، حمائم انطلقت من برجها سرباً واحداً، وها هي تعود إليه واحدةً واحدة.

وتاهت سبعة خيول أو ثمانية، ولم يتمّ العثور عليها إلّا في اليوم التّالي أو اليوم الذي بعده.

وحان وقت السّباق الحقيقيّ: وكان ثمّة استراحة مدّتها نصف ساعة، تمّ فيها توزيع برنامج السّباق وسُجّلت الرّهانات.

وكان أكثر المراهنين ضراوةً القبطان فان دين بروك، الذي ما إن نزل من سفينته حتّى توجّه صوب فيجبيه، وكان أحد الصّاغة المعروفين باستقامتهم، استقامةَ أهل أوفيرنيا (فرنسا)، وهناك استبدل القبطان كمبيالاتٍ وذهباً بجواهر تبلغ قيمتها حوالى مائة ألف فرنك. وراهن ضدّ أعتى المراهنين، والأكثر من ذلك أنّه راهن بأمواله كلّها على حصان

Twitter: @ketab_n

كان اسمه مجهولاً في الجزيرة، حصان يدعى أنتريم.

كان ثمّة أربعة خيول مسجّلة في السّباق:

ريستوراسيون: يمتطيه العقيد دريبر،

فرجيني: يمتطيها السيّد دوندو دو كوسي،

جِستر: يمتطيه السيّد هنري دو ماليدي،

أنتريم: يمتطيه السيّد م** (بدلاً من بقيّة الاسم كان ثمّة هاتان النّجمتان).

ذهبت أغلب الرّهانات إلى جستر وريستوراسيون، اللّذين كانا قد حقّقا أفضل الإنجازات في سباق السّنة الماضية. وهذه المرّة كان المراهنون يعوّلون عليهما أكثر، لا سيّما وأنّ من سيمتطيهما هما مالكاهما نفسهما، وقد كانا فارسين مشهوداً لهما. أمّا الفرس فرجيني فقد كان ذلك أوّل سباق تخوضه.

لكن على الرّغم من كلّ التحذيرات التي وُجّهت للقبطان فان دين بروك، إلّا أنّه فضّل التصرّف كمجنون والمراهنة على أنتريم، ما غذّى الفضول تجاه ذاك الحصان وفارسه المجهول.

وبما أنّ أصحاب الخيول كانوا هم أنفسهم من سيمتطونها، فلم يُصَر إلى وزن سائسيها. ولم يتفاجأ أحد من عدم رؤية أنتريم ولا السيّد الذي يختبئ خلف الرّموز المبهمة التي تعوّض اسمه، وظنّ الجميع أنّه سيظهر في الوقت المناسب ويصطفّ بين منافسيه عند خطّ الانطلاق.

وبالفعل، في اللّحظة التي خرج فيها الفرسان والخيول من وراء السّياج، شوهد راكضاً من ناحية مالابار ذاك الذي كان موضع فضول الجميع منذ أن وُزّع البرنامج. بيد أنّ هيئته بدلاً من أن تبدّد الشّكوك زادتها: كان يرتدي لباساً مصريّاً، وتظهر أثوابه المطرّزة من تحت بُرنُس

Twitter: @ketab_n

يخفي نصف وجهه. وبالطريقة العربيّة، أي بتوسّلِ رِكاب قصير، صعد حصانَه المُسرَج سرجاً تركيّاً. وعدا ذلك، بدا للجميع أنّه فارسٌ محنّك؛ أمّا أنتريم، الذي لم يشكّ أحد في أنّه الحصان المعنيّ بالأمر، فبَدا من النّظرة الأولى أهلاً للثّقة التي خصّه بها القبطان فان دين بروك، إذ كان يبدو شديد الخفّة والرّشاقة ومتناغماً وفارسَه.

ولم يتعرّف أحد على هويّة الحصان أو الخيّال؛ لكن بما أنّه كان مسجّلاً عند الحاكم، وكان الحاكم يعرف الجميع، فقد احتُرِم قرار القادم الجديد بإخفاء هويّته: شخص واحد فقط خمّن هويّة الفارس واشرأبّ برأسه، وقد تضرّج خجلاً، ليستبين الحقيقة. كان ذلك الشّخص سارة.

اِصطفّ المتسابقون عند خطّ الانطلاق؛ وكانوا أربعةً فقط مثلما أسلفنا، لأنّ صيت جِستر وريستوراسيون أبعدَ باقي المنافسين. فكان الجميع يحسب أنّ السّباق سيحسم لأحدهما.

وبما أنّه لم يكن هنالك سوى سباق واحد يجمع السّادة، فقد قرّر المحكّمون إطالة متعة المتفرّجين، وفُرِض سباق من دورتين بدل سباق من دورة واحدة؛ وبالتّالي سيكون على كلّ حصانٍ أن يقطع مسافة ثلاثة أميال تقريباً، أي فرسخاً، ما يزيد من فُرَص الخيولِ المعتادة على سباق المسافات الطويلة.

وعندما أُعطيت الإشارة، انطلق الجميع. بيد أنّه، وكما هو معلوم، لا تسمح البدايات في ظروف مماثلة للمرء أن يصدر أيّ حكم. فعند نصف الدّورة الأولى كانت فرجيني تتقدّم بما يقارب الثلاثين خطوة، متبوعة عن قربٍ بأنتريم، بينما ظلّ ريستوراسيون وجِستر في المؤخّرة، وكان واضحاً أنّ فارسيهما هما من يمنعانهما من التّقدم. وعند المنحدر الصّاعد، أي بعد ثلثي مسافة المضمار، كان أنتريم قد تقدّم بنصف قامته،

Twitter: @ketab_n

بينما ازداد ريستوراسيون وجستر اقتراباً؛ وكانت الخيول ستمرّ من أمام الحشد، فاشرأبّ الجميع إلى الأمام، وأخذوا يصفّقون بأيديهم ويشجّعون المتسابقين. وإذّاك أفلتت سارة، لا نعلم صدفةً أو قصداً، باقة زهورها. لمح الغريب الباقة، ودون أن يخفّف من سرعته، وبسدادٍ رائعٍ انزلق أسفل بطن حصانه على طريقة الفرسان العرب في لعبة «الجريد»[1]، وأمسك بالباقة السّاقطة وحيّا صاحبتها وأكمل سباقه دون أن يخسر أكثر من عشر أقدام، وبدا غير منشغل بهمّ استعادتها.

وعند منتصف الدّورة الثانيّة، لحق ريستوراسيون بفرجيني، وكان جِستر يتبعه بمسافةِ قامة، بينما أنتريم لا يزال متخلّفاً بسبعة أقدام أو ثمانية؛ لكن بما أنّ راكبه لم يكن ينغزه لا بالسّوط ولا بالمهماز، فقد أدرك الجميع أنّ تخلّفه لم يكن بالشيء الذي يُذكَر، وبأنّه لاحقٌ بهم لا محالة متى بدا له الأمر مناسباً.

وعند الجسر عثر الحصان ريستوراسيون بحجر وسقط هو وفارسه، الذي لم يكن قد أفلت اللّجام فرغب بحركة من يده في أن يدفع حصانه إلى القيام مجدّداً. بذل الحيوان النّبيل مجهوداً للقيام، لكنّه ما لبث أن سقط مجدّداً؛ كانت ساق ريستوراسيون مكسورة.

تابع المتسابقون الثلاثة الآخرون سباقهم. وكان جِستر قد صار في المقدّمة تليه فرجيني بمقدار ثلاث قامات، بينما يحاذيها أنتريم. لكن عند المنحدر الصّاعد أخذت فرجيني تتخلّف، بينما حافظ جستر على تفوّقه وأخذ أنتريم يتقدّم دون جهد يُذكَر. وإذ قاربوا خطّ النهاية لم يعد يفصل أنتريم عن منافسه سوى مسافة قامة، وأحسّ هنري أنّه بدأ يفقد تقدّمه، فأخذ يضرب جستر بالسّوط. وكان الخمسة وعشرون ألف متفرّج الذين

(1) لعبة يلتقط فيها الفرسان الرّماح من على الأرض فيما يخبّون على صهوات جيادهم.

Twitter: @ketab_n

يتابعون السّباق يصفّقون ويلوّحون بمناديلهم مشجّعينَ المتنافسَين. وإذّاك مال الغريب على قذال أنتريم ونطق بكلمات عربيّة، وكأنّما فهم الحيوان الذكيّ قصد صاحبه، فضاعف من سرعته. وكانوا قبالة المنصّة الأولى، وما كان يفصلهما عن خطّ النّهاية سوى خمس وعشرين قدماً؛ وكان جستر لا يزال يسبق أنتريم بمقدار رأسه، وإذ رأى الغريب أنّه ما عاد لديه وقت يضيعه، غرز مهمازَيه في بطن حصانه، وانتصب فوق رِكابِه، وأزال قبّعة بُرنُسه، ثمّ قال مخاطباً منافسَه:

- مقابل المرّتين اللّتين أهنتَني فيهما، لن أردّ عليك سوى بواحدةٍ، لكنّي أتمنّى أن تكون مساويةً لهما.

ورفع جورج (إذ كان هو الفارس المجهول) ذراعَه بينما ينطق بتلك الكلمات، وضرب وجه هنري بضربةٍ من سوطه.

ثمّ غرز مهمازيه في بطن أنتريم، ووصل أوّلاً متقدّماً على هنري بمسافة قامتين. لكنّه بدلاً من أن يتوقّف للمطالبة بجائزته، استمرّ في ركضه وغاب أمام دهشة الجميع في الغابة المحيطة بضريح مالارتيك.

وكان جورج محقّاً: فنظير الإهانتين اللّتين وجّهها له هنري، مع مسافة زمنية فاصلة تمتدّ لأربع عشرة سنة، لم يردّ عليه سوى بإهانة واحدة؛ لكنّها كانت إهانة أمام الملأ، إهانة رهيبة ومدوّية، إهانة تحدّد مصيره بأكمله، لأنّها لم تكن استفزازاً لمنافسه فحسب وإنّما إعلانَ حربٍ على البيضِ جميعهم.

وجد جورج نفسه إذن، بتدبيرٍ من مسيرة الأمور التي لا ردّ لها، وجهاً لوجه مع الحُكم المسبق الذي عادَ هو من أقصى الأرض باحثاً عنه، وكان يستعدّ ليصارعه، مثلما يتصارع عدوّان من بني البشر.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثامن عشر

لايزا

كان جورج عاكفاً في المقرّ الذي أثّثه لنفسه داخل مسكن والده بموكا، يفكّر في الوضع الذي ألفى فيه نفسه، حينَ تمّ إعلامه بأنّ زنجيّاً يطلب مقابلته. ظنّ أنّ الأمر يتعلّق بأحد رُسل السيّد دو ماليدي، فأمر بإدخاله.

وما إن رأى جورج الدّاخل عليه حتّى أيقن أنّه قد أخطأ التّقدير؛ اِنتابته ذكرى مبهمة مفادها أنّه سبق أن التقى زائره من قبل؛ بيد أنّه لم يستطع تحديد أين التقاه.

قال الزّنجي:

- ألا تذكرني؟

أجابه جورج:

- كلّا، ومع ذلك أحسب أنّنا سبق أن التقينا، أليس كذلك؟

- اِلتقينا مرّتين.

- أين؟

- اِلتقينا أوّل مرّة في النّهر الأسود، حين أنقذتَ الفتاة؛ والتقينا ثانية...

قاطعه جورج:

- أجل، إنّي أذكر ذلك؛ والثّانية؟...

قاطعه الزّنجيّ بدوره:

- الثّانية حين أعتقتني. اِسمي لايزا، واسم أخي ناظم.

- وماذا حلّ بأخيك؟

Twitter: @ketab_n

- كان ناظم عبداً، وحاول الفرار والعودة إلى أنجوان. وإذ صار حرّاً بفضلك، عاد إلى الوطن، ولا ريب في أنّه الآن بقرب والدنا. أشكرك بالنّيابة عنه.

سأله جورج:

- ومع أنّك صرت حرّاً، فقد فضّلت أن تبقى هنا. غريب!

أجابه الزّنجيّ باسماً:

- ستفهم الأمر.

قال جورج، وقد بدأ الحديث يجتذب اهتمامه رغماً عنه:

- لنرَ إذن.

اِستأنف لايزا كلامه:

- أنا ابن قائد. دمي مزيج من الدّم العربيّ والزّنجباريّ؛ لم أولد إذن كي أصير عبداً.

اِبتسم جورج لكبرياء الزّنجي، دون أن يخطر بباله أنّ تلك الكبرياء كانت الشّقيقة الصغرى لكبريائه هو.

تابع الزّنجيّ حديثه دون أن يلمح أو يلحظ ابتسامة جورج:

- لقد أسرني القائد كِرامبو في إحدى المعارك، وباعني لنخّاس باعني بدوره للسيّد دو ماليدي. عرضت عليهم شراء حريّتي بعشرين جنيهاً من التّبر لو أعادوني إلى أنجوان. لم يستطيعوا الوثوق بكلام زنجيّ، ورفضوا عرضي. أصررت على الأمر مدّة؛ ثمّ... حدث تغيير في حياتي، جعلني أضرب صفحاً عن التّفكير في الرّحيل.

سأله جورج:

- هل عاملك السيّد دو ماليدي المعاملة التي تستحقّ؟

- كلّا. ليس ذلك ما أثناني عن الرّحيل. بعد أسري بثلاث سنوات

Twitter: @ketab_n

أُسر أخي ناظم، وبيع، لحسن الحظّ، إلى السيّد نفسه. بيد أنّه لم يكن يملك الدّوافع نفسها التي تحضّني على البقاء، فأراد الفرار. وإنّك تعلم بقيّة القصّة، ما دمتَ قد أنقذتَه. كنت أحبّ أخي مثلما يحبّ الأب ابنه، والآن (وهنا ضمّ الزّنجيّ يديه إلى صدره وانحنى) صرتُ أحبّك أنت مثلما يحبّ الابن أباه. على أنّي سأبْسط أمامك الواقع. اِسمع، فما سأقوله يهمّك مثلما يهمّنا، نحن هنا ثمانون ألف رجل ملوَّنٍ، مقابل عشرين ألف أبيض.

قال جورج باسماً:

- عددتُ ذلك أصلاً.

أجاب لايزا:

- كنت أخمّن ذلك. ومن بين الثمانين ألفاً، ثمّة عشرون ألف رجلٍ على الأقل يستطيعون حمل السّلاح؛ بينما لا يكاد يستطيع البيض، بما فيهم أفراد ثكنة الجيش الإنجليزيّ، أن يجمعوا أربعة آلاف رجل.

قال جورج:

- أعلم ذلك أيضاً.

قال لايزا:

- اِحزر إذن!

- إنّي أنتظرُ أن تبيّن لي الأمر.

- لقد قرّرنا التّخلّص من البيض. لقد عانينا، والحمد لله، ما يكفي لكي يكون من حقّنا الانتقام.

سأله جورج:

- وإذن؟

فأجاب لايزا:

Twitter: @ketab_n

- وإذن، نحن جاهزون.
- وما الذي يمنعكم إذن، ولِمَ لا تنتقمون لأنفسكم؟
- ينقصنا قائد. أو بالأحرى أُقترُح علينا قائدان، لكنّ لا أحد منهما يصلح للمهمّة.
- ومن هما؟
- أحدهما، أنطونيو الماليزيّ.

ترك جورج ابتسامة ازدراءٍ تنطبع على شفتيه، ثمّ تساءل:
- والثاني؟

أجاب لايزا:
- الثاني هو أنا.

نظرَ جورج مباشرةً إلى الرّجل الذي يهب البِيض مثالاً فريداً عن التّواضع، إذ يقرّ بأنّه غير كفؤ للمرتبة التي يُدعى إليها.

اِستأنف الشابّ كلامه:
- الآخر هو أنت...؟

أجاب الزّنجيّ:
- أجل، لكن لا يمكن أن يقود أمراً كهذا قائدان؛ يلزم قائد واحد فحسب.

غمغم جورج : «آه! آه!»، وقد خال أنّ لايزا يصبو إلى أن يكون القائد الأعلى.
- يلزمنا قائد واحد، قائد أعلى، قائد مطلق، قائد لا يجادل أحد في تفوّقه.

سأله جورج:
- لكن، أنّى لكم هذا الرّجل؟

Twitter: @ketab_n

أجاب لايزا وهو يحدّق بجورج:

- لقد وجدناه. لكن هل سيقبل بالأمر؟

قال جورج:

- سيجازف برأسه.

فسأله لايزا:

- ونحن؟ ألا نجازف بشيء؟

- لكن، أيّ ضمان تقدّمونه له؟

- الضّمان ذاته الذي يقدّمه لنا: ماضٍ من الاضطهاد والعبودية، ومستقبل من الانتقام والحريّة.

- وأيّ خطّة وضعتم؟

- غداً، بعد احتفالات اليامسَيه، عندما يكلّ البيض من ملذّات اليوم، وينسحبون بعد إحراق «الغون» سيبقَى اللاسكاريّون وحدهم على ضفاف نهر اللاتانييه؛ وإذّاك، سيخرج من كلّ موضعٍ الأفارقةُ والماليزيّون والملغاشيّون وأبناء جزر مالابار والهنود، وكلّ من قبلوا الالتحاق بمؤامرتنا؛ وهناك سيختارون قائداً، وذاك القائد هو من سيسيِّرهم. وإذن، ما عليك سوى أن تقول كلمةً واحدة وستكون أنت ذلك القائد.

سأله جورج:

- ومن ذا الذي كلّفك بأن تقترح عليّ هذا الأمر؟

اِبتسم لايزا بسخرية وقال:

- لا أحد.

- وإذن أنت صاحب الفكرة؟

- أجل.

Twitter: @ketab_n

- ومن الذي ألهمكَ إيّاها؟

-أنت نفسك.

- كيف ذلك؟

- لن تبلغ ما تتمنّاه دوننا.

- ومن أخبرك أنّي أتمنّى شيئاً؟

- إنّك تتمنّى أن تتزوّج وردة النّهر الأسود، وتكره السيّد هنري دو ماليميدي! تريد أن تمتلك تلك، وأن تنتقم من هذا! ووحدنا نستطيع أن نمنحك الإمكانية للقيام بذلك؛ لأنّهم لن يقبلوا أن تتزوّج بها، ولن يسمحوا له بأن يصير خصمك.

- ومن قال لك إنّي أحبّ سارة؟

- لقد رأيت ذلك.

- إنّك مخطئ.

هزّ لايزا رأسه بأسىً وقال:

- إنّ العينين اللّتين في الرّأس تخطئان أحياناً، أمّا عين القلب فلا تخطئ البتّة.

قال جورج بابتسامة ازدراء:

- أوَ تكون أنتَ منافسي؟

أجاب الزّنجيّ زافراً:

- لا يمكن أن يكون منافساً إلّا من له أمل في أن يُعشقَ، لكنّ وردة النّهر الأسود لا يمكن أبداً أن تحبّ أسد أنجوان.

- لستَ تغارُ إذن؟

- لقد أنقذتَ حياتها، هي لك إذن؛ إنّه لأمرٌ عادل. أمّا أنا فلم أنل حتّى سعادة الموت في سبيلها.

Twitter: @ketab_n

وأضاف الزنجيّ وهو يثبّت نظرته على جورج:

- لكن هل تحسب أنّي فعلت ما ينبغي لأبلغ ذلك؟

غمغم جورج:

- أجل، أجل، إنّك رجل شجاع، لكن هل بوسعي الاعتماد على الآخرين؟

أجاب لايزا:

- لا أستطيع الحديث سوى عن نفسي، وأقول: كلّ ما بوسع المرء أن يأمله من رجل شجاع ووفيّ ومستعدٍ للتضحية بنفسه، ستجده فيّ.

- هل ستطيعني في المقام الأوّل؟

- أطيعك في كلّ ما تقوله.

- حتّى في ما يخصّ؟...

توقّف جورج وأخذ ينظر إلى لايزا، فأجاب الزّنجيّ مكمّلا فكرة الشابّ:

- حتّى في ما يخصّ وردةَ النّهر الأسود.

- لكن، من أين أتتك هذه الرّغبة في التّضحية من أجلي.

- كان أيّل أنجوان على وشك أن يموت تحت سياط الجلّادين، فاشتريتَ حياته؛ وكان أسد أنجوان يرسف في الأغلال فحرّرته. وليس الأسد أقوى الحيوانات فحسب، وإنّما هو أيضاً أشدّها كرماً؛ ولأنّه قويّ وكريم (أكمل الزنجيّ مشبكاً ذراعيه، ورافعاً رأسه بفخر) يسمّونه أسدَ أنجوان.

قال جورج وهو يمدّ يده إلى الزّنجيّ:

- حسناً، أطلبُ مهلةَ يومٍ لأقرّر.

- وما الذي يتوقّف عليه قبولك أو رفضك؟

Twitter: @ketab_n

- لقد أهنت اليوم السيّد هنري دومالميدي أمام الجميع، إهانة قاتلة.

- أعلم، لقد كنت هناك.

- إذا ما أراد السّيد دو مالميدي قتالي، فلن أرفض.

قال لايزا مبتسماً:

- وماذا إن رفض القتال؟

- إذّاك سأكون طوع أمركم؛ فكما نعلم هو شجاعٌ، وسبق أن واجه خصمَين من البيض وقتل أحدهما، وإذا ما رفض منازلتي، فسيكون قد أضاف إهانةً ثالثة إلى الإهانتين السّابقتين، وسيكون الكيل قد طفَح.

قال لايزا:

- أنت إذن قائدنا، فالرّجل الأبيض لن يواجه مولَّداً أبداً.

قطّب جورج حاجبه، إذ كان قد سبق أن خطر بباله ذلك الأمر، لكنّه لم يفهم كيف لرجلٍ أبيضَ أن يحمل وصمة العار التي طبعها على وجهه أحد المولَّدين.

وفي تلك اللّحظة دخل تليماك واضعاً يده على أذنه التي قطع منها جوهرة قطعة، كما أسلفنا. وقال:

- سيّدي، إنّ القبطان الهولنديّ يريد مقابلتك.

سأله جورج:

- القبطان فان دين بروك؟

- نعم.

قال جورج: «حسناً»، ثمّ استدار صوبَ لايزا وتابع كلامه: «اِنتظرني هنا، سأعود؛ لعلّ جوابي سيكون أسرع ممّا كنت أحسب».

خرج جورج من الغرفة التي كان فيها لايزا، ودخل فارداً ذراعيه إلى

Twitter: @ketab_n

الغرفة التي ينتظره فيها القبطان.

قال القبطان:

- لقد عرفتني إذن يا أخي؟

- أجل يا جاك، وإنّي لَسعيد بمعانقتك، لا سيّما في هذا الظرف.

- كِدتَ ألّا تحظى بهذه السّعادة هذه المرّة.

- كيف ذلك؟

- عليّ أن أنصرف.

- لِمَ؟

- يبدو لي أنّ الحاكمَ أحدُ ثعالب البحر المحنّكة.

- بل قل هو ذئب بِحارٍ، أو نمر بِحارٍ يا جاك. إنّ الحاكم هو الكومودور الشّهير اللّورد وليامز مورّيه، القائد السّابق للّايسستر.

- اللايسستر! كان عليّ أن أخمّن ذلك؛ لدينا إذن حساب قديم ينبغي تصفيته، لقد فهمتَ كلّ شيء.

- ما الذي حدث إذن؟

- ما حدث هو أنّ الحاكم قد أتى إليّ بعد السّباق وقال لي: «أيّها القبطان فاد دين بروك، إنّك تملك مركباً شراعيّاً جميلاً!» وحتّى هذه اللّحظة كان الأمر عاديّاً، لكنّه أضاف: «هل لي بزيارته غداً؟»

- لقد ارتاب من شيءٍ ما.

- أجل، وأنا مثل غرٍّ لم أرتَبْ من شيء، فبادرت بدعوته إلى الغداء على متن السّفينة. وقبِلَ الدّعوة.

- ثمّ؟

- ثمّ، في طريق عودتي بعدما حضّرت كلّ شي من أجل دعوة الغداء تلك، انتبهتُ إلى أنّ ثمّة إشارات تُرسل إلى البحر من على قمّة «تلّة

Twitter: @ketab_n

الاكتشافات»، فبدأت أدرك أنّي قد أكون المعنيّ بتلك الإشارات. صعدتُ إلى الجبل، واستكشفتُ البحر بمنظاري خمس دقائق، فتيقّنت من الأمر؛ كانت ثمّة على بعد عشرين ميلاً سفينةٌ تردّ على الإشارات.

- تلك السّفينة هي اللايسستر؟

- بالضّبط. إنّهم يريدون محاصرتي؛ لكنّك تعرف أنّ جاك ليس غرّاً: إنّ الرّيح تهبّ من جهة الجنوب الشرقيّ، ما يعني أنّ البارجة لن تستطيع دخول بور لويس دون أن تُّمور. وعلى هذه الوتيرة، ستحتاج إلى اثنتي عشرة ساعة كي تبلغ جزيرة «صنّاع البراميل». وأثناء ذلك أكون أنا قد هربت، وقد أتيت باحثاً عنك كي تهربَ معي.

- أنا؟ ولمَ أرحل؟

- لم أخبرك بعد بشيء. أيّ فكرة مجنونة تلك التي دفعت بك إلى شقّ وجه ذاك الفتى الوسيم بالسّوط؟ ليس جميلاً ما فعلتَه.

- ألا تعلم إذن من يكون ذاك الرّجل؟

- بلى أعلم، ما دمتُ قد راهنتُ ضدّه بألف لويسيّة. وبالمناسبة، إنّ أنتريم حصان شهم، بلِّغْه تحيّاتي.

- أفلا تذكر ما فعله هنري دو ماليدي ذاك نفسه قبل أربع عشرة سنةً، يومَ المعركة...؟

- وماذا بعد؟

رفع جورج شعره عن جبينه وأرى أخاه أثر الجرح على جبهته.

صاح جاك:

- آه! أجل، صحيح؛ اللّعنة! ما زلت تحمل الضّغينة؛ لقد نسيتُ تلك

Twitter: @ketab_n

القصّة برمّتها. ثمّ لا تنسَ أنّ تلك المداعبة التي داعبك بها كلّفته ضربةً من قبضة يدي تعادل ضربة سيفه.

- أجل، ولقد نسيت تلك الإهانة الأولى، أو بالأحرى كنت مستعدّاً لأن أصفح عنه وأنساها، لولا أنّه وجّه إليّ إهانةً ثانية.

- أيّة إهانة؟

- لقد رفض طلبي الزّواج من ابنة عمّه.

- أوه! يا لك من فتى ظريف! هو ذا أب وابنه يربّيان وريثةً مثلما يُربَّى طائر سُمانى في طور الانسلاخ، حتّى ينتفا ريشها كما يريدان بعد زواج مدبّر. وعندما يصير السّمانى جاهزاً يأتي صيّاد غير شرعيّ ويريد أخذه لنفسه. ماذا كنت تنتظر منه غير الرّفض؟ دون أن نذْكر أنّنا مولَّدان ليس إلّا.

- أنا لم أعتبر رفضه في حدّ ذاته إهانة، لكنّه أثناء حديثه معي رفع في وجهي عصاً.

- آه! في هذه الحال يكون قد اخطأ. صرعتَه إذن؟

قال جورج ضاحكاً من الطّريقة التي يلجأ إليه أخوه لمواساته في مثل هذه المناسبات:

- كلّا، لقد طلبت منه منازلتي.

- ورفض؟ صحيح، فنحن مجرّد مولَّدين. نضرب البيض أحياناً، لكنّ البيض لا يقبلون منازلتنا أبداً.

- وإذّاك وعدته بأن أجبره على منازلتي.

- ألهذا السّبب ضربته بالسّوط على وجهه أثناء السّباق، coram populo (أمام الملأ) مثلما كنّا نقول في كوليج نابليون. فكرة لا بأس بها، لكنّها لم تنجح للأسف.

Twitter: @ketab_n

- لِمَ تنجح؟.. ماذا تقصد؟

- قصدتُ أنّ السيّد دو ماليدي فكّر بالفعل بدايةً في منازلتك، لكنّ لا أحد قبِلَ أن يكون شاهده في النّزال، فأعلن أصدقاؤه أنّ نزالكما متعذّر.

- فليحمل إذن إهانة ضربة السّوط التي وجّهتها له؛ إنّه حرّ.

- أجل، لكنْ ثمّة شيء آخر بانتظارك أنتَ.

سأله جورج مقطّباً حاجبيه:

- ما الذي يحضّرونه لي؟

- بما أنّ المعنيّ بالأمر كان مصرّاً على النّزال رغم كلّ ما قيل له، فقد كان لزاماً عليهم وعده بشيء حتّى يتنازل.

- وبماذا وُعِد؟

- وُعِد بأنّك في إحدى المساءات التي تكون فيها بالمدينة، سيفاجئك ثمانية رجال أو عشرة ويربطونك إلى سلّم ويجلدونك خمساً وعشرين جلدة.

- البؤساء! يريدون لي عقابَ الزّنوج!

- ومن نحن، نحن المولَّدين؟ إنّنا زنوج بيضٌ ليسَ إلاّ.

سأله جورج:

- وهل وعدوه بذلك؟

- بكلّ تأكيد.

- أنت متأكّد؟

- لقد كنت هناك، لقد ظنّوني هولنديّاً مقداماً، صاحبَ دمٍ نقيّ، لهذا لم يتحرّزوا منّي.

- حسناً، لقد اتّخذت قراري.

Twitter: @ketab_n

- سترحل معي؟
- سأبقى.
قال جاك وهو يضع يده على كتف أخيه:
- اِسمع يا أخي، صدّقني، اِتبع نصيحة فيلسوف عتيق: لا تبقَ هنا، هيّا معي.
- مستحيل! سأبدو كمن فرّ؛ ثمّ إنّي أحبّ سارة.
- تحبّ سارة؟... ما معنى هذا الكلام: «أحبّ سارة»؟
- يعني أنّه إمّا أن تكون لي تلك المرأة أو دونها الموت.
- اِسمع يا جورج، صحيح أنّي لا أدرك هذه اللّطائف، فأنا لم أحبّ يوماً سوى نسائي العابرات، اللّواتي كانت لهنّ القيمة ذاتها التي كانت لسواهنّ، صدّقني؛ وحين ستجرّب، ستقايض أربعاً من النّساء البيضاوات بامرأة واحدة من جزر القمر، على سبيل المثال. وبالمناسبة معي الآن في السّفينة ستّ منهنّ، أخيّرك بينهنّ.
- شكراً يا جاك، لكنّي أؤكد لك أنّي لن أترك جزيرة موريس.
- وأنا أكرّر إنّك مخطئ. إنّها فرصة لا تعوّض. سأرحل هذه اللّيلة في الساعة الواحدة، دون أن أُشعِر أحداً؛ هيّا معي، وغداً نكون على بعد خمسة وعشرين فرسخاً من هنا، وسنسخر من كلّ بِيض جزيرة موريس؛ دون أن أغفل أنّنا إن أمسكنا بأحدهم فسأجعل أربعةً من ملاحيَّ يهبونه المصير الذي يُحضَّر الآن لك.
- شكراً يا أخي؛ إنّه لأمر مستحيل!
- حسناً، أنت رجلٌ، وعندما يقول رجلٌ «إنّه لأمر مستحيل» فمعنى ذلك أنّ الأمر مستحيل حقّاً. سأرحل إذن من دونك.
- أجل، ارحلْ؛ لكن لا تبتعد كثيراً، وستشهد شيئاً لم يخطر لك على

Twitter: @ketab_n

بال...

- وما الذي سأشهده؟ خسوف قمرٍ؟...

- ستشهد انفجار بركان يمتدّ من «مضيق القرون» إلى هضبة برابان، ومن بور لويس إلى ماهيبورغ، بركاناً يعادل بركان جزيرة بوربون.

- آه! آه! هذا كلام آخر؛ لديك أفكار في إعداد المفرقعات على ما يبدو؟ فسّرْ لي الأمر قليلاً.

- كلّ ما في الأمر هو أنّ هؤلاء البيض الذين يتوعّدونني، هؤلاء البيض الذين يريدون جَلْدي، سيركعون تحت قدميّ بعد ثمانية أيّام.

قال جاك:

- هي انتفاضة إذن.. فهمتك. إنّه لأمر ممكن لو أنّك فقط كنت تمتلك ألفَي رجلٍ مثل رجالي اللّاسكاريّين المائة والخمسين؛ وأنا أقول لاسكاريّين بدافع من العادة ليس إلاّ، فلا أحد ينتسب إلى تلك الجماعة الإثنية الدونيّة: رجالي كلّهم من البروتونيّين الجيّدين والأمريكيّين البواسل والهولنديّين الحقيقيّين والإسبان الخالصين؛ من أفضل ما هو موجود في الأمم الأربع. لكن أنت، ماذا تملك لتدعم انتفاضتك؟

- عشرة آلاف زنجيّ سئموا الخضوع وصاروا متعطّشين لأن يحكموا بدورهم.

قال جاك دافعاً شفته السفلى بازدراء:

- زنوج؟ بففف!... اِسمع يا جورج؛ أنا أعرف الزّنوج جيّداً، فأنا أتاجر بهم: إنّهم يقاومون الحَرّ، ويستطيعون العيش بموزة واحدة، ويشتغلون كثيراً، لديهم الكثير من المزايا، لست أريد أن أبخس

Twitter: @ketab_n

بضاعتي قيمتها؛ لكنّهم مقاتلون بؤساء. بالمناسبة، لقد سألني الحاكم اليوم عن رأيي في الزّنوج.

- كيف؟

- أجل لقد قال لي: «يا قبطان فان دين بروك، لقد سافرتَ كثيراً، وتبدو لي رجلاً نافذ البصيرة. فإذا ما كنت حاكماً على جزيرة وانتفضَ فيها الزّنوج، فما الذي ستفعله؟»

- وبمَ أجبته؟

- قلت له: «سأضع في الأزقّة التي من المفترض أن يمرّوا منها حوالى مائة من براميل العرق، وسأذهب للنّوم تاركاً مفتاح بيتي على الباب».

عضّ جورج شفتيه حتّى أدماهما. تابع جاك كلامه:

- وها أنذا أقول لك للمرّة الثّالثة: تعالَ معي؛ فذاك أفضل ما يمكنك أن تفعله.

- وأنا أجيبك للمرةّ الثالثة: إنّه لأمر مستحيل.

- وإذن، قبّلني يا جورج.

- وداعاً يا جاك!

- وداعاً يا أخي! لكن صدّقني، لا تثق بالزّنوج.

- ترحل هكذا إذن؟

- اللّعنة! نعم. أوه! أنا لا أملك كبرياءك، وأعرف كيف أهرب في المناسبات، وعندما أصير في البحر بوسع اللايسستر أن تأتي لمواجهتي ما شاءت، لتلعب معي هناك لعبة الكرة والأولاد، ولترَ إن كنت سأنسحب. لكن في الميناء، وتحت قصف القلعة البيضاء وحصن «النجل الطنّان»، كلاّ! هكذا إذن أسألك للمرّة الأخيرة،

Twitter: @ketab_n

فهل تصرّ على الرّفض؟

- أرفضُ.

- وداعاً!

- وداعاً!

تعانق الشابّان مرّةً أخيرة، ودخل جاك على أبيه الذي كان نائماً وجاهلاً تماماً بما يجري. أمّا جورج، فعاد إلى الغرفة التي كان ينتظره فيها لايزا.

سأله الزّنجيّ:

- وإذن؟

قال جورج:

- حسناً، أخبرِ الثّوارَ أنّه قد صار لهم الآن قائد.

شبكَ الزنجيّ يديه إلى صدره، ودون أن يسأل شيئاً آخر، اِنحنى عميقاً وخرج.

Twitter: @ketab_n

الفصل التاسع عشر

اليامسَيه

وكما أسلفنا، لم تكن السّباقات سوى مقدّمة لاحتفالات اليوم الثّاني؛ وما إن انتهت السّباقات، حوالى السّاعة الثالثة بعد الظُّهر حتّى توجّه كلّ سكّان الجزيرة المتعدّدو الألوان، والذين كانوا يغطّون الجبل الصّغير، توجّهوا إلى السّهل الأخضر؛ أمّا رجال الطّبقة الرّاقية ونساؤها ممّن شاهدوا السّباق، فقد عادوا في العربات أو على ظهور الجياد إلى منازلهم كي يتغدّوا قبل أن يتوجّهوا لمشاهدة عروض اللاّسكاريّين.

كانت العروض تتلخّص في رياضة بدنيّة رمزيّة تتشكّل من سباقات ورقصات وجولات مصارعة يصاحبها غناء ناشز وموسيقى متوحّشة، تختلط بها نداءات الزّنوج الذين يعملون لحسابهم أو لحساب أسيادهم، هؤلاء ينادون: «موز! موز!»، أو «قصب! قصب!»، وأولاء ينادون: «رائب! رائب! حليب رائب ممتاز»، وآخرون يصيحون: «قصب! قصب!»، «كالو[1]! كالو! كالو لذيذ المذاق!»

تستمرّ تلك العروض البدنيّة حتّى السّادسة مساءً؛ ثمّ في السّادسة مساءً يحين دور الموكب الأصغر، ويسمّى كذلك تمييزاً له عن الموكب الأكبر الذي يكون موعده في اليوم التّالي.

---

(1) مختصر Kaloupilé وكذلك caloupilé، وهي شجرة لأوراقها فوائد عطريّة ولها ثمار سوداء من نوع العنبيّات، تؤكَل.

Twitter: @ketab_n

يتقدّم اللّاسكاريون ما بين صفّين من المشاهدين[1]، ويكون بعضهم متخفّياً تحت باغودات (معابد بوذيّة) صغيرة ذات رؤوس حادّة ومصنوعة على شاكلة «الغون» تسمّى «العيدورات»؛ بينما يكون آخرون مسلّحين بعصيّ وسيوف مثلومة؛ وغيرهم أشباه عراة يرتدون ملابس ممزّقة. ثمّ عند إشارة معيّنة، ينطلقون جميعهم: أولئك الذين يلبسون العيدورات يبدؤون في الدّوران حول أنفسهم راقصين؛ وأولئك الذين يحملون السّيوف والعصيّ يبدؤون في التبارز دائرين، وموجّهين الضربات إلى بعضهم البعض بدقّة وسداد رائعَين؛ ثمّ يأتي في الختام أولئك الذين يضربون صدورهم بيأسٍ ظاهر وهم يصيحون في وقت واحد، أو بالتّناوب: «يا مسَيه! يا ملي! يا حسين! يا علي!».

وبينما يقومون بتلك التّمارين الدّينيّة، يذهب بعضهم إلى تقديم الأرزّ المطبوخ والأعشاب العطرة. تستمرّ تلك الجولة حتّى المساء؛ ثمّ حين ينتصف اللّيل، يعودون جميعهم إلى ناحية مالابار بالتّرتيب نفسه الذي أتوا به، ولا يغادرونه إلّا يوم الغد في السّاعة نفسها.

على أنّ المشهد تغيّر في اليوم التّالي وكَبُرَ. فبعد أن قام اللّاسكاريون بالجولة نفسها التي قاموا بها في اليوم السّابق، عادوا إلى معسكرهم ما إن حلّ اللّيل. لكنهم لم يعودوا إليه هذه المرّة بنيّة النّوم، وإنّما بحثاً عن «الغون» الذي تمخّض عن اجتماع الفرقتين. وقد كان «الغون» هذه السّنة أكبر وأعظم من كلّ السّنين الماضية: مغلّفاً بأغنى الأوراق وأكثرها وهَجاً وتنوّعاً؛ ومُضاءً من الدّاخل بواسطة نيرانٍ، ومن الخارج بواسطة مَشاكٍ مصنوعة من أوراق متعدّدة الألوان ومعلّقة في كلّ شقّ وكلّ زاوية، ممّا

---

(1) يبدأ الكاتب هنا بوصف شعيرة كان قد عرّف بها وبعناصرها المكوّنة ومفرداتها الرئيسة في بداية الفصل السادس عشر من هذه الرواية.

Twitter: @ketab_n

يجعل النّور يفيض على أجنحة «الغون» العريضة في سيول متغيّرة. تقدّم «الغون» محمولاً على أكتاف رجال يقف بعضهم في داخله بينما يقف الآخرون خارجه؛ رجال يغنّون جميعهم بإيقاعات رتيبة وكئيبة. وأمام «الغون» كان يمشي رجالُ إضاءةٍ يحملون عصيّاً بطول اثنتي عشرة قدماً يؤرجحون عند أطرافها مشاكيَ وفوانيس وشموساً وأشكالاً ناريّة أخرى. وإذّاك عادت رقصات أصحاب العيدورات والمبارزات كأفضل ما يكون. ومن جديدٍ طفِقَ المصلّون يضربون صدورَهم وهم يصيحون صيحاتِ ألم يردّ عليها الجمع بأكمله بصيحات متناوبة: «يا مسَيه! يا ملي! يا حسين! يا علي!»، وكانت الصّيحات عميقة ومفجعة أكثر من الصيحات التي تمّ إطلاقها في اليوم السّابق.

ذاك أنّ «الغون» كان هذه المرّة معَدّاً في آنٍ معاً ليمثّل مدينة كربلاء التي قُتل الحسين قربها، والقبر الذي دُفنَ فيه رفاته. ثمّ إنّه كان ثمّة رجل في هيئة نمرٍ، إشارةً إلى الأسد المعجزة الذي ظلّ يحرس جثمانَ الإمام عشرةَ أيّام. ومن حين إلى آخر كان الرّجل يقفز شطر المتفرّجين كأنّما سيلتهمهم، لكنّ رجلاً، يمثّل دور حارسه، يمنعه بواسطة حبل يشدّه به؛ في حين يحاول أحد الملالي تهدئته بواسطة عبارات غامضة يتلوها عليه، وحركات تنويميّة.

ولساعات طوال راحوا ينقلون «الغون» في موكب داخل المدينة وفي نواحيها؛ ثمّ سلك حاملوه طريق نهر اللاتانييه، متبوعين بساكني بور لويس كلّهم. ثمّ بلغت الحفلة نهايتها، وتوجّهوا لدفن «الغون»، وهناك رغب أولئك الذين تبعوه في لحظات توهّجه أن يشيّعوه في لحظات انهياره.

وإذ بلغوا نهر اللاتانييه، توقّف حَمَلة الآلة العظيمة على الضّفاف؛

Twitter: @ketab_n

ثمّ حين دقّ منتصف اللّيل، دنا من «الغون» أربعةُ رجالٍ حاملين أربعة مشاعل، وأضرموا النّيران في جوانبه الأربعة. وفي اللّحظة نفسها ترك الحمَلة «الغون» يسقط في النّهر.

وبما أنّ نهر اللاتانييه ليس سوى سيل صغير، ما يجعل الماء لا يكاد يبلّل أسفلَ «الغون»، فإنّ النّيران سرعان ما شبّت في كلّ جوانبه العليا، وانطلقت مثل لولبٍ عظيمٍ وعلت مُنغَزلةً صوب السّماء. وإذّاك حدث أمر غاية في العجب: فعلى ضوء ذاك النّور الزائل، والوهّاج، شوهد أولئك الثلاثون ألفَ مُشاهدٍ من كلّ المجموعات الإثنيّة، يصيحون بجميع اللّغات، ويلوّحون بمناديلهم وقبّعاتهم: كان بعضهم مجتمعاً عند ضفّة النّهر نفسها، بينما اجتمع الباقون فوق الصّخور المحيطة؛ وراح هؤلاء يزدادون اندغاماً في كتل تزداد كثافةً كلّما ازدادوا توغّلاً داخل الغابة؛ وأولئك شكّلوا دائرة عظيمة، راكبين هوادجهم وعرباتهم وخيولهم. وللحظةٍ عكست المياهُ النّيرانَ التي كانت على وشك إخمادها؛ للحظةٍ هاج ذاك الخليط مثل بحرٍ؛ للحظةٍ تمدّدت الأشجار في الظّل مثل عملاقٍ ينهض؛ للحظةٍ ما عادت السّماء تُرى إلّا خلَل بخارٍ أحمر يجعل كلّ غيمة تمرّ شبيهةً بموجة دم.

ثمّ سرعان ما خفتت الأضواء، فاختلطت الرّؤوس: وبدت الأشجار تبتعد بنفسها وتدخل إلى الظّل؛ وشحبت السّماء مستعيدةً شيئاً فشيئاً لونها الباهت؛ وتوالت الغيوم غامقةً أكثر فأكثر. ومن حين إلى آخر كانت تشتعل بعض الأجزاء التي كانت حتّى تلك اللّحظة في منأى عن النّار، فتلقي على المنظر وعلى المتفرّجين الذّين يملؤونه وميضاً مضطرباً، ثمّ ما تلبث أن تنطفئ مخلّفةً عتمةً أشدّ ممّا كانت عليه قبل أن تشتعل. وشيئاً فشيئاً تحوّل الهيكل بأكمله إلى فحمٍ متّقدٍ يُرجّف ماءَ النّهر؛ وفي

Twitter: @ketab_n

نهاية المطاف انطفأت آخر الأنوار، وبما أنّ السّماء كانت، كما أسلفنا، مليئة بالغيوم الدّاكنة، فإنّ الجميع ألفوا أنفسهم في ظلام دامسٍ بقدر ما كان الضياء الذي سبقه شديدَ الوهج.

وحينئذ حدث ما يحدث دائماً عقبَ الحفلات العامّة، وتحديداً عقب الشّهب والألعاب النّارية: سرت ضجّة عظيمة، وبدأ الجميع يعودون إلى المدينة بأسرع ما يمكنهم، فيما يتكلّمون ويضحكون ويتبادلون الهزء؛ وانطلقت العربات بخبب أحصنتها، والهوادجُ بهرولةِ زنوجها؛ بينما الرّاجلون، وقد اجتمعوا زرافات، جعلوا يحثّون خطاهم في أثر الهوادج والعربات.

وكان الزّنوج والرّجال الملوّنون آخر من غادروا، وذلك إمّا عن فضول مفرط أو بفعلِ تلكّؤ هم مجبولون عليه؛ لكنّهم انصرفوا هم أيضاً في آخر المطاف، فاتّخذ بعضهم سبيل ناحية مالابار، بينما صعد الآخرون النّهر؛ هؤلاء راحوا يتوغّلون في الغابة، وأولئك يحاذون شاطئ البحر.

وبعد دقائق معدودات، صارت السّاحة قفراً، ومضى ربع ساعة لا يُسمَع فيه صوتٌ ما خلا خريرَ الماء المنساب بين الصّخور، ولا يُرى فيه شيء ما عدا الخفافيش العظيمة التي تطير بتثاقلٍ وتنقضّ على النّهر، كأنّما تحاول أن تخمد ما تبقى من جمر مشتعل على صفحة الماء، قبل أن تعود إلى الارتفاع وتقصد الغابة لتتيه فيها.

ولم يمضِ ذلك اليومَ وقت طويل حتّى سُمِع ضجيجُ رجلَين يسيران زاحفَين أحدهما صوب الآخر، الأوّل قادماً من ناحية سريّة دوما والآخر من ناحية «الجبل الطّويل»؛ وإذ لم يعد يفصل بينهما سوى الجدول، قاما واقفين وتبادلا إشارات، فصفّق أحدهما بيديه ثلاث مرّات، بينما صفّر الآخر ثلاث مرّات.

Twitter: @ketab_n

وإذّاك خرج من أعماق الغابة، ومن زوايا الحصون والصخور التي تحفّ النّهر وأشجار المانغا التي تنحني على ضفّة البحر، أقول خرج شعب من الزّنوج والهنود، شعب ما كان ليخمّن أحدٌ وجوده قبل ذلك بخمس دقائق. على أنّ الجمع كان منقسماً إلى عصابتين متمايزتين جدّاً: فإحداهما لم تكن تضمّ سوى الهنود، بينما لم تكن الثانية تضمّ غير الزّنوج. اِلتفّ الهنود حول أحد القائدَين اللّذين وصلا أوّلاً، وكان ذا بشرة زيتونيّة اللّون، ويتحدّث اللّسانَ الماليزيّ.

بينما التفّ الزّنوج حول القائد الثّاني، وكان زنجيّاً يتحدّث بالتّناوب اللّغةَ المالغاشيّة واللّغة الموزمبيقيّة.

أحد القائدين كان يتجوّل وسط الحشد، مثرثراً هادراً صارخاً متسائلاً. كان يبدو من طينة الوضيع المتسلّق، الماكر السّوقيّ: كان هو أنطونيو الماليزيّ.

أمّا الآخر فكان هادئاً ساكناً وشبه صامت؛ كان بخيلَ الكلام رصينَ الحركة، وكان يبدو أنّه يجذب إليه الأنظار دون أن يسعى إلى ذلك. كان صورةً فعليّة عن القوّة والعبقريّة التي تقود: كان هو لايزا، أسد أنجوان.

وكان الرّجلان هما قائدا التمرّد بينما كان العشرةُ آلاف مولَّد الذين يحيطون بهم يؤلّفون جيش المتآمرين.

تكلّم أنطونيو أوّلاً فقال:

- كان ثمّة ذات مرّة جزيرةٌ تحكمها القرود، وتعمرّها الفيَلة والأسود والنّمور والفهود والثعابين. وكان عدد المحكومين يفوق عدد الحاكمين بعشرة أضعاف؛ بيد أنّ الحاكمين كانوا يملكون دهاء قردة البابوان، الذي مكّنهم من بثّ الفرقة بين السكّان، فكانت الفيَلةُ تتبادل الكره مع الأسود، والنّمورُ مع القرود، والثّعابينُ مع الجميع. فكان أنّه متى رفعت

Twitter: @ketab_n

الفيَلةَ خراطيمها جيّشت القردةُ الثّعابينَ والفهودَ والنّمورَ والأسودَ ضدّها. وعلى الرّغم من قوّة الفيلة كانت تنتهي دائماً مهزومةً؛ وإذا ما زأرت الأسود، جيّشت القردةُ ضدّها الثّعابينَ والفهودَ والنّمورَ والفيلة. وعلى الرّغم من شجاعة الأسود كانت تنتهي دائماً أسيرةً؛ وإذا ما كشّرت النّمور عن أنيابها، جيّشت القردةُ ضدّها الثّعابينَ والفهودَ والأسودَ والفيلة. وعلى الرّغم من قوّة النّمور كانت تنتهي دائماً في القفص؛ وإذا ما وثبت الفهود، جيّشت القردةُ ضدّها الثّعابينَ والأسودَ والنّمورَ والفيلة. وعلى الرّغم من رشاقة الفهود كانت تنتهي دائماً مُروَّضةً؛ وفي الأخير إذا ما فحّت الثعابين، جيّشت القردةُ ضدّها الفهودَ والأسودَ والنّمورَ والفيلة. وعلى الرّغم من مكر الثعابين كانت تنتهي دائماً خاضعةً؛ وكان الحاكمون، الذين نجحت خطّتهم مئات المرّات، يضحكون كلّما تناهى إليهم خبرُ تمرّدٍ، ويقمعون الانتفاضة فوراً بتكتيكهم المعتاد. وقد دام الأمر طويلاً على تلك الحال، إلى أن فكّر ثعبانٌ، وكان أكثر حذقاً من غيره: كان ذاك الثعبان يعرف قواعد الحساب الأربع لا أقلّ ولا أكثر، تماماً مثل خازن السيّد دو م***؛ فعلِم حسابياً أنّ القردة كانوا أقلّ من باقي الحيوانات مثل العدد 1 مقابل العدد 8. فجمعَ الفيلة والأسود والنّمور والفهود والثّعابين بدعوى وجود حفلة، وقال لهم:

- كم يبلغ عددكم؟

أحصت الحيوانات نفسها وأجابت:

- نحن ثمانون ألفاً.

قال الثعبان:

- حسناً، أحصوا الآن أسيادكم، وأخبروني بعددهم.

أحصت الحيوانات القردة وأجابت:

Twitter: @ketab_n

- إنّهم ثمانية آلاف.

قال الثّعبان:

- أنتم بلداء إذن، لأنّكم لم تفكّروا في إبادة القردة، على الرّغم من أنّكم ثمانية ضدّ واحد. فاجتمعت الحيوانات وأبادت القردة، وصارت هي السيّدة على الجزيرة، وصارت تتنعّم بأطيب الثّمار وأفضل الحقول، وأفضل المنازل؛ دون ذكْر القردة التي جعلت هي منها عبيداً وصيّرت إناثها عشيقات..».

ثمّ أضاف أنطونيو:

- هل فهمتم قصدي؟

اِرتفعت صيحات عظيمة، وانطلقت الهتافات والتحايا؛ لقد أحدث أنطونيو بأمثولته تأثيراً لا يقلّ عن ذاك الذي أحدثته أمثولة الحاكم الرومانيّ مينيوس قبل ذلك بألفين ومائتي سنة.

اِنتظر لايزا حتّى مرّت لحظة الحماسة تلك، ثمّ بسط ذراعيه طالباً الصّمت ونطق بهذه الكلمات البسيطة:

- كان ثمّة ذات مرّة جزيرةٌ أراد عبيدها أن يتحرّروا؛ فهبّوا جميعاً وتحرّروا. كان اسم تلك الجزيرة فيما مضى سان دومينيك، وصارت تسمّى اليوم هايتي... لنحذُ حذوَهم، وسنصير أحراراً مثلهم.

اِرتفعت مجدّداً صيحاتٌ عظيمة، وانطلقت مرّة أخرى الهتافات والتحايا؛ بيد أنّه ينبغي الإقرار بأنّ هذا الخطاب كان أبسط من أن يجيّش الجموع، مثلما فعل خطاب أنطونيو؛ اِنتبه أنطونيو إلى الأمر، وبنى عليه أملاً.

صدرت عنه إشارة مفادها أنّه يطلب الكلام، فسكت الجميع.

قال:

Twitter: @ketab_n

- أجل، ما قاله لايزا صحيح؛ لقد سمعتُ أنّ ثمّة، بعيداً عن أفريقيا، بعيداً جدّاً، هنالك حيث تغرب الشمس، جزيرة كبيرة جميع سكّانها السّود ملوك. لكن في جزيرتي أنا، مثلما هو الحال في جزيرة لايزا، وفي جزيرة الحيوانات مثلما هو الحال في جزيرة البشر، ثمّة قائدٌ واحدٌ مختارٌ، واحدٌ فقط.

قال لايزا:

- صحيحٌ، وأنطونيو محقٌ: إنّ كلّ سلطة تتوزّع يكون مصيرها الوَهن؛ يلزمنا قائد، قائد واحد فحسب.

سأله أنطونيو:

- ومن عساه يكون هذا القائد الواحد؟

فأجابه لايزا:

- إنّ القرارَ قرارُ المجتمعينَ هنا.

قال أنطونيو:

- إنّ الرّجل الذي يستحقّ أن يكون قائدنا، هو الرّجل الذي يستطيع أن يقابل الدّهاء بالدّهاء والقوّة بالقوّة والشّجاعة بالشّجاعة.

- صحيحٌ هذا!

- إنّ الرّجل الذي يستحقّ أن يكون قائدنا، هو الرّجل الذي عاش مع البيض ومع السّود؛ الرّجل الذي يسري في عروقه دم هؤلاء ودم أولئك؛ الرّجل الذي يكون حرّاً، ويضحّي بحريّته؛ الرّجل الذي يملك كوخاً وحقلاً ويغامر بكوخه وحقله. ذاك هو الرّجل الذي يستحقّ أن يكون قائدنا.

- صحيحٌ هذا!

قال أنطونيو:

Twitter: @ketab_n

- لست أعرف إلّا رجلاً واحداً اجتمعت فيه هذه الشّروط جميعها.

فأجابه لايزا:

- وأنا أيضاً.

سأله أنطونيو:

- أتريد القولَ إنّك أنت ذاك الرّجل؟

أجابه لايزا:

- كلّا.

- أنت تقرّ إذن، بأنّي أنا ذاك الرّجل.

- كلّا، ولا أنت.

صاح أنطونيو:

- ومن إذن؟

صاح الزّنوج والهنود في وقت واحد:

- أجل، من هوَ؟ أين هو؟ ليأتِ، ليُفصح عن نفسه!

صفّق لايزا ثلاث مرّات بيديه، فسُمع في اللّحظة نفسها خببُ حصانٍ، ومع أولى خيوط أشعّة الفجر انبثقَ من الغابة فارس، قادماً بأقصى سرعة، واخترق الحشد حتّى بلغ قلبَه، وأوقف حصانه بحركة خاطفة، لدرجة أنّ الحيوان اضطرّ إلى ثني ساقيه تحت تأثير الهزّة.

بسط لايزا ذراعه صوب الفارس بحركة ملؤها الوقار وقال:

- هو ذا قائدكم، إنّه هو!

صاحت العشرة آلاف صوت دفعةً واحدةً:

- جورج مونييه!

قال لايزا:

- أجل إنّه هو، جورج مونييه، لقد طلبتم قائداً يستطيع أن يقابل

Twitter: @ketab_n

الدّهاء بالدّهاء والقوّة بالقوّة والشّجاعة بالشّجاعة؛ هو ذا!... لقد طلبتم قائداً عاش مع البيض ومع السّود؛ قائداً يسري في عروقه دم هؤلاء ودم أولئك؛ هو ذا!... لقد طلبتم قائداً يكون حرّاً، ويضحّي بحريّته؛ قائداً يملك كوخاً وحقلاً ويغامر بكوخه وحقله. حسناً، هو ذا ذاك القائد! أين بوسعكم البحث عن قائدٍ آخر؟ من أين تستطيعون الإتيان بمثله؟

ظلّ أنطونيو في حيرة من أمره؛ لقد استدارت كلّ الأنظار صوب جورج، وانطلقت جلبة كبيرة وسط الحشد.

وكان جورج على دراية بنوعية الرّجال الذين كان يتعامل معهم، وأدرك أنّ أوّل ما ينبغي له مخاطبته هو عيونهم: فارتدى بُرنُساً رائعاً موشّىً بالذّهب، وتحت بُرنسه لبسَ القفطان الفخريّ الذي خلعه عليه إبراهيم باشا، وفوق القفطان كان يلمع وسامُ فرقة الشّرف ووسام شارل الثّالث؛ وكان أنتريم مغطّى بسرج أحمر رائع، يرتعد تحت سيّده، نافد الصّبر ومزهوّاً في آن.

صاح أنطونيو:

- لكن من يضمنه؟

فقال لايزا:

- أنا.

- هل عاش معنا؟ هل يعرف حاجاتنا؟

- كلّا، لم يعش معنا؛ لكنّه عاش مع البيض، ودرس علومهم؛ وهو يعرف رغباتنا وحاجاتنا، لأنّنا لا نحتاج سوى شيء واحد: الحريّة.

- ليبدأ إذن بمنح الحريّة إلى عبيده الثّلاثمائة.

أجابه جورج:

Twitter: @ketab_n

- لقد فعلت، منذ صباح اليوم.

صاحت بعض الأصوات من وسط الحشد:

- أجل، أجل؛ نحن أحرار، لقد أعطانا السيّد جورج حريّتنا.

قال أنطونيو:

- ولكنّه مرتبط بالبيض.

فأجابه جورج:

- لقد قطعت ارتباطي بهم أمس، على مرأى منكم جميعاً.

قال أنطونيو:

- ولكنّه يحبّ فتاة بيضاء.

فردّ جورج:

- وذاك انتصار آخر لنا، نحن الرّجال الملوَّنين، لأنّ الفتاة البيضاء تحبّني.

قال أنطونيو:

- لكنّهم إن قبلوا بزواجه منها، فسيتخلّى عنّا ويتحالف والبيض.

- لو أتوا يعرضونها عليّ فسأرفضها، لأنّي أرغب في أن تأتيني من تلقاء نفسها، لا أحتاج أحداً يقدّمها لي.

أراد أنطونيو أن يعترض اعتراضاً آخر، بيد أن صيحات: «يحيا جورج! يحيا قائدنا!» ارتفعت من كلّ جانب، وغطّت على صوته حتّى ما عاد بمقدوره أن ينطق بكلمة.

أشار جورج برغبته في الكلام، فصمت الجميع، وقال:

- أصدقائي، لقد طلع النّهار، وبالتّالي حانت لحظة فراقنا. الخميس سيكون يوم احتفال، الخميس ستكونون جميعاً أحراراً، سأكون هنا في المكان نفسه، سأقودكم وسنزحف صوب المدينة.

Twitter: @ketab_n

صاحت الأصوات جميعها:

- نعم، نعم.

- ثمّة شيء آخر: إن وُجد بيننا خائن، فما إن تقوم الحجّة على خيانته حتّى يصير بوسع أيّ منّا أن يقتله في اللّحظة نفسها، وبالطريقة التي تناسبه، ميتة سريعة أو بطيئة، ناعمة أو فظيعة. هل تخضعون لهذا الحُكم؟ أمّا أنا فأوّل من يخضع له.

صاحت الأصوات جميعها:

- إن كان ثمّة خائن، فليُقتل، الموت للخونة!

- حسناً، والآن، كم يبلغ عددكم؟

قال لايزا:

- نحن عشرة آلاف.

- سيتكلّف خدمي الثلاثمائة بإعطاء كلّ واحد منكم أربعة دنانير، لأنكم ستحتاجون جميعاً قطعة سلاح مساء الخميس. إلى الخميس!

ثمّ حيّا جورج الجمع بيده، وانصرف مثلما أتى، بينما فتح كلّ واحد من خدمه الثلاثمائة كيساً مليئاً بالذّهب، وأعطوا كلّ واحدٍ القطع الأربعة التي وُعِدَ بها.

صحيح أنّ تلك الهبة السخيّة قد كلّفت جورج مائتي ألف فرنك. لكن ما يساوي ذاك المبلغ بالنّسبة لرجلٍ تبلغ ثروته الملايين، رجل مستعدّ لأن ينفق كلّ ثروته تحقيقاً للمشروع الذي قرّرته عزيمته منذ زمن بعيد؟ المهمّ أنّ ذلك المشروع بات يتبع سبيله إلى التحقّق، فقد أُطلِق التحدّي.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل العشرون

الموعد

عاد جورج إلى بيته أكثر هدوءاً ودعةً ممّا كنّا لنحسب. فقد كان من ذاك الصّنف من الرّجال الذين يموتون في الخمول ويعظمون في الصّراع: اِكتفى بتجهيز أسلحته تحسّباً لهجوم غير متوقّع، ولم يغفل عن أن يحدّد لنفسه مكمناً في الغابة الكبيرة التي كان يجولها أيّام طفولته، تلك الغابة التي تضافرت وشوشتها وعظمتها مع وشوشة البحر وعظمته، لتصنع منه ذاك الطّفلَ الحالم الذي عرفناه.

بيد أنّ من كان يحمل على عاتقه حقّاً كلّ ثقل الأحداث غير المتوّقعة تلك، هو والده. لقد كانت أمنية حياته طيلة الأربع عشرة سنة التي مضت رُؤية ابنيه مرّة أخرى؛ وقد تحقّقت أمنيته. اِجتمع بوَلَدَيه. لكنّ عودتهما قلبت حياته من ركودها المعتاد إلى قلق لا يهدأ: فأحدهما كان قبطانا نخّاساً، في صراع دائم مع القانون؛ والثاني داعيةً متآمراً، في صراع مع الأحكام المسبقة والنّاس؛ كلاهما يصارع أقوى ما يوجد في العالم؛ وكلاهما يمكن أن تسحقه العاصفة في أيّة لحظة؛ أمّا هو، هو الأسير لخنوعه السّلبيّ، فقد كان يراهما يسعيان لحتفهما دون أن تواتيه القدرة على أن يمنعهما، ودون أن يملك لنفسه غير هذه الكلمات التي يواسي بها نفسه أبداً:

- على الأقلّ أنا متأكّد من أمرٍ: سأموت معهما.

عدا ذلك، كان الزمن الذي سيقرّر مصير جورج قصيراً جدّاً؛ لم

Twitter: @ketab_n

يعد يفصله سوى يومين عن الكارثة التي من شأنها أن تجعل منه توسان لوفورتور جديداً أو بتيون[1] جديداً. وكلّ ما كان يأسف له أثناء اليومين هو عدم إمكان التّواصل مع سارة. ستكون خطوة غير حريصة منه، إن هو أقدم على الذهاب إلى المدينة والاتّصال برسوله المعتاد، ميكو-ميكو. على أنّه من جهة أخرى كان مطمئناً لقناعته بأنّ الفتاة واثقة منه مثلما هو واثق منها. ثمّة أرواح يكفيها تبادل نظرة أو كلمة لتعرف كلّ واحدة منها قيمة الأخرى، وتعتمد عليها باطمئنانٍ وثقة. وكان يبتسم إذ يخطر بباله ذاك الانتقام العظيم الذي يحضّره هو للمجتمع المتنفّذ، وذاك التعويض الكبير الذي يهيّؤه له القدر. وعندما يلتقي سارة مجدّداً سيقول لها: «هي ذي قد مضت ثمانية أيّام لم أرك فيها؛ بيد أنّ تلك الأيّام الثمانية كانت كافية لأغيّر وجه الجزيرة مثل بركان. لقد أراد الرّب أن يحطّم كلّ شيء بعاصفة، ولم يقدر؛ وأردت أنا أن أمحوَ في العاصفة النّاس والقوانين والأحكام المسبقة؛ ولأنّي أقوى من الرّب، استطعت أن أفعل ذلك».

يهيمن على الأخطار السياسية والاجتماعية المماثلة لذاك الذي كان يتعرّض له جورج نوعٌ من النشوة يقف وراء استمرار المؤامرات والمتآمرين. إنّ أقوى محرّك لأفعال البشر هو، بلا شكّ، إرضاء الكبرياء؛ وأيّ شيء أكثر مدعاة لإثارة غرورنا، نحن أبناء الخطيئة، من تجديد صراع الشيطان مع الرّب، وصراع الجبابرة مع الإله جوبتير؟ نعرف أنّ ذاك الصّراع انتهى بإحلال اللّعنة على الشّيطان، وإقبار الجبّار أنسيلادوس. بيد أنّ أنسيلادوس، وإن توارى، ظلّ يرجّ جبلاً كلّما تقلّب في قبره؛ أمّا

(1) توسان لوفورتور، معروف أيضاً باسم توسان بريدا (حوالى 1743– 1803) قائد ثورة أفارقة هايتي ضدّ الهيمنة الأوروبيّة إبّان الاستعمار الفرنسي ومات في الأسر. وألكساندر بتيون (1770–1818) قائد خلاسيّ صار حاكماً على جزيرة هايتي سنة 1806. وبين مصيري الرّجلين، تتوضّح الإشارة التي يُلمِع إليها جورج.

Twitter: @ketab_n

الشّيطان، وقد حقّت عليه اللّعنة فقد صار ملك الجحيم.

ما كان المسكين بيار مونييه، والحقّ يقال، يستطيع إدراكَ كنه تلك أشياء.

وحين هجع جورج بعدما ترك نافذته مواربةً، وعلّق مسدّسيه عند جانبَي سريره، ووضع سيفه تحت مخدّته، نام نوماً هانئاً كأنّما هو لا يرقد على البارود. أثناء ذلك، سلّح بيار مونييه خمسة زنوج أو ستّة، ممّن كانوا محلّ ثقته، ووضعهم موضعَ كشّافةٍ حول مقرّه، وراح بنفسه يعسّ على طريق موكا. هكذا كان يضمن لابنه جورج إمكان الانسحاب المؤقّت، ويجنّبه أن يؤخذ على حين غرّة.

مرّت اللّيلة كذلك، دون أن يُسجَّل أيّ إنذار. وعدا ذلك، كان المتآمرون الذين يسيرون ما بين الزّنوج يحرصون على أن يظلّ السّر مكتوماً بعناية، إذ لم يكن أولئك المساكين قد بلغوا حدّاً من التّحضر يسمح لهم بحساب عواقب الخيانة.

ومرّ اليوم التّالي مثلما مرّت اللّيلة السّابقة، ثمّ مرّت الليلة اللاحقة مثلما مرّ اليوم السّابق؛ لم يحدث أيّ شيء يمكن أن يشيَ لجورج بأنّه قد تعرّض للخيانة. ولم يكن يفصله إذن عن إتمام مصيره سوى بضع ساعات.

وحوالى السّاعة التّاسعة وصل لايزا، فأدخله جورج إلى غرفته: ولم يحدث أيّ تغيير في الاستعدادات العامّة؛ فقط كانت الحماسة التي خلّفها كرم جورج ما فتئت تزداد. في التّاسعة، كان من المفروض أن يكون المتآمرون قد تجمّعوا مسلّحين عند ضفاف نهر اللاتانييه؛ وعند العاشرة كان مفترضاً أن ينطلق التمرّد.

وبينما جورج يسأل لايزا حول مدى استعداد كلّ واحد، ويحدّد معه حظوظ نجاح الأمر، لمح من بعيدٍ رسوله ميكو-ميكو الذي كان يمشي

Twitter: @ketab_n

نحوه بخطواته المعتادة، حاملاً على كتفيه قصبة البامبو وسلّتيه. ولم يكن ممكناً أن يظهر الرّسول في ظروف أفضل من تلك. فمنذ يوم السّباق، لم يلمح جورج سارة.

وعلى الرّغم من تحكّمه بذاته، لم يستطع الشابّ أن يمنع نفسه من أن يفتح النّافذة ويشير إلى ميكو-ميكو بأن يحثّ الخطى، وهو ما استجاب له الصينيّ الأمين فوراً. أراد لايزا أن ينسحب، بيد أنّ جورج استبقاه قائلاً إنّه لا يزال لديه ما يقوله له.

وبالفعل، فمثلما توقّع جورج، لم يأتِ ميكو-ميكو إلى موكا من تلقاء نفسه: فما إن دخل حتّى أخرج ورقة جذّابة مطوية بأرستقراطية فائقة، أي مطويّة طيّاً يجعلها طويلة وضيّقة، وكتب عليها بخطٍّ امرأةٍ العنوانَ الذي يتلخّص في كلمة واحدة هي اسم جورج الشّخصيّ. ووحده مرأى تلك الورقة كان كافياً ليدفع قلب جورج إلى أن يدقّ بعنف. أخذ الورقة من يد الرّسول، وانسحب الفيلسوف المسكين الذي لا يجرؤ على أن يظهر بمظهر الإنسان العاديّ، انسحب ليقرأها عند زاوية النّافذة حاجباً عواطفه.

كانت الرّسالة بالفعل مُرسلة من سارة، وهو ذا مضمونها:

«أي صاحبي،

اِحرص على أن تكون اليوم، حوالى السّاعة الثّانية ظهراً، عند اللّورد مورّيه، سيخبرك بأشياء لا أجرؤ على قولها، لفرط ما تشعرني بالسّعادة؛ ثمّ إذ تغادر منزل اللّورد تعالَ لتراني، سأكون بانتظارك في شقّتنا.

المخلصة سارة».

قرأ جورج الرّسالة مرّتين؛ ولم يفهم لِمَ ضربت له سارة ذينك الموعدين. كيف بوسع اللّورد مورّيه أن يخبره أشياءَ تُسعد سارةَ، ثمّ أنّى

Twitter: @ketab_n

له أن يذهب لرؤيتها بعد مغادرة اللّورد موريّه، أي حوالى السّاعة الثالثة بعد الظّهر؛ أنّى له أن يذهب إلى بيت آل دو مالميدي في وضح النّهار؟

وحده ميكو-ميكو كان يستطيع أن يفسّر كلّ ذلك؛ نادى جورج الرّجلَ الصّينيّ إذن، وشرع في استجوابه. بيد أنّ التّاجر الأمين ما كان يعرف شيئاً، ما عدا أنّ الآنسة سارة أرسلت إليه جوهرة، الذي لم يستطع التّعرّف عليه من الوهلة الأولى، إذ فقد المسكين أثناء عراكه مع تليماك جزءاً من أنفه الأفطس؛ تبِعه، فأدخله إلى الشقّة التي سبق أن دخلها مرّتين قبل ذلك، وهناك كتبت الفتاة الرّسالة التي سلّمها إلى جورج منذ قليل، والتي خمّن الرّسول الذّكي أنّها كانت موجّهة له.

ثمّ أعطته قطعة ذهبيّة؛ وما كان يعرف أكثر من ذلك.

بيد أنّ جورج استمرّ في استجواب ميكو-ميكو، فسأله عمّا إذا كانت الفتاة قد خطّت الرّسالة أمام ناظره، وهل كانت بمفردها حينما كانت تكتب، وعمّا إذا كانت تبدو حزينةً أم سعيدة. بالفعل كتبت الفتاة الرّسالة في حضوره، وما كان ثمّة أحد غيرها. وكان وجهها يشي بالسّكينة الكاملة والسّعادة المثلى.

وبينما جورج منهمك في استجواب التّاجر الصّينيّ، سُمِع خبب حصانٍ: كان أحد سعاة الحاكم؛ وبعد لحظة دخل إلى غرفة جورج وسلّمه رسالة من اللّورد وليامز. كانت الرّسالة تحوي العبارات التالية:

«رفيقَ سفري العزيز،

لقد انشغلت بأمرك منذ آخِر يوم رأيتك فيه، وأحسب أنّي قد رتّبت أمورك على نحوٍ جيّد. رجاءً تعالَ للقائي اليومَ على السّاعة الثّانية. أحسب أنّه سيكون عندي أخبار جيّدة لك.

مع شديد احترامي

Twitter: @ketab_n

اللّورد ويليامز موريّه».

كانت الرّسالتان متوافقتين تمام التوافق. وعلى الرّغم من الخطر الذي ينطوي عليه ظهور جورج في المدينة، في ظلّ الوضع الذي كان يعيشه، ومع أنّ الحذر ظلّ يهمس في أذنه بأنّ الذهاب إلى بور لويس ولا سيّما عند الحاكم مجازفة كبيرة، فإنّ جورج ما كان ينصت سوى إلى كبريائه. وكانت كبرياؤه تحدّثه بأنّ رفض ذاك الموعد المزدوج هو علامة على الجبن، لا سيّما وأنّ من ضرب له الموعدين هما الشّخصان الوحيدان اللّذان قبِلا به؛ أحدهما قبل به صديقاً، والآخر قبل به حبيباً. فكان أن استدار شطر السّاعي وأخبره بأن ينقل عبارات احترامه للميلورد وأن يخبره بأنّه سيكون في الموعد.

اِنطلق السّاعي حاملاً ذاك الجواب.

وإذّاك جلسَ إلى طاولة وأخذ يكتب إلى سارة.

فلنلقِ نظرةً من فوق كتفَيه، ولنتابع الأسطر التي تخطّها أنامله:

«عزيزتي سارة،

بدءاً، ليُبارك الرّب رسالتك! إنّها أوّل رسالة تصلني منك. وهي على قصرها، تخبرني بكلّ شيء. تخبرني بأنّك لم تنسيني، بأنّك ما زلت تحبّينني، وبأنّك لي مثلما أنا لك.

سأذهب عند اللّورد في السّاعة التي حدّدتِها لي. فهل ستكونين هناك؟ لم تشيري إلى ذلك. للأسف! ذاك أنّ الخبر المفرح الحقيقيّ هو ذاك الذي يمكن أن أسمعه من فمك، فالسّعادة الوحيدة التي أطمح لها، هي سعادة أن أكون زوجك. وحتّى هذه اللّحظة، بذلتُ كلّ ما في وسعي لبلوغ ذلك؛ وما سيأتي سيصبّ في اتّجاه الهدف نفسه. لتصمدي ولتحفظي العهد إذن يا سارة، مثلما سأصمد أنا أيضاً وأحفظ العهد. ذاك

Twitter: @ketab_n

أنّه مهما بدت السّعادة قريبة منّا، فإنّي أخشى أنّه لا تزال تنتظرنا محنٌ رهيبة نجتازها قبل بلوغ تلك السّعادة.

ومهما يحدث يا سارة، ستظلّ قناعتي راسخة في أنّ لا شيء يستطيع الوقوف في طريق إرادة قويّة صلبة، أو في وجه حبّ عميق ومكرّس. فليكن لديك ذاك الحبّ يا سارة، وستكون لي تلك الإرادة.

المخلص جورج»

ولمّا فرغ من تحرير الرّسالة، سلّمها إلى ميكو-ميكو الذي حمل قصبة البامبو وسلّتيه، وقصد المدينة بخطوه المعتاد. ولا نحتاج إلى القول إنّه قد أخذ المكافأة التي يستحقّها نظيرَ خدماته ووفائه.

بقيَ جورج ولايزا بمفردهما، وكان لايزا قد سمع معظمَ ما قيل، وفهمَ كلّ ما يجري.

سأله لايزا:

- هل ستذهب إلى المدينة؟

- أجل.

- إنّها مخاطرة.

- أعلم. لكن عليّ الذّهاب. وإن لم أفعل، فسأحسّ بنفسي جباناً.

- حسناً، اذهب. لكن ماذا لو دقّت السّاعة العاشرة وأنت لم تصل بعد إلى ضفّة نهر اللاتانييه؟

- إن حدث ذلك، فسأكون إمّا أسيراً أو ميّتاً: إذّاك، اِزحفوا صوب المدينة لتحريري أو للانتقام لي.

- حسناً، اِعتمد علينا.

وافترق الرّجلان اللّذان بلغا حدّاً من التّفاهم صار يكفيهما معه أن يتبادلا كلمة واحدة أو إيماءة واحدة أو إشارة يدٍ، حتّى يكونا قد فهم

Twitter: @ketab_n

أحدهما الآخر تمام الفهم. افترقا دون أن يتبادلا وعداً آخر أو نصيحةً أُخرى.

كانت السّاعة تشير إلى العاشرة صباحاً؛ وأتوا يُخطِرونَ جورج أنّ والده يسأله عمّا إذا كان سيفطرُ معه. ردَّ جورج بأن توجّه إلى غرفة الطّعام: وكان هادئاً كأنّما لا شيء حدث.

ألقى عليه بيار مونييه نظرة يرتسم فيها كلّ القلق الأبويّ، لكنّه إذ رأى على وجهه نفس السّحنة التي تكون له عادةً، ورأى على شفتيه الابتسامة نفسها التي يحيّيه بها كلّ صباح، عاوده الاطمئنان.

قال الرّجل الشّجاع:

- حمداً لله يا ولدي! عندما رأيت كلّ أولئك الرّسل يتتالَون على البيت بتلك الوتيرة، خشيت أن يحملوا إليك أخباراً سيّئة؛ لكنّ دعةَ هيئتك تعلمني بأنّي كنتُ مخطئاً.

أجابه جورج:

- إنّك محقٌّ يا أبي، كلّ شيء على ما يرام؛ إنّ موعد التمرّد لا يزال قائماً اليوم في السّاعة نفسها، وذانك الرّجلان قد حملا إليّ رسالتين: إحداهما من الحاكم الذي ضرب لي موعداً اليوم في بيته في السّاعة الثّانية، والأخرى من سارة تخبرني بحبّها.

ظلّ بيار مونييه مشدوهاً. إذ كانت تلك المرّة الأولى التي يحدّثه جورج فيها عن انتفاضة الزّنوج، وعن صداقة الحاكم. وكان قد عرف تلك الأمور بطريق غير مباشرة، وارتجف كيانه حتّى أعماق قلبه، وهو يرى ابنه يرتمي في تلك السّبيل.

تمتم ببعض الآراء، بيد أنّ جورج قاطعه مبتسماً:

- أَتذكرُ يا أبي يوم أبديتَ بسالةً معجزة وخلّصت المتطوّعين وغنمت

Twitter: @ketab_n

الرّايةَ، ثمّ سَلبك السّيد دو ماليدي رايتك. يومئذٍ كنتَ أمام العدوّ عظيماً ونبيلاً ومهيباً، مثلما ستكون دوماً حين تواجه الخطر. يومئذ أقسمت أنّي ذات يوم سأضع الرّجال في مواقعهم وأُعيد والأمور إلى نصابها. وها قد حان ذلك اليوم، ولن أتراجع عن قَسمي. اللّه سيفصل ما بين العبيد والأسياد، ما بين الضّعفاء والأشدّاء، وما بين الشّهداء والجلّادين؛ وهذا كلّ ما في الأمر.

وإذ لم يكن لبيار مونييه حول ولا قوّة ولا ما يمكن أن يعترض به أمام عزيمة كتلك، انطوى على نفسه كأنّما يجثم عليه ثقل العالم بأكمله؛ وأمرَ جورج عليّاً بأن يسرج الجواد، وبعدما أنهى فطوره بهدوء وهو يرمق والده من حين إلى آخر بنظرة حزينة، قام عازماً على الخروج.

اِرتعد بيار مونييه وقام واقفاً بذراعين ممدودتين إلى ولده.

تقدّم جورج نحوه، وأخذ رأسه بين يديه؛ وبحنان الابن الذي طالما كتمه، أدنى الرّأسَ الوقورَ منه وانهال على الشّعر الأبيض بخمس قُبلات أو أكثر دفعةً واحدة.

صاح بيار مونييه:

- بُنيّ، يا بُنيّ!

- أبتي، إمّا أن تحظى بشيخوخة مبجّلة، أو أحظى بميتة دمويّة. وداعاً!

اِندفع جورج خارج الغرفة، فتهاوى الشّيخ على كرسيّه مُطلقاً آهة عميقة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الحادي والعشرون

الرّفض

اِلتقى جورج، على بعد حوالى فرسخين من مسكن والده، بميكو- ميكو الذي كان عائداً من بور لويس؛ أوقف حصانه وأشار للصّيني بالاقتراب، ثمّ همس في أذنه بكلمات، ردّ عليها الصينيّ بإشارة متعارَف عليها بينهما ثمّ أكمل مسيره.

وإذ بلغ أسفل «تلّة الاكتشافات» صار جورج يصادف بعض سكّان المدينة. وكان يفحص بعنايةٍ وجوه أولئك المتجوّلين؛ ولم يلاحظ على سيماء من أوقعتهم الصّدفة على طريقه ما يشي بأنّ خبر خطّة التمرّد الذي حضّرها بنفسه، والتي من المفروض أن تنطلق في المساء نفسه، قد تسرّبت. فتابع سيره، واخترق معسكر السّود، ثمّ دخل إلى المدينة.

كانت المدينة هادئة؛ وكان الجميع يبدون منهمكين في أمورهم الخاصّة، وليس ثمّة أيّ همّ مشترك يلفّ السكّان. كانت البوارج تتهادى على الميناء هادئةً مطمئنة. وكان «رأس المتفكّهين» مليئاً بالمتسكّعين المعتادين، وألقت إحدى السّفن الأمريكيّة القادمة من كالكوتا مراسيها ناحية «نبع الكلب الرصاصيّ».

على أنّ ظهور جورج بدا كأنّه قد أثار حسّاسيّة ما في الأجواء؛ لكنْ كان من الواضح أنّ تلك الحساسيّة ترتبط بما كان قد جرى في السّباق، وبتلك الإهانة غير المسبوقة التي صدرت من مولّد تجاه رجل أبيض. لا بل إنّ بعضهم قد توقّفوا عن الحديث في ما كانوا منهمكين في تقليبه،

Twitter: @ketab_n

وتابعوا جورج بأعينهم وهم يتبادلون بصوت خافت بعض العبارات التي تنّم عن دهشتهم أمام جسارة الرّجل على الظهور مجدّداً في المدينة. بيد أنّ جورج كان يردّ على نظراتهم بنظرة متعالية، ويقابل وشوشاتهم بابتسامة هازئة، حتّى أنّهم كانوا يضطرّون إلى خفض نظراتهم أمام شعاع التّفوق المرير الذي كان ينطلق من عينيه.

ثمّ إنّه كان يَبرز من كلّ جانب من جانبيه عقبُ مسدّسٍ ذي طلقتين.

وما أثار انتباهه أكثر هم الجنود والضّباط الذين صادفهم في طريقه. بيد أنّ الجنود والضّباط كانت تعلو وجوههم تلك الدّعة الملول التي تنطبع على وجوه أناس تمّ نقلهم من عالم إلى عالم مغاير تماماً، وحُكم عليهم بالإقامة في المنفى على بعد أربعة آلاف فرسخ. ولو أنّهم كانوا على علم بما يحضّره لهم جورج اللّيلةَ، لبدوا أكثر بهجة، أو أقلّه أكثر انشغالاً.

كانت المظاهر كلّها إذن باعثة على الاطمئنان بالنّسبة لجورج.

بلغ بابَ مقرّ الحاكم، فسلّم لجام حصانه إلى عليّ، وأشار إليه بألّا يبرح مكانه. ثمّ عبرَ الفناء، وارتقى الممشى، ودخل إلى البهو.

وكان الخدم قد تلقّوا أوامر بإدخال السيّد جورج مونييه ما إن يحضر. فسار أحد الخدم أمام الشابّ، وفتح له باب الصالون ثمّ أعلنَ عن قدومه.

دخل جورج.

في الصّالون كان ثمّة اللّورد مورّيه والسيّد دو ماليدي وسارة.

ولدهشة سارة التي تعلّق بصرها بجورج ما إن دخل، عكست سحنة الشابّ لمرآها إحساسَ كللٍ أكثر منه إحساسَ فرح؛ لقد تغضّن جبينه وتدانى حاجباه وتسلّلت إلى شفتيه ابتسامة تكاد تكون مُرّة.

وأحسّت سارة، التي كانت قد وقفت بقوّة، بقدميها تنثنيان تحتها، فخرّت على الأريكة.

Twitter: @ketab_n

وظلّ السيّد دو مالميدي واقفاً ساكناً مثلما كان، مكتفياً بإمالة رأسه قليلاً؛ تقدّم اللّورد مورّيه من جورج ومدّ إليه يده قائلاً:

- صديقي العزيز، يسعدني أن أعلمك بخبرٍ أتمنّى أن يرضيَ كلّ أمانيك. إنّ السيّد دو مالميدي، حرصاً منه على القضاء على كلّ أشكال التّمييز اللّونيّ والصراع الطائفيّ، التي تعاني منها جزيرة موريس، لا بل تعاني منها المستعمرات بأكملها، وافق على أن يمنحك يد ابنة أخيه الآنسة سارة دو ماليدي.

تضرّج وجه سارة، ورفعت عينيها خفية إلى الشابّ؛ لكنّ جورج اكتفى بأن انحنى دون أن يحير جواباً. نظر إليه السيّد دو ماليدي واللّورد مورّيه بذهول. وقال اللّورد:

- سيّدي دو ماليدي، أرى أنّ صديقنا الشّكاك لا يصدّق قولي وحده. قل له أنت إذن إنّك توافق على طلبه، وإنّك راغب في أن تطوي صفحة أيّ عداء يجمع بين عائلتيكما.

قال السيّد دو ماليدي فارضاً على نفسه جهداً كبيراً:

- صحيح، ولقد أفصح لك السيّد الحاكم عن رغبتي. وإذا كنت تحمل أيّ ضغينة من يوم سقوط الجزيرة، فأرجوك أن تنساها، وأعدك أنّ ابني أيضاً سينسى الإهانة التي وجّهتها له مؤخّراً، مع أنّها كانت أشدّ. أمّا بخصوص ارتباطك بابنة أخي، فكما أخبرك الحاكم، ها أنذا أعطيك موافقتي، إلّا في حال ما إذا كنت أنت من يرفض هذه المرّة...

صاحت سارة مدفوعةً بحركة تلقائيّة:

- أوه! جورج!

أجاب الشابّ:

Twitter: @ketab_n

- لا تستعجلي الحكمَ على جوابي يا سارة، لأنّ قراري تمليه ضرورة حتميّة. أقسم لك يا سارة، أمام الله والبشر، أنّي منذ المساء الذي جئتُ فيه إلى الشقّة، ومنذ ليلة الحفل الرّاقص، لا بل منذ أوّل يوم رأيتك فيه، قرّرتُ أنّك امرأتي: لا أحد غيرك سيحمل الاسم الذي لم تحتقريه على الرّغم من وضاعته؛ كلّ ما وعدتك به إذن ليس إلّا مسألة ترتيب ووقت.

اِستدار جورج شطر الحاكم وقال له:

- شكراً يا ميلورد؛ أقدّر أثرَ صداقتك وإحسان سعيك في خضمّ ما يجري. لكن منذ اللّحظة التي رفض فيها السيّد دو مالميدي طلبي يد ابنة أخيه، وأهانني ابنه هنري مجدّداً، منذ اليوم الذي قرّرت فيه أنّ عليّ أن أردّ إهانته أمام الجميع بإهانة مدوّية لا تّمحي، منذ ذلك اليوم قطعت صلتي بالبِيض. ما عاد ثمّة من إمكان لتقاربنا. بوسع السيّد دو مالميدي أن يقطع نصف المسافة بيننا، بدافع من حساب أو نيّة أو قصد لستُ أدركه، لكنّي لن أقطع نصف المسافة الثّاني. إذا ما كانت الآنسة سارة تحبّني، فهي حرّة وسيّدة قرارها ومالها، وعليها إن أرادت أن تكبر في عينيّ أكثر أن تنزل إلى مستوايَ، لا أن تنتظر منّي أن أركع أمام ذويها وأنا أحاول التّسلق إليها.

صاحت سارة:

- أوه! سيّد جورج، أنت تعلم...

- أجل أعلم أنّك فتاة نبيلة، قلب كامل الإخلاص، روح صافية. أعرف أنّك ستأتين إليّ رغم كلّ العراقيل والموانع والأحكام المسبقة. أعلم أنّه ما عليّ سوى الانتظار، وسأراك تظهرين ذات يوم في حياتي؛ أعلم ذلك لأنّي موقن من أنّك قد قرّرت بينك

Twitter: @ketab_n

وبين نفسك أن تقومي بتلك التّضحية. أمّا بالنّسبة لك يا سيّد دو ماليدي، أنت وابنك الذّي قرّر عدم مبارزتي شرطَ أن يجلدني أصدقاؤه؛ أوه! إنّ ما بيننا حربٌ أبديّة، أسمعتَني؟ إنّه كره قاتل لن ينطفئ بالنّسبة لي إلّا بالدّم أو الاحتقار: فليختر ابنك إذن.

أجاب السيّد دو ماليدي بوقار أكبر ممّا كنّا سننتظر من جهته:

- سيّدي الحاكم، أنت شاهد على أنّي فعلت أكثر ممّا بوسعي: لقد ضحّيت بكبريائي، لقد ضربت صفحاً عن الإهانة القديمة والإهانة الجديدة، بيد أنّي لا أستطيع أن أمضي أبعد من ذلك، ولا أملك ردّ الحرب التي أعلنها في وجهي السيّد. على أنّنا لن نبادر إلى الهجوم، وسنحتفظ بحقّ الدّفاع. (ثمّ قال مخاطباً سارة) والآن أنت حرّة يا آنسة، حرّة في مشاعرك، وإرادتك، ومالك؛ اِفعلي ما بدا لك: اِبقي مع السيّد أو الحقي بي.

قالت سارة:

- إنّ واجبي يحتّم عليّ أن أتبعك يا عمّي. وداعاً يا جورج! لست أفهم ما فعلتَه اليوم، لكنّك بلا ريب فعلتَ ما كان عليك أن تفعله.

ثمّ انحنت للحاكم انحناءة ملؤها الهدوء والكبرياء، وغادرت مع السيّد دو ماليدي.

رافقهما اللّورد مورّيه حتّى الباب، وخرج معهما، ثمّ عاد بعد لحظة. والتقت نظرته المتسائلة بنظرة جورج الصّارمة، وخيّمت برهة صمتٍ على الرّجلين اللّذين كانا يفهم أحدهما الآخر بروعةٍ، وذلك بفضل طبعَيهما الرّفيعَين.

قال الحاكم:

- هكذا إذن، رفضت؟

Twitter: @ketab_n

- حسبت أنّ عليّ التّصرف على هذا النّحو يا ميلورد.
- عفواً إن بدوت كمن يستجوبك، لكن هل لي بمعرفة الإحساس الذي دفع بك الرّفض؟
- الإحساس بكرامتي.
- وهل هذا الإحساس هو الدّافع الوحيد وراء رفضك؟
- إذا ما كان ثمّة سبب غيره، فاسمح لي بأن أحفظه طيّ سرّي يا ميلورد.

قال الحاكم بتلك اللامبالاة التي تزيده جاذبيّة إذ تشعرنا بأنّه خارج طبيعته الباردة المركّبة:

- اِسمع يا جورج، منذ أن التقيتك على متن اللايسستر ووقفت على الخصال التي تجعل منك رجلاً مميّزاً، قرّرت أن أجعل منك الجسر الواصل بين الطائفتين المتعارضتين في الجزيرة. بدأت أسبر أحاسيسك، ولمّا أسررتَ لي بحبّك وطلبت منّي أن أكون وسيطك وعرّابك، لم أتردّد في الموافقة. من أجل ذلك (تابع اللّورد كلامه مجيباً على إطراق رأس جورج)، من أجل ذلك يا صديقي لستَ مديناً لي بأيّ شكر؛ لقد كنت تسير أنت نفسك على نهج أمانيَّ، كنت تدعّم خطّة المصالحة التي وضعتُها، وكنت تطبّق تصوّراتي السياسيّة. لذلك رافقتُك إلى بيت السيّد دو ماليدي ودعمتُ طلبك بكلّ القوّة التي يمنحها حضوري والثّقل الذي يفرضه اسمي.
- أعلم يا ميلورد، وأشكرك. بيد أنّك قد رأيت بنفسك كيف أنّ ثقل اسمك مع كلّ الشّرف الذي يحمله لم يشفع لي، ولا حتّى سلطة حضورك مع كلّ التّشريف الذي تمنحه؛ وكان مصيري الرّفض.

Twitter: @ketab_n

- لقد آلمني الأمر بقدر ما آلمك يا جورج. وقد قدّرت تعاملك الهادئ مع الأمر، وأدركت من برودة دمك أنّك كنت تحضّر لانتقام. وقد انتقمتَ لنفسك يوم السّباق أمام الجميع؛ ويومئذ أدركت أنّ عليّ على الأرجح أن أنسى كلّ مشاريعي المرتبطة بتحقيق المصالحة.

- لقد حذّرتك ونحن نفترق يا ميلورد.

- أجل، أعلم؛ لكن أصغِ إليّ: لم أعتبر أنّني انهزمت؛ وذهبت أمس إلى بيت السيّد دو مالَيدي، ولفرط توسّلاتي وإلحاحي، إلى حدّ الشّطط في استعمال سلطتي، استطعت أن أقنع الأب بنسيان كرهه القديم لوالدك، وإقناع الابن بنسيان كرهه الحديث العهد لك؛ لا بل استطعت أن أنال موافقتهما على طلبك يدَ الآنسة دو ماليدي.

قاطعه جورج بحدّة:

- إنّ سارة حرّة يا ميلورد، إن هي أرادت الزّواج بي. حمداً لله أنّها لا تحتاج موافقة أحد.

- أجل، أوافقك الرّأي. لكنّي أسألك، أيّ فرق يشكّل بالنّسبة للجميع أن تَنتزع بمكرٍ صبيّة من منزل الوصيّ عليها، أو أن تستلمها من يديه أمام أعين الملأ! اِستشرْ كبرياءك يا سيّد مونييه، وانظر إن لم يكن ما نلتُه لها يشكّل تعويضاً شاملاً، وانتصاراً ما كان أحدٌ ليحلم به.

أجابه جورج:

- صحيح. لكن للأسف أتت موافقتهم متأخّرة جدّاً.

- متأخّرة جدّاً! لمَ؟

- اِعفني من الإجابة يا ميلورد.

- أعفيك من كشف سرّك أيّها الفتى المسكين! حسناً، هل تريد منّي

Twitter: @ketab_n

أن أكشفه بدلاً منك؟

نظر جورج إلى الحاكم وعلى شفتيه ابتسامة عدم تصديق، فاستأنف الحاكم كلامه:

- سرّك! هو ذا سرّ مصون جيّداً؛ سرّ لم تأتمن عليه سوى عشرة آلاف شخص!

ظلّ جورج ينظر إلى الحاكم، بيد أنّه ما عاد يبتسم.

اِستطرد الحاكم:

- أَصغ إليّ: لقد أردتَ أن تلقي بنفسك إلى التّهلكة، وودتُ أن أنقذكَ. ذهبتُ إلى عمّ سارة، واختليت به ثمّ قلت له: «إنّك لم تقدّر السيّد جورج مونييه حقّ قدره، لقد رفضته بوقاحة، وأجبرته على القطع معنا. أخطأتَ، لأنّ السيّد جورج مونييه رجل رفيع، رجل ذو قلب سامٍ وروح عظيمة؛ وكان من المنتظر أن يتمخّض شيء عمّا وقع. وقد حدث ذلك بالفعل، وها هو السيّد مونييه قد صار يملك رقابكم الآن بين يديه؛ إنّه قائد مؤامرة كبيرة. فغداً، على السّاعة العاشرة سيزحف السيّد جورج مونييه إلى بور لويس على رأس عشرة آلاف زنجيّ. وبما أنّنا لا نملك سوى ألف وثمانمائة رجلٍ، فإنّنا لا محالة هالكون، ما لم يسعفني الحظّ بفكرة من تلك الأفكار الاحترازية التي تخطر أحياناً على بال الرّجال الدّواهي. بعد غدٍ إذن، يمكن أن يصير السيّد مونييه الذي تحتقره لأنّه سليل عبيدٍ، يمكن أن يصير سيّدنا جميعاً، ولربّما لن يقبل بك عبداً مثلما رفضت قبوله. وإذن، بوسعك أن تمنع كلّ ذلك يا سيّدي، بوسعك أن تنقذ المستعمرة بأكملها. اِنسَ الماضي، واقبل بزواج ابنة أخيك من السيّد جورج إن قبِل هو، إذ لا أخفيك سرّاً أنّ المطالب قد تتبدّل

Twitter: @ketab_n

بتبدّل الوضعيات. وإن فعلت ذلك لن تنقذ حياتك وحريّتك وثروتك فحسب، وإنّما حريّة الجميع وحياتهم وثرواتهم». ذاك ما قلته للسيّد دو ماليدي، وبعد توسّلاتي وإلحاحي وأوامري قبلَ. بيد أنّ ما توقّعته هو ما حصل. كنتَ قد تورّطتَ بعيداً، بحيث ما عاد بإمكانك التّراجع.

وكان جورج قد تابع حديث الحاكم بدهشة متزايدة، لكن في الآن نفسه بهدوء مثاليّ. وإذ أنهى الحاكم كلامه قال له:

- أنتَ إذن على علم بكلّ شيء يا ميلورد!

- لقد رأيتَ، إن لم أكن قد أغفلتُ شيئاً.

أجاب جورج مبتسماً:

- كلّا، بل عيونُك على إحاطة جيّدة بالأمور، وإنّي لأحيّي تنظيمَ شرطتك.

- وإذن، فما دمتَ صرتَ تعرف الدّافع وراء سلوكي، وما دمتَ لا تزال تملك الوقت، فلتقْبلْ يد الآنسة سارة؛ تصالحْ مع العائلة، ودعْ عنك مشاريعك المجنونة؛ وسأتصرّف أنا كأنّي ما علمت شيئاً، كأنّي أجهل كلّ شيء، سأنسى كلّ ما وقع.

أجابه جورج:

- مستحيل!

- فكّرْ في نوعيّة البشر الذين تورّطتَ معهم.

- لا تغفل يا ميلورد أنّ أولئك البشر الذين تتحدّث عنهم بهذا القدر من الاحتقار هم إخوتي، وأنّهم قبلوا بي قائداً عليهم، في الوقت الذي اعتبرني فيه البيض أدنى منهم؛ ولا تنسَ أنّني ساعة منحني أولئك الرّجال مقاليد أرواحهم، وهبتهم روحي.

Twitter: @ketab_n

- أنت ترفض إذن؟
- أرفض.
- رغم توسّلاتي؟
- عفوك يا ميلورد، لكنّي لا أستطيع الإصغاء إليها.
- رغم حبّك لسارة، وحبّ سارة لك؟
- رغم كلّ شيء.
- فكّر في الأمر ثانية.
- لا فائدة من ذلك، لقد اتّخذت قراري.
- والآن يا سيّدي، يظلّ ثمّة سؤال أخير.
- سَلْ!
- ما كنتَ فاعلاً لو أنّني كنت مكانكَ وكنتَ أنتَ مكاني؟
- كيف؟
- أجل؛ قل لي لو أنّني كنت أنا جورج مونييه زعيمَ تمرّدٍ، وكنتَ أنت اللّورد مورّيه حاكم جزيرة موريس، وكنتُ أنا طوعَ يدك. قلْ لي، ما كنتَ فاعلاً إذن؟
- ما كنتُ فاعلاً يا ميلورد؟ كنتُ سأتركك تغادر، لأنّك أتيت إلى هنا تلبيةً لموعد، لا مغرّراً بك كي تقع في كمين. ثمّ إذ يحلّ المساء، إذا ما كنتُ مؤمناً بعدالة قضيّتي، فسأدعو الله كي يفصل بيننا.
- أنت مخطئ إذن يا جورج؛ لأنّي ما إن أستلّ سيفي حتّى لا يعود بمقدورك إنقاذي؛ ما إن أشعل التمرّد حتّى لا يعود من سبيل إلى إخماده إلّا بدمي... كلّا يا جورج! لا أريد أن يموت رجل مثلك بالمقصلة، أفهمتَ؟ لا أريدك أن تموت كمتمرّد سوقيّ، ويتمّ تحريف نواياكَ ومحوُ ذكركَ. وحتّى أنقذك من مثل هذه المأساة،

Twitter: @ketab_n

حتّى أستلّك من براثن المصير الذي تحضّره لنفسك، سأجعل منك أسيري. أنت موقوف يا سيّدي.

صاح جورج: «ميلورد!»، وهو يلتفت حواليه باحثاً عمّا إذا كان ثمّة سلاح يستطيع الذّود به عن نفسه.

قال اللّورد رافعاً صوته:

- أيّها السّادة، أُدخلوا واقبضوا على هذا الرّجل.

دخل أربعة جنود يقودهم عريفٌ، وأحاطوا بجورج.

قال لهم الحاكم:

- خذوا السيّد إلى الشّرطة، وضعوه في الغرفة التي أعددتُها هذا الصّباح، ودون أن تغفل أعينكم عنه، تأكّدوا من أنّ لا أحد منكم أو سواكم يقلّل من الاحترام اللائق به.

وإذّاك حيّا الحاكمُ جورج، واقتيد جورج خارج البناية.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني والعشرون

التمرّد

لقد وقع كلّ ما سبق بشكل سريع وغير متوقّع، حتّى أنّ جورج لم يجد حتّى الوقت لتدبُّر ما يحدث له. بيد أنّه استطاع، بفضل تحكّمه الرّائع بنفسه، أن يُخفيَ الانفعالات التي كانت ترجّ كيانه خلف ابتسامته الأبدية الهادئة، ابتسامته السّاخرة اللّامبالية.

خرج الأسير وحرّاسه من باب خلفيّ، وكانت عربة الحاكم تنتظرهم عند عتبته. على أنّه في نفس اللّحظة التي كان جورج يركب فيها في العربة، مرّ من أمام الباب، بالصّدفة أو بتدبير مسبق، ميكو-ميكو. وتبادل الشابّ ورسوله المعتاد نظرة.

وكما أمرهم الحاكم اقتادوا جورج إلى مقرّ الشّرطة. وكان المقرّ بناية يوضّح اسمُها وظيفتَها، وتقع في «شارع الحكومة» أسفلَ «شارع الكوميديا» بقليل. وهناك وُضع الشابّ في الغرفة التي أشار إليها الحاكم.

ومثلما قال اللّورد مورّيه، كانت الغرفةُ مهيّأةً سلفاً، وكان من البيّن أنّهم حرصوا على تزويدها بكلّ أسباب الرّاحة الممكنة؛ فكان الأثاث نظيفاً والسّرير يكاد يكون راقياً؛ ولم يكن ثمّة ما يشي بأنّ تلك الغرفةَ حبسٌ، اللّهم إلّا تلك النّوافذ المسيَّجة.

وما إن أُقفل الباب على جورج وألفى نفسه بمفرده، حتّى هرع إلى النّافذة: كانت تقريباً بارتفاع عشرين قدماً، وتطلّ على فندق كوانْيِيه. وبما أنّ الفندق كان يضمّ نافذة تقابل تماماً نافذة غرفة جورج، فقد كان بوسع

Twitter: @ketab_n

صاحبنا أن ينظر بيُسرٍ إلى داخل البناية المقابلة، لا سيّما وأنّ تلك النّافذةَ كانت مفتوحة.

عاد جورج من النّافذة إلى الباب، وأصاخ السّمع فعَلِم أنّهم بصدد تعيين خفير في الممرّ.

رجع إذّاك إلى النّافذة وفتحها.

ما كان ثمّة بعدُ أيّ خفيرٍ: لقد اكتفوا بالاعتماد على قضبان الحديد لحراسة السّجين. وفي الواقع كانت القضبان من الحجم الذي يضمن الحراسة حتّى في أخطر الحالات.

ما كان ثمّة إذن من أملٍ في الهرب دون عونٍ خارجيّ.

على أنّ جورجٍ كان ينتظِر ذلك العونَ بلا ريب؛ ذاك أنّه إذ ترك نافذته مفتوحةً بقيَ مركِزاً بصرَه على فندق كوانييه الذي، يقع كما أسلفنا، قبالة بناية الشّرطة. وبالفعل، ما خاب ظنّه: فما هي سوى ساعة حتّى لمحَ ميكو-ميكو يدخل غرفة الفندق المقابلة لغرفته، حاملاً قصبة البامبو على كتفيه، يقودُه أحدُ خدم الفندق. ولم يتبادل وجورج سوى نظره واحدة، لكنّ تلك النّظرة، على سرعتها الخاطفة، كانت كافية لتعيد السّكينة إلى جبين الشابّ.

ومنذ تلك اللّحظة صار جورج يبدو هادئاً، كأنّما هو في غرفته بموكا: على أنّ مُراقِباً نبيهاً ما كان سيَفُوته أنّ الرّجل يقطّب حاجبيه ويمرّر من حين إلى آخر إصبعه على جبينه. فخلف ذاك المُحيّا الهادئ كان يتعاظمُ عالمٌ من الأفكار؛ عالم كان مثل بحر يصطخبُ، ضارباً جمجمتَه بمدّه وجزره.

ومرّت السّاعات دون أن يلاحظ الشابّ ما يشي بوجود استعدادات في المدينة. فلم يسمع لا قرع طبول ولا قعقعة أسلحة. ومرّتين أو ثلاثاً هرع جورج إلى النّافذة مخدوعاً بضجيجٍ شبيه بقرع الطّبول؛ لكنّه كان في

Twitter: @ketab_n

كلّ مرّة يدرك أنّه أخطأ التّقدير، وأنّ الصوت الذي خالَه قرعَ طبلٍ ما هو إلّا صوت العربات التي تمرّ في الشّارع محمّلةً بالبراميل.

بدأ اللّيل يهبط. وبقدر ما كان اللّيل يحلّ كان قلق جورج وهياجه يتعاظمان، وكان يذرع المسافة ما بين النّافذة والباب في حركة محمومة؛ حركة ما كان يأبه لإخفائها حقّاً، ما دام بمفرده في الغرفة: كان الباب لا يزال محروساً بخفير، بينما لم يكن يحرس النّافذةَ سوى قضبانها.

ومن حين إلى آخر كان جورج يضع يده على صدره، وعلى وجهه تشنّج خفيف يشي بأنّه كان يحسّ في قلبه ببعض تلك الانقباضات الفورية التي لا يفلت منها في ظروف الحياة القصوى حتّى أعتى الرّجال؛ ولا ريب في أنه كان يفكّر في والده الذي ما كان على علم بالخطر الذي يداهمه، وبسارة التي جرّته إلى الخطر دون أن تدري. أمّا بالنّسبة للحاكم، فعلى الرّغم من أنّ جورج كان يحمل تجاهه ذاك الغضب البارد الذي يحمله لاعب مهزوم تجاه خصمه، إلّا أنّه لم يستطع إنكار أنّ الحاكم لم يبدِ تجاهه كلّ اللّياقة الأرستقراطية التي تدخل ضمن عوائدِه فحسب، وإنّما لم يَصِر إلى حبسه إلّا بعدما استعرض أمامه كلّ سبل الخلاص التي كانت بيده.

لكنّ ذلك لم يمنع الحاكم من وضع جورج تحت حراسة مشدّدة بتهمة الخيانة العظمى.

وفي تلك الأثناء بدأ الظّلام يزداد حلكة. نظر جورج إلى ساعته، كانت السّاعة الثامنة والنّصف: من المفترض أن تنطلق الانتفاضة بعد ساعة ونصف السّاعة.

رفع جورج رأسه بغتةً وركّز بصره مرّة أخرى على فندق كوانييه: لمح جورج في الغرفة المقابلة لغرفته ظلّاً يتحرّك؛ أشار له الظلّ إشارةً؛ انزاحَ جورج من أمام النّافذة، وعبرت صرّةٌ الشّارعَ ثمّ مرّت من بين قضبان

Twitter: @ketab_n

نافذته وسقطت وسطَ الغرفة.

وبِوَثبَة واحدةٍ أخذ جورج الصرّة: كانت تحوي حبلاً ومنشاراً؛ وكانت تلك هي النّجدة الخارجية التي ينتظرها جورج. كان جورج يمسك حريّته بين يديه؛ غير أنّه كان ينتظر الوقت المناسب ليتحرّر.

أخفى الحبل بين أغطيته، وما إن أطبقت العتمة تماماً، حتّى شرع ينشر أحد القضبان.

كانت المسافة بين القضبان واسعةً، بحيث أنّ جورج ما إن يقطع أحدها، حتّى يصير بوسعه المرور من الفسحة التي صنعها.

كان المنشار منشاراً أخرسَ؛ لم يكن يصدر أيّ صوت. وإذ كانوا قد حملوا العشاء إلى جورج في السّاعة السّابعة، فقد كان متأكّداً من أنّ لا أحد سيزعجه.

بيد أنّ العمل كان يتقدّم ببطء: دقّت السّاعة التّاسعة، ثمّ التّاسعة والنّصف، فالعاشرة. وبينما كان السّجين منهمكاً، منذ مدّة، في نشر قضبان نافذة زنزانته الواقعة في «شارع الحكومة»، عند طرف «شارع الكوميديا» والمرفأ، أقول بينما هو كذلك خُيّل له أنّه لمح ضوءاً ساطعاً. عدا ذلك لم تَجُبِ المدينة دوريّة واحدة، ولا عاد جنديّ متأخّر إلى ثكنته. لم يفهم جورج شيئاً في تلك اللاّمبالاة التي يتصرّف بها الحاكم إزاء الأحداث: كان يعرفه حقّ المعرفة، ما يجعله متيّقناً من أنّه قد أخذ جميع احتياطاته، بيد أنّ المدينة كانت تبدو في الآن نفسه دون دفاع، ومتروكة لنفسها.

وفي العاشرة سمع جلبة ترتفع قادمةً من ناحية مالابار: ونُذكّر بأنّ تلك كانت النّاحية التي من المفترض أن يأتيَ عبرها المتمرّدون الذين اجتمعوا على ضفاف نهر اللاتانييه.

ضاعف جورج جهده؛ وكان القضيب قد قُطِع تماماً من أسفل، وها

Twitter: @ketab_n

هو يبدأ بقطعه من أعلى.

لم تكفّ الجلبة عن التعاظم. ما عاد ثمّة شكّ في الأمر: إنّها الجلبة النّاجمة عن اختلاط أصوات آلاف الرّجال. لقد وفى لايزا بوعده؛ ارتسمت على شفتَي جورج ابتسامةُ فرحٍ، وأومض بريقُ فخرٍ على جبينه: سنحاربُ إذن. ربما لن ننتصر، لكنّنا سنقاوم على الأقلّ. وها هو جورج يوشك على الانضمام إلى المقاومة، إذ أوشك القضيب أن يُقطع.

أصغى بأذن مصيخة وقلب نابض؛ كان الضّجيج يزداد ارتفاعاً، والضّوء الذي سبق أن لمحه يزداد تعاظماً. هل اشتعلت النار في بور لويس؟ مستحيل، ذاك أنّه لم يسمع أيّ صيحة استغاثة.

ذلك أنّ الجلبة، بالرغم من تعاظمها، كانت تبدو جلبة مرح أكثر منها جلبة وعيد، ولم يُسمع أيّ إطلاق نار، كما أنّ الشّارع حيث توجد بناية الشّرطة ظلّ قفراً.

اِنتظر جورج ربع ساعة أخرى، آملاً في أن تتناهى إليه بعض طلقات البنادق، معلنةً أنّ الأمور تسري وفق ما يرام؛ بيد أنّ تلك الجلبة الغريبة كانت تزداد تعاظماً وحدها، دون أن يختلط بها الضجيجُ المنتظر.

فكّر السّجين إذّاك في أنّ الأهمّ بالنسبة له كان هو أن يهرب. وبهزّةٍ أخيرةٍ انتُزع القضيب. ربط جورج الحبل جيّداً، ورمى القضيب أمامه كي يجعل منه سلاحاً، ثمّ مرّ عبر الفتحة، وانزلق بواسطة الحبل حتّى لمست قدماه الأرض دون حادثٍ يذكر؛ أخذ القضيب وانطلق عبر الأزقّة الجانبيّة.

وبقدر ما كان جورج يتقدّم صوب شارع باريس عبر أحياء المدينة الشماليّة، كان يرى ذاك الضّوء يرتفع؛ وأخيراً بلغ طرف شارع مضاءً بوهجٍ، وأدرك الأمر.

Twitter: @ketab_n

كانت جميع الطّرق التي تؤدّي إلى ناحية مالابار، أيّ كلّ النقاط التي من الممكن أن يدخل عبرها المتمرّدون إلى المدينة، كانت مضاءةً كأنّها في يوم عيد؛ وفي غير ما موضع قبالةَ المنازلِ الرّئيسيّة وُضعت براميل العرَق والرُّوم. وكانت البراميل مفتوحة كأنّها معروضة مجّاناً.

كان الزّنوج قد انقضّوا كسَيْلٍ جارف على بور لويس مُطلقين صيحات غضب ووعيد. لكنّهم حين وصلوا وجدوا الشّوارع مضاءةً ورأوا تلك البراميل المُغرية. وللحظةٍ أوقفتهم تعليماتُ لايزا وفكرةُ أنّ الشّراب قد يكون مسموماً؛ لكن لم يمضِ وقت طويل حتّى انتصر الطّبع على التّطبع، بل وانتصر حتّى على الخوف. لقد انشقّ بعض الرّجال وبدؤوا الشّرب. وبسبب صيحات بهجتهم، لم يستطع الآخرون الثبات: لقد تشتّت في لحظةٍ ذاك الحشد الذي كان يكفي لتقويض بور لويس، وتفرّق أفراده في جماعات حول البراميل مطلقين صيحاتِ فرح. كانوا يعبّون ملء أيديهم الرّوم والعرق؛ شرابَ السّود الأبديّ، الشّراب الذي ما إن يراه الزّنجيّ حتّى يفقد زمام نفسه، الشّراب الذي يبيع نظيرَه أبناءَه وأباه وأمّه، بل وينتهي غالباً بأن يبيع نفسَه مقابله.

من هنا كانت تأتي تلك الصّيحات ذات التّعبير الغريب، والتي لم يدرك كنهَها جورج. لقد اتّبع الحاكم نصيحة جاك، ومثلما رأينا لم يَخِب مسعاه. لقد دخلت الانتفاضةُ المدينةَ، لكنّها كُبِحت قبل أن تتجاوز الحيّ الذي يمتدّ من «الجبل الصغير» إلى «منخفض المتبجّح»، واندحرت على بعد مائةِ قدمٍ من مقرّ الحاكم.

وإذ رأى جورج ذاك المشهدَ العجيبَ بأمّ عينيه، لم يعد يشكّ في المصير الذي ينتظر خطّتَه؛ تذكّر تحذير أخيه جاك، وأحسّ بنفسه يرتجف من الغضب والمهانة. إنّ أولئك الرّجال الذي كان يعوّل على أن يغيّر

Twitter: @ketab_n

بمعيّتهم وجه الأمور، وأن يقلب الجزيرة وينتقم لقرنَين من العبودية في ساعة انتصارٍ ومستقبلٍ حريّة؛ أولئك الرّجال كانوا هناك يضحكون ويغنّون ويرقصون عُزّلاً ثملينَ مترنّحين؛ أولئك الرّجال صار بوسع ثلاثمائة جنديّ مسلّحين بالسّياط اقتيادَهم إلى العمل، رغم أنّهم كانوا عشرةَ آلافٍ!

هكذا ضاع هباءً كلّ الاشتغال التي اشتغله جورج على نفسه؛ كلّ تلك الدراسات الرّفيعة التي خصّ بها قلبَه وقوّتَه وقيمةَ نفسه، كلّها صارت عبثاً؛ كلّ ذلك التّفوق الذي حباه به الله، والتّجربة التي حصّلها من دراسة بني البشر، كلّها اندحرت هنا أمام غرائز هذا الجنس البشريّ الذي يفضّل الكحول على الحريّة.

وأدرك جورج فوراً عبث طموحاته: لقد رفعه غروره للحظة حتّى قمّة جبلٍ، ومن هناك أشرف على كلّ ممالك الأرض تحت قدميه؛ ثمّ ما لبث أن اختفى كلّ شيء؛ لم يكن سوى وهم. وقد ألفى جورج نفسه في المكان ذاته الذي تلبّسه فيه غروره الخادع.

كان يشدّ على قضيب حبْسه بين يديه؛ واعترته رغبة هوجاء في أن يرتمي وسط أولئك البؤساء ويكسر تلك الجماجم الغبيّة التي لم تستطع مقاومة الإغراء الفظّ وسقطت ضحيّته.

ولا ريب في أنّ جموع الفضوليّين، الذين لم يكونوا يفهمون شيئاً في تلك الحفلة التي قرّر الحاكم إقامتها على شرف العبيد، قد أخذوا ينظرون إلى المشهد بأفواه وعيون مشدوهة. كلّ واحد منهم كان يسأل جاره عمّا يحدث، لكنّ جاره ما كان أكثر علماً منه، وما كان سيعطيه تفسيراً للأمر.

ظلّ جورج يركض من زمرة إلى زمرة، ويمدّ عينيه حتّى أعماق تلك الشّوارع المضاءة والمليئة بالزّنوج الثملين الذين يطلقون همهمات لا معنى

Twitter: @ketab_n

لها. كان يبحث وسط حشدِ الكائنات القذرة عن رجلٍ واحدٍ، رجل واحد لا يزال بوسعه أن يثق به وسط الانهيار الشّامل. ذاك الرّجل هو لايزا.

وفجأةً سمع جورج جلبة كبيرة قادمة من ناحية بناية الشّرطة؛ ثمّ ما لبثت أن بدأ إطلاق نار حيّ من إحدى الجوانب، بذاك القدر من النّظام المعهود في تمارين فيالق الخطّ؛ ومن جانب آخر، انطلق الرّصاص بتلك الوتيرة العشوائية التي تطبع قصف الفيالق غير النّظامية.

أخيراً، ثمّة موضع تُتَبادل فيه النيران. انطلق جورج صوب ذلك الموضع؛ وبعد خمس دقائق ألفى نفسه في «شارع الحكومة». كان ذاك الفيلق الصّغير الذي يتعارك يقوده لايزا، لايزا الذي علم أنّ جورج كان أسيراً، فجاب المدينة على رأس أربعمائة رجل من نخبة الزّنوج، وقصد بناية الشّرطة لتخليصه.

ولا ريب في أنّ الحاكم قد حسب حساب هذه الحركة، إذ ما إن ظهر فيلق المتمرّدين ذاك عند طرف الشّارع، حتّى انبرى له فيلقُ الإنجليزِ وسار باتّجاهه.

وكان لايزا متأكّداً من أنّهم لن يسمحوا له بتحرير جورج دون قتال؛ لكنّه كان يعوّل على تسلّل باقي أفراد فيلقه عبر الأزقّة المتاخمة لناحية مالابار؛ وللأسف لم يكن له ذلك، نظراً للأسباب التي عرضناها فيما سبق.

وثب جورج بقفزة واحدة وسط المقاتلين منادياً بصيحات عظيمة: «لايزا! لايزا!»، لقد وجد إذن زنجيّاً جديراً بأن يكون رجلاً؛ لقد التقى طبيعةً مساوية لطبيعتِه.

اِلتقى القائدان وسط النّيران؛ وإذّاك، دون خوف من الرّصاص، لم

Twitter: @ketab_n

يحاولا البحث عن ملجأٍ آمن، وتبادلا بعض العبارات القصيرة العجلى بحسب ما تفرضه ملابسات الوضع. وما هي سوى لحظات حتّى كان لايزا قد أُحيط بكلّ شيء علماً، فاكتفى بهزّ رأسه قائلاً:

- ضاع كلّ شيء.

أراد جورج منحه جرعةَ أملٍ، وأشار إليه بأن يحاول شحذَ هِمَمِ السكارى؛ بيد أنّ لايزا أطلق ابتسامة سخرية عميقة وقال:

- إنّهم يشربون، وما لم ينفد الكحول فلا تأمل بشيء.

بيد أنّ البراميل كانت قد أُفعمت بالكحول بحيث لا يشتكي الزّنوجُ خصاصة.

وصار كلّ نضالٍ عبثاً، ما دام جورج الذي كان يسعى لايزا إلى تخليصه قد صار حرّاً؛ وما عاد لهم إذن سوى الأسف على فقدان ما يقرب من عشرة رجال صاروا خارج العراك، وأن يعطوا إشارة الانسحاب.

لكنّ الانسحاب نفسه صار متعذّراً عبر «شارع الحكومة»؛ وبينما فريق لايزا يقاتل الفيلقَ الإنجليزيّ الذي وقف في طريقه، خرج على وقع الطبول فيلق آخر كان كامناً، وسدّ الاتّجاه الذي أتى منه لايزا ورجاله. فكان لزاماً عليهم أن يسلكوا الأزقّة التي تحيط بقصر العدالة، وأن يفرّوا منها إلى ضواحي «الجبل الصغير» وناحية مالابار.

وما إن تقدّم جورج ولايزا ورجالهم مائةَ قدم، حتّى ألفَوا أنفسهم في الأزقّة المضاءة حيث وُضعت البراميل. وكان المشهد أكثر قذارة من السّابق، إذ تقدّم السُّكْر أشواطاً.

وعند كلّ زُقاق كانت تُلمح حراب بنادق الكتائب الإنجليزيّة، لمّاعة في الظلام.

تبادل جورج ولايزا نظرات مفادها: «لم تعد المسألة مسألة انتصار،

Twitter: @ketab_n

وإنّما مسألة موت؛ الموت بشرف».

بيد أنّ القائدَين معاً، أرادا أن يجرّبا مسلكاً أخيراً؛ فانطلقا عبر الزّقاق الرّئيس، محاولَين تعبئة المتمرّدين. لكنّ بعضهم كانوا لا يكادون يستطيعون سماع صيحات قائدَيهم وتحذيراتهما؛ والبعض الآخر لم يستطيعوا البتّة معرفتهما، وظلّوا يغنّون بأصوات مخمورة ويرقصون على سيقان مرتجفة؛ بينما كانت فئة ثالثة، هي الكبرى، وقد بلغت حدود الثمالة القصوى، تتدحرج عبر الشّارع فاقدةً لحظة بعد أخرى نزر الوعي اليسير الذي كانت لا تزال تملكه.

كان لايزا قد أخذ بيده سوطاً وصار يضرب أولئك التّعساء بيديه. بينما ظلّ جورج مستنداً إلى قضيب الحديد، وكان هو السّلاح الوحيد الذي لمسه بيده، وظلّ جامداً ينظر إليهم نظرةَ ازدراء، كأنّه نصب احتقار.

وبعد دقائق اقتنعا معاً بأنْ لا أمل يرجى من الوضع، وأنّ كلّ دقيقة يضيعانها هي سنةٌ تُقتطع من عمرهما؛ لا بل إنّ بعضاً من رجالهما، وقد جرفهم التقليد، وأبهرتهم رؤية الشراب المُسكر، ودوّختهم رائحة الكحول، بدؤوا ينشقّون بدورهم. ما عاد ثمّة وقت إذن، ينبغي أن يتركا المدينة، لا بل لعلّهما قد أضاعا أصلاً الكثير من الوقت.

جمع جورج ولايزا الرّجال الذين ظلّوا ثابتين في ولائهم، وكانوا ثلاثمائة رجلٍ تقريباً؛ ثمّ ترأّساهم وزحف الجميع بثبات صوب طرف الشّارع الذي كان يغلقه، كما أسلفنا، جدارٌ من الجنود. وإذ صاروا على بعد أربعين قدماً من الإنجليز، شاهدوا البنادق تسدَّد نحوهم، ثمّ اخترقَ صفوفهم وابل من الرّصاص؛ سقط عشرة رجال أو اثنا عشر؛ بيد أنّ القائدين ظلاّ واقفين، وصرخا معاً بأعلى صوتيهما «إلى الأمام!».

وإذ صاروا على بعد عشرين قدماً، انهال عليهم رصاص الصّف

Twitter: @ketab_n

الثّاني، وكانت الخسائر في صفوف المتمرّدين أكبر من المرّة الأولى. لكنّ الفريقين ما لبثا أن التحما، وبدأ القتال جسداً لجسد.

كان خليطاً مرعباً: ونعرف من هم الجنود الإنجليز، وكيف يقاتلون أنّى وُضعوا حتّى الموت. بيد أنّ الفريق الثّاني كان فريق رجالٍ يائسينَ، رجال يعرفون ما ينتظرهم إن هم وقعوا في الأسر؛ كانت تنتظرهم ميتة مُخزية، وبالتالي أرادوا أن يموتوا أحراراً.

أبدى جورج ولايزا جرأة وبسالة معجزتين: لايزا حاملاً بندقيّته التي كان قد أمسك بها من فوهتها وصار يستخدمها كسوط حديديّ؛ وجورج بالقضيب الذي انتزعه من نافذة حبْسه، والذي كان يستعمله كصولجان؛ وكان رجالهما يتبعونهما كأفضل ما يكون، منهالين على الإنجليز بضربات البنادق؛ أمّا الجرحى فكانوا يزحفون بين المتعاركين ويقطعون بالسّكاكين أوتار عراقيب أعدائهم.

اِستمرّ القتال عشر دقائق على ذلك النّحو، شرساً ومحتدماً ومميتاً، دون أن يكون بإمكان أيّ واحد التنبّؤ بمصير المعركة. ثمّ انتصر اليأس على النّظام: انفرجت صفوف الإنجليز مثل سدٍّ يُفتح، وتركت السّيلَ يتدفّق وينتشر فوراً خارج المدينة.

وبقي جورج ولايزا في المؤخّرة، بعدما كانا على رأس المقاتلين، رغبةً منهما في تأمين الانسحاب. واستطاعوا في آخر المطاف أن يبلغوا سفح «الجبل الصغير»، وهو مكان أشدّ انحداراً واحتجاباً من أن يجرؤ الإنجليز على المجازفة بالتّوغل فيه. وما إن بلغه المتمرّدون حتّى توقّفوا مسترجعين أنفاسهم. والتفّ حول القائدَين حوالى عشرين رجلاً من السّود، بينما تناثر الباقون في كلّ الجهات: فلم تعد المسألة مسألة قتال، وإنّما مسألة نجاة بالاختباء في الغابة الكبيرة. أشار جورج إلى حيّ موكا حيث يوجد

Twitter: @ketab_n

مقرّ والده، ضارباً هناك موعداً لأولئك الذين يرغبون في الانضمام إليه، معلناً أنّه سينطلق غداً مع بزوغ الفجر إلى حيّ الميناء الكبير، هنالك حيث توجد، كما أسلفنا، أشدّ الغابات كثافة.

وكان جورج يعطي توجيهاته الأخيرةَ إلى ما تبقى من ذاك الفيلق البئيس الذي كان قد توهمّ للحظة أنّه قد يسيطر به على الجزيرة. وبينما هم كذلك، انزلق البدر ما بين غمامتين، وسلّط شعاعه على الفريق الذي كان يقوده هو، مبرزاً الأحجام، أو أقلّه الأصواتَ والحركات؛ وإذّاك أومض دغلٌ على بعد أربعين قدماً من المطارَدين، وسُمع دويّ سلاحٍ ناريّ، فسقط جورج عند قدمَي لايزا، وقد أصابته رصاصة في جانبه.

وفي اللّحظة نفسها، انطلق رجلٌ، كان بالإمكان للحظةٍ متابعة ركضه السّريع من خلف الدّغل، وانزلق على طول المنحدر الممتدّ خلفه، متوارياً عن كلّ الأنظار؛ ثمّ عاد إلى الظهور عند طرف المنحدر، ومن خلال طريقٍ مختصَرةٍ التحق مجدّداً بصفوف الإنجليز المتوقّفين عند ضفاف جدول بوسيل.

وعلى الرّغم من سرعة القاتل، استطاع لايزا أن يميّزه؛ وتمكّن المصاب قبل أن يغيّبه الوعي من أن يسمع الزّنجيّ يهمس بهذه الكلمات الثلاث مصحوبةً بوعيدٍ هادئ لكن لا رجعة فيه:

- إنّه أنطونيو المااليزيّ!

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث والعشرون

قلبُ أبٍ

بينما كانت كلّ تلك الأحداث التي عرضناها تجري في بور لويس، كان بيار مونييه يترقّب في موكا قلِقاً النّتيجةَ الرّهيبة التي دفع به ابنه إلى توقّعها: فلطول ما اعتاد سيادةَ الرّجال البِيض الأبديّة، انتهى الرّجل، كما أسلفنا، إلى اعتبار أنّ تلك السّيادة ليست حقّاً مكتسباً فحسب، وإنّما تفوّقاً تمليه قوانين الطّبيعة. وبالرّغم من ثقته في ابنه، إلّا أنّه لم يستطع التّصديق بأنّ تلك العقبات، التي كان يراها غير قابلة للمجاوزة، قد تنحني أمام جورج.

وكما سبق أن رأينا، ما إن تركه جورج حتّى انقضّ عليه فتور عميق؛ حتّى أنّ احتدام الانفعالات الذي يعتمل في قلبه، وكثرة الأفكار التي تراود ذهنه، قد ألقيا به في حالة من عدم الاكتراث شبيهةٍ بالبلاهة. وقد خطر له مرّتين أو ثلاثاً أن يذهب بنفسه إلى بور لويس، وأن يرى بأمّ عينيه ما كان يجري. لكنّ المرء يحتاج كي يسير بعكس قناعاته إلى قوّةٍ كانت تعوز الأبَ المسكين. ولو أنّ بيار مونييه ما كان يملك سوى خيار الارتماء في خطر ما، لكان ارتمى فيه.

أمضى اليومَ إذن في قلق عظيم، وممّا زاد من صعوبته أنّه كان قلقاً داخليّاً، قلقاً ما كان بوسع الرّجل الذي يعانيه الإفصاح عنه. ما كان يستطيع الإفصاح حتّى إلى تيلماك الذي ظلّ يسأله عن أسباب تلك الكآبة؛ وبين الفينة والأخرى فقط كان ينهض عن أريكته، ويقصد

Twitter: @ketab_n

النّافذة المفتوحة بجبين منحنٍ، ويلقي صوب المدينة نظرة بعيدة، ويصيخ السّمع، كأنّما بوسعه أن ينصت إلى ما يجري. ثمّ إذ لا يرى أو يسمع شيئاً، يطلق زفرةً، ويعود إلى أريكته بشفتين مزمومتين وعينَين واهنتين.

دقّت ساعة العشاء. أعدّ تليماك، الذي تُسنَد إليه أشغال المنزل الاعتيادية، المائدةَ، وحمل الطّعام. بيد أنّه قام بكلّ ذلك دون أن يرفع المعنيُّ بها حتّى عينيه: ثمّ إذ مضت ربع ساعة، ولاحظ تليماك أنّ سيّده ظلّ على حاله غير مبالٍ بما يجري، لمسَ كتفه برفقٍ؛ اِرتعد بيار مونييه ووقف بحدّة قائلاً:

- هل بلغكم شيء؟

أشار تليماك إلى أنّ العشاء قد وُضع؛ بيد أنّ بيار مونييه ابتسم بحزن، وهزّ رأسه ثمّ عاد إلى تهويماته. أدرك الزّنجيّ أنّ ثمّة خطْباً مهولاً؛ ودون أن يجرؤ على السّؤال، أجال عينيه البيضاوين الكبيرتين حواليه، باحثاً عن بعض الإشارات التي قد تسعفه في تتبّع آثار الخطب المجهول؛ بيد أنّ كلّ شيء كان في مكانه المناسب، وكلّ شيء يسير سيرَه المعتاد؛ على أنّه كان ظاهراً أنّ ترقّبَ فجيعة كبيرة قد اتّخذ موضعه ذلك الصّباح في بيت العائلة.

مرّ النهار على ذلك النّحو.

وإذ كان تليماك يأمل في أنّ الجوع قد يفرض سطوته، تركَ العشاءَ على المائدة؛ لكنّ بيار مونييه كان مأخوذاً إلى درجة ما كان يمكن معها أن يهتمّ بأمر آخر غير فكرِه. على أنّه أتت لحظة لمحَ فيها تليماك قطراتٍ من العرق تتلألأ فوق جبين سيّده، فخاله حرّانَ، وقدّم له كأس ماءٍ ونبيذاً؛ لكنّ بيار مونييه دفع الكأس برفق قائلاً:

- لم تصلكَ أخبارٌ بعد؟

Twitter: @ketab_n

هزّ تليماك رأسه، ونظر على التوالي إلى السّقف والأرضية، وكأنّما يسائلهما عمّا إذا كانا يعلمان ما لا يعلمه هو؛ ثمّ إذ جاوبه صمتهما معاً، خرج يسأل الزّنوج عمّا إذا كانت لديهم معلومات أكثر عن الأمر الغامض الذيّ يقضّ مضجع سيّده.

لكن لِعَظيمِ دهشته، ما كان ثمّة زنجيّ واحد في المقرّ. ركض فوراً إلى الإسطبل حيث اعتادوا أن يجتمعوا لإقامة البرلوكا. كان الإسطبل خاوياً؛ فعرّج على الأكواخ، ولم يجد بها غير النّساء والأطفال.

اِستفسرهم، وعلم أنّ الرّجال لمّا أنهوا أشغال نهارهم، لم يذهبوا ليرتاحوا مثلما اعتادوا، وإنّما حملوا أسلحتهم وانصرفوا في زُمَر متفرّقة قاصدينَ الهدف نفسه: نهر اللاتانييه. فعاد تليماك إلى مقرّ السيّد.

اِستدار الشّيخ لدى سماع الضّجة التي أحدثها تليماك وهو يفتح الباب، وسأله:

- ماذا إذن؟

حدّثه تليماك عن غياب الزّنوج، وكيف أنّهم تسلّحوا جميعاً وقصدوا محلاّ واحداً.

فقال بيار مونييه:

- أجل! أجل! للأسف! أجل!

ما عاد ثمّة من مجال للشكّ بالنّسبة للشّيخ، لا بل إنّ حديث تليماك جعل الشّيخ يتيقّن أكثر من أنّه بلغ اللّحظة التي صار فيها مصيره يتحضّر في المدينة؛ فمنذ أن عاد جورج ورأى فيه والدُه كلّ أمارات الوسامة والشّجاعة والثّقة والثراء والمستقبل الواعد، جعل الشّيخُ حياتَه تتماهى مع حياة ابنه، إلى درجة أنّه صار متيقّناً من أنّهما يحْيَيان وجوداً واحداً، وأنْ لا سبيل له إلى أن يتحمّل رحيل ولده ولا حتّى غيابه.

Twitter: @ketab_n

أوه! كم كان يلوم نفسه على تركه جورج يرحل هذا الصّباح دون أن يستفسر منه عن الأمر، دون أن يتوغّل إلى أعماق فكره، ودون أن يحيط بمدى الأخطار التي تترصّده! كم كان يلوم نفسه على أنّه لم يطلب منه السماح له بمرافقته! لكنّ فكرة أنّ ابنه سيخوض حرباً ضدّ الرّجال البيض قد حطّمته إلى درجة أنّه في الوهلة الأولى أحسّ أنّ كلّ قواه الذّهنية تخونه. فقد كان الشّيخ كما رأينا من أولئك الرّجال ذوي النّفوس التي لا جلَد لها إلّا على الأخطار البدنيّة.

بيد أنّ اللّيل هبط ومرّت السّاعات دون أن تحمل أيّ خبر مطَمئن أو مفجع. دقّت السّاعة العاشرة، ثمّ الحادية عشرة، ثمّ انتصف اللّيل. وعلى الرّغم من أنّ العتمة كانت قد بسطت نفوذها في الخارج، وصارت تمنع من النّظر أبعد من مسافة عشر أقدام، فإنّ بيار مونييه ظلّ يقطع المسافة الفاصلة ما بين النّافذة والأريكة بوتيرة تكاد تكون ثابتة لكنّها ما انفكّت تتسارع. وبقي معه في نفس الغرفة تليماك، الذي كان يبدو قلقاً حقّاً؛ بيد أنّ الخادم الأمين، على الرّغم من استعداده الكبير للتّضحية، لم يستطع أن يقاوم الوسن، فنام على كرسيّ، مستنداً إلى الجدار حيث ارتسم قدّه مثل صورة خُطّت بالفحم.

وفي السّاعة الثّانية صباحاً، هرَّ أحد كلاب الحراسة التي كانت تُترك عادة طليقةً كي تحوم حول البيت، وقد انشغلوا عن إطلاق قيده ذاك المساء. هرّ هريراً خافتاً كئيباً، فارتعد بيار مونييه وقام واقفاً؛ بيد أنّ الصّوت الموحش الذي يعتقد السُّود أنّه نذير شؤم، جعل قوى الرّجل تخور، فاضطرّ إلى أن يستند على الطاولة حتّى لا يسقط. وبعد خمس دقائق أطلق الكلب صيحة أشدّ قوّة وحزناً من الأولى وأطول منها. ثمّ بعدَ زمنٍ مماثلٍ، أطلق صيحة ثالثة، وكانت هذه المرّة مفجعة وأكثر نواحاً من

Twitter: @ketab_n

السّابقتين معاً.

شحب بيار مونييه وخرس صوته، وتعرّق جبينه، وظلّ مثبتاً بصره على الباب دون أن يقترب منه خطوةً، لكنّه كان ينظر إليه مثل رجل ينتظر مصيبةً ويعلم أنّها ستأتي من هناك.

وبعد لحظة تناهى وقع خطواتِ عددٍ كبير من الرّجال؛ وكانت تلك الخُطى تدنو من المنزل، بيد أنّها كانت بطيئة ومحسوبة. وخُيّل للأب المسكين أنّها كانت خطواتِ رجالٍ يلحقون بموكب.

وما هي سوى لحظة يسيرة حتّى بدا أنّ الغرفة المجاورة قد امتلأت بالنّاس؛ وأيّاً كان ذاك الحشد، فقد ظلّ صامتاً. بيد أنّ الشّيخ ظنّ أنّه قد سمع أنيناً، وفي ذلك الأنين تعرّف على صوت ابنه، فصاح:

- جورج، جورج، بحقّ السّماء، هل هذا أنت؟ أجبني، تكلّم، تعالَ إليّ!

أجابه صوت واهن وهادئ:

- ها أنذا يا أبي! ها أنذا!

وفي اللّحظة نفسها فُتح الباب ودخل عبره جورج، بيد أنّه كان يستند إلى الجدار وكان شديد الشّحوب إلى درجة أنّ والده قد اعتقد لوهلةٍ أنّ الدّاخل عليه كان شبح ابنه الذي استحضره هو فلبّى النّداء؛ حتّى أنّ الشّيخ بدلاً من أن يهرع صوب ابنه، تراجع خطوة إلى الخلف. قال هامساً:

- أخبرني بحقّ السّماء، ماذا جرى لك؟

- أُصبت إصابة بليغة، لكن اطمئنّ إنّها ليست قاتلةً، ما دمتُ أستطيع، كما ترى، أن أمشي وأن أظلّ واقفاً؛ بيد أنّي لا أستطيع أن أظلّ واقفاً مدّة طويلة.

Twitter: @ketab_n

ثمّ أضاف بصوت خافت:

- إليّ يا لايزا، إنّ قوايَ تخور!

وترك نفسه يهوي بين ذراعيّ الزّنجيّ. هرع بيار مونييه إلى ولده، لكنّه كان قد فقد الوعي.

وفي الواقع، أراد جورج، اعتماداً على إرادته المميّزة، أن يأتيَ أباه واقفاً، على الرّغم من شدّة وهنه وإشرافه على الاحتضار. على أنّ الدافع إلى ذلك لم يكن هذه المرّة الزّهوَ الذي ألفناه فيه، وإنّما لأنّه كان يُدرك أنّ أباه يمحضه حبّاً كبيراً، فقد كان يخشى من أن تكون رؤيته على تلك الحال قاضية بالنّسبة للشّيخ. وعلى الرّغم من تحذيرات لايزا، فإنّه ترك المحمل الذي كان ينقله فيه بعضُ الزّنوج عبر مسالك «جبل الإبهام»؛ ثمّ بفضل شجاعة تتجاوز قدرات البشر، وبفضل تلك الإرادة التي تتحكّم عنده بضعف البدن، تمكّن من أن يقف وتشبّث بالجدار، واستطاع أن ينفّذ ما خطّط له، ويظهر أمام والده واقفاً.

وبالفعل، فمثلما ظنّ، كان أثر الصّدمة أقلّ وطأة على الشّيخ.

بيد أنّ تلك الإرادة ما لبثت أن انحنت أمام الألم؛ ومثلما رأينا، خرّ جورج بسبب المجهود الذي بذله، وسقط بين ذراعَي لايزا.

وكان مرأى ألم الأب شيئاً فظيعاً حتّى بالنّسبة للرّجال؛ ألم بلا شكوى، بلا دموع، ألم صامت وعميق وكئيب. وضعوا جورج على الأريكة. وجلس الشّيخ على ركبتيه، ووضع ذراعه تحت رأس ولده، وأخذ يترقّب بعينين مثبّتتين ونفس مقطوع عينَي ابنه الغائبتين ونفسَه الواهن، ممسكاً بيده الأخرى يد الجريح؛ ولمَ يسأل الرّجال شيئاً ولا رغب في معرفة ما آلت إليه الأمور أو الإحاطةَ بأيّ تفصيل من تفاصيلها؛ لقد كان كلّ شيء واضحاً بالنّسبة له: إنّ ولده هناك، جريح، نازف، غائب عن الوعيّ، فما

Twitter: @ketab_n

الذي يحتاج أن يعرفه أكثر، وفيمَ سيفيده العلم بالأسباب التي أدّت إلى تلك النّتيجة المروّعة؟

ظلّ لايزا واقفاً عند زاويةِ منضَدة، مستنداً إلى بندقيّته، ومن حين إلى آخر كان ينظر عبر النّافذة متقصّياً طلوع النّهار.

أمّا باقي الزّنوج، فبعدما وضعوا جورج على الأريكة، انسحبوا بوقار إلى الغرفة المجاورة، وظلّوا يطلّون برؤوسهم السّوداء عبر الباب. وكان ثمّة آخرون مجتمعين عند النّافدة، وكان العديد منهم مصابين إصابات متفاوتة الخطورة: لكن لم يبدُ أنّ أحداً منهم يكترث لإصابته.

وكان عددهم يتزايد في كلّ لحظة، ذاك أنّ المطارَدين بعدما تفرّقوا جماعات، وساروا في مسالك مختلفة تفادياً لملاحقة الإنجليز، بدؤوا يصلون إلى المقرّ مثلما تعود الخراف الشّاردة إلى الحظيرة واحداً تلو آخر. وعند السّاعة الرّابعة صباحاً، كان ثمّة ما يقارب مائتي زنجيّ حول المقرّ.

وكان جورج قد استعاد وعيه وحاول طمأنة والده ببعض الكلمات؛ بيد أنّ صوته كان بالغ الوهن، حتّى أنّ والده أشار إليه بالسّكوت على الرّغم من السّعادة التي أحسّ بها وهو يسمع صوت ابنه؛ ثمّ استفسره عن طبيعة الإصابة، وعن الطّبيب الذي قطّب جرحه؛ فابتسم جورج وأشار إلى لايزا بحركة من رأسه.

وكما نعلم فإنّ بعض الزّنوج في المستعمرات عادةً ما يكونون جرّاحين مهرة، حتّى أنّ بعض الرّجال البيض يفضّلونهم على المختصّين في هذا الميدان. والأمر غاية في البساطة: إنّ أولئك الرّجال البدائيّين، الشّبيهين عندنا بالرّعاة الذين ينافسون أمهر الأطباء، يُلفون أنفسهم في مواجهة دائمة مع الطّبيعة، فيستطيعون مثل الحيوانات اكتناه بعض الأسرار التي تظلّ مستغلقَة عن سواهم. وكان لايزا يُعتبر في الجزيرة كلّها جرّاحاً

Twitter: @ketab_n

ماهراً؛ وكان الزّنوج يعْزون إتقانه تلك الصّنعة إلى بعض التعاويذ السريّة أو التّمائم السّحرية، بينما يعزو البيض ذلك إلى معرفته ببعض الأعشاب والنباتات التي كان وحده يحيط بأسمائها وخصائصها. فزاد اطمئنان بيار مونييه إذ علم أنّ لايزا هو من اعتنى بجرح ابنه.

على أنّ الوقت الذي يطلع فيه الصّباح كان يزداد اقتراباً، وبقدر ما كان يزداد اقترابه كان قلق لايزا يتزايد. وفي الأخير، ما عاد يطيق صبراً، فاقترب من المريض بحجّة جسّ نبضه، وحدّثه بصوت خفيض.

قال بيار مونييه:

- ماذا تسأله؟ وما الذي تريده منه يا صديقي؟

فأجابه جورج:

- ما الذي يريده يا أبي؟ إنّه لا يريد ليَ الوقوعِ في أيد الرّجال البِيض، ويسألني عمّا إذا كانت قوايَ تسعفني كي أُحمل إلى الغابة الكبيرة.

صاح الشّيخ:

- يحملونك إلى الغابة الكبيرة وأنت في هذه الحال من الوهن! مستحيل!

- ليس ثمّة من حلّ آخر يا أبي، إلّا في حال ما إذا كنت تريد أن تراهم يمسكون بي أمام عينيك، و...

قاطعه بيار مونييه بنبرة قلقة:

- وماذا؟ ما الذي يريدونه منك؟ وما الذي يمكنهم أن يفعلوا بك؟

- ما الذي يريدونه منّي؟ يريدون الانتقام، لأنّ مولّداً بئيساً واتته الجرأة على الوقوف في أوجههم، ولعلّه استطاع أن يجعلهم يرتجفون لبرهة. ما الذي يمكنهم أن يفعلوا بي؟ أوه! (أضاف مبتسماً) تقريباً لا شيء، يستطيعون أن يقطعوا رأسي في السّهل الأخضر.

Twitter: @ketab_n

شحب الشّيخ، ثمّ بدأ جسده بأكمله يرتعد؛ وكان من البيّن أنّ الرّجل كان يعيش صراعاً داخلياً رهيباً. وفي الأخير، رفع جبينه وهزّ رأسه نظر إلى الجريح وقال هامساً:

- أن يأخذوك! أن يقطعوا رأسك! أن يأخذوا منّي ابني، ويقتلوه! أن يقتلوا فلذة كبدي جورج! وكلّ ذلك لأنّه أكثر وسامةً وشجاعة وعلماً منهم... آه! فليأتوا إذن!...

وبجهدٍ ما كنّا قبل خمس دقائق لِنَخال الشّيخَ قادراً على بذله، هرع إلى غدّارته المعلّقة على الجدار، وتناول السلاح الخامل منذ ستّ عشرة سنة، وصاح:

- حسناً، حسناً! ليأتوا إذن وسنرى! آه! لقد سلبتم هذا المولَّدَ المسكين كلّ شيء يا سادتي البيض؛ سلبتموه عزّة نفسه، وما اعترض؛ سلبتموه حياته، وما اعترض؛ لكنّكم الآن تريدون أن تسلبوه ولدَه؛ تريدون أن تسلبوه ولده، كي تسجنوه، كي تعذّبوه، وكي تقطعوا رأسه! أوه! تعالوا يا سادتي البيض، وسنرى! خمسون سنةً من الكرْه تجمع بيننا؛ تعالوا، تعالوا، لقد دقّت ساعة الحساب.

صاح جورج وهو ينهض مستنداً إلى كوعه، وينظر إلى والده بعين محمومة:

- حسناً يا أبي، حسناً، الآن عدتَ الرّجلَ الذي أعرفه.

- نعم يا ولدي، هيّا بنا إذن إلى الغابة الكبيرة، ولننظر هناك، ما إذا كانوا يجرؤون على ملاحقتنا. أجل، هيّا بنا، إنّ الغابات أضمن من المدن. فهناك سنكون تحت حماية الرّب؛ ليبصر بنا الرّب إذن وليَقضِ بيننا. وأنتم يا أبنائي (أضاف موجّهاً كلامه إلى الزّنوج)، هل كنتُ سيّداً رفيقاً بكم؟

Twitter: @ketab_n

صاح الزّنوج بصوت واحد:

- أوه! أجل، أجل!

- ألم تقولوا لي ألف مرّة إنّكم مخلصون لي دوماً، لا كعبيدٍ وإنّما كأبناء؟

صاح الزّنوج بصوت واحد:

- أوه! أجل، أجل!

- وإذن هو ذا الوقت الذي ينبغي أن تظهروا فيه ولاءكم لي.

قال الزّنوج:

- ما عليك إلّا أن تأمرنا يا سيّدي!

- ادخلوا، ادخلوا جميعاً.

اِمتلأت الغرفة بالزّنوج. واستطرد الشّيخ:

- انظروا، هو ذا ابني الذي أراد تخليصكم، الذي أراد تحريركم، وأراد أن يجعل منكم رجالاً، أنظروا هي ذي مكافأته. ولم يكفيهم ذلك، يريدون أن يأخذوه جريحاً نازفاً محتضراً؛ فهل ستدافعون عنه؟ هل ستنقذون حياته؟ هل ستساندونه حتّى الموت؟

صاحت الأصوات جميعها:

- أوه! أجل! أجل!

صاح الشّيخ:

- إلى الغابة الكبيرة، إذن.

فصاح جميع الزّنوج:

- إلى الغابة الكبيرة.

وإذاك قرّبوا المحمل المصنوع من أوراق الشجر إلى المصطبة حيث كان يرقد جورج؛ وضعوا عليه الجريحَ، وأمسك أربعة زنوج بزواياه الأربع. وخرج جورج من المنزل على رأس الموكب هو ولايزا؛ ثمّ لحق

Twitter: @ketab_n

بهم الزّنوج؛ وفي آخِر الموكب كان بيار مونييه، الذي خرج تاركاً المسكن مفتوحاً، مهجوراً وخالياً من أيّ كائن بشريّ.

سلك الموكب المؤلّف من حوالى مائتي زنجيّ الطّريقَ المؤدّية من بور لويس إلى الميناء الكبير، ثمّ بعد مسير نصف ساعة انحرفوا يميناً، وتقدّموا صوبَ قاعدة «شعفة الوسطِ» رغبةً في الوصول إلى منبع «نهر الكريولِيّين».

وقبل أن يتوغّلوا خلف الجبل، توقّف بيار مونييه، الذي كان لا يزال يمشي في ذيل الموكب، لحظةً، وتسلّق أكمةً وألقى نظرة أخيرة على مسكنه الجميل الذي يخلّفه وراء ظهره. ومسح بنظرة واحدةٍ حقولَه الخصبة، حقولَ القصب والمنيهوت والذّرة؛ وبساتينه الرّائعةَ، بساتينَ اللّيمون الهنديّ وتفّاح الورد والتاكاماكا؛ وذاك الحزام الرّائع من الجبال التي تحدّ أملاكَه كجدارٍ عملاق. وتذكّر أنّه كان يلزم ثلاثةُ أجيالٍ من الرّجال الشّرفاء المجدّين والمقدَّرين مثله كي يتحوّل ذلك الحيّ إلى جنّةِ الجزيرة، فأطلق زفرة ومسح دمعةً؛ ثمّ أشاح بعينيه وهزّ رأسه، ورسم بسمة على شفتيه، ولَحق بالنّقالة حيث ينتظره الولد الجريح الذي من أجله ترك هو كلّ ذلك.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع والعشرون

الغابة الكبيرة

لمّا بلغ المطارَدون منبع «نهر الكريوليّين» طلع النّهار، وصارت أشعة الشّمس الشّرقية تغمر قمّة «شعفة الوسط» الغرانيتيّة؛ ومع طلوع الصّباح استيقظ كلّ سكّان الغابة. وعند كلّ خطوة يخطوها الزّنوج كانت الطناريقُ تستيقظ وتفزع إلى وجارها؛ وتقفز القرود من غصن إلى غصن ساعية إلى بلوغ الأقاصي الأشدّ مرونة من أشجار الفاكوا والكازوارينا والتّمر الهنديّ، وإذّاك تتعلّق بذيولها وتتأرجح قافزةً مسافة كبيرة، ثمّ تتشبّث بدقّة مذهلة بأشجارٍ أخرى تمنحها مأوىً أكثر أماناً. وتقفز ديَكة الغاب محدثةً صوتاً عظيماً وهي تضرب الهواء بطيرانها الثّقيل، وتبدو الببغاوات كأنّها تسخر منها بصوتها المتهكّم، بينما يمرق طائر الكاردينال خاطفاً كالبرق ومتلألئاً كياقوتة؛ والخلاصة أنّ الطبيعة الدّائمة الشّباب والخصوبة واللامبالاة، تبدو في سكينتها المطمئنّة وسعادتها الهادئة، مثل سخرية أزليّة تقابل صخب الإنسان وآلامه.

وبعد ثلاث ساعات من المشي أو أربع، توقّفت القافلة لتستريح فوق نجد يقع عند سفح جبل لا اسم له، نجدٍ تنتهي قاعدته على ضفاف نهر. وبدأ أثر الجوع يظهر على الرّجال؛ ولحسن حظّهم كان الجميع قد اصطادوا أثناء مسيرهم؛ فبعضهم قتل الطّناريق التي يعشقها السّود بضربات العصا؛ وآخرون قتلوا قروداً وديَكة غاب؛ كما أصاب لايزا أيّلاً، ولاحقه الرّجال، وأمسكوا به في غضون ساعة. فكان ثمّة ما يكفي

Twitter: @ketab_n

الفيلقَ بأكمله.

واستغلّ لايزا الاستراحة كي يعيد تضميد الجريح؛ ومن حين إلى آخر كان يبتعد عن النّقالة باحثاً عن بعض الأعشاب والنّباتات التي لا يعرف اسمَها أو خصائصَها غيره. وإذ يعود إلى موضع الاستراحة، يجمع غلّته ويضمّ النّباتات القيّمة بعضها إلى البعض الآخر داخل شقّ صخرة، ثمّ بحجر أملس يشرع في سحق النّباتات التي جمعها واحدة بعد أخرى، كأنّما يفعل ذلك بواسطة مدقّ. وما إن يفرغ من تلك العمليّة حتّى يستخلص الماء النّاجم عنها، وينقع فيه قطعة قماش؛ ثمّ ينزع الضمادة التي وضعها في اليوم السّابق، ويضع الضمادات التي نقعها لتوّه على الجرح المزدوج، إذ لحسن الحظّ لم تستقرّ الرّصاصة في جسد جورج، وإنّما دخلت من منطقة تحت الضلوع اليسرى بقليل، وخرجت من موضع أعلى من الورك بقليل.

تابع بيار مونييه العمليّة بقلق كبير. كان الجرح خطيراً، بيد أنّه لم يكن مميتاً. لا بل أكثر من ذلك كان جليّاً من منظر الجسد أنّ الرّصاصة لم تصب أيّاً من الأعضاء الحيويّة، وبالتّالي قد يشفى الجرح أسرع ممّا لو كان قد اعتنى به أحد أطبّاء المدينة. ولم يسلم الشّيخ المسكين من كلّ أشكال القلق التي يوقظها في المرء مرأى مثل ذلك الجرح؛ وعلى خلاف ذلك، لم يحرّك جورج حتّى حاجبيه، على الرّغم من شدّة الألم الذي من المفترض أنّه كان يعانيه وهو يخضع لعلاج مماثل، وكتمَ كلّ ارتجافة قد تصدر عنه، حتّى يده التي يمسك بها والده بين يديه.

وما إن انتهوا من معالجة الجرح وفرغوا من تناول الطّعام حتّى استأنفوا مسيرهم. كانوا يقتربون من الغابة الكبيرة، لكن كان لا يزال يلزمهم الوقت لبلوغها؛ ذاك أنّ الفيلق الصّغير كان يتأخّر في المسير

Twitter: @ketab_n

بسبب الجريح المحمول، لا سيّما وأنّ مطبّات الطريق كانت تصعّب من مهمّته؛ ومنذ غادروا المقرّ وهم يسيرون ببطء، مخلّفين وراءهم أثراً يسهل اقتفاؤه.

ساروا حوالى ساعة أخرى، محاذينَ ضفاف «نهر الكريولتّين»، ثمّ انحرفوا يساراً فبلغوا حافّة الغابة؛ وحتّى تلك اللّحظة لم يصادفوا سوى غابات صغيرة؛ وبقدر ما كانوا يتوغّلون كانت تتضاعف أشجار الميموزا في أجمات عديدة؛ وفي الفرجات المتروكة بين الأشجار تنبثق نباتات سرخس تضاهيها في الضّخامة؛ ومن فوق أشجار التّاكاماكا تتدلّى نباتات متسلّقة ذات أطوال مدهشة، كأنّها ثعابين تعلّقت بذيلها. وكان كلّ ذلك يعلن عن أنّهم قد دخلوا مجال الغابة الكبيرة.

وسرعان ما بدأت الغابة تزداد كثافة أكثر فأكثر؛ فتزداد جذوع الأشجار اقتراباً، وتتعانق نباتات السّرخس، وتبدو النّباتات المتسلّقة كقضبان يتعسّر المرور عبرها أكثر فأكثر، لا سيّما بالنّسبة لحَمَلة النّقالة؛ وكلّما شهد جورج معاناتهم في المرور كان يهمّ بالنّزول؛ لكنّ لايزا يتصدّى لمحاولته بحزم شديد، بينما يشبك الأب يديه كمن يصلّي، حتّى لا يُمَسَّ ولاء أحدهما ورقّة الآخر؛ وإذّاك يعود المريض إلى محمله ويتركهم يستأنفون محاولاتٍ تصير أحياناً مضنيةً جدّاً، وأحياناً تذهب سدىً.

على أنّ تلك الصّعوبات التي كان يصادفها المطارَدون للتوغّل داخل الغابة العذراء، كانت بمثابة الضّمان لأمنهم، ذاك أنّ تلك الصّعوبات ستكون أقسى على الملاحِقين؛ فالهاربون كانوا زنوجاً معتادين على مثل تلك المسيرات الطّوال، أمّا الملاحِقون فكانوا جنوداً إنجليزاً ألفوا التّحرك في مضمار مارس وملعب اللّورد[1].

---

(1) مضمار مارس لسباقات الخيل في جزيرة موريس، وملعب اللّورد لكرة المضرب في لندن.

Twitter: @ketab_n

بيد أنّهم بلغوا موضعاً شديد الكثافة والتّداخل والسُّمك إلى درجة أنّ كلّ المحاولات باءت بالفشل؛ وأنفق الفيلق الصّغير وقتاً طويلاً في ثقب ذاك الجدار النّباتيّ الذي ما كانت ستنفع معه سوى ضربات السّواطير؛ بيد أنّ الممرّ الذي يفتحه هؤلاء يُفيد منه أولئكَ، ومثلما يمنح الثّقب إمكان الفرار يمنح إمكان الملاحقة.

وإذ أجالوا أبصارهم عثروا على سقيفة صيّادين، وتحت تلك السقيفة وجدوا بقايا نيران لا يزال الدّخان ينبعث منها: كان من البديهيّ أنّ ثمّة زنوجاً آبقين يجوبون المكان، وإذا ما استندنا إلى طراوة الآثار، فإنّهم بالتّأكيد ليسوا ببعيدين.

شرعَ لايزا بتقفّي أثرهم. ونعلم مهارة الرّجال المتوحّشين في تقفّي آثار صديق أو عدوّ عبر المفازات العظيمة: منحنياً على الأرض، ما كان لايزا ليفلِت أيّ قطعة عشب سحقها كعبٌ، أو حصاة تحرّكت من موضعها بضربة قدم، أو غصن مال بسبب ضغط أحد المارّة؛ بيد أنّه بلغ موضعاً فقد فيه كلّ أثر. من جهة كان ثمّة جدول ينزل من الجبل ويرفد «نهر الكريوليّين»؛ ومن جهة أخرى ركام من الصّخور والأحجار والأجمات شبيه بجدار، تبدو من فوقه الغابة أشدّ كثافةً؛ وخلف لايزا كانت الطّريق التي سلكها حتّى وصل إلى هذا الموضع. عبرَ لايزا الجدولَ وبحث عبثاً في ضفّته الأخرى عن الآثار التي قادته حتّى ضفّته. وعليه، فإنّ الزّنوج (لأنّهم كانوا بلا ريبٍ كثراً) لم يذهبوا أبعد.

حاول لايزا ارتقاء الجدار، وكان له ذلك؛ لكنّه ما إن بلغ أعلاه حتّى وقف على استحالة أن يتبع ذاك الطّريقَ فيلقٌ فيه العديد من المصابين. نزل، وإذ كان متيقّناً من أنّ أولئك الذين يبحث عنهم ليسوا ببَعيدين، أخذ يطلق صيحات مختلفة اعتاد العبيد الآبقون تبادلها فيما بينهم؛ وانتظر.

Twitter: @ketab_n

وبعد هنيهة خيّل له أنّه لمح رجّة في أشدّ الأجمات كثافة، تلك التي تعلو الأحجار التي تبدو في هيأة الجدار الذي وصفناه قبل قليل؛ ولو أنّ رجلاً آخر هو من شهدَ الأمر، رجلاً لم يعتدِ التّعامل مع الأمور الغامضة، لأرجع السّبب إلى هبّة ريح. لكن لو أنّ الأمر تعلّق بالرّيح لكانت الحركة تبتدئ من أقصى أغصان الأجمة لتنتقل إلى جذورها، في حين أنّ الرّجة التي شهدها لايزا كانت تتخذّ منحىً معاكساً، أي تبدأ في القاعدة وتنهي عند الأطراف. لم يخطئ لايزا التّقدير، وظلّت عيناه مثبّتتين على الشُّجَيرة. وسرعان ما قطع الشّك باليقين: اِستطاع أن يميّز خلل الأغصان عينين قلقتين، تقصَّيَا الأفق كلّه قبل أن تستقرّا عليه؛ وإذّاك أعاد لايزا النّداء الذي أصدره منذ قليل: وفوراً انسلّ رجل كالثعبان من بين الصّخور، وألفى لايزا نفسه أمام عبد آبق.

تبادل الزّنجيان بعض الكلمات، ثمّ انقلب لايزا على عقِبيه عائداً إلى فيلقِه، وقادهم على تلك الطّريق إلى أن بلغوا الموضع الذي وجد فيه الزّنجيّ.

وإذ أزاحوا بعض الصّخور انفتح في الجدار مدخل يفضي إلى مغارة هائلة السّعة.

عبر المطارَدون الممرّ اليسير الحماية ذاك مثنىً مثنىً؛ وبعدما عبر آخرهم، أعاد الزّنجيّ الصخور إلى موضعها بحيث لا يلاحظ أحدٌ أثر الممرّ؛ ثمّ تسلّق الأجمات والصّخور الوعرة، وارتقى الجدار، واختفى في الغابة. لقد غاب مائتا رجلٍ في أحشاء الأرض دون أن تستطيع أشدُّ العيون دربةً تحديدَ المكان الذي مرّوا منه.

وبفضل الصّدف الطبيعية التي تجتمع أحياناً دون أن تتدخّل فيها يد البشر، أو ربّما، على العكس من ذلك، بفضل عمل جبّار ودؤوب اضطلع

Twitter: @ketab_n

به العبيد الآبقون؛ أقول بفضل هذا أو ذاك كان رأس الجبل حيث اختفى الفيلق منذ قليل، محمياً من جهةٍ بصخرة عموديّة شبيهة بالحصن، ومن جهةٍ أخرى بسياجٍ هائلٍ مشكّل من أغصان الأشجار، كان قد أعاق في البداية مسير أصحابنا الهاربين؛ كان المدخل الوحيد الممكن إذن هو ذاك الذي عيّناه، ومثلما قلنا فإنّ ذاك المدخل كان يختفي تماماً خلف الأحجار التي تسدّه والأغصان التي تحجب الأحجار: فكان إذن، بفضل الدّقة التي اختفوا بها، أنْ مرّ من أمام مخبئهم مئات المرّات المستعمِرون الذين يحملون السلاح من تلقاء أنفسهم، والفيالق الإنجليزية التي تعمل لحساب الحكومة؛ ولم يلاحظ أحدٌ منهم المدخل الذي كان وحدهم العبيد الهاربون على دراية بوجوده.

بيد أنّ المرء ما إن يصير في الجهة الأخرى من السياج أو المغارة حتّى يتبدّل شكل الأرض تماماً. صحيح أنّها لا تزال الغابة الكبيرة، وأنّ هناك دائماً الأشجار العالية والمآوي المنيعة، بيد أنّ ذاك كانَ وسطاً بإمكان المرء أن يشقّ طريقاً فيه. ولا شيء من أساسيّات العيش كان ينقص المرء في ذاك الموضع المعزول. فقد كان ثمّة شلّال ينبع من قمّة الشّعفة وينهمر شامخاً من على ارتفاع ستّين قدماً، وبعد أن يَسقط نثاراً على الأحجار التي يقضمها في سقوطه الأبديّ، ينفسح ويجري في جداول هادئة، ثمّ ما يلبث أن يتغلغل في أعماق الأرض ويعود إلى الظهور في ما وراء السّياج؛ وتكثر في المنطقة الأيائل والخنازير البريّة والظّباء والطّناريق والقردة؛ ثمّ من المواضع التي يتسلّل منها شعاع الشّمس خلَل القباب الضّخمة التي تصنعها أوراق الشجار، يسقط النّور على أشجار اللّيمون الهنديّ العامرة بالثّمار، أو أشجار الفاوكا المثقلة بكرنب النّخيل والتي تكون عيدانها واهية إلى درجة أنّ الثمار حين تصير ناضجةً تسقط عند أدنى هزّةٍ أو أيسرِ

Twitter: @ketab_n

هبّةِ ريح.

ولو أنّ المطارَدين استطاعوا أن يتواروا هناك ما طاب لهم أن يتواروا، فمن المؤكّد أنّهم لن يحتاجوا شيئاً، وسيكون بمقدورهم البقاء هناك إلى أن تشفى جراح جورج، ويقرّر ما هو فاعل. ثمّ إنّ الزّنوج الأشقياء الذين جعل منهم جورج رفاقه، كانوا قد قرّروا أن يشاركوه مصيره حتّى النّهاية.

وبالرّغم من أنّ جورج كان مصاباً، حافظ على برودة دمه المعتادة، ولم يفتْه أن يفحص الموضع الذي لجؤوا إليه ويقلّب كلّ الاحتمالات التي ينطوي عليها وضعهم. وما إن صاروا من الجهة الأخرى للمغارة حتّى أوقف حاملي النّقالة ونادى لايزا بإشارة من يده. ثمّ بيّن له كيف بالإمكان بعد سدّ المدخل من الخارج، سدّه من الداخل بواسطة دعامة، فضلاً عن إمكان تقويض الكهف بواسطة البارود الذي أحضروه معهم من موكا. وُضعت خطّة العمل فوراً وتمّ تنفيدها؛ إذ لم يكن يخفى على جورج أنّه لن يُعامَل في الغالب الأعمّ معاملة الطريد العاديّ، وكان لديه ما يكفي من الزّهو بالذّات ليحسب أنّ البيض لن يعتبروا أنفسهم منتصرين إلّا حين يمسكون به ويُخضعونه.

باشروا إذن على الفور الأشغالَ الدّفاعية التي كان يشرف عليها جورج بإيعازاته، وبيار مونييه مشاركاً فيها مشاركةً فعليّة.

وأثناء ذلك كان لايزا يجوب الجبل: وقد كان حصيناً من كلّ ناحية، كما أسلفنا، سواء بواسطة حواجز طبيعيّة، أو بواسطة صخور وعرة؛ وكان ثمّة موضع واحد بوسع المرء أن يتجاوز منه تلك الصّخور إن هو استعان بسلّم ارتفاعه إحدى عشرة قدماً. كانت الطريق المؤدّية إلى ذاك الجدار الطّبيعيّ تحاذي شفيراً؛ وكان من السّهل حماية تلك الطّريق، لكنّ

Twitter: @ketab_n

الفيلق كان قليل العدد، وكان ينبغي أن ينتشر الرّجال في عدّة مواضع في آنٍ واحد حتّى يستطيعوا القيام بمناورات عسكريّة خارج ما يمكن أن نسميه قلعة.

أدرك لايزا إذن أنّ ذلك الموضع ومدخل المغارة هما الموضعان اللّذان ينبغي حراستهما بعناية أكبر من أيّ موضع آخر.

بدأ اللّيل يدنو، فترك لايزا عشرة رجال لحراسة ذلك الموضع، وعاد إلى جورج كي يحيطه علماً بما خلص إليه من جولته على الجبل.

وجد لايزا جورج داخل الكوخ الذي بُنِيَ من أجله على عجلٍ بواسطة أغصان الأشجار؛ وكانت الدّعامة قد صارت جاهزة أو تكاد، وعلى الرّغم من زحف الظّلام السّريع كان الرّجال لا يزالون يشتغلون بهمّة.

عُيِّن خمسة وعشرون رجلاً للحراسة حول السّياج، وكان مقرّراً أن يتمّ تبديلهم كلّ ساعتين. ظلّ بيار مونييه في موضعه من المغارة، أمّا لايزا فقد وضع ضمادة جديدة لجورج ثمّ عاد بدوره إلى موضعه.

ثم انصرف الجميع إلى ترقّب الأحداث الجديدة التي سيحملها اللّيل بلا ريب.

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس والعشرون

قاضٍ وجلّاد

والحال أنّه في تلك الحروب التي تعتمد المفاجأة، كما في الحرب التي تكاد تنشب ما بين المتمرّدين والخصوم الذين ما انفكّوا يتبعونهم، يكون اللّيل عاملاً مساعداً للمُهاجِم ومبعثَ رعب للمُدافِع.

وكانت اللّيلة التي حلّت على أصحابنا جميلةً وهادئةً؛ على أنّ القمر الذي كان قد بلغ طور التّربيع الثاني، ما كان سيبزغ حتّى السّاعة الحادية عشرة.

ولو أنّ الأمر تعلّق برجالٍ أقلّ انشغالاً بالخطر الذي يداهمهم، ولا سيّما إذا ما كانوا غير معتادين على مثل تلك المناظر، لكانوا ألفَوا منظراً بديعاً ذاكَ التدّرج المتعاقب للأنوار وسط تلك العُزلات الشّاسعة وذاك المنظر الرّيفيّ الذي حاولنا رسمَه. في البداية أخذ الظّلام ينتشر في المناطق الجوّانية، ثمّ يرتفع مثل مدّ بحريّ غامراً جذوعَ الأشجار وجنباتَ الصّخور وسفح الجبل، وساحباً معه الصّمتَ وطارداً رويداً رويداً آخرَ أنوار النّهار التي كانت تتحصّن أعلى الشّعفة وتتطاير لبرهةٍ مثلَ قذائفِ بركانٍ، قبل أن تنطفئ بدورها غارقة في بحر الظّلمات.

على أنّه بالنّسبة للعيون المعتادة على اللّيل ما كانت تلك الظّلمة مُطبقة؛ كما أنّه بالنّسبة للآذان التي ألفت العزلة، ما كان ذاك الصّمت مُطلقاً. فالحياة لا تنطفئ بأكملها أبداً في البريّة؛ إذ تخلُفُ أصواتَ النّهار التي تنام أصواتُ اللّيل التي تستيقظ: فتخترقُ تلك الوشوشةَ العظيمةَ

Twitter: @ketab_n

التي تُصدرها أوراقُ النّباتات إذ تختلط بخرير مياه الجدول، أصواتٌ أخرى يحدثها مرورُ حيوانٍ من حيوانات مملكة اللّيل: أصوات غامضة ووقع خطىً مخاتِل، تبعث في أصلَب القلوب تلك الرّجفة الغامضة التي لا يستطيع العقلُ هزمها إذ لا تملكُ العينُ طمأنتَه.

بيد أنّه لا صوت من تلك الأصوات المختلطة كان يُفلِت من أذن لايزا الدّربة: فقد كان الرّجل صيّاداً بريّاً، وبالتّالي كان رجلَ عزلةٍ ومسافرَ ليلٍ، وما كان اللّيل والعزلة يفرضان غموضهما على عينيه أو يخفيان أسرارَهما عن أذنيه: فكان يتعرّف على صوت الطّناريق وهي تقضم الأشجار، وعلى خطوات أيّلٍ يقترب من النّبع المعتاد، وعلى خفق أجنحة الخفافيش في الفرجة؛ ومرّتْ ساعتان دون أن يستطيع صوتٌ من تلك الأصوات إخراجه من سكونه.

وعدا ذلك، كان أعجب ما في الأمر هو أنّ تلك الجهة من الغابة حيث يقيم مائتا رجلٍ، كان يسودها الصّمت المطلق والعزلة التّامة. وكان زنوج لايزا الاثنا عشر مضطجعين على بطونهم بحيث لا يكاد يستطيع هو نفسه رؤيتهم تحت طبقات الظّلام التي زادت من كثافتها ظلالُ الأشجار؛ وعلى الرّغم من أنّ بعضهم كانوا نائمين، كانوا يبدون متيقّظين حتّى في نومهم، بحيث كانوا يحبِسون أنفاسهم التي لا تكاد تُسمع. أمّا هو، وقد كان مستنداً إلى جذع شجرة تمرٍ هنديّ طالت أغصانُها المرنة حتّى مالت على الصخور وتجاوزتها إلى شفير الهاوية الذي يمتدّ على طول الطّريق؛ أقول أمّا هو فقد كان بوسعه أن يتحدّى أشدّ العيون دربةً أن تتمكّن من تمييز جسده عن جذع الشّجرة الضّخمة الذي تماهى معه تماماً بفضل لون بشرته وحلكة الظّلام.

ظلّ لايزا ما يقارب السّاعة على تلك الحال من الصّمت والسّكون،

Twitter: @ketab_n

إلى أن سمع خلفه ضجّةً تحدثها خطواتُ رجالٍ كُثرٍ على أرض مليئة بالحصى والعيدان الجافّة؛ على أنّ تلكَ الخطى بالرّغم من أنّها كانت ثابتة ما كانت تسعى إلى أن تتخفّى: فاستدار بقلبٍ هانئٍ إذ أدرك أنّها دورية من رفاقه أتت باحثة عنه. واستطاعت عيناه المعتادتان على الظّلام أن تريا ستّة رجال أو ثمانية، وأن تميّز على رأسهم بيار مونييه من حجمه ولباسه.

اِنسلخ لايزا عن الشّجرة التي كان يستند إليها، وسار نحو بيار مونييه قائلاً:

- وإذن، هل عاد الرّجال الذين أرسلتهم يستطلعون المكان؟

- أجل، إنّ الإنجليز يلاحقوننا؟

- وأين هم الآن؟

- لقد عسكروا منذ ساعةٍ، ما بين «شعفة الوسط» ومنبع «نهر الكريوليّين».

- هل يتعقّبون آثارنا؟

- أجل؛ وغداً على الأرجح سيصيرون على مقربةٍ منّا.

أجابه لايزا:

- بل قبل ذلك.

- كيف ذلك؟

- مثلما أرسلنا عيوننا مستطلعةً، لا بدّ أن يكونوا فعلوا كما فعلنا.

- وإذن؟

- وإذن ثمّة رجال يجوبون في الأنحاء.

- وكيف علمت ذلك؟ هل سمعت أصواتهم؟ هل عرفت خطاهم؟

- كلّا، بيد أنّي سمعت مرورَ أيّلٍ، ومن خطواته السّريعة عرفت أنّه أُفزِع.

Twitter: @ketab_n

- هكذا إذن، تحسب أنّ ثمّة مستطلعين يتتبّعوننا؟

- طبعاً... صمتاً!

- ماذا؟

- أنصتْ...

- إنّي أسمع ضجيجاً بالفعل.

- إنّه ديكُ غابٍ طار على بُعد قدمَين منّا.

- من أيّ ناحيةٍ؟

قال لايزا، مشيراً بيده إلى مجموعة أشجار تبرز قِممُها من أعماق الوادي.

- من هناك!

ثمّ أضاف:

- اِسمعْ، هو ذا يهبط على بعد ثلاثين قدماً منّا، من الجانب الآخر للطريق المارّة أسفلَ الصّخرة.

- وهل تعتقدّ أنّ رَجلاً هو من أفزعه؟

- رجلٌ، أو عدّة رجالٍ؛ لا أستطيع تحديد العدد.

- لم أقصد ذلك؛ قصدت هل سببُ فزعه بَشرٌ؟

أجاب لايزا:

- إنّ الحيوانات تعرف بالغريزة أصوات الحيوانات الأخرى، فلا تجفل.

- وإذن؟

- وإذن، إنّهم يقتربون...

ثمّ أضاف بصوت خفيض:

- أوه! انتبه، هل تسمع؟

Twitter: @ketab_n

سأله الشّيخ محترزاً هو أيضاً في صوته:

- ماذا هنالك؟

- صوت تكسّر عود جافّ تحت قدم أحدهم. صمتاً، لأنّهم صاروا قريبين جدّاً وبوسعهم سماع صوتنا. اِختبئ خلف جذع شجرة التمر الهندي تلك، أمّا أنا فسأعود إلى مكمني.

وعاد لايزا إلى مكمنه، بينما تسلّل بيار مونييه خلف الشّجرة، واختفى الزّنوج الذين كانوا يرافقونه في ظلال الأشجار وظلّوا صامتين وجامدين مثل أنصاب.

وخيّمت على الأجواء لحظة صمتٍ لم تعكّر فيها أيّةُ حركةٍ هدوءَ اللّيل. لكن ما إن مرّت بضع ثوانٍ حتّى سُمِع صوتُ تدحرجِ حصاةٍ عند الشّفير المنحدِرِ. أحسّ لايزا بأنفاس بيار مونييه لصق خدّه. كان الشّيخ على وشك أن يتكلّم، بيد أنّ لايزا أمسك بذراعه بشدّة ففهم أنّ عليه التزام الصّمت.

وفي اللّحظة نفسها طار ديك الغاب مرّة أخرى مُحدِثاً ضجّةً ومُصدراً قوقأة، ومرّ فوق رأس شجرة التّمر الهندي منطلقاً صوب الجهة العليا من الجبال.

كان المستطلِع بلا ريب على بعد عشرين قدماً فقط من أولئك الذين كان يبحثُ عن آثارهم. حبسَ لايزا وبيار مونييه أنفاسَهما، بينما تحوّل باقي الزّنوج إلى تماثيلَ من المرمر.

وفي تلك الأثناء بدأ شعاع فضيّ يضيء قمم سلسلة الجبال التي صارت تبرز في الأفق عبرَ فُرَج الغابة. ولم يمضِ وقت طويل حتّى بزغ القمر خلف «كثيب الكريوليّين» وبدأ يزحف رفيعاً في السّماء.

وعلى خلاف العتمة التي صعدت من أسفل إلى أعلى، كان النّور يهبط

Twitter: @ketab_n

من أعلى إلى أسفل، بيد أنّ نوره لم يكن يبلغ سوى المناطق المكشوفة، وباستثناء بعض أجزاء الأرض التي كان يصلها نوره عبر الفُسَح التي تتركها الأوراق، كانت الغابة تغوص في ظلام دامس.

وفي تلك اللّحظة سُمِعتْ حركة في أغصانِ دغلٍ يحفّ بالطريق التي تعلو المنحدرَ الذي سبق أن قلنا إنّه يقود إلى شفيرِ هاويةٍ؛ ثمّ بعد قليلٍ، انفرجت الأغصان وبرز منها رأس رجل.

وعلى الرّغم من العتمة، التي كانت أقلّ كثافة في ذاك الموضع الذي لا تغطّيه أوراق أيّ شجرة، استطاع بيار مونييه ولايزا أن يلاحظا في الآن نفسه حركة الدّغل؛ ذك أنّ يديهما اللّتين كانتا تبحثان إحداهما عن الأخرى في الظلام التقتا وشدّتا الواحدة على الأُخرى في آنٍ واحد.

ظلّ الجاسوس ساكناً برهةً، ثمّ ما لبث أن مدّ رأسه مرّة أخرى مستطلعاً بعينيه وأذنيه المكان، ثمّ تحرّك حركة أخرى إلى الأمام، وإذ تشجّع بالصّمت الذي جعله يخال نفسه وحيداً، قام على ركبتيه، وأصاخ السّمع مرّة أُخرى؛ وإذ لم يسمع أو يرى شيئاً انتصب بكامل قامته.

شدّ لايزا على يد بيار مونييه بقوّة أكبر، كي يزيد من حذره، إذ لم يعد ثمّة شكّ بالنّسبة له: ذاك الرّجل يقتفي أثرهم.

وبالفعل، ما إن بلغ الكشّاف حافةَ الطّريق حتّى انحنى مجدّداً وأخذ يتقصّى الأرض كي يعرف ما إذا كانت قد حفظت أثر مرور عدّة رجالٍ، ويلمس العشب بباطن كفّه كي يرى ما إذا كان قد داسه أحد؛ ويجسّ بأطراف أصابعه الأحجار حتّى يتأكّد ممّا إذا كانت قد تزحزحت عن موضعها؛ ثمّ، وكأنّ الهواء قد يحفظ بدوره أثر أولئك الذين يتبعهم هو، رفع رأسه وثبّت نظرته على شجرة تمر الهند التي كان لايزا يختبئ لصق جذعها وتحت ظلّها.

Twitter: @ketab_n

وفي تلك اللّحظة مرّ شعاع القمر ما بين قمّتَي شجرتَين وأضاء وجهَ الجاسوس.

وإذّاك أبعد لايزا يده اليمنى عن يد بيار مونييه بحركة خاطفة كالبرق، وقفز بوثبة واحدة بحيث يتمكنّ من الإمساك بطرفِ أحدِ أغصان الشّجرة التي تؤويه، وارتمى بسرعةِ نسرٍ ينقضّ على فريسته حتّى بلغ أسفل الصّخرة، وأمسك بالجاسوس من حزامه، ثمّ أعاد للغصن حركته بضربةٍ من قدمه، وطار معه مثل نسر يحمل طريدته: ثمّ ترك نفسه ينزلق على الغصن العاري الأملس، وهبط أسفلَ الشّجرة بين رفاقه حاملاً أسيره الذي كان يحاول عبثاً إصابة هازمِه بسكّين يمسك بها بيده، مثلما يحاول الثعبان عبثاً لدغ سيّد الطّيورِ الذي يحمله من أعماق المياه إلى أعلى السّموات.

وعلى الرّغم من العتمة استطاع الجميع أن يعرفوا الأسير من أوّل نظرة: كان أنطونيو الماليزيّ.

وقد جرت الأمور كلّها بسرعة إلى درجة أنّ أنطونيو لم يصدر ولا صيحة.

أخيراً وضع لايزا يده على عدوّه القاتل؛ سيعِاقب لايزا إذن، في آنٍ معاً، الخائنَ والقاتل.

وضعه تحت ركبته وأخذ ينظر إليه بتلك السّخرية المرعبة التي تصدر عن المنتصر، ولا تترك للمهزوم أيّ فسحةِ أملٍ؛ وإذا بهم يسمعون فجأةً نباحَ كلب.

ودون أن يزيح لايزا اليدَ التي يمسك بها برقبة أنطونيو أو اليد الأُخرى التي يمسك بها معصمَه، رفع رأسه وأرهف السّمع شطر منبع الصّوت.

وأحسّ لايزا بأنطونيو يرتجّف لسماعه ذاك الصّوت، فهمس كأنّما

Twitter: @ketab_n

يناجي نفسه:

- كلّ شيء في وقته.

ثمّ خاطب الزّنوج قائلاً:

- اِربطوا هذا الرّجل أوّلاً إلى جذع شجرة؛ لديّ كلام أقوله للسيّد مونييه.

أمسك الزّنوجُ بأنطونيو من ذراعيه وقدميه، وربطوه إلى جذع شجرة تاكاماكا بواسطةِ نباتاتٍ متسلّقة. وبعدما اطمأنّ لايزا إلى أنّهم قد أحكموا وثاقَه، انتحى بالشّيخ جانباً وقال له مشيراً إلى الجهة التي تناهى منها نباح الكلب:

- أسَمعتَ؟

- ماذا؟

- نباح كلب.

- كلّا.

- أنصت، إنّه يقترب.

- أجل، هذه المرّة سمعتُه.

- إنّهم يصطادوننا مثل أيائل.

- ما أدراكَ أنّنا نحن الملاحَقون؟

- ومن سيلاحقونَ غيرنا؟

- ربّما هو كلب شاردٌ يصيد لنفسه.

غمغم لايزا:

- ليس مستبعداً ذلك، في نهاية المطاف؛ أنصتوا.

سادت برهة صمت، ثمّ سُمع النّباحُ مجدّداً، وكان هذه المرّة أشدّ قرباً من المرّتين السّابقتين.

Twitter: @ketab_n

قال لايزا:

- إنّهم يلاحقوننا.

- وكيف علمتَ ذلك؟

- إنّه ليسَ نباحَ كلبٍ يصيدُ وإنّما عويل كلب يبحث عن سيّده. لقد وجدَ أولئك الشّياطينُ في أكواخِ الزّنوج كلباً مقيّداً، فجعلوه دليلاً؛ وإذا ما كان صاحبه بيننا، فإنّنا لهالكون.

غمغم بيار مونييه مرتجفاً:

- إنّه صوت فيديل.

قال لايزا:

- أجل، أجل، الآن بتّ أستطيع تمييزَه؛ لقد سبق لي أن سمعت صوته: هو نفسه الكلب الذي كان يعوي مساءَ أمس، حين حملنا ابنك جريحاً إلى موكا.

- الحقّ أنّي نسيت اصطحابه معنا؛ بيد أنّه لو كان فيديل لكان يركض أسرع. أنصت، هذا الكلب يقترب ببطء!

- إنّهم يمسكونه بالقيد، يتبعونه: ربّما كان يقود كتيبة عسكريّة بأكملها.

ثمّ أضاف زنجيّ أنجوان ضاحكاً ضحكة مريرة:

- لا ينبغي أن تلوم الحيوان المسكين، لا يمكن أن يتقدّم بأسرعَ؛ لكن لا تقلق، سيصل.

سأله بيار مونييه:

- ماذا علينا أن نفعل إذن؟

- إذا ما كانت تنتظرك سفينة ما في الميناء الكبير، فسأقول لك إنّنا ما نزال نملك الوقت، إذ لا يزال الكلب بعيداً عنّا بثمانية فراسخ أو

Twitter: @ketab_n

عشرة؛ لكنّك لا تملك أيّ فرصةً للهروب من تلك النّاحية، أليسَ كذلك؟

- كلّا، لا أملك أيّة فرصة.

- علينا إذن أن نقاتل!

ثمّ أضاف بصوت كئيب:

- وإن لزم الأمر أن نموت ونحن ندافع عن أنفسنا.

قال بيار مونييه وقد استعاد كلّ شجاعته ما دام لا يملك غير خيار القتال:

- تعالَ إذن؛ تعالَ، لأنّ الكلب سيقودهم إلى باب المغارة، وعندما يبلغونها لن يكونوا قد دخلوا بعد.

- حسناً، اذهب إذن إلى المتراس.

- أوَ لن تأتي معي؟

- أنا؟ ينبغي أن أبقى هنا دقائق أخرى.

- لكنّك ستلحق بنا؟

- عند أوّل طلقة بندقيّة، استدر وستجدني إلى جانبك.

مدّ الشّيخ يده إلى لايزا، إذ محا الخطرُ المشترك كلّ المسافة التي كانت تفصل بينهما؛ ثمّ ألقى بندقيّته على كتفه وتوجّه صوب مدخل المغارة بخطوات حثيثة متبوعاً بحاشيته.

شيّعهم لايزا بعينيه إلى أن ابتلعهم الظّلام جميعاً؛ ثمّ استدار شطر أنطونيو الذي قيّده الزّنوج إلى جذع الشّجرة كما أمرهم، وقال له:

- والآن يا أنطونيو، لِنُصَفِّ حسابَنا!

قال أنطونيو بصوت مرتجف:

- لنصفٍّ حسابنا؟ وما الذي يريده لايزا من صديقه وأخيه أنطونيو؟

Twitter: @ketab_n

- أريده أن يتذكّر ما قيل على ضفاف نهر اللّاتانييه مساءَ اليامسَيه.

- لقد قيلت الكثير من الأشياء، وقد كان أخي لايزا بليغاً جدّاً، إذ شاطره الجميعُ الرّأي.

- ومن بين كلّ تلك الأشياء التي قيلت، هل يذكر أنطونيو قسَمَنا ضدّ الخونة؟

اِرتجف أنطونيو بكامل جسده، ولو أنّ الوقت كان نهاراً لأمكن رؤيته شاحباً رغمَ لون بشرته النّحاسيّ.

اِستأنف لايزا كلامه بنبرة سخرية مرعبة:

- يبدو أنّ أخي قد فقد ذاكرته، سأعيد إليه ذاكرته إذن. لقد قيل إنّه في حال ما إذا وُجدَ بيننا خائنٌ، فبوسع أيّ منّا قتله؛ ولتكن الميتة كما يشاء القاتل، سريعةً أو بطيئةً، ناعمةً أو فظيعة. هل هذه هي العبارات التي أقسمنا عليها؟ هل يتذكّرها أخي؟

أجاب أنطونيو بصوتٍ يكاد لا يُسمَع:

- أجل، أتذكّرها.

- أجبْ إذن عن الأسئلة التي سأطرحها عليك.

صاح أنطونو:

- لا أمنحك حقّ استجوابي، فأنت لست قاضيًّ.

قال لايزا:

- لن أستجوبك أنت إذن.

ثمّ استدار نحو الزّنوج الذين كانوا مضطجعين على الأرض حوله، وقال لهم:

- اِنهضوا، وأجيبوا أنتم.

اِستجاب الزّنوج إلى دعوة لايزا، وانبثقت من العتمة عشرةُ أشكالٍ

Twitter: @ketab_n

أو أكثر، وتحلّقوا صامتين في نصف دائرة حول الشّجرة التي رُبط إليها أنطونيو.

صاح أنطونيو:

- إنّهم عبيد، ولا ينبغي أن يحاكمني العبيد؛ فأنا لست زنجيّاً، أنا رجلٌ حرّ. إذا ما كنتُ قد ارتكبت جريمةً، فينبغي أن أُحاكَم في محكمة، لا أن أُحاكَم من طرفكم.

قال لايزا:

- كفى! سنحاكمك نحن أوّلاً، وبعدها الجأْ إلى من شئت.

صمت أنطونيو، وأثناء الصّمت الذي تلا الأمرَ القضائيّ الذي نطق به لايزا، سُمع نباح كلب يقترب؟

قال لايزا مخاطباً الزّنوج:

- بما أنّ المُذنب لا يريد أن يجيب، فلكُم أنتم أن تجيبوا بدلاً منه... من الذي وشى بالمتآمرين إلى الحاكم لأنّ شخصاً غيره عُيِّن قائداً؟

أجاب الزّنوج بصوت واحد وإن كان مكتوماً:

- أنطونيو الماليزيّ.

صاح أنطونيو:

- لستُ أنا من فعل ذلك، أُقسِم، وأعترض على كلامكم!

صاح لايزا بنفس النّبرة الآمرة:

- صه!

ثمّ استأنف كلامه:

- من الذي، بعدما وشى بالمتآمرين إلى الحاكم، أطلق الرّصاص على قائدنا عند سفح الجبل الصّغير، وأصابه بجرح؟

أجاب الزّنوج:

Twitter: @ketab_n

- أنطونيو الماليزيّ.

صاح أنطونيو:

- من ذا الذي رآني؟ من يجرؤ على القول إنّه أنا؟ من يستطيع أن يميّز في الظّلام رجلاً عن رجلٍ آخر؟

صاح لايزا:

- صه!

ثمّ استأنف كلامَه بنفس النّبرة المستجوِبة الهادئة:

- من الذي، بعدما وشى بالمتآمرين إلى الحاكم، وبعدما حاول اغتيال قائدنا، أتى يزحف على بطنه كثعبان باحثاً عن منفذ يصل إلينا منه الجنودُ الإنجليز؟

أجاب الزّنوج بنبرة القناعة ذاتها التي لم تغب عن أصواتهم لحظةً:

- أنطونيو الماليزيّ.

صاح الأسير:

- لقد أتيت رغبةً في الالتحاق بإخوتي؛ أتيت أشاركهم مصيرهم كيفما كان، أقسم بذلك، وأسجّله حجّةً لي!

سألهم لايزا:

هل تصدّقون كلامه؟

ردّدت الأصوات جميعها:

- كلاّ! كلاّ! كلاّ!

قال أنطونيو:

- أصدقائي الطّيبين، أصدقائي الرّائعين، أصغوا إليّ، أرجوكم!

صاح لايزا:

- صه!

Twitter: @ketab_n

ثمّ استأنف كلامه بالنّبرة المهيبة ذاتها التي تبيّن جسامة المهمّة التي ارتضاها لنفسه:

- أنطونيو إذن ليس خائناً مرّةً واحدةً، وإنّما هو خائن ثلاثَ مرّات؛ يستحقّ أنطونيو إذن الموت ثلاث مرّات، لو كان بوسعنا قتله ثلاث مرّات. أنطونيو جهّز نفسك لمقابلة الملأ الأعلى، لأنّك ستموت!

صاح أنطونيو:

- إنّها جريمة قتل! لا يحقّ لكم قتل رجل حرّ؛ ثمّ إنّ الإنجليز ليسوا ببعيدين؛ سأناديهم، سأصرخ. النّجدة!... النّجدة!... إنّهم يريدون قتلي.

أمسك لايزا برقبة الماليزيّ وخنق صرخاته تحت أصابعه الحديديّة، ثمّ استدار صوب الزّنوج قائلاً:

- جهّزوا حبلاً!

وفي انتظار الحبلِ الذي سينفّذ المصير الذي ينتظره، قام أنطونيو بجهد عنيف، لدرجة أنّه مزّق جزءاً من أغصان النباتات المتسلّقة التي كانت تشدّه. بيد أنّه لم يستطع التّخلّص من الرّباط الأشدّ رعباً: يد لايزا. أدرك الزّنجيّ من الانتفاضات التي بدأت تسري في جسد أنطونيو، أنّه لو ظلّ ممسكاً به على ذلك النّحو فسرعان ما سيصير الحبل بلا أهميّة. أفلت إذن رقبة الأسير فترك رأسه يهوي على صدره مثل رجلٍ ينازع.

قال لايزا:

- قلت لك إنّي سأمنحك الوقت كي تحضّر للقائك بالملأ الأعلى. لديك عشر دقائق؛ هيّئ نفسك.

أراد أنطونيو أن ينبس ببعض الكلمات، لكنّ صوته خانه.

وكان نباح الكلب يزداد اقتراباً.

Twitter: @ketab_n

قال لايزا:

- أين الحبل؟

أجابه أحد الزّنوج وهو يمدّه به:

- ها هو.

حسناً!

وبما أنّ مهمّة القاضي كانت قد تمّت، فقد بدأ عمل الجلّاد.

أمسك لايزا بغصنٍ من أقوى أغصان شجرة التّمر الهنديّ، وربط على طرفه أحدَ طرفَي الحبلِ، ثمّ صنع من الطرف الآخر حبل مشنقة وضعَ عنق أنطونيو فيه، وطلب من الزّنوج أن يمسكوا بالغصن. وإذ كان متيقّناً من أنّ المحكوم كان لا يزال مقيّداً على الرّغم من تمزّق جزءٍ من أغصان النّباتات المتسلّقة التي كانوا قد ربطوه بها، دعا أنطونيو مجدّداً إلى أن يستعدّ للموت.

وهذه المرّة استطاع المحكوم أن ينطق؛ لكنّه بدلاً من يفيد من ذلك في طلب المغفرة من الله، استغلّه في طلب الشّفقة من الرّجال للمرّة الأخيرة. فقال مغيّراً تكتيكه، وآملاً في أن يكسب بالإقرار الحياةَ التي كانت على وشك أن تُسلب منه بسبب الإنكار:

- حسناً، صحيحٌ يا إخوتي، صحيحٌ يا أصدقائي، أنا حقّاً مذنب، أعلم بذلك، ومن حقّكم أن تعاملوني على هذا النّحو: لكنّكم ستسامحون رفيقكم القديمَ، أليس كذلك؟ رفيقكم الذي طالما أضحككم في ليالي السّمر؛ أنطونيو المسكين، الذي كان يحكي لكم حكاياتٍ جميلة، ويغنّي لكم أغاني مبهجة! ما الذي سيحلّ بكم من بعده؟ من ذا الذي سيسلّيكم؟ من ذا الذي سيرفّه عنكم؟ من ذا الذي سيُنسيكم تعبَ النّهار؟ الرّحمة يا أصدقائي! الرّحمة

Twitter: @ketab_n

للمسكين أنطونيو؛ اتركوه يعيش! اتركوه يعيش! أسألكم ذلك راكعاً على ركبتيَّ.

قال له لايزا:

- تذكّر الملأَ الأعلى، فلم تعد تملك سوى خمس دقائق.

اِستطرد أنطونيو بصوت متوسّل:

- بدلاً من تلك الدّقائق الخمس يا لايزا، يا لايزا الطّيب، امنحني خمسةَ أعوام، وفي تلك الأعوام الخمسة سأكون عبدك: سأتبعك، سأنفّذ كلّ أوامرك، وسأتبع كلّ توجيهاتك؛ وحين أغفل عن أدنى أمرٍ، حين يصدر عنّي أدنى خطإٍ، عاقبني؛ عاقبني وسأستحمل ضربَ السّياط والحبسَ والقيدَ؛ لا بل سأقول إنّك سيّد طيّب، لأنّك وهبتني الحياة. دعني أعيش يا لايزا، دعني أعيش.

قال لايزا:

- أصغِ يا أنطونيو، هل تسمع نباح الكلب؟

- أجلَ أسمعه. وهل تحسب أنّي أنا من نصحهم بإطلاقه؟ كلاّ! إنّك مخطئ، أقسم لك.

قال لايزا:

- لن تخطر حتّى ببالِ رجلٍ أبيض فكرةُ إطلاق الكلب كي يقتفيَ آثار سيّده؛ هذه فكرة أخرى من أفكارِك.

أطلق الماليزيّ زفرة حرّى، ثمّ بعد برهة، وكأنّما يأمل في أن يؤثّر على عدوّه بقوّة الاستكانة:

- حسناً إنّه أنا، لقد عميَت بصيرتي، وأفقدني كبرياءُ الانتقام صوابي. ينبغي أن تشفق على رجلٍ فقدَ صوابَه. أسألك باسم أخيك ناظم، سامحني.

Twitter: @ketab_n

- ومن الذي وشى بناظم، حين حاول ناظمُ الهرب؟ آه! هو ذا اسمٌ لا يجوز لك ذكره بلسانك يا أنطونيو. أنطونيو لقد انتهت الدّقائق الخمس. ستموت أيّها الماليزيّ.

صاح أنطونيو:

- أوه! كلّا، كلّا، كلاّ! لا أريد أن أموت! الرّحمة يا لايزا! الرّحمة يا أصدقائي!

لكنّ لايزا، دون أن ينصت إلى توسّلات أنطونيو، أخرج سكّينه وقطع بضربةٍ واحدةٍ الأربطةَ التي كانت تشدّ أنطونيو، وفي اللّحظة نفسها أرخى الرّجلان الغصنَ بأمرٍ من لايزا، فارتفع الغصن ساحباً معه الشّقيَّ الماليزيّ.

دوّت صيحة رهيبة، صيحة قصوى، صيحة بدت كأنّها تجمع كلّ قوى اليأس، لكنّها ضاعت في أعماق الغابةِ كئيبةً ووحيدةً وآسفةً: لقد انتهى كلّ شيءٍ، ولم يعد جسد أنطونيو سوى جثّةٍ تتأرجح في حبلٍ فوق الهاوية.

ظلّ لايزا ساكناً للحظةٍ، يراقب اهتزازَ الحبل الذي أخذ يهدأ رويداً رويداً؛ ثمّ إذ صار بوسع الحبل أن يرسم خطّاً ساكناً متعامداً وأفقَ السّماء، أرهف لايزا سمعه مجدّداً لنباح الكلب، الذي ما عاد يفصله عن المغارة سوى خمسمائة قدمٍ: حمل بندقيّته التي كان قد وضعها أرضاً، واستدار صوب باقي الزّنوج قائلاً:

- حسناً يا أصدقائي، لقد انتقمنا لأنفسنا، بإمكاننا الآن أن نموت.

وانصرفوا جميعاً صوب الحاجز المتراس، يسبقهم لايزا بخطىً سريعة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل السادس والعشرون

مطاردة الزّنوج

لم يخطئ لايزا التّقدير، وبالفعل قادَ الكلبُ الذي اقتفى أثر سيّدِه الإنجليزَ مباشرةً إلى باب المغارة؛ وإذ بلغ ذاك الموضعَ، ارتمى وسط الدّغل وأخذ ينكش الصّخور ويعضّها. فأدرك الإنجليز أنّهم قد بلغوا غايةَ مسيرهم.

فدفعوا فوراً بالجنود المسلّحين بالمعاول، وبدأ الجنود في الحفر. وما هي إلّا برهة، حتّى فُتح منفذٌ يكفي كي يدخل منه رجل.

مالَ أحد الجنود بأعلى جسده مستطلعاً عبر الفتحة. وعلى الفور سُمِعت طلقة بندقيّةٍ، واخترقت رصاصةٌ صدرَ الجنديِّ فهوى. تبع جنديٌّ آخرُ الجنديَّ الأوّل، فسقطَ مثله؛ وتقدّم ثالثٌ، فلقيَ المصيرَ ذاته.

كان جليّاً أنّ المتمرّدين الذين أعطوا بأنفسهم إشارة الهجوم قد قرّروا خوضَ دفاعٍ يائس.

بدأ المقتحمون يأخذون حذرهم: احتموا ما أمكنهم من ضربات البنادق، ووسّعوا الفتحة حتّى يكون بمقدور العديد منهم الدّخول دفعةً واحدةً؛ قُرعت الطّبول وتقدّم الرّماة شاهرين حرابهم.

بيد أنّ الأمر كان يصبّ في صالح المحاصَرين، حتّى أنّ المدخل تكدّس بالجثث وكانَ لزاماً على المهاجمين تنحيتها حتّى يتمكّنوا من إعادة محاولة الاختراق.

وتقدّم الإنجليز هذه المرّة حتّى قلب المغارة، لكنّ تقدّمهم لم ينتهِ

Twitter: @ketab_n

إلّا بفقدانهم عدداً أكبر من الرّجال؛ فخلف المتراس الذي أمر جورج بوضعه، كان الزّنوج بمأمنٍ، يقاتلون بتوجيهٍ من بيار مونييه ولايزا، ويصيبون أهدافهم بدقّة.

وأثناء ذلك كان جورج، الذي أقعدته الإصابة، مضطجعاً في كوخه يلعن العجزَ الذي صار إليه: رائحةُ البارود التي تحيط به، وزخّات الرّصاص التي يتردّد أزيزها في أذنه، كلّ تلك الأشياء، حتّى الهجمات الشّرسة التي يواصلها الإنجليز، كان تبعث في نفسه الرّغبة المحمومة في القتال، تلك الرّغبة التي تدفع الإنسان إلى أن يضع حياته في يدِ أهواء الصّدفة. بيد أنّ المسألة كانت هذه المرّة أخطر؛ فالأمر لا يتعلّق بالنّضال في سبيل قضيّة أجنبيّة، وليست الحرب هنا تأييداً لحاكمٍ أو دفاعاً عن شرفِ أمّةٍ ما: كلّا، إنّ هؤلاء الرّجال يحاربون في سبيل قضيّته هوَ؛ وهو الرّجل صاحب القلب الجريء والرّوح المِقدامة، ما كان بوسعه أن يفعل شيئاً، ما كان بوسعه أن يشارك لا بالقتال ولا حتّى بإسداء التوجيهات. كان جورج يعضّ على الفراش الذي يضطجع فوقه، كان جورج يبكي من الغضب.

وعند الهجوم الثّاني، أي لمّا اقتحم الإنجليز المغارة وصاروا في وسطها، أطلقوا النّيران على المتراس من النّقطة التي صاروا فيها؛ وبما أنّ الكوخ حيث يضطجع جورج كان يقع مباشرةً خلفهم، فإنّ رصاصتين أو ثلاثاً اخترقت جدران الكوخ المصنوعة من أوراق الشّجر، مطلِقتَين أزيزاً. وذاك الأزيز الذي كان سيبثّ الرّعب في نفس أيّ شخص آخر، أراح جورج وملأه فخراً؛ إذ علم أنّه ليسَ بمنجىً من الخطر، وأنّه إنْ لم يكن بإمكانه أن يقاتل، فيستطيع على الأقلّ أن يموت.

أوقف الإنجليز الهجومَ مؤقّتاً؛ لكن كان بديهيّاً أنّهم يحضّرون لاقتحام

Twitter: @ketab_n

آخر، إذ كانت تتناهى أصوات ضربات المعاول الخرساء مؤكّدةً أنّهم لم يتخلّوا عن هدفهم. وبالفعل، ما هي سوى برهة حتّى انهار جزء من جدران المغارة الخارجيّة، وتضاعفت مساحة المدخل؛ وعلى الفور قُرعت الطّبول، ولمعت الرّماح عند مدخل المغارة للمرّة الثّالثة.

تبادل بيار مونييه ولايزا النظرات، وكان جليّاً أنّ الصّراع هذه المرّة سيكون رهيباً.

قال لايزا:

- ما آخر الحلول؟

فأجابه الشّيخ:

- إنّ المغارةَ ملغومة.

- في هذه الحال لا تزال لدينا فرصة للخلاص؛ فقط في اللّحظة الحاسمة نفّذ ما سأقول، وإلّا فسنهلك؛ ذاك أنّه لا انسحاب ممكن مع وجود جريح بيننا.

قال الشّيخ:

- حسناً، سأموت معه.

- الأفضل لكما أن تهربا.

- نهرب معاً؟

- تهربا معاً أو متفرّقَين، لا فرق!

- لن أترك ولدي يا لايزا، أحذّرك.

- ستتركه إذا ما كان تركُه سبيلَ الخلاص الوحيدة.

- ماذا تقصد؟

- سأشرح لك الأمر فيما بعد.

ثمّ استدار نحو الزّنوج وقال:

Twitter: @ketab_n

- هيّا يا أولاد! لقد دقّت ساعة الحسم. أطلقوا الرّصاصَ على ذوي الزيّ الأحمر، ولا تضيعوا أيّ طلقة؛ فبعد ساعة سيصير الرّصاص والبارود عزيزَين.

وفي اللّحظة نفسها انطلق القصف. والزّنوجُ على العموم رماةٌ مهَرة؛ لذا طبّقوا حرفياً توجيهات لايزا، وبدأت صفوف الإنجليز تتقوّض؛ لكن بعد كلّ قصف، كانت الصّفوف تعيد ترميم نفسها بنظام مبهر؛ وأخذ الرّتل العسكريّ الذي أخّرت تقدّمَه صعوبةُ المسلك يتقدّمَ داخل النّفق. وما كان الإنجليز قد أطلقوا أيّ رصاصةٍ بعدُ؛ وكان يبدو أنّهم مصمّمون على إزالة المتراس بواسطة الرّماح.

وكان الوضع الخطير بالنسبة للجميع أكثر خطورةً بالنّسبة لجورج نظراً لحالة الوهن التي كان محكوماً بها. اِستند بدايةً على ساعده، ثمّ جثا على ركبتَيه، واستطاع في النّهاية أن ينتصب على قدميه؛ لكنّه ما إن وقف حتّى أحسّ بدرجةٍ قصوى من الوهن، حتّى أنّ قدميه ما عادتا تستطيعان حمله وكان لزاماً عليه التشبّث بكلتا يديه ببعض الأغصانِ التي تحيط به. وهو وإن كان مَديناً لشجاعة بعض الرّجال الذين أبدوا ولاءً واستعداداً لمشاركته مصيرَه حتّى النّهاية، إلّا أنّه لم يستطع منع نفسه من الإعجاب بتلك البسالة الثابتة والهادئة التي أبداها الإنجليز الذين كانوا مستمرّين في التّقدم وإن كان لزاماً عليهم إعادة ترميم صفوفهم عقب كلّ خطوة. وانتهى به المطاف إلى أن فهمَ أنّهم لن يتراجعوا هذه المرّة، وأنّهم بعد خمس دقائق سيخترقون المتاريس رغم القصف الذي يتعرّضون له. وإذاك أنّبت ضميرَه فكرةُ أنّ أولئك الرّجال يحاربون من أجله هو المضطرّ إلى أن يقف متفرّجاً على ما يجري. فحاول أن يتقدّم خطوةً كي يلقي بنفسه ما بين المتعاركين، فقد كان يعلم أنّه هو من ينبغي أن يوقف المذبحة

Twitter: @ketab_n

بتسليم نفسه، إذ كان هو المقصود بكلّ ما يجري. بيد أنّه أحسّ بنفسه عاجزاً عن أن يبلغ حتّى ثلث المسافة التي تفصله عن الإنجليز. أراد أن يصرخ بالمحاصَرين كي يوقفوا الرّصاص، وبالمحاصِرين كي يتوقّفوا عن الزّحف، وأنّه سيستبسلم، لكنّ صوته الواهن ضاع وسط ضجيج إطلاق النّار. ثمّ إنّه لمح في تلك اللّحظة أباه وقد قام واقفاً، متجاوزاً المتراس بنصف قامته؛ ثمّ تقدّم خطوات صوب الإنجليز وفي يده غصن تنّوبٍ مشتعل؛ ثمّ قرّب المشعل الغريب من الأرض وسط الرّصاص والدّخان. وعلى الفور اندلعت شرارة لهيبٍ على الأرض، واختفت غائصةً في التّربة. وفي اللّحظة نفسها ارتجّت الأرض وسُمع دويٌّ رهيب، وانفتحت حفرة ملتهبة تحت أقدام الإنجليز، وانشقّ سقف المغارة وانهار، وانهارت معه الصّخور التي كانت تثبّته؛ ومع صرخات باقي جنود الكتيبة الذين كانوا لا يزالون في الخارج، اختفى المدخل الأرضيّ في دمارٍ هائل.

قال لايزا:

- والآن، ما عاد لنا وقت نضيعه.

- أوامرك! ما الذي ينبغي علينا فعله؟

- أُهرب إلى الميناء الكبير، وحاول أن تحتميَ هناك بمرْكبٍ فرنسيّ، وسأتكفّل أنا بجورج.

- قلت لك إنّي لن أترك ولدي.

- وأنا قلت لك إنّ عليك أن ترحل، لأنّك ستفقده إن بقيت هنا.

- كيف ذلك؟

- مع وجود الكلب بمعيّتهم سيتبعونك أينما هربت، سيلحقون بك حتّى أعتم الغابات، ويبلغونك حتّى إن احتميت بأعمق الكهوف، وما دام جورج مصاباً فسيلحقون بكما سريعاً؛ لكن إذا ما هربت

Twitter: @ketab_n

لوحدك فسيحسبون أنّ ابنك يرافقك؛ وإذّاك سيتبعونك أنت، وسيكثّفون جهودهم خلفك، وقد يمسكون بك؛ بينما سأستغلّ أنا العتمةَ، وأحمل جورج بمساعدة أربعة رجال مخلصين في اتّجاه آخر؛ سنقصد الغابة المحيطة بكثيب بامبو. وإذا ما وجدتَ وسيلةً لتخليصنا، فأَوقِدْ ناراً على «جزيرة الطّيور»؛ وإذّاك سننزل النّهرَ الكبيرَ على طوفٍ، ونجدك في انتظارنا على قاربٍ عند مصبّه.

أصغى بيار مونييه إلى تلك المرافعة بعينين محدّقتين ونفس مقطوع، شادّاً بيديه على يد لايزا؛ وإذ فرغ الزّنجيّ من كلامه عانقه صائحاً:

- لايزا! يا لايزا! أجل، أجل، إنّي أفهمك، ليس ثمّة من سبيل آخر؛ سأسحب خلفي كلّ قطيع الإنجليز، وتنقذ أنت ولدي جورج.

- سأنقذه أو أموت معه، هذا ما أستطيع أن أعدك به.

- وأعلم أنّك ستفي بوعدك. اِنتظر فقط أن أقبّل ابني مرّة أخرى، وسأرحل بعدها.

قال لايزا:

- كلّا، كلّا، إن رأيته لن ترغبَ في تركه؛ وإن عَلِم أنّك ستخاطر بنفسك لإنقاذ حياته، لن يسمح لك بالمغادرة؛ اِرحل! هيّا ارحل! وأنتم، اتبعوه جميعاً، وليبقَ معي فقط أربعة منكم؛ ليبقَ أكثركم قوّة وشجاعة وإخلاصاً.

اِنبرى فريقُ رجالٍ، فاختار منهم لايزا أربعةً؛ ثمّ إذ تردّد بيار مونييه لحظةً في الرّحيل، صاح به:

- الإنجليز! الإنجليز! سيكونون هنا بعد برهة.

صاح بيار مونييه:

- موعدنا إذن مصبُّ النّهر الكبير؟

Twitter: @ketab_n

- أجل، ما لم نُقتَل أو نقع في الأسر.

صاح الشّيخ:

- وداعاً يا جورج، وداعاً!

ثمّ انطلق ناحية «جبل الكريوليّين» تشيّعُه عيون مَن بقي من الزّنوج.

صاح جورج:

- إلى أين أنت راحل يا أبي؟ ما الذي تصنعه؟ لمَ لا تريد الموت مع ابنك؟ انتظرني يا أبي، ها أنذا.

بيد أنّ بيار مونييه كان قد صار بعيداً، وكانت الكلمات الأخيرة التي نطقها جورج واهنةً فلم يسمعها الشّيخ.

هرع لايزا إلى المصاب، فألفاه جاثياً على ركبتيه.

غمغم جورج:

- أبي!

ثمّ سقط مغشيّاً عليه.

ولم يُضع لايزا وقته؛ لقد كانت تلك الإغماءة نعمةً من السّماء. فلا ريب أنّ جورج لو كان في وعيه لما قبل أن يعرّض حياةَ الآخرين للخطر مقابل نجاته هو، ولَنَظرَ إلى ذاك الهروب الأعزل كفعلٍ مُخزٍ. بيد أنّ وهنَه جعله تحت رحمة لايزا. سجّاه لايزا على نقّالته، وكان لا يزالُ فاقدَ الوعي: وأمسك كلّ واحد من الزّنوج الأربعة الذين بقوا بجهة من جهات النّقالة، وسار هو أمامهم كي يبيّن لهم السّبيل. سار شطر حارة «الجزُر الثّلاث» إذ كان ينوي مِن هناك تتبّع مجرى النّهر الكبير كي يبلغ «كثيبَ بامبو».

وما كادوا يبتعدون سوى ربع فرسخ حتّى تناهى إلى أسماعهم نباح الكلب.

Twitter: @ketab_n

ندّت عن لايزا إشارةٌ، فتوقّف حملَة النّقالة. وكان جورج لا يزال مغشيّاً عليه، أو على الأقلّ كان يبدو أوهن من أن يدرك ما يجري حوله.

لقد وقع ما حسبَ لايزا حسابه: تسلّق الإنجليز السّياج، وكانوا ينوُون التوسّل بالكلب في ملاحقة الفارّين، مثلما فعلوا من قبل.

خيّمت لحظة قلقٍ أرهف فيها لايزا السّمعَ متتبّعاً نباح الكلب. ظلّ النّباح ثابتاً بضع دقائق: كان الكلب قد بلغ الموضع الذي شهد المعركة؛ ثمّ اقترب النّباح مرّتين أو ثلاثاً: توجّه الكلب من المتراس إلى الكوخ حيث كان يرقد جورج مصاباً، وحيث أتى والدُه يتفقّده؛ ثمّ في نهاية المطاف ابتعد النّباح جنوباً: وكان ذاك هو الاتّجاه الذي سلكه بيار مونييه. لقد نجحت خطّة لايزا: أخطأ القنّاصةُ التّقديرَ، وها هم يلاحقون الأب ويتركون الإبن.

وما زاد من صعوبة الوضع الذي وصفناه أنّه، أثناء ذاك التّوقف الذي دام لحظة، بدأت أولى أنوار الصّباح في الظّهور، مُخرجةً الغابةَ من عتمتها الملغزة إلى الوضوح. ومن المؤكّد أنّ جورج لو كان سليماً معافى، سريعاً وقويّاً على عادته، لكان المطبّ أسهلَ؛ فآنذاك سيكون المكر والشّجاعة والسّداد وكلّ شيء على قدم المساواة ما بين الملاحَقين والملاحِقين؛ لكنْ بسبب إصابة جورج كانت المعركة غير متكافئة، وكان لايزا يدرك أنّ الوضع خطيرٌ جدّاً.

وكان ثمّة على الخصوص همٌّ يؤرقه: أن يكون الإنجليز قد استعانوا ببعض الزّنوج المتمرّسين على ملاحقة العبيد الآبقين، ووعدوهم بأشياءَ من قبيل الحريّة. وإذا ما وقع جورج بين أيديهم، فإنّه سيفقد جزءاً من الامتيازات التي تمنحها له وضعيّته كرجل بريّة، لأنّ أولئك الرّجال هم أيضاً رجال بريّة ولا تُخفي عنهم العزلةُ أسرارَها كما لا يفرض عليهم

Twitter: @ketab_n

اللّيلُ غموضَه.

فكّر في أنّه لا يملك وقتاً يضيعه، وما إن تيقّن من الاتّجاه الذي اتّخذه المطارِدون، حتّى أكمل سيره مستمرّاً في التّوغّل شرقاً.

كانت الغابة تكتسي هيئةً غريبة، وكلّ الحيوانات تبدو كأنّها تشاطر الرّجالَ همّهم: لقد أيقظ القصف الذي دوّى ليلاً العصافير فوق الأغصان، والخنازير في الأدغال، والظّباء في الأجمات؛ كان الجميع مستنفَراً، كان كلّ شيء ينطق بالرّعب، وكان يبدو أنّ الكائنات قد أصابها ضربٌ من الدّوار. ساروا ساعتين على ذاك النّحو.

وبعد ساعتين كان عليهم التوقّف: لقد قاتل الزّنوج طيلةَ اللّيلِ، وما أكلوا شيئاً منذ الرّابعة من مساء اليوم السّابق. توقّف لايزا أسفلَ أنقاضِ سقيفةِ صيّادين كان يبدو أنّها قد استُعملت في تلك اللّيلة نفسها من طَرف زنوج آبقين؛ ذاك أنّه بعدما حرّك الرّماد الذي كان يبدو علامةَ على إقامةٍ طويلةٍ، وجدَ النّار لا تزال مشتعلة فيه.

اِنطلق ثلاثةُ زنوج لاصطياد الطّناريق، أمّا الرّابع فقد تكفّل بإعادة إشعال الموقد. وذهب لايزا للبحث عن بعض الأعشاب لتغيير ضمادةِ الجريح.

وعلى الرّغم من قوّة جسد جورج وصلابة ذهنه، إلّا أنّ روحَه هزمتها المادّة: كان محموماً، يهذي، وكان يجهل ما يجري حوله، وما كان بوسعه أن يساعد أولئك الذين يحاولون إنقاذه، لا قولاً ولا فعلاً.

على أنّ تضميد جرحه قد أراحه على ما يبدو. أمّا لايزا فكان يبدو غير خاضع لأيّ حاجة جسديّة طبيعيّة. مضت عليه ستّون ساعةً دون نوم، ولا تبدو عليه الحاجة إلى النّوم؛ ومضت عليه عشرون ساعةً دون أكل، ولا يبدو عليه الجوع.

Twitter: @ketab_n

عاد الزّنوج بستّة طناريق أو ثمانية، وكانوا يستعدّون لطبخها على النّار التي أوقدها زميلهم. وأقلقت لايزا النّارُ التي أشعلوها، لكنّه فكّر في أنّه لم يترك أيّ أثر خلفه وقد ابتعد فرسخين أو ثلاثة عن موضع المعركة، وحتّى إذا ما تمّ اكتشاف دخان تلك النّار، فإنّ من سيكتشفها سيكون بعيداً بقدرٍ يسمح لهم بالفرار قبل وصوله.

وعندما نضج الطّعام نادى الزّنوج لايزا الذي ظلّ حتّى تلك اللّحظة قرب جورج. قام لايزا، وإذ وقع بصره على رفاقه لمح أنّ أحدهم جُرِح في فخذه ولا يزال جرحُه نازفاً. فتبخّرت طمأنينتُه فوراً: لا ريب في أنّهم ملاحَقون مثلما يُلاحَق ظبيٌ جريح، فالإنجليز لن يألوا جهداً في القبض على السجين الجريح، ليسَ لأهميّته وإنّما لأهميّة المعلومات التي قد يتمّ استخلاصها منه.

وفي اللّحظة التي أدرك فيها الأمرَ وفتح فاه ليأمر الزّنوج المقرفصين حول النّار بأن ينطلقوا مجدّداً، اشتعلت تعريشة كانت أشدّ كثافة من باقي مواضع الغابة، وكانت نظرة لايزا القلقة قد توقّفت عندها مرّات عديدة. اِشتعلت تلك التّعريشة، وسُمع إطلاقُ رصاصٍ سريع، ودوّت حوله خمس رصاصاتٍ أو ستّ. سقط أحد الزّنوج على وجهه في النّار، وركض الزّنوج الآخرون، لكنّهم ما إن خطوا خمس خطواتٍ أو ستاً حتّى سقط أحدهم، ثمّ تلاه الآخر على بعد عشر خطوات. وحده الرّابع أفلت من الرّصاص وفرّ متوارياً في الغابة.

وما إن لمح لايزا دخان البنادق وسمع أزيز الرّصاص حتّى هبّ من مكانه، وبوثبة واحدة بلغَ الموضع الذي توجد فيه نقّالة جورج؛ وحمل المصابَ بين ذراعيه كأنّما يحمل طفلاً، ثمّ انطلق إلى الغابة دون أن يبدو أنّ ثقل المصاب يؤثّر على سرعة ركضِه.

Twitter: @ketab_n

وفوراً برز من التّعريشة ثمانية جنود إنجليز أو عشرة، يرافقهم خمسة زنوج أو ستّة، وانطلقوا إلى الغابة في أثر الهاربين؛ وكانوا قد عرفوا جورج وعلموا أنّه مصاب. وكما قدّر لايزا، كانوا قد تتبّعوا أثر الدّم، فقادهم إليهم؛ ولما صارت سقيفة الصّيادين على نصفِ مسافةِ مدى بنادقهم بدؤوا بإطلاق الرّصاص؛ وكان رميهم سديداً، إذ كما رأينا أصابوا ثلاثةَ زنوجٍ فأردَوهم قتلى أو على الأقلّ أخرجوهم من حسابات المعركة.

وبدأ آنذاك هربٌ يائسٌ، إذ على الرّغم من قوّة لايزا وسرعته، إلّا أنّه كان جليّاً أنّه إن لم يستطع تجاوز مرمى بصر مطارِديه، فإنّه واقعٌ لا محالة بين أيديهم.

ولسوء الحظّ كان أمام خيارين أحلاهما مرّ؛ فإن هو توغّل في المناطق الكثيفة، فقد تصير الغابة كثّة إلى درجةٍ يستحيل معها التّقدم أكثر؛ وإن هو اختار المناطق المكشوفة فسيُسلّم نفسه إلى طلقات بنادق الأعداء. واختارَ الزّنجيّ المجازفة الثّانية.

في الدّقائق الأولى كاد لايزا بفضلِ قوّته وسرعته أن يصير في منأىً عن طلقات البنادق؛ ولو أنّ الأمر تعلّق بالإنجليز فقط، لكان قد أفلت منهم بلا ريب. لكنّ الزّنوج، وإن كانوا يتبعونه بشيء من الأسف، إلّا أنّ حِراب الإنجليز كانت تجبرهم على التّقدّم؛ كانوا يركضون إذن خلف الطّريدة البشريّة بحماسة، أو على الأقل خوفاً من الإنجليز.

ومن حين إلى آخر، عندما ينكشف لايزا بين الأشجار كان الرّصاص ينطلق، وتُسمع الطّلقات وهي تحتكّ بجذوع الأشجار حوله أو تضرب الأرض عند قدميه؛ لكن، وكأنّما بفعل سحرٍ ما، لم تكن الرّصاصات تصيبه، فتزداد سرعته وكأنّما يدفعها الخطر الذي أفلت منه.

وأخيراً بلغ حافّةَ فُرجةٍ: منحدَراً سريعاً شبه مكشوفٍ وتغطّي أعلاه

Twitter: @ketab_n

أجمةٌ أخرى، منحدراً كان عليه تسلّقه. وإذا ما بلغ أعلى المنحدر كان بوسعه على الأقلّ الاختباء خلف بعض الصّخور، أن ينزل وادياً، وأن يتملّص بالتّالي من أولئك الذي يلاحقونه؛ لكنْ طيلة الفسحة الموجودة ما بين الأشجار ظلّ لايزا مُعرّضاً لنيران البنادق.

وما عاد يمكنه التردّد: فإن هو مال يميناً أو يساراً فسيخسر بعضاً من المسافة التي تفصله عنهم؛ لقد خدم الحظُّ حتّى تلك اللّحظة الهاربَين، فلعلّه يواصل مرافقتهما.

اِنطلقَ لايزا في الفُرجة؛ وأدركَ المطارِدون الفرصةَ التي تمنحها إيّاهم المنطقة المكشوفة لتسديد نيرانهم، فضاعفوا من سرعتهم. بلغوا الحافةَ، وكان لايزا على بعد مائة وخمسين قدماً منهم.

وإذّاك توقّف الجميع كأنّما أُعطيَ إليهم الأمر، وسدّدوا بنادقهم، ثمّ أطلقوا النّار. واستمرّ لايزا في ركضه إذ كان يبدو أنّه لم يُصَب. وكان الجنود لا يزالون يملكون الوقت الكافي لإعادة تعمير بنادقهم قبل أن يختفيَ المطارَد، فوضعوا على عجلٍ الخراطيشَ في مواسير بنادقهم.

وكان لايزا أثناء ذلك يكسبُ مساحة متزايدة؛ وكان جليّاً أنّه إن أفلت من التصويب الثّاني، مثلما أفلت من الأوّل، وبلغ الغابة سليماً، فإنّ الحظوظ كلّها ستصير إلى جانبه. وما كان يفصله عن حافّة الغابة سوى خمس وعشرين قدماً؛ وأثناء التّوقّف الذي دام لحظةً، كان قد تقدّم على خصومه بمائة وخمسين قدماً. وفجأةً غابَ في شقٍّ بالأرض؛ ولسوء حظّه ما كان الشّق يمتدّ لا يساراً ولا يميناً، لكنّه تابع الرّكض في الشّق ما استطاع، حتّى يفلت من أعدائه. لكنّه لمّا بلغ أقصى الوادي الذي تحوطه جنباته، كان لزاماً عليه أن يتسلّق المنحدر، وبالتّالي يعود إلى الظّهور. وفي تلك اللّحظة انطلقت عشر طلقات أو اثنتا عشرة، وخال الصّيادون

Twitter: @ketab_n

أنّهم لمحوا الطّريدةَ تترنّح. وبالفعل، بعدما ركض لايزا خطواتٍ أخرى توقّف، ثمّ ترنّح مجدّداً، وجثا على إحدى ركبتيه، ثمّ جثا على الثّانية، ووضع أرضاً جورج الذي كان لا يزال مغمىً عليه؛ ثمّ قام على قدميه واستدار نحو الإنجليز، وبسط تجاههم يديه في حركة تحمل تهديداً أخيراً ولعنةً هائلةً؛ وأخرج سكّينه من حزامه ثمّ أنفذَها في صدره حتّى المقبض.

هرع الجنود مطلقين صيحات فرح شبيهة بتلك التي يطلقها الصيّادون حين تقع الطّريدة. ظلّ لايزا واقفاً للحظات أخرى، ثمّ ما لبث أن تهاوى مثل شجرةٍ اجتُثّت من جذورها؛ لقد اخترقت السّكين قلبَه.

وإذ بلغَ الإنجليز موضعَ الهاربَين، وجدوا لايزا قد فارق الحياةَ بينما جورج يُحتضَر. وبمجهود أخير، وحتّى لا يقع حيّاً بين أيدي أعدائه، نزعَ جورج ضمادة جرحه، فسال الدّم شلاّلاً.

أمّا لايزا، ففضلاً عن السّكين التي اخترقت قلبه، كان قد أصيب برصاصة في فخذه وأخرى اخترقت صدرَه من أقصاه إلى أقصاه.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل السابع والعشرون

التمرّن[1]

كلّ ما جرى في اليومَين أو الأيّام الثلاثة التي تلت الفاجعة التي رويناها لتوّنا، لم يترك في ذهن جورج سوى ذكرى شديدة الإبهام. ذاك أنّ ذهنه الذي عطّله الهذيان ما كان يستوعب سوى مدرَكات مبهمة، لا تسمح له بحساب الزّمن ولا باستيعاب تسلسل الأحداث. وذات صباح استيقظ، كمن يستفيق من نومٍ تقضّه الكوابيس، وإذ فتح عينيه أدركَ أنّه كان في سجن.

وكان قربه كبير جرّاحي الحامية العسكريّة في بور لويس.

على أنّه إذ حاول استدعاء ذكرياته، استعاد الخطوط العامّة للأحداث التي وقعت، كمن يرى الجبالَ والبحيرات والغابات عبر الضّباب؛ لقد استطاع استحضار كلّ شيء حتّى اللّحظة التي أصيب فيها. ولم تكن ذاكرته قد محت تماماً أحداثاً من قبيل وصوله إلى موكا، وانطلاق والده معه. لكن ما إن يبلغ بذاكرته لحظة الوصول إلى الغابة الكبيرة حتّى يصير كلّ شيء غامضاً مبهماً، كأنّه في حلم.

والحقيقة الموضوعيّة الحتميّة الوحيدة التي لا تقبل النّقاش هي أنّه كان بين أيدي أعدائه.

---

(1) تستوفي هنا كلمة La répétition التي اختارها دوما عنواناً لهذا الفصل كلّ دلالاتها (التكرار: لما في الفصل من استعادة وتكرار لما حدث؛ والهذيان: وهي حالة جورج في بداية الفصل؛ والتمرّن المسرحيّ، وهو ما اخترناه لمقصد لن يغيب عن ذهن القارئ.)

Twitter: @ketab_n

وكان أشدّ اعتداداً بنفسه من أن يسأل سؤالاً أو يطلبَ معروفاً. لذلك لم يستطع أن يحيط بما جرى؛ بيد أنّ سؤالَين رهيبَين كانا يعتملان في صدره:

هل نجا والده؟

هل ما زالت سارة تحبّه؟

كان ذانك الهمّان يستغرقان كيانه بأكمله: وحين يبتعد أحدهما، فإنّما لِيُفسح المجالَ للآخر؛ كانا مَدَّين بحريَّين يصعدان بالتّناوب ليغمرا قلبه؛ كان يعيش مدّاً وجزراً أبديّين.

لكن لا شيء من مظهره الخارجيّ يشي بتلك العاصفة التّي تهزّ الرّوح. لقد ظلّ وجه جورج شاحباً وباردَ التّعبير وهادئاً مثل تمثال من المرمر؛ ليسَ أمام أولئك الذين يزورونه فحسب، وإنّما إزاء نفسه أيضاً.

ولمّا آنسَ الطّبيب في المصابِ القدرةَ على تحمّل الاستنطاق، أعلمَ السلطة؛ وفي اليوم التّالي زارَ جورجَ قاضي التّحقيق يصحبه كاتب. وما كان جورج يستطيع أن يتحرّك من سريره بعد، لكنّه استقبل رجُلَي العدل كما ينبغي، وبصبرٍ تملؤه عزّة النّفس. استند على ساعده، ثمّ أعلمهما بأنّه جاهز كي يجيب على أسئلتهما.

ويعرف قرّاؤنا جيّداً طبع جورج، ممّا يجعلهم متأكّدين من أنّه لن يخطر بباله ولا لحظةً إنكار شيء ممّا اقترفه. ولم يجب عن الأسئلة كلّها بمنتهى الصّراحة فحسب، وإنّما التزم بأن يُمليَ بنفسه على الكاتب في الغد تفاصيلَ المؤامرة؛ إذ كان لا يزال يحسّ بنفسه أكثر وهناً من أن يستطيع القيام بذلك في اليوم نفسه. وكان عرضه كريماً، أكثر كرماً من أن يرفضه رجلا العدالة.

وكان مقصد جورج من ذلك مزدوجاً: أوّلاً أن يحرّك القضيّة وسير

Twitter: @ketab_n

المحاكمة، وثانياً أن يحمّل نفسه المسؤوليّة كلّها عمّا وقع.

وفي اليوم التّالي أتى رجلا العدل، فسرد عليهما جورج الرّواية كما وعد بذلك، لكن إذ سكت أثناء سرده عن الاقتراح الذي كان قد قام به لايزا، نبّهه قاضي التّحقيق إلى أنّه يضيف على عاتقه مسؤوليةً كان الجميع في حلٍّ منها ما دام لايزا قد مات.

هكذا علم جورج بموت لايزا، وبملابسات موته؛ إذ كما أسلفنا، كان ذاك الجزء من حياته برمّته معتماً.

لم يتفوّه ولا مرّة باسم أبيه، ولا تفوّه به رجلا العدل؛ لا بل أكثر من ذلك لم يجرِ على لسانه ذِكر سارة.

وبعد اعتراف جورج ما عاد ثمّة من أهميّة لأيّ تحقيق. ولم يعد يزوره أحد سوى الطّبيب.

وذات صباح دخل عليه الطّبيب ووجده واقفاً، فقال له:

- سيّدي، لقد منعتك من أن تغادر فراشك إلّا بعد أيّامٍ؛ إنّك لا تزال شديدَ الواهن.

أجابه جورج:

- معنى ذلك يا سيّدي أنّك تهينني، لأنّك تخلط بيني وبين أولئك المتّهمين الذين يؤخّرون ما أمكنهم يوم المحاكمة. أمّا أنا، فأقسم لك إنّي أتوق إلى إنهاء الأمر؛ ثمّ ما فائدة أن يشفى المرء إذا ما كان سيموت؟ أمّا أنا فأحسب أنّ لديّ من القوّة ما يكفي لأسير إلى المقصلة؛ وذاك غاية ما سيطلبه منّي النّاس، وغاية ما بوسعي أن أطلبه من الرّب.

- لكن من قال إنّك ستحكم بالإعدام؟

- ضميري يا دكتور؛ لقد لعبت لعبةً راهنت فيها برأسي، وقد خسرت

Twitter: @ketab_n

الرّهان؛ وإنّي مستعدّ لأن أدفع الثّمن، وهذا كلّ ما في الأمر.

- مجرّد كلام! إنّ رأيي هو أنّك لا تزال تحتاج إلى أيّام راحةٍ حتّى تستطيع تحمّل تعب المحاكمة وانفعالات الحُكم.

لكنّ جورج كتب في اليوم نفسه إلى قاضي التّحقيق يخبره أنّه شُفِيَ تماماً، وصار بالتّالي تحت تصرّف العدالة.

وفي اليوم التّالي بدأت المحاكمة.

وإذ مثلَ جورج بين يدي القضاة، أجال بصره، واطمأنّ إلى أنّه كان المتّهمَ الوحيد.

ثمّ أجال بصره في كاملِ القاعة: لقد حضرت المدينة كلّها إلى الجلسة، باستثناء السيّد دو ماليدي وهنري وسارة.

وكان يبدو أنّ بعض الحضور يرثون للمتّهم، لكنّ أغلب الوجوه ما كانت تحمل سوى تعابير غلٍّ راضٍ.

أمّا جورج، فقد كان على عادتّه هادئاً ومتغطرساً. وقد ارتدى سترة طويلة من نوع الرّدنغوت وربطةَ عنق سوداء وصدريّة وسروالاً أبيضين، وربطَ عند عروته شريطَه المزدوَج.

وكانوا قد عيّنوا له محامياً، إذ رفض جورج أن يختارَ واحداً. فقد كان ينوي أن يرفض حتّى الدّفاع عن قضيّته.

ولم يكن ما قاله جورج دفاعاً البتّة، وإنّما فقط سرداً لحياته بكاملها: ولم ينكر أنّه عاد إلى جزيرة موريس بنيّة محاربةِ الحكم المسبق الذي كان يطال الرّجالَ الملوّنين. لكنّه لم يتطرّق إلى الملابسات التي سرّعت بتنفيذ مخطّطه.

وسأله أحد القضاة بعض الأسئلة حول السيّد دو ماليدي، فاستأذنَه جورج في عدم الإجابة.

وعلى الرّغم من التّعاون الكبير الذي أبداه جورج دامت المحاكمة

Twitter: @ketab_n

ثلاثة أيّام: فحتّى عندما لا يكون لدى المحامين شيء يقولونه، ينبغي أن يتحدّثوا.

تحدّث المدّعي العامّ أربع ساعات، مُديناً خلالها جورجَ أشدّ إدانة.

واستمع جورج إلى مرافعته بـأكبر قدر ممكن من الهدوء، هازّاً رأسه من حين إلى آخر علامةَ مصادقةٍ على ما يقول.

ثمّ بعد أن فرغ ممثّلو الحقّ المدنيّ خطابهم، سأل رئيسُ المحكمة جورج عمّا إذا كان لديه ما يضيفه، فأجاب:

- كلّا، فقط أودّ الإشارة إلى أنّ المدّعي العامّ كان بليغاً جدّاً.

هزّ المدّعي العام رأسه بدوره.

رفع الرئيس الجلسة، واقتيد جورج إلى محبسه، إذ كان ينبغي أن يُتلى الحكم في غيابه، ثمّ يتمّ إعلامه به فيما بعد.

عاد جورج إلى زنزانته، وطلب ورقاً وحبراً كي يكتب وصيّته. وبما أنّ القضاء الإنجليزيّ لا يصادر أموالَ المحكومين، فقد كان له حقّ التّصرّف بثروته.

أوصى بـ:

ثلاثة آلاف جنيهٍ استرلينيّ للطّبيب الذي عالجه؛

ألف جنيهٍ استرلينيّ لمدير السّجن.

ألف قطعةٍ لكلّ سجّان.

وكان المبلغ الذي حصل عليه كلّ واحد منهم بمثابة ثروة.

وأوصى لسارة بخاتم ذهبيّ كان قد ورثه عن أمّه.

وإذ كان على وشك التوقيع أسفل الوصيّة، دخل عليه كاتب المحكمة. رفع جورج رأسه حاملاً يراعَه بيده. تلا الكاتبُ الحُكم. وكما كان جورج يتوقّع حُكم عليه بالإعدام. وحين فرغ الكاتب من تلاوة نصّ الحكم،

Twitter: @ketab_n

حيّاه جورج وعاد إلى الجلوس، ثمّ وقّع وصيّته دون أن يبدو ثمّة أيّ اختلافٍ بين الخطّ الذي كُتبت به الوصيّة والخطّ الذي وُقّعت به.

ثمّ قصد مرآةً ينظرُ فيها ما إذا كان لونه قد ازداد شحوباً. كان وجهه هوَ هوَ، شاحباً لكن هادئاً. كان راضياً عن وجهه وابتسم لنفسه هامساً:

- حسناً، لقد خلتُ أنّ سماعَ حكم الإعدام يستتبع انفعالاتٍ أكثر حدّةً من هذه.

دخل عليه الطّبيب وسأله بدافع العادة عمّا إذا كان بخير:

أجابه جورج:

- أنا على أفضل ما يرام، لقد قمتَ بعملٍ جيدٍ في سبيل شفائي، وللأسف لن يعطوك الوقت الكافي لإتمام عملك.

ثمّ استفسره عمّا إذا كانت طريقة الإعدام لم تتغيّر بعد دخول الإنجليز: وكانت لا تزال كما هي، فاطمأنّ جورج وابتهج أيّما ابتهاج؛ إذ لم تكن عقوبة الإعدام مشنقةَ العار اللّندنية ولا مقصلةَ باريس النّجسة. كلّا، لقد كان الإعدام في بور لويس يتمّ بطريقةٍ جذّابة وشاعرية لا تبدو مهينةً بالنّسبة لجورج: جلّاد زنجيّ يقطع رأس المحكوم بواسطة بلطة. وتلك هي الطّريقة التي مات بها كلّ من ملك إنجلترا شارل الأوّل وملكة اسكتلندا ماري ستيوارت وماركيز الخامس-من-مارس[1] ودو تو[2]. إنّ طريقة الموت تكمن بشكلٍ كبيرٍ في الشّكل الذي نتحمّل به ذاك الموت.

ثمّ انتقل الرّجلان إلى حديث ذي طبيعة فزيولوجية، وكان موضوعه

---

(1) هنري كوافييه دو روزيه (1620-1642)، يلقّب بماركيز الخامس-من-مارس أو السّائس الكبير إشارة إلى مهمّته المتمثّلة في الإشراف على إسطبلات الملك، وكان معروفاً بتدبير القلاقل التي أودت به في نهاية المطاف.

(2) قاضٍ فرنسيّ (1607-1642) أُعدِم بسبب تكتّمه على تآمر ماركيز الخامس-من- مارس مع الإسبان.

Twitter: @ketab_n

احتمال إحساس الجسد بالألم بعد انفصال الرّأس عنه. كان الدّكتور يدافع عن فكرة أنّ الوفاة تحصل فوراً؛ بيد أنّ جورج كان له رأي آخر، وذكرَ حادثَين كان شاهداً عليهما. فذات مرّة كان قد شهد في مصر ضربَ عنق أحد العبيد: كان المحكوم جاثياً على ركبتيه، وقطع الجلّاد رأسه بضربة واحدة، فتدحرج الرّأس سبع أقدام أو أكثر بعيداً عن الجسد؛ وعلى الفور قام الجسد واقفاً على قدميه، وسار خطوتين أو ثلاثاً على غير هدىً ضارباً الهواء بذراعيه، ثمّ ما لبث أن خرّ، ولم يمت على الفور وإنّما ظلّ ينازع. ويوماً آخر، في البلد نفسه، شهد حكماً مماثلاً، ودفعت به إرادته الأبديّة في المعرفة إلى أن يحمل الرّأسَ الذي فُصل عن الجسد، ويرفعه من شعره حتّى مستوى رأسه، ثمّ سأله بالعربيّة: «هل تتألّم؟»، فاتّسعت عينا المحكوم وتحرّكت شفتاه محاولتَين الإجابة. كان جورج متيقّناً إذن من أنّ الحياةَ تستمرّ بعد تنفيذ الحكم لحظاتٍ على الأقلّ.

وانتهى الطّبيب إلى مشاطرته الرّأي، إذ كان ذاك رأيه هو أيضاً، بيد أنّه اعتقد أنّ بوسعه مواساة المحكوم إذا ما وعده ميتةً ناعمةً وسهلة.

اِنقضى يوم جورج مثلما انقضت أيّامه السّابقة؛ على أنّه كاتبَ والدَه وأخاه. وللحظةٍ أخذ اليراعَ وحاول الكتابة إلى سارة؛ لكنه، أيّاً كان الدّافع، ما لبث أن أحجم عن الأمر، ودفع بالورقة، وأرخى رأسه على يديه؛ ظلّ مدّةً طويلةً على تلك الحال، ولو أنّ أحداً لمحه يرفع جبينَه، بحركته المتكبّرة السّاخرة المعتادة، لكان رأى أنّ عينَيه كانتا محمرّتَين، وأنّ دمعةً لم يمسحها ترتجف في أطراف رموشه السّوداء الطّويلة.

فمنذ اليوم الذي رفض فيه ببيت الحاكم الزّواجَ بالكريوليّة الجميلة؛ منذ ذلك اليوم لم يرها ولا سمع بذكرها.

لكنّه ما كان يستطيع تصديق أنّها نسيته.

Twitter: @ketab_n

وإذ حلّ اللّيل، اضطجع جورج في وقته المعتاد، ونام نومَ اللّيالي السّابقة نفسه: وحين استيقظ صباحاً طلب مقابلةَ مدير السّجن وقال له:

- سيّدي، ثمّة معروف أوّد أن أسألك إيّاه.

- أيّ معروف؟

- أريد الحديثَ قليلاً مع الجلّاد.

- أحتاج موافقةَ الحاكم.

قال جورج ضاحكاً:

- أوه! بلِّغهُ طلبي؛ إنّ الحاكم جنتلمان ولن يرفض طلبَ صديقٍ قديم.

غادر مدير السّجن واعداً جورج بإبلاغ الحاكمِ طلَبه.

وعندما خرج المدير دخل على جورج قسّ.

وكان جورج متديّناً على شاكلة أقراننا من أبناء هذا العصر، أي أنّه لم يكن يمارس شعائرَ الدّين الظّاهرة، لكنّ قلبه كان يقدّر كلّ ما هو روحيّ، وبالتّالي كان منظر كنيسة معتمة أو مقبرة معزولة أو نعشٍ يمرّ يؤثّر فيه أكثر ممّا تؤثّر الفواجع في نفوس الرّعاع.

وكان القسّ واحداً من أولئك الرّجال الموقّرين الذين لا يضيعون وقتهم في محاولة الإقناع، وإنّما يتكلّمون عن قناعة تامّة: فإذ تربّى في أحضان المناظر الطّبيعيّة العظيمة، بحث عن الله في مخلوقاته ووجده فيها؛ كما أنّه كان أحدَ تلك القلوب الصّافية التي تجذب إليها القلوبَ المتألّمةَ وتسلّيها مقتسمةً معها جزءاً من الألم.

وما إن تبادل جورج والشّيخ كلماتهما الأولى، حتّى مدّ كل منهما يده إلى الآخر.

لم يطلب الشّيخ من الشابّ أن يعترف إليه بذنوبه، إنّما اقترح عليه

Twitter: @ketab_n

مُسارّة؛ ولئن كان جورج يقابل القوّة بالازدراء، إلّا إنّه بالمقابل يتواضع أمام الضّعف؛ طلب جورج الصّفح عن كِبْره؛ فقد كان الكبْر خطيئته الوحيدة، شأنه شأن الشّيطان. ومثله مثل الشّيطان أودى به كِبْره.

بيد أنّ ما كان يجعله قوياً في تلك اللّحظة، كان هو كبْره نفسه؛ ذاك الكبْر هو ما يجعله عظيماً.

ومن البيّن أنّ العظمة عند الله ليست هي نفسها العظمة عند بني البشر.

ولعشرين مرّةً لاح اسم سارة على شفتَي الشابّ؛ بيد أنّه كان سرعان ما يدفعه ويلقي به إلى أعماق قلبه السّحيقة، تلك الهوّة المظلمة حيث تختفي عديدُ المشاعر، والتي كان وجهُه يخفيها مثل طبقة جليدٍ تغطّي الأعماق.

وبينما كان القسّ والمحكوم يتبادلان الحديثَ، فُتح الباب وظهر المدير قائلاً:

- إنّ الرّجل الذي طلبته هنا، وينتظر مقابلتك.

شحب جورج قليلاً، وسرت في جسده رعشة خفيفة.

غير أنّه كان من المستحيل ملاحظة ما أحسّ به.

قال:

- أدخِله.

أراد القسّ أن ينسحب، لكنّ جورج استبقاه قائلاً:

- كلّا، ابقَ؛ فما سأقوله لهذا الرّجل بوسعي قوله أمامك.

ثمّ لعلّ صاحبنا المعتدّ بنفسه كان بحاجة، حتّى يحافظ على رباطة جأشه كاملةً، إلى شاهد يحضر ما سيجري.

دخل زنجيّ طويل القامة وذو أبعاد هرقليّة: كان عارياً إلّا من سرواله المصنوع من نبيج أحمر. وكانت عيناه الباردتان تشيان بأنّه لا

Twitter: @ketab_n

يملك أيّ فطنة. اِستدار نحوَ المدير الذي أدخَله الزّنزانة وأخذ ينظر إلى القسّ وجورج بالتّناوب، ثمّ سأله:

- أيّهما طلَبَني.

أجابه المدير: «الشابّ»، ثمّ خرج.

سأله جورج بهدوء:

- هل أنت جلّاد؟

فأجابه الزّنجيّ:

- نعم.

- حسناً، تعالَ إلى هنا يا صديقي، وأجبني على أسئلتي.

تقدّم الزّنجيّ خطوتين إلى الأمام.

سأله جورج:

- هل ستضرب عنقي غداً؟

- أجل، في السّابعة صباحاً.

- آه! آه! في السّابعة صباحاً. شكراً على المعلومة. لقد سألتهم ذلك، لكنّهم رفضوا الإفصاح لي عن مثل تلك المعلومات. لكنّي لم أطلبك لهذا الأمر.

أحسّ القسّ بقواه تخور.

اِستأنف جورج كلامه:

- لم يسبق لي أن شاهدت عمليّة إعدام في بور لويس؛ وحتّى تسير الأمور كما ينبغي، أرسلت في طلبك حتّى نقوم معاً بما يسمّيه المسرحيّون «التمرّن».

لم يفهم الزّنجيّ الأمر، فكان لزاماً على جورج أن يشرح له بِلُغَة أوضح.

Twitter: @ketab_n

إذّاك مثّلَ الزّنجيّ النّطع الذي يضع عليه رأس المحكوم بأحد الكراسي. اقتاد جورجَ حتّى النّطع حيث ينبغي أن يجثو على ركبتيه، وبيّن له كيف يضع رأسه ثمّ وعده بأن يقطع رأسه بضربة واحدة.

أراد الشّيخ أن يغادر، إذ ما كان يملك القوّة لتحمّل تلك التّجربة الغريبة حيث يُبدي الممثّلان الرّئيسيّان القدرَ نفسه من اللّامبالاة، أحدهما بسبب تبلّد ذهنه والثّاني بفضل شجاعة قلبه. لكنّ قدميه خانتاه، فتهاوى على المصطبة.

وبعدما تمّ تبادل المعلومات حول الميتة، نزع جورج ألماسة من إصبعه، وقال للزّنجيّ:

- صديقي، بما أنّي لا أملك مالاً هنا، ولا رغبة لي في إضاعة وقتك هباءً، أرجو منك أن تقبل منّي هذا الخاتم.

أجابه الزّنجيّ:

- يُمنع عليّ قبول عطايا المحكومين، لكنّي أرِث متاعَهم. ضع الخاتم في إصبعك وسآخذه غداً.

- حسناً.

وأعاد الخاتم إلى إصبعه بلامبالاة.

غادر الزّنجيّ المكان.

اِستدار جورج شطر القسّ فألفاه شاحباً كالموت.

قال القسّ:

- بنيّ، إنّي سعيد لأنّي التقيت روحاً مثل روحك: إنّها المرّة الأولى التي أرافق فيها محكوماً إلى ساحة الإعدام. وكنت أخشى أن أضعف. ستعينني، أليسَ كذلك؟

- ليطمئنّ قلبك أبتِ.

Twitter: @ketab_n

وفي الواقع، كان الرّجل قسَّ كنيسة صغيرة تقع على الطّريق، ويفترض أن يقف المحكومون عندها كي يسمعوا آخر قدّاس في حياتهم. وكانت تلك الكنيسة تسمّى «كنيسة المخلِّص».

ثمّ غادر القسّ بدوره واعداً جورج بالعودة مساءً. وظلّ جورج بمفرده.

وما جرى آنذاك في روح الرّجل وعلى وجهه، لا يعلمه أحد؛ فلعلّ الطّبيعة، تلك الدّائنة التي لا ترحم، قد استعادت حقوقها؛ ولربّما كانت روحه تحوي من الضّعف القدر نفسه الذي أبدته من القوّة؛ ولربّما بمجرّد أن يسقط السّتار ما بين الممثّل والجمهور تُخلي تلك اللّامبالاة الظاهرة مكانَها لقلقٍ فعليّ. لكن من المرجّح ألّا يكون ثمّة شيء من ذاك؛ فلمّا دخل عليه السّجان حاملاً العشاء وجده يلفّ بين يديه سيجارة بالقدر نفسه من الهدوء الذي كان سيُعرب عنه في تلك اللّحظة أحد نبلاء «بويرتا دل سول» («باب الشمس») بمدريد أو أحد متأنّقي شارع غان بباريس.

تعشّى جورج على عادته؛ ثمّ نادى السّجان وطلب من أن يجهّز له حمّاماً في السّاعة السّادسة من صباح الغد، وأن يوقظه في الخامسة والنّصف.

ولطالما تساءل جورج، حين كان يصادف في كتب التّاريخ أو الجرائد تلك اللّحظة التي يأتون فيها لإيقاظ المحكوم بالإعدام صباحَ تنفيذ الحكم فيه، عمّا إذا كان ذاك المحكوم قد نام بالفعل. وها قد حان الوقت لكي يختبر الأمر بنفسه، ويفْصلَ فيه.

وفي السّاعة التّاسعة عاد القسّ. وكان جورج مستلقياً يقرأ في كتاب. فسأله القسّ عمّا إذا كان يقرأ الكتابَ المقدّس، أم يقرأ محاورة فيدون لأفلاطون، فمدّ إليه جورج الكتاب. وكان الكتاب رواية «بول

Twitter: @ketab_n

وفرجيني».

وكان غريباً أن يختار المحكوم في تلك اللّحظة الرّهيبة من حياته قراءةَ تلك الحكاية الشّعريّة الهادئة!

ظلّ القسّ بصحبة جورج حتّى السّاعة الحادية عشرة مساءً. وطيلة تلك السّاعتين كان جورج هو المتحدّث، فشرح للقسّ تصوُّره عن الله، وبسَط أمامه نظريّته عن خلود الرّوح. في مناسبات الحياة العادية اعتاد جورج أن يكون بليغاً، أمّا في تلك اللّيلة فقد كان مُبهراً.

كان المحكوم هو المعلّم، والقسُّ التلميذ المستمع.

وعندما دقّت السّاعة الحادية عشرة نبّه جورج القسَّ إلى أنّ ساعة الرّحيل قد أزفت، وأنّه يحتاج أن يرتاح قليلاً حتّى يكون في كامل قواه صباح الغد.

وإذ همّ الشّيخ بالانصراف، اضطرمت معركة عنيفة في قلب جورج، فنادى القسّ. وعاد القسّ، لكنّ جورج ضغط على نفسه وقال:

- لا شيء يا أبتِ، لا شيء.

وكان جورج يكذب؛ فقد كان اسم سارة على شفتيه يلحّ بالخروج.

وغادر القسّ مرّة أخرى دون أن يسمع الاسم.

وفي اليوم التّالي، عندما دخل السّجان على جورج في السّاعة الخامسة والنّصف وجده يغطّ في نوم عميق.

قال جورج وهو يستيقظ:

- صحيح، بوسع المحكوم بالإعدام أن ينام ليلته الأخيرة.

لكن حتّى أيّ ساعة ظلّ ساهراً قبل أن يبلغ تلك النّتيجة؟ لا أحد يدري.

أتوه بحوض الاستحمام.

Twitter: @ketab_n

ودخل الطّبيب في تلك اللّحظة، فقال له جورج:

- أوَ ترى يا دكتور، إنّي أعتني بنفسي على طريقة القدامى: لقد دأب الأثينيّون على الاستحمام قبل الذّهاب إلى المعركة.

سأله الدّكتور أحد تلك الأسئلة المبتذلة التي نلجأ إليها حين لا نجد ما نقوله:

- كيف حالك؟

فأجابه جورج:

- على أفضل حال يا دكتور، بدأت أوقن أنّي لن أموت بسبب إصابتي.

ثمّ أخذ وصيّته التي كان يخبّئها بعناية وسلّمها إليه. واستأنف كلامه:

- لقد عيّنتك يا دكتور منفّذاً لوصيّتي. وعلى مزقةِ الورق هذه ستعثر على ثلاثة أسطرٍ تخصّك؛ فقد رغبت في أن أترك لك شيئاً يذكّرك بي.

مسح الطّبيب دمعةً وغمغم ببعضِ كلماتٍ شكر.

وبدأ جورج حمّامه. ثمّ ما لبث أنَ سأل الطّبيب:

- دكتور، ما معدّل نبض رجلٍ هادئٍ سليمِ البدنِ في الدّقيقة الواحدة؟

- ما بين أربع وستّين نبضةً وستٍّ وستّين.

- جُسَّ نبضي يا دكتور، فأنا أتوق لمعرفة تأثير اقتراب الموت على جريان دمي.

أخرج الطّبيب ساعته، وأخذ معصم جورج وجسّ نبضه، ثمّ قال بعد دقيقة:

- ثمانٍ وستّون.

- حسناً، حسناً، إنّي راضٍ تماماً. وأنت يا دكتور؟

أجابه الطّبيب:

Twitter: @ketab_n

- إنّه لأمر معجز، أعصابك من حديدٍ إذن؟

اِبتسم جورج بزهوٍّ.

- آه أيّها السّادة البيض، أنتم تتوقون لرؤيتي أموت؟ أتفهّم الأمر. لعلّكم تريدون درساً في الشّجاعة. وسأعطيكم ذاك الدّرس.

دخل السّجان وأخبر المحكوم أنّها السّادسة.

قال جورج:

- هل تأذن لي أيّها الدّكتور العزيز بأن أخرج من الحمّام؟ لكن لا ترحل، إذ ستسرّني مصافحتك قبل مغادرة السّجن.

خرج الطّبيب.

ظلّ جورج بمفرده، فخرج من الحمّام، وارتدى سروالاً أبيضَ، وحذاءً طويلاً لامعاً، وقميصاً من قماش الباتيسته سوّى ياقته بنفسه؛ ثمّ دنا من مرآةٍ صغيرة وسرّح شعره وشاربَيه وذقنه بالعناية التي كان سيبذلها لو أنّه كان يقصد حفلاً راقصاً.

ثمّ دقّ البابَ بنفسه ليعلمهم أنّه صار جاهزاً.

دخل القسّ وتأمّل جورج. لم يسبق للشابّ أن كان بهذه الوسامة: كانت عيناه تتّقدان أنواراً وجبينه يبدو مُشعّاً.

قال القّس:

- يا بنيّ، احذر الكِبْرَ، لقد أضاع الكبْرُ جسدَك، فاحذر أن يُضيع روحك.

- صلِّ من أجلي يا أبتِ، وإنّي متيقّن من أنّ الله لن يرفض صلاة رجلٍ ورِعٍ مثلك.

ولمح جورج إذّاكَ الجلّاد الذي كان يقف متوارياً بالباب، فقال له:

- آه! هذا أنت يا صديقي؟ اِقترب.

Twitter: @ketab_n

كان الزنجيّ يتلفّع بمعطفٍ كبيرٍ يخفي تحته بلطته.

سأله جورج:

- هل بلطتك قاطعة؟

أجابه الجلاد:

- نعم. ليطمئنّ قلبك.

- جيّد!

ثمّ انتبه إلى أنّ الزّنجيّ كان يبحث بعينيه عن الألماسة التي وعده بها، والتي كانت بالصّدفة قد استدارت إلى باطن الإصبع، فقال له وهو يدير موضع الفصّ:

- ليطمئنّ قلبك أنت أيضاً، سيكون لك خاتمك. وحتّى لا تزعج نفسك بأخذه، هو ذا، خذ...

ثمّ مدّ الخاتم إلى القسّ وأشار له بأنّه يوصي بالخاتم إلى الجلاد.

ثمّ قصد دُرجاً صغيراً، فتحه وأخرج منه رسالتَين كان قد كتبهما؛ واحدة إلى أبيه والثّانية إلى أخيه.

سلّم الرّسالتَين إلى القسّ.

وكان يودّ أن يقول له شيئاً هذه المرّة أيضاً، فوضع يده على كتفه، وحدّق به، وحرّك شفتيه كمن يهمّ بالكلام؛ بيد أنّ إرادته انتصرت على مشاعره مرّة أخرى، وحين بلغ الاسمُ الذي انطلق من صدره شفتَيه كان شديد الوهن، ولم يسمعه أحد.

وفي تلك اللّحظة دقّت السّاعة السّادسة.

قال جورج:

- هيّا بنا!

وخرج من زنزانته متبوعاً بالقسّ والجلّاد.

Twitter: @ketab_n

وأسفل السّلم التقى بالطّبيب الذي كان ينتظره ليودّعه وداعاً أخيراً.

مدّ إليه جورج يده ثمّ مال على أذنه هامساً:

- أوصيك بجسدي.

ثمّ انطلق إلى السّاحة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الثامن والعشرون

كنيسة المخلّص

كان مدخل الشّارع، كما هو متوقّع، مليئاً بالفضوليّين. فالعروض قليلة في بور لويس، وقد رغب الجميع في مشاهدة موت المحكوم أو على الأقلّ متابعة مروره.

وكان مدير السّجن قد سأل جورج عن الطّريقة التي يفضّل الذّهاب بها إلى ساحة الإعدام؛ فأجابه جورج بأنّه يريد الذّهاب سيراً على قدميه، وقُبِلَ طلبه: وكانت تلك التفاتة لطيفة أخيرة من الحاكم.

كان ينتظره على الجياد عند الباب ثمانية جنود من سلاح المدفعيّة. وفي كلّ الدّروب التي مرّ بها، كان الجنود الإنجليز يحيطون جانبَي الطّريق لحراسة السّجين ومنع الفضوليّين من الاقتراب.

وعندما ظهر حدثت جلبة كبيرة: لكن على خلاف ما توقّع جورج لم يكن الغِلُّ هو الشّعور المهيمن على الضجيج الذي استُقبِل به: كانت صيحات الاستقبال ضاجّة بكلّ المشاعر، وتحديداً بمشاعر الاهتمام والشّفقة.

ثمّة دائماً شيء من الجاذبيّة في الرّجل الذي يسعى إلى الموت بأناقةٍ وكبرياء.

وكان جورج يمشي بخطىً ثابتة ورأس مرفوع ووجه هادئ: لكن لنعترف بالأمر، كان يجري في تلك اللّحظة داخل قلبه شيء رهيب.

كان يفكّر في سارة..

Twitter: @ketab_n

كان يفكّر في سارة التي لم تسعَ إلى رؤيته؛ سارة التي لم تكتب إليه كلمةً؛ سارة التي لم تترك له أيّة ذكرى.

كان يفكّر في سارة التي آمنَ بها، سارة التي أورثَته آخرَ خيباتِه.

صحيح أنّ حبّ سارة كان يَدفعه إلى الأسف على فقدان الحياة؛ إنّ نسيان سارة هو ثمالةُ الكأس.

وبجانب الحبّ الذي خانه، كان يهمس في نفسه كبرياؤه الذي جُرِح.

لقد فشل في كلّ شيء: لم يصل به تفوّقه إلى أيّ هدف.

وكانت خاتمة الصّراع الطّويل هي ساحة الإعدام التي يمشي إليها وقد تخلّى عنه الجميع.

وعندما يأتي ذكره على الألسنة سيُقال: «كانَ أحمق».

وبينما يمشي، كانت تتسلّل إلى شفتيه من حينٍ إلى آخر ابتسامة تجيب على أفكاره. لكنّ تلك الابتسامة التي تشبه في ظاهرها جميع الابتسامات، كانت في العمق ابتسامةَ مرارة.

ومع ذلك كان يتمنّى عند كلّ زاوية أن يراها، وكان يبحث عنها في كلّ النّوافذ.

هيَ التي أسقطت في طريقه باقة ورودها عندما كان يركض بأنتريم، عندما كان منتصراً؛ ألن تسكب دمعةً في طريقه وهو يمشي مهزوماً إلى ساحة الإعدام؟

لكنّه لم يلمح شيئاً في أيّ مكان.

تابع سيره على امتداد شارع باريس، ثمّ انعطف يميناً وتقدّم صوب «كنيسة المخلِّص».

كانت الكنيسة متّشحة بالسّواد كأنّها تنتظر موكباً جنائزيّاً. وكان الأمر شيئاً ما كذلك: محكومٌ يسير إلى ساحة إعدامه، هل هو شيء آخر غير جثّةٍ

Twitter: @ketab_n

حيّة؟

وإذ بلغ جورج بابَ الكنيسة ارتعد. فبجانب القسّ الطيّب الذي كان ينتظره عند المدخل، كان ثمّة امرأة ترتدي السّواد.

ما الذي تفعله هناك تلك المرأة المتلفّعة بثياب الأرامل؟ ما الذي تنتظره؟

لم يستطع جورج المقاومة، وضاعف من سرعة خطواته؛ وظلّت عيناه تحدّقان بتلك المرأة، وما استطاع أن يحيد ببصره عنها.

وبقدر ما كان يقترب منها كانت ضربات قلبه تزداد حدّةً، ونبضه الذي كان هادئاً أمام الموت صار محموماً أمام تلك المرأة.

وفي اللّحظة التي وضع فيها قدمه على أولى درجات الكنيسة، خطت تلك المرأة خطوةً صوبه؛ تجاوز جورج الدّرجات الأربع بوثبةٍ واحدة، ثمّ رفع الحجاب عن المرأة، فأطلق صيحةً وجثا على ركبتَيه.

كانت المرأة سارة.

مدّت سارة يدها بحركة بطيئة مهيبة، وخيّم على الحشد كلّه صمتٌ عميق.

قالت عند عتبة الكنيسة التي سيدخلها، عند عتبة القبر الذي سيرقد فيه جثمانه:

- اِسمعوا، أمام الله والنّاس، أُشهِدكم على أنّي أنا سارة دو ماليدي أطلب الزّواج من جورج مونييه إن قبِلَ بي زوجة.

صاح جورج منتحباً:

- سارة! أنت أنبل النّساء وأكرمهنّ!

ثمّ انتصبَ بكلّ قامته، واحتواها بذراعه كأنّما يخشى أن تضيع منه، وقال لها:

Twitter: @ketab_n

- تعالي يا أرملتي.

واقتادها إلى داخل الكنيسة.

ولو أنّنا أردنا الحديث عن منتصرٍ فخورٍ بانتصاره، لكان هو جورج. لقد تغيّر كلّ شيء بالنّسبة له في لحظة، في ثانية؛ بكلمة واحدةٍ رفعته سارة فوق كلّ أولئك الرّجال الذين كانوا يتابعون مرورَه مبتسمين. ما عادَ ذاك الأحمقَ المسكينَ العاجزَ عن بلوغ هدفٍ مستحيل، الأحمقَ الذي سيموت دونَ بلوغ هدفه؛ إنّه منتصر أُصيبَ لحظةَ انتصاره؛ كان مثل إبامينونداس[1] وهو ينزع الرّمح القاتل من صدره ويتابع بنظرته الأخيرة عدوَّه يولّي الأدبار. هكذا، بفضل قوّة عزيمته وحدها، وبفضل جاذبيّة شخصيّته استطاع هوَ المولَّد أن يوقع في غرامه امرأةً بيضاء. وكان له ذلك دون أن يخطوَ خطوةً واحدةً تجاهها، دون أن يحاول التّأثير على قرارها ولو بكلمة واحدة أو رسالة أو إشارة؛ لقد أتت هذه المرأة تنتظره في طريقه إلى ساحة الإعدام، واختارته أمام الجميع زوجاً، وهو ما لم يسبق له مثيل في المستعمرة بأكملها.

بوسع جورج أن يموتَ الآنَ؛ لقد نال جورج مكافأةَ نضاله الطّويل؛ لقد صارع الحكمَ المسبقَ جسداً لجسدٍ، وبالرّغم من أنّ الحكم المسبق قد أصابَه في مقتل، إلّا أنّه قضى بدوره في المعركة.

كان أثر كلّ تلك الأفكار يشعّ على جبين جورج وهو يقتاد سارة؛ فلم يعد المحكومَ الذي يُساقُ إلى الإعدام، وإنّما الشّهيد الذي يرتفع إلى السّماء.

شكّلَ عشرون جنديّاً سياجاً بشريّاً في الكنيسة؛ وأربعة منهم أحاطوا

---

(1) قائد إغريقي من مدينة طيبة (توفي 362 قبل الميلاد)، اشتهر بتجديداته الحربيّة. انتصر على إسبرطة ومات لحظة انتصاره.

Twitter: @ketab_n

بالكورس ومرّ جورج من بينهم دون أن يراهم، وجثا وسارةَ على ركبتَيهما أمام الهيكل.

بدأ القسّ قدّاس الزّواج، بيد أنّ جورج ما كان يسمع شيئاً من كلام القسّ. كان يمسك بيد سارة، وبين الفينة والأخرى كانت تحين منه التفاتة إلى الحشد ويرميه بنظرة ملؤها الازدراء.

ثمّ يعود إلى التحديق بسارة الشّاحبة المحتضرة، سارة التي كانت يدها ترتجف في يده، ويغمرها بنظرة حبّ وامتنان، كاتماً زفرةً؛ إذ كان يفكّر، وهو المُساق إلى موته، كيف كانت الحياة ستكون لو أنّه قضاها كلّها مع امرأة مثلها.

الحياة بقربها ستكون أشبه بالحياة في السّماء! لكنّ السّماء لم تُخلق للأحياء.

وكان القدّاس ماضياً حين التفت جورج ولمح ميكو-ميكو الذي كان يبذل كلّ ما في وسعه، بالإشارات لا بالكلام، حتّى يخترق الجنود الذين يحيطون بالكورس ويتمكّن من الوصول إلى جورج. كان ذاك أحد آخر المُوالين لجورج، وقد أتى يرجو أن يغنم نظرةً أو مصافحةً من سيّده. تحدّث جورج إلى الضّابط بالإنجليزيّة وطلب منه السّماح للصينيّ الطيّب بالاقتراب.

ما كان ثمّة أيّ مانع في الموافقة على طلب المحكوم. وبإشارة من الضّابط أفسح الجنود الطّريق وتقدّم ميكو-ميكو وسط الكورس.

سبق لنا أن رأينا أيّ امتنانٍ كان يحمله التّاجر المسكين لجورج منذ أوّل يوم التقيا فيه. ذاك الامتنان الذي دفعه إلى أن يسعى إلى تخليصه من بناية الشّرطة، هو نفسه الذي أتى الصينيّ يعبّر عنه عند أعتاب ساحة الإعدام.

جثا ميكو-ميكو على ركبتَيه، ومدّ له جورج يده.

Twitter: @ketab_n

أخذ ميكو-ميكو اليد التي مُدّت له ووضع عليها شفتَيه؛ لكنّ جورج أحسّ في اللحظة نفسها أنّ الصينيّ قد زرع بكفّه ورقة صغيرة. ارتجف جورج.

ثمّ إنّ الصينيّ، كأنّما لم يكن يرجو سوى ذاك العطف الأخير، وقد ملأ نفسه الرّضا إذ ناله، انسحبَ دون أن ينبس بكلمة واحدة.

شدّ جورج على الورقة في يده، وقطّب حاجبيه. ما المكتوب في تلك الورقة؟ لا شكّ في أنّها ورقة بالغة الأهميّة، لكنّ جورج لا يجرأ على النّظر فيها.

ومن حين إلى آخر، كان يرنو إلى سارة ويرى فيها كلّ ذاك القدر من الجمال والإخلاص والتّرفع عن الدّنيا، فيجتاحه ألم لا يصدّق، ألم لا قِبَل له به، ألم يعتصر قلبَه مثل قبضةٍ حديديّة. ذاك أنّه إذ يفكّر في السّعادة التي كان على وشك أن يضيعها، لا يملك منع نفسه من التعلّق بالحياة؛ وبقدر ما يحسّ بروحه مستعدّة للصّعود إلى السّماء، كان يحسّ بقلبه مغلولاً إلى الأرض.

فيجتاحه الخوف من أن يموت يأساً.

ثمّ إنّ تلك الورقة التي كانت تحرق يده، تلك الورقة التي لا يجرؤ على النّظر فيها بسبب الجنود الذين يراقبونه، تلك الورقة كانت تهمس له بفسحةِ أملٍ، ولو أنّ التّفكير في الأمل كان أمراً غير معقولٍ في وضعيّته تلك.

على أنّه كان متحرّقاً لقراءة الورقة؛ لكن بفضل تلك القوّة الباطنيّة التي تجعله دائم التحكّم بذاته، ما كان ذاك التّحرّق ليتجلّى في أيّ إشارة خارجيّة؛ بيد أنّ يده المشدودة كانت تمسك الورقة بقوّة إلى درجة أنّ أظافره كانت تنفذ في لحمه.

Twitter: @ketab_n

وكانت سارة تصلّي.

وكانوا قد بلغوا لحظةَ التّقديس. فرفع القسّ الخبز المقدّس، وقرع فتى الكورس جرسَه، فجثا الجميع على ركبهم.

واستغلّ جورج تلك اللّحظة، وهو يجثو مثل الجميع على ركبتَيه، كي يفتح يده.

كانت الورقة تحوي هذا السّطر:

«نحن هنا- اِستعدّ».

كانت الجملة الأولى مكتوبةً بخطّ جاك، بينما الجملة الثانية مكتوبة بخطّ بيار مونييه.

وفي اللّحظة نفسها، إذ رفع جورج رأسه دهِشاً وسط الحشد، وجال بعينيه، انفتح باب الكنيسة على مصراعيه، واقتحم القاعة ثمانية بحّارة، وأمسكوا بجنود الكورس، ووضعوا على صدر كلّ منهم خنجرَين. وثبَ جاك وبيار مونييه: حمل جاك سارة بين ذراعيه، وجرّ بيار مونييه جورج من يده. وألفى الزّوجان نفسيهما في المَوهف[1]؛ ودخل خلفهما البحّارة الثّمانية بعدما جعلوا من رهائنهم الأربعة درعاً يواجهون به باقي الجنود. أقفل جاك وبيار مونييه الباب خلف الجميع، وكان ثمّة باب آخر ينفتح على البريّة. وعند ذلك الباب كان ينتظر حصانان مُسرَجان: أنتريم ويامبو.

صاح جاك:

- اِركبا الجوادَين! واركضا حتّى خليج تومبو.

صاح جورج:

- ماذا عنك أنت؟ وماذا عن أبي؟

---

(1) غرفة المقدّسات.

Twitter: @ketab_n

قال جاك وهو يضع سارة على سرج حصانها، بينما يُجبِر بيار مونييه ابنَه على امتطاء حصانه:

- إليّ يا بحّارتي الهنود البواسل؛ تعالوا إليّ!

وفي اللّحظة نفسها خرج من ناحية «غابة الجبل الطّويل» مائة وعشرون رجلاً مدجّجين بالأسلحة.

قال جاك لسارة:

- اِرحلي، خذيه معك، أنقذيه...

فقالت له:

- وأنتم؟

- نحن، سنلحق بكم، اطمئنّي.

صاحت سارة:

- جورج، بحقّ السّماء، تعال!

وأرخت الفتاة العنان لحصانها.

صاح جورج:

- أبي! أبي!

قال جاك وهو يضرب أنتريم بمشطِ سيفه:

- أقسم لك بحياتي أنّي سأتولّى كلّ شيء.

وانطلق أنتريم كالرّيح حاملاً سيّده الذي اختفى وسارةَ في أقلّ من عشر دقائق خلف ناحية مالابار؛ وتبعهم بيار مونييه وجاك وباقي البحّارة بسرعة خارقة، لدرجة أنّ الإنجليز لم يستفيقوا من دهشتهم حتّى كان الفيلق الصّغير قد صار في الجهة الأخرى من «جدول العذارى»، أي بعيداً عن مرمى البنادق.

Twitter: @ketab_n

الفصل التاسع والعشرون

اللاّيسِستر

وحوالى السّاعة الخامسة مساءً من اليوم ذاته الذي سردنا وقائعَه، كانت السّفينة كاليبسو تمخر البحر بأقصى سرعتها، في اتّجاه الشّرق- الشّمال الشّرقيّ معاكسةً الرّيح التي كانت تهبّ، على عادتها في تلك المناطق، من الشّرق.

وفضلاً عن بحّارتها الأكفاء، ونائب القبطان رأس الحديد، الذي نعرفه نحن القرّاء، إن لم يكن رأيَ العينِ فعلى الأقلّ بالسّمع، أقول فضلاً عن أولئك انضمّ إلى طاقم السّفينة ثلاثةُ أشخاصٍ آخرين، هم: بيار مونييه وجورج وسارة.

وكان بيار مونييه وجاك يذرعان السّفينة من صارية المؤخّرة حتّى الصّارية الكبيرة، ثمّ من الصّارية الكبيرة حتّى صارية المؤخّرة.

بينما جلس جورج وسارة متجاورَين في كوثل السّفينة، سارة تضع يدها بين يدي جورج، وجورج يتأمّل سارة، وسارة تتأمّل السّماء.

ينبغي أن يُلفي المرءُ نفسَه في وضعية رهيبة كتلك التي أفلت منها العاشقان، حتّى يدرك مشاعرَ السّعادةِ الأسمى والفرحِ اللّامحدود التي باتا يحسّان بها بعدما صارا حُرّين وسط ذاك المحيط الشّاسع. وذاك المحيط وإن كان يأخذهما بعيداً عن وطنهما، إلّا أنّه يبعدهما عن وطنٍ كان لهما مثل زوجةِ الأب التي لا تُعنى بأبناء زوجها إلّا لتستطيع اضطهادهم من حين إلى حين. بيد أنّه من حين إلى آخر كانت تنطلق من فم أحدهما

Twitter: @ketab_n

زفرة حرّى فيرتجف لها كيانُ الآخر. فالقلب الذي طال عذابه لا يجرؤ على أن يستعيد الثّقة بالسّعادة دفعةً واحدة.

سوى أنّهما صارا حُرّين، ما عاد فوقهما سوى السّماء، وما عاد تحتهما سوى البحر؛ وها هما يهربان في السّفينة المسرعة، تاركَين خلفهما جزيرةَ موريس التي كادت أن تودي بحياتهما. كان بيار وجاك يتحدّثان؛ بينما ظلّ جورج وسارة صامتَين، فقط بين الفينة والأخرى كان أحدهما ينطق باسم الآخر.

ومن حين إلى آخر كان بيار مونبيه يتوقّف ويتأمّلهما برضاً لا يوصف؛ لقد عانى الشّيخ المسكين طويلاً، لدرجة أنّه ما عاد يعرف كيف واتته الطاقة لتحمّل سعادته.

أمّا جاك، الذي كان أقلّ عاطفيّة من والده، فقد كان ينظر في الاتّجاه نفسه، لكن من البديهيّ أنّ نظرَه لم تكن تجذبه اللّوحة التي وصفناها، وإنّما كان يمرّ من فوق رأسِ جورج وسارة سابِراً الفضاءَ الممتدّ شطرَ بور لويس.

ولم يكن جاك بعيداً عن مشاطرة الباقينَ الفرح العامّ فحسب، بل كانت تأتي عليه أحيانٌ يصير فيها قلقاً، أحيانٌ يمسح فيها على جبينه كأنّما يطرد غمامة.

وكان رأس الحديد جالساً بقرب موجِّه الدّفة، يتحدّث مرتاح البال؛ فقد كان البروتونيّ الطّيب سيسحق رأسَ أوّل من يتردّد لحظةً واحدةً في تنفيذ أمرٍ من أوامره. لكن عدا ذلك الأمر الذي كانَ حاجة طبيعيّة، لم يكن الرّجل متعالياً، وكان يقدّم العون للجميع ويتحدّث إلى كلّ من أراد الحديث معه.

وقد استعاد كلّ أفراد الطّاقم ذاك التّعبير اللّامبالي الذي ينطبع على

Twitter: @ketab_n

سحنة البحّارة بعد معركة أو عاصفة؛ كان رجال الخدمة على السّطح، بينما ظلّ الآخرون في مربض المدفعيّة.

وعلى الرّغم من أنّ سعادة جورج وسارة كانت قد أخذت بمجامع بيار مونييه، فإنّ ذلك لم يمنع الشّيخ من أن يلاحظ قلق جاك؛ وتابع غير مرّةٍ المسارَ الذي تسلكُه نظارات جاك، لكنّه لم يكن يرى سوى بعض الغيوم الكبيرة متراكمةً عند الغروب، فظنّ أنّ تلك الغيوم هي ما يقلق جاك.

وفي اللّحظة التي ألقى فيها جاك على الأفق نظرة من تلك النّظرات السّابرة سألَه والده:

- هل تتهدّدنا عاصفة؟

فأجابه جاك:

- تتهدّدنا عاصفة؟ آه! لو أنّ الأمر كان يقتصر على عاصفة لما انشغلت بها كاليبسو إلّا بقدرِ ما ينشغل بها هذا النّورس المحلّق؛ يتهدّدنا شيء أخطر.

تساءل بيار مونييه بقلق:

- وما الذي يتهدّدنا إذن؟ لقد حسبتُ أنّنا نجونا من كلّ خطرٍ ما إن وضعنا أقدامنا على هذه السّفينة.

أجابه جاك:

- أجل! صحيح أنّنا نملك الآن من الحظّ أكثر ممّا كنا نملك عندما كنّا مختبئين في غابة الجبل الصّغير، بينما جورج يتلو صلاةَ اعترافه في «كنيسة المخلِّص». لكن بالرّغم من أنّي لا أرغب في أن أبتعث قلقك، لا أستطيع القول إنّ رؤوسنا قد صارت مثبّتةً تماماً بين كتفينا.

Twitter: @ketab_n

ثم أضاف دون أن يوجّه كلامه إلى شخص بعينه:

- ليصعَد أحدكم عارضةَ الشراع المربّع.

هرع ثلاثة نوتيّة في اللّحظة نفسها لتنفيذ الأمر؛ وفي ثوانٍ معدودة كان أحدهم قد بلغ الموضع المقصود، فتراجع الآخران.

اِستأنف الشّيخ الكلامَ:

- وما الذي تخشاه إذن يا جاك؟ هل تعتقد أنّهم سيتبعوننا؟

- بالضّبط يا أبي، لقد أصبتَ مكمن الجرح هذه المرّة. فالآن في بور لويس ترسو فرقاطةٌ تدعى اللّايسستر، وهي من معارفي القدامى. وأخشى أنّها لن تتركنا نغادر دون أن تدعونا إلى لعبة الكرة والأولاد، ولن يكون لنا مناصٌ من قبول دعوتها.

قال بيار مونييه:

- لكن يبدو لي أنّنا نتجاوزها على الأقلّ بخمسة وعشرين ميلاً أو ثلاثين؛ وقياساً إلى السّرعة التي نتقدّم بها، سنغيب قريباً عن مدّ البصر.

صاح جاك:

- ألقوا المسراع[1]!

وعلى الفور انبرى ثلاثة بحّارة لتنفيذ العمليّة، وأخذ جاك يتابعهم بانتباهٍ جليّ؛ وإذ فرغوا من العمليّة سألهم:

- كم عقدة؟

فأجابه نوتيّ:

- عشرُ عُقَدٍ يا قبطان.

- حسناً، إنّها سرعة جيّدة بالنّسبة لزورق شراعيّ يحضن الرّيح؛ ولا

---

(1) آلة قياس السّرعة في السّفن.

Twitter: @ketab_n

ريب في أنّه ليس ثمّة في البحريّة الإنجليزيّة بأكملها سوى فرقاطة واحدة تستطيع أن تسير بأسرع من ذلك بنصف عقدة؛ وللأسف تلك الفرقاطة هي نفسها التي سنواجهها، إذا ما قرّر الحاكم ملاحقتنا.

قال بيار مونييه:

- آه! لو أنّ القرار كان بيد الحاكم وحده، فلن يلاحقنا؛ أنت تعلم أنّ الحاكم كان صديق أخيك.

- تماماً. وذلك لم يمنعه من أن يتركه يواجه حكمَ الإعدام.

- هل كان بوسعه أن يفعل غير ذلك ويلتزم في الآن نفسه بما يمليه عليه واجبه؟

- هذه المرّة يا أبي، لا يتعلّق الأمر بالواجب، وإنّما بعزّة نفسه. صحيح أنّ الحاكم لو كان يمتلك حقّ العفو، لعفا عن جورج؛ لأنّ في العفو إبرازاً للتفوّق؛ لكنّ جورج أفلت من يده في اللّحظة التي ظنّ فيها أنّه يمسك به. لقد رجحتْ كفّةُ جورج في ميزان التّفوق؛ وسيسعى الحاكم إلى الانتقام.

صاح نوتيّ:

- ثمّة شراع!

فقال جاك وهو يشير برأسه إلى والده: «آه!»، ثمّ أضاف رافعاً رأسَه: «أين؟»

أجابه النّوتيّ:

- عكس هبوب الرّيح، صَوبَنا.

- في أيّ موضع؟

- ليس بعيداً عن «جزيرة صنّاع البراميل».

Twitter: @ketab_n

- ومن أين أتى؟

- لقد خرج من بور لويس، على ما يبدو.

غمغم جاك وهو ينظر شطر أبيه:

- هو ذا ما علينا مواجهته. ألم أقل لكم إنّنا لسنا في منأىً عن براثنهم.

سألت سارة:

- ماذا هناك؟

فأجاب جورج:

- لا شيء! يبدو أنّهم يلاحقوننا. وهذا كلّ ما في الأمر.

صاحت سارة:

- يا إلهي! هل أعدتَه لي بمُعجزةٍ لكي تأخذه منّي مرّةً أخرى؟ مستحيل!

وأثناء ذلك كان جاك قد أخذ منظاره وصعد إلى منصّة الصّاري.

نظر لبعض الوقت، بانتباه كبيرٍ، صوبَ النقطة التي حدّدها المستطلِع؛ ثمّ أعاد جمعَ حلقات منظاره براحة يده، ونزل وهو يصفّر، ثمّ اتّخذ موضعه قرب والده من جديد.

سألّه الشّيخ:

- وإذن؟

فأجابه جاك:

- وإذن، لم أخطئ التقديرَ، إنّ أصدقاءنا الإنجليز يلاحقوننا.

ثمّ أضاف وهو ينظر إلى الساعة الكبيرة:

- لحسن الحظّ أنّ اللّيل يهبط بعد ساعتين، وأنّ القمر لا يبزغ إلّا بعد منتصف اللّيل بنصفِ ساعة.

- هل تعتقد أنّ بوسعنا النّجاة منهم؟

Twitter: @ketab_n

- سنفعل ما بوسعنا يا أبي. اِطمئنّ. أوه! إنّي لست متغطرساً. فأنا لا أحبّ المخاطرات التي لا إمكان فيها للخسارة؛ لكن هذه المرّة ليأخذني الشّيطان إن أنا تخلّيت عن حذري.

صاح جورج:

- ماذا تقول؟ هل ستفرّ أمام العدوّ، أنت المقدام الذي لا يعرف الهزيمة؟

- يا عزيزي، سأفرّ دوماً أمام الشّيطان حين تكون جيوبُه فارغةً، ويكون قرناه أطول من قرنيًّ ببوصتَين. أمّا حين تكون جيوبه ممتلئةً، فالأمر يختلف، إذ سيكون لديه آنذاك ما يخسره.

- لكن هل تعلم أنّهم سيقولون أنّك خفتَ؟

- وسأقول إنّها الحقيقة! ثمّ لِمَ نزعج أنفسنا بهؤلاء الوقحين؟ إن هم أسَرُونا، فإنّ محاكمتنا قد تمّت، وسيشنقوننا في السّاحة جميعاً؛ أمّا إن أسرناهم نحن، فسيكون علينا إغراقهم عميقاً، هم وسفينتهم.

- كيف؟ لِمَ علينا إغراقهم؟

- طبعاً، وإلّا فما تحسب أنّ بوسعنا أن نفعل بهم؟ فلو أنّهم كانوا زنوجاً، لكنّا بعناهم؛ لكنّهم رجال بيضٌ، وفيمَ سينفعنا أسرى بيض؟

قالت سارة:

- أوه! يا أخي العزيز جاك، أنت لن تفعل شيئاً كهذا؟

أجابها جاك:

- سنفعل ما بوسعنا أن نفعل يا أختي الصّغيرة؛ ثمّ إن كان علينا فعل ذلك، فسنُنزلك في مكان جميل لا يمكنك أن تري منه ما يجري؛ وبالتّالي ستحسبين كأنّ شيئاً لم يحدث.

Twitter: @ketab_n

ثمّ استدار شطر البارجة وقال:

- أجل، أجل، هي ذي تبرز؛ هي ذي رؤوس أشرعتها تظهر؛ هل تراها يا أبي؟ أنظر هناك!
- لا أرى غير نقطةٍ بيضاءَ تتهادى على الأمواج، وتبدو لي كطائر نورس.
- وهي تلك تحديداً؛ إنّ نورسَك ليس سوى فرقاطةٍ من ذوات الستّة وثلاثين مدفعاً. لكنك تعلم أنّ الفرقاطة أيضاً طائرٌ، لكنّها ليست سنونوّة وإنّما عُقاب.
- لكن، ألا يمكن أن تكون سفينةً أخرى، باخرة تجارية مثلاً؟
- إنّ السّفن التّجارية لا تسير بعكس هبوب الرّيح.
- لكنّنا نحن نسير بعكس هبوب الرّيح.
- أوه، نحن وضعيّتنا مختلفة: لم يكن بوسعنا أن نمرّ من أمام بور لويس، وإلّا لألقينا بأنفسنا في فم الذّئب. كان علينا أن نسلك طريقاً محاذية.
- ألا تستطيع زيادة سرعة مركبك؟
- إنّها تسير بأقصى ما يمكنها الآن يا أبي. عندما تصير الرّيح خلفنا، سنضيف بعض الأشرعة ونربح مقدارَ عقدَتين؛ لكنّ الفرقاطة ستفعل الأمر نفسه، ولن يختلف الأمر؛ ستفوقنا اللّايسستر بميلٍ؛ أعرف ذلك منذ أمد بعيد.
- سيبلغوننا إذن، نهار غدٍ؟
- أجل، إذا لم نتمكّن من الإفلات منهم هذه اللّيلة.
- وهل تحسب أنّ بوسعنا الإفلات منهم؟
- يتوقّف الأمر على القبطان الذي يقودهم.

Twitter: @ketab_n

- وإذا ما لحقوا بنا؟

- إذا ما لحقوا بنا يا أبي، فستصير المسألة مسألة التحام؛ فأنت تدرك أنّ معركة بالمدافع لا يمكن أن تنتهي لصالحنا. فبدءاً، إذا ما كان الأمر يتعلّق باللّايسستر -وإنّها بالفعل اللّايسستر، أستطيع أن أراهن على ذلك بمائة زنجيّ مقابل عشرة- أقول إذا ما كانت هي، فإنّها تفوقنا بحوالى اثني عشر مدفعاً؛ زد على ذلك أنّ باستطاعتها النّزول بجزيرة بوربون أو موريس أو رودريغ وتصليح أعطابها هناك، أمّا نحن فليس لنا غير البحر والسّماء والفضاء الفسيح. البرّ كلّه يناصبنا العداء. نحتاج إذن إلى أشرعتنا قبل كلّ شيء آخر.

- وفي حالِ ما إذا التحمنا؟

- إذّاك تصير الحظوظ متكافئة. فأوّلاً نحن نملك مدافع قذّافة غير مرخّص لها في البوارج الحربيّة لكنّنا نحن القراصنة نمنح أنفسنا امتياز حيازتها. ثمّ إنّ الفرقاطة ما دامت في حالة سِلم، فإنّها لا تحمل على الأرجح أكثر من مائتين وسبعينَ رجلاً، ونحن مائتان وستّون رجلاً، ما يجعل كفّتي ميزان التفوّق تتعادلان، لا سيّما إذا ما أخذنا بعين الاعتبار نوعيّةَ الرّجال الذين يضمّهم طاقمي. ليطمئنّ قلبك إذن يا أبي. وبما أنّ البندول قد دقّ فإنّ ما يحدث لن يمنعنا من أن نتعشّى.

وبالفعل كانت السّاعة تشير إلى السّابعة، وقد رنّت إشارة العشاء بالدقّة المعتادة.

أخذ جورج يد سارة، وتبعهما بيار مونييه؛ ودخل الجميع إلى قُمرة جاك التي تمّ تحويلها، بسبب وجود سارة، إلى غرفة طعام.

وقد تخلّف عنهم جاك قليلاً، كي يعطيَ بعض الأوامر إلى نائبه، المعلّم

Twitter: @ketab_n

رأس الحديد.

وكان من المثير للعجب، حتّى بالنّسبة لعيون أخرى غير أعين البحّارة، أن يصير داخلُ الكاليبسو منمّقاً بذلك الشّكل. لقد زيّن جاك زورقه مثلما يزيّن عاشق عشيقتَه، بكلّ الحليّ التي قد تتزيّن بها حوريّة بحر: السّلالم المصنوعة من خشب الماهوغوني[1] كانت صقيلةً مثل مرايا؛ وأثاث الزّينة النّحاسيّ، الذي كان يتمّ تلميعه ثلاث مرّات في اليوم، كان يبرق كالذّهب؛ وكلّ الأسلحة، من بلطات وسيوف وغدّارات، موضوعة في أشكال رائعة حول الكوى التي تظهر منها المدافع المنحنية بأعناقها البرونزيّة، فتبدو مثل زخارف وضعها مصمّمُ ديكور ماهرٌ في مشغلِ فنّانٍ مشهور.

بيدَ أنّ أكثر ما كان تبدو فيه أمارات البذخ هو قمرة القبطان. لقد كان المعلّم جاك، مثلما أسلفنا، فتىً شهوانياً، وشأنه شأن الأشخاص الذين يحسنون الاستغناء عن كلّ شيء في حالات الضّنك، كان يحبّ أن يتمتّع بكلّ شيء في حالات الرّخاء. ثمّ إنّ قمرة جاك التي كانت مُعدّة لأن تكون صالوناً وغرفة نوم ومخدعَ نساء، كانت نموذجاً يُحتذى.

فبدءاً كان ثمّة عندَ الجانبَين، أيّ عند الميمنة والميسرة، مصطبتان يختفي تحتهما مدفعان بعربتَيهما، بحيث لا يمكن للعين أن تلمحهما إلّا من الخارج. إحدى المسطبتَين كانت تُستخدَم سريراً، بينما الثّانية تُستخدَم أريكة. وما بين النّافذتين مرآةٌ جميلة من مدينة البندقيّة ذاتُ إطارٍ نُقشَ عليه بأسلوب الرّوكوكو[2] عاشقانِ تحوطهما الورود والثّمار. وأخيراً المشكاة النحاسيّة المعلّقة في السّقف، والتي لا ريب في أنّها سُرقت من

(1) خشب مداريّ يميل إلى الحمرة ويستعمل عادة في صناعة الأثاث وبناء القوارب.

(2) أسلوب تزيين ساد في القرن الثامن عشر، يُعدّ امتداداً لفنّ الباروك، ويعتمد الرّقة والسّلاسة.

Twitter: @ketab_n

أحد هياكل العذراء، والتي تشهد على إشعاع عصر النّهضة.

وتغطّي الأريكتين والجدران أقمشة هنديّة رائعة، حمراء اللّون، مزيّنة بتلك الزّهور المذهّبة الجميلة التي لا حواشيَ لها، والتي تبدو كأنّها طُرّزت بإبر الجنيّات.

وكان جاك قد أخلى الغرفة لجورج وسارة؛ لكن، بما أنّ القدّاس في كنيسة المخلِّص كان قد قُطِع، لم تكن الفتاة متأكّدة ممّا إذا كان زواجها قد تمّ، فوعَدها جورج بأن يقضي النّهار في الغرفة، وأن يبحث لنفسه عن مكان يبيت فيه ما إن يجنّ اللّيل.

وكما قلنا كانت تلك الغرفة نفسها الموضعَ الذي من المفترض أن يُقدَّم فيه الطّعام.

وكان إحساساً غريباً بالسّعادة ذاك الذي أحسّ به الأربعة، وهم يُلفون أنفسهم مجتمعين حولَ الطّاولة نفسها، بعدما كانوا يحسبون أنّهم مفترقونَ إلى الأبد. وعلى الفور نسوا العالم أجمعه، وما عادوا منشغلين سوى بأنفسهم؛ وألقوا من بالهم كلّ انشغالٍ بالماضي أو المستقبل، وما عاد يهمّهم سوى الحاضر.

ومرّت عليهم ساعة كأنّها ثانية: ثمّ ما لبثوا أن صعدوا إلى السّطح.

وإذ صعدوا، اتّجهت عيونهم مباشرةً إلى مؤخِّر السّفينة، سابرةً الأغوار بحثاً عن الفرقاطة.

رانت عليهم لحظةُ صمتٍ. ثمّ قال بيار مونييه:

- يبدو لي أنّ الفرقاطة اختفت.

فأجابه جاك:

- بما أنّ الشّمس صارت في الأفّق فإنّ أشرعتها في الظلّ؛ لكن انظر في هذا الاتّجاه يا أبي.

Twitter: @ketab_n

قال بيار:

- أجل، أجل، إنّي أراها.

قال جورج:

- حتّى أنّها زادت اقتراباً.

- صحيح، لقد اقتربت بما يعادل ميلاً أو ميلين؛ انظر الآن يا جورج، وستستطيع أن ترى حتّى أشرعتها السّفلى. لم يعد يفصلها عنّا سوى خمسة عشر ميلاً.

وكانوا آنذاك قد بلغوا «ممرّ الرّأس»، أيّ أنّهم بدؤوا يجتازون الجزيرة؛ وكانت الشّمس قد اضطجعت على سرير من غمام، ونزل اللّيل بتلك السّرعة المألوفة في المدارات الاستوائيّة.

أشار جاك للمعلّم رأس الحديد، فلبّى نداءه حاملاً قبّعته بيده.

قال جاك:

- حسناً أيّها المعلّم رأس الحديد، ماذا تحسب تلكَ البارجة؟

- معِ احترامي لك، أنت تعرف أكثر منّي يا قبطان.

- بغضّ النّظر عن ذلك، أريد أن أعرف رأيك. هل هي سفينة تجارة أم بارجة حرب؟

- لا شكّ أنك تمزح يا قبطان، فأنت تعلم أنّه لا توجد أيّة سفينة تجاريه، حتّى في الوكالات الهنديّة، قادرة على أن تتبعنا، وهذه لم تتبعنا فحسب، وإنّما فاقتنا سرعةً وكسبت المسافةَ بيننا.

- آه!... وكم المسافة التي كسبتها، منذ اللّحظة التي لمحناها فيها أوّل مرّة، أي منذ ثلاث ساعات؟

- قبطاني يعلم ذلك.

Twitter: @ketab_n

- أسألك رأيك أيّها المعلّم رأس الحديد، فإنّ رأيين خيرٌ من رأيٍ واحد.

- لقد كسبَت ميلَين تقريباً يا قبطان.

- حسناً، وبحسب تقديرك، أيّ البوارج تلك؟

- لقد عرفتَها يا قبطان.

- أجل، لكنّي أخشى أن أخطئ التّقدير.

قال رأس الحديد وهو يضحك مجدّداً:

- مستحيل!

- بغضّ النّظر عن ذلك، هيّا قل!

- إنّها اللّايسستر!

- ومن عساها تلاحقُ؟

- إنّها تلاحق الكاليبسو، على ما أعتقد؛ أنت تعلم يا قبطان أنّ لها ثأراً قديماً، شيئاً من قبيل شراع الميزان الذي شطرته الكاليبسو شطرَين.

- جيّد جدّاً أيّها المعلّم رأس الحديد! كنت أعرف كلّ ما أخبرتني به، وأبهجني أنّك تشاطرني الرّأي. بعد خمس دقائق سيتمّ تغيير الحرّاس؛ دع الرّجال الذين لا خدمة لديهم يستريحونَ؛ فبعد عشرين ساعةً سيحتاجون إلى قوّتهم كاملة.

سأله المعلّم رأس الحديد:

- ألا ينوي القبطان استغلال الظّلام للهرب؟

- اصمت. سنتحدّث في ذلك فيما بعد؛ الآن عد إلى أشغالك ونفّذ الأمر الذي أصدرته لك.

وبعد خمس دقائق تمّ تغيير رجال الحراسة، وذهب الرّجال الذين لا عمل لهم ليرتاحوا؛ وما هي سوى عشر دقائق حتّى كان الجميع يغطّون

Twitter: @ketab_n

في النّوم أو يتظاهرون به.

ومع ذلك، لم يكن بين أولئك الرّجال من لا علم له بأنّ الكاليبسو كانت ملاحقةً؛ لكنّهم كانوا يعرفون قائدَهم، وكانوا يثقون به.

واستمرّت الكاليبسو مُبحِرَةً في الاتّجاه نفسه، لكنّها صارت تصادف أمواجَ العرض، ممّا قد يجعل سرعتها تتناقص. نزل جورج وسارة وبيار مونييه إلى القمرة، وظلّ جاك وحده على السّطح.

وكان اللّيل قد أرخى سدوله، وحجبت العتمة الفرقاطةَ عن العيون؛ ومرّ نصفُ ساعة.

وبعد نصف السّاعة ذاك، نادى جاك نائبه، فلبّى النّائبُ النّداء فوراً.

قال جاك:

- أين تفترض أن نكون الآن أيّها المعلّم رأس الحديد؟

- شمالَ «جبل المرمى».

- حسناً؛ هل ترى أنّك قادر على أن تقود السّفينة ما بين «جبل المرمى» و«الجزيرة المنبسطة» دون أن تعْلق لا يميناً ولا يساراً.

- أستطيع أن أمرّ بعينَين معصوبتين يا قبطان.

- رائع! في هذه الحال، أعلِم رجالك كي يظلّوا على أهبة الاستعداد، بما أنّنا ما عدنا نملك وقتاً نضيعه.

هرع كلّ رجلٍ إلى موضعه، وخيّمت لحظةُ صمتٍ وترقّب.

ثمّ وسط ذلك الصّمت، سُمِع صوت. كان جاك يصيح:

- غيّروا الاتّجاه!

ردّد رأسُ الحديد:

- اِنعطفوا، غيّروا الاتّجاه!

ثمّ سُمِع صفير رئيسِ الاستعدادات.

Twitter: @ketab_n

صدرت عن المركب الشّراعيّ لحظة تردُّد شبيهة بتلك التي يبديها حصانٌ نرخي له العنان ثمّ نوقفه على حين غرّة؛ ثمّ ما لبث أن استدار ببطءٍ خاضعاً لهبّة ريح بحريّة رطبة، ولضربات أمواج عريضة.

صاح جاك:

- العارضة السّفلى!

نفّذ الرّبان الأمر، فاقترب المركب الشّراعيّ من مهبّ الرّيح وأخذ يستعيد استقامته.

اِستأنف جاك أوامره:

- اِرفعوا المروَحين[1]! أثقلوا المؤخّرة!

ونُفّذ الأمران بالسرعة والسّداد ذاتهما اللّذين نُفّذت بهما الأوامر السّابقة؛ أكمل المركب اندفاعه إلى الأمام. وبدأت أشرعته الخلفيّة تنتفخ؛ وبسرعةٍ امتلأت الأشرعة الأمامية أيضاً بالهواء، وانطلق المركب الرّشيق صوب نقطة الأفق التي عُيّنت له.

وبعدما تابع جاك حركات المركب بالرّضا نفسه الذي قد يتابع به فارسٌ حركات حصانه قال:

- أيّها المعلّم رأس الحديد، ستُجاوز الجزيرةَ، استغلّ ما أمكنك كلّ هبّة بحريّة حتّى تتمكّن من الدنوّ من مهبّ الرّيح، ثمّ اتّبع بمهارةٍ شريط الصّخور الذي يمتدّ من «مضيق القرون» حتّى «خليج فلاكْ».

أجابه نائبه:

- حسناً يا قبطان.

وأضاف جاك:

---

(1) المروَح، جانب السّفينة المعرّض للرّياح.

Twitter: @ketab_n

- والآن عِم مساءً. أيقظني حين يبزغ القمر.

وانصرف جاك إلى النّوم بدوره، بتلك اللّامبالاة المباركة التي هي إحدى ميزات العيش الدائم ما بين الحياة والموت.

وما هي سوى عشر دقائق حتّى كان يغطّ في نوم عميق، شأنه في ذاك شأن أبسط نوتيّ في طاقمه.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثلاثون

المعركة

وفى المعلّم رأس الحديد بكلمته؛ استطاع أن يعبر القناةَ التي يشكّلها البحرُ إذ ينحصر ما بين «جبل المرمى» و«الجزيرة المنبسطة»، وبعدما تجاوز «ممرّ القرون» و«جزيرة العنبر»، مالَ ما أمكنه إلى السّاحل.

ثمّ إذ انتصف اللّيل ولمحَ الهلالَ يستقرّ جنوب جزيرة رودريغ، ذهب يوقظ القبطانَ مثلما أمرَه.

ولمّا صعد جاك إلى سطح السّفينة، ألقى على البحر تلك النّظرة السّريعة المُستكشِفة التي تُعتَبر خاصيّة رجالِ البحرَ؛ وكانت الرّيح قد صارت رطبةً وأخذّت تهبّ متنوّعةً ما بين شرقيّة وشماليّة-شرقيّة؛ وكان البرّ يظهر على بُعد تسعة أميالٍ تقريباً من جهة المَيمنة، ويبدو مثل ضبابٍ؛ ولم يكن ثمّة أيّة سفينة في الأفق، لا من جهة الميسرة ولا من الأمام أو الخلف.

كانوا قد بلغوا مستوى ميناء بوربون.

ولقد راهن جاك أفضلَ رهانٍ كان بإمكانه القيام به. فإذا ما كانت الفرقاطة التي أضاعته ليلاً قد أكملت طريقها شرقاً، فسيكون الوقت قد فاتها للرّجوع، وإذّاك تنجو الكاليبسو؛ أمّا إذا كان القبطان قد فطن، بحدسٍ قاتلٍ، إلى الخطّة وتبعهم، فستكون لا تزال أمام جاك فرصةٌ للإفلات من عدوّه عن طريق محاذاة الشّاطئ والتّخفيّ بين تعرّجات الجُزر.

Twitter: @ketab_n

وبينما كان جاك يحاول أن يسبر غياهب الأفق بفضلِ بَصرٍ مدرّبٍ على الرؤية في الظّلام، أحسّ بأحدهم يربّت على كتفه، فاستدار. ألفى جورج، فقال مادّاً إليه يده:

- آه! هذا أنت يا أخي؟

سأله جورج:

- حسناً، هل من جديد؟

- لا شيء حتّى الآن؛ عدا ذلك، قد تكون اللّايسستر خلفنا، ولا سبيل لنا إلى رؤيتها بسبب المسافة التي لا تزال تفصل بيننا. عندما يبزغ الصّباح سنتبيّن أمرَنا... آه! آه!

- ماذا هنالك؟

- لا شيء. فقط هبّة ريح صغيرة.

- في صالحنا؟

- أجل، إذا ما أكملت الفرقاطة طريقَها؛ أمّا في الحال المعاكسة، فسيكون هذا التغيّر في صالحها مثلما هو في صالحنا؛ وفي جميع الأحوال ينبغي أن نستغلّ الأمر.

ثمّ استدار صوب رئيس الطّاقم الذي كان قد حلّ محلّ نائبه، وصاح:

- اِرفعوا الأشرعة الإضافيّة!

فكرّر رئيس الطّاقم أمرَه:

- اِرفعوا الأشرعة الإضافيّة!

وفي اللّحظة نفسها ارتفعت، من السّطح إلى المنصّات، ومن المنصّات إلى الشراع المربّع، خمسةُ أشكالٍ كأنّها غماماتٌ عائمة، وانزَرَعت يسارَ الأشرعة؛ وفي اللّحظة نفسها تقريباً، بدت السّفينة كأنّها تنصاع لقوّة دافعةٍ أسرعَ؛ لاحظ جورج ذلك وأدلى بملاحظته لأخيه.

Twitter: @ketab_n

قال جاك:

- أجل، إنّها مثل أنتريم، من الصّعب إرضاؤها، ولا ينبغي جَلْدها لكي تسير؛ يكفي فقط أن ترخي لها الأشرعة، وستسير بروعة.

سأله جورج:

- وكم ميلاً نقطعه في السّاعة ونحن نسير بهذه السّرعة؟

فصاح جاك:

- ألقوا المسراع!

نُفِّذ الأمر فوراً.

- كم عُقدة؟

- إحدى عشرة يا قبطان.

- نسير ميلَين بأسرعَ ممّا كنا نسير قبل حين. لا يمكن أن نطلب من خشبٍ ونسيجٍ وحديدٍ أكثرَ من ذلك. ولو أنّ سفينةً أخرى غير الوحش المسمّى اللّايسستر هي من يتعقّبنا، لاستدرجتُها حتّى رأس الرّجاء الصّالح، وهناك أقول لها: عِمي مساءً.

لم يجِر جورج جواباً، وظلّ الأخَوان يذرعان سطح السّفينة من طرفه إلى طرفه؛ على أنّ جاك كلّما عاد من الأمام إلى الخلف بدت عيناه كأنّما تحاولان أن تُجبرا العتمةَ على أن تنقشع أمامهما. مرّة واحدة فقط توقّف، وبدلاً من أن يكمل جولته، استند على حاجز مؤخّر السّفينة.

فالواقع أنّ الظلمة كانت قد بدأت تنقشع، وإن كانت أولى أشعّة الصّباح لا تزال مبطئة في الوصول. وخلل ذلك الغسق الطالع الذي بدأ ينجلي مثلَ ضباب ينقشع ليُخليَ مكانه لفجرٍ مُزرَقٍّ، خالَ جاك أنّه يرى على بعدِ حوالى خمسة عشر ميلاً الفرقاطةَ تسلكُ الدّرب ذاتها التي سلكتها الكاليبسو.

Twitter: @ketab_n

وفي اللّحظة نفسها، بينما يبسط يده منبّهاً جورج إلى تلك النّقطة التي تكاد لا تُرى، صرخ نوتيّ كان يراقب:

- ثمّةَ شراعٌ وراءنا.

قال جاك كأنّما يحّدث نفسه:

- أجل؛ لقد رأيته؛ أجل، لقد تبعوا أثرنا كأنّما ظلّ محفوراً خلفنا. لكنّهم بدلاً من أن يمرّوا بين «الجزيرة المنبسطة» و«جبل المرمى»، مرّوا بين «الجزيرة المنبسطة» و«الجزيرة المستديرة»، فأضاعوا ساعتين أخرَيين. ثمّة على ظهر الفرقاطة رجلٌ بحرٍ محنّك.

قال جورج:

- لكنّي لا أرى شيئاً.

فردّ عليه جاك:

- أنظر هناك! تظهر حتّى الأشرعة الخفيضة، وعندما تعلو البارجةُ الأمواجَ، تظهرُ بجلاء! تبرز مقدّمتها مثل سمكة تُخرج رأسَها من الماء كي تتنفّس.

- صحيح، أنت محقّ، ها أنذا أراها.

قال صوتٌ ناعمٌ من خلف جورج:

- ماذا ترى؟

اِستدار جاك فلمح سارة.

- ماذا أرى يا سارة؟ أرى منظراً بديعاً: منظرَ الشّمس التي ترتفع؛ لكن بما أنّه لا متعةَ كاملة في هذه الدّنيا، فإنّ المنظر البديع يشوبه منظر البارجة التي لم تُضع طريقَنا رغم حسابات أخي وأمانيه.

قالت سارة:

- أيْ جورج؛ إنّ الله الذي جمعنا بمعجزة لن يغضّ طرفه عنّا في

Twitter: @ketab_n

الوقت الذي نحتاج فيه إلى رعايته. لا يمنعنّك إذن منظرُ تلك البارجة من تدبُّر عجائب صنعِه. انظر يا جورج، كم هو بديعٌ هذا المنظر!

وبالفعل، ففي اللّحظة التي بدأ فيها النّهار يتجلّى بدا اللّيل كأنّما أصابَته غيرةٌ فسعى إلى تكثيف ظلماته. ثمّ، كما أسلفنا، انتشر شعاع مُزرَّق شفّاف، أخذ يزداد سُمْكاً وبريقاً لحظةً بعد لحظةٍ؛ ثمّ ما لبث ذاك الشّعاع أن صار يخفتُ ماراً من الأبيض النّاصع إلى الورديّ النّاعم، ثمّ من الورديّ النّاعم إلى الورديّ الغامق؛ ثمّ ارتفعت في الأفق غيمةٌ أرجوانيّة شبيهة بدخانِ بركانٍ ملتهب. كانت تلك ملكة العالم وقد أتت تستعيد مملكتها؛ كانت الشّمس التي اندفعت معلنةً عن نفسها ملكةً في السّماء.

وكانت تلك المرّة الأولى التي ترى فيها سارة منظراً مماثلاً؛ فظلّت الفتاة في حالة جذلٍ عميق، ممسكةً بيد الشّاب بحبٍّ وإيمان؛ في حين أنّ جورج، الذي اعتاد على مثل تلك المناظر أثناء أسفاره العديدة في البحر، عاد بصره ليتعلّق بالموضوع الذي يشغل الجميع. كانت البارجة التي تلاحقهم تزداد اقتراباً، وإن تكن صارت أقلّ وضوحاً بسبب أمواج الضوء الشّرقية التي باتت تغمرها. وعلى خلاف ذلك من المفترض في هذه الفترة من النّهار أن يكون المركب الشّراعيّ واضحاً تماماً بالنّسبة للفرقاطة.

غمغم جاك:

- حسناً، لقد رآنا بدوره. فها هو يرفع الأشرعة!

ثمّ تابع كلامه مائلاً على أذن أخيه:

- يا صديقي جورج، إنّك تعرف النّساء، وتعلم كم يشقّ عليهنّ حسم قرارهنّ في جِسام الأمور؛ أرى أنّك ستحسن صنعاً إن همست لسارة ببعض التفاصيل عمّا سيجري.

Twitter: @ketab_n

سألته سارة:

- ماذا يقول أخوك؟

فأجابها:

- إنّه يشكّك في شجاعتك، وأنا أجيبه بدلاً عنك.

- إنّك محقّ يا صاحبي. ثمّ حين يحين الوقت أخبرني بما عليّ أن أفعل، وسأنفّذ أوامرك.

قال جاك:

- إنّ الوحش يقترب منّا كأنّما يملك أجنحةً! يا أختيَ الصّغيرة، هل حدث أن سمعتِ صدفةً باسم قائد تلك السّفينة؟

- لقد قابلته مرّات عديدة في بيت عمّي، السيّد دو مالميدي، وأذكر اسمه جيّداً: جورج بريستون. لكن قد لا يكون هو قائد السّفينة في هذه اللّحظة، إذ سمعتُ أوّل أمس أنّه كان مريضاً، وكانوا يؤكّدون أنّ مرضه مميت.

- حسناً، سأقول إنّهم سيَظلمون نائبه ظلماً كبيراً إن هم لم يعيّنوه قائداً للسّفينة فورَ وفاته. ثمّة سعادة في مقارعة مِقدامٍ مثل هذا حين تدقّ ساعة الحسم، انظروا إليه كيف يتقدّم؛ ولعمريَ يكاد يكون حصانَ سباقٍ؛ وإذا ما استمرّ الوضع كذلك، فلن تمضي خمس ساعات أو ستّ حتّى نكون مضطرّين لقتاله.

قال بيار مونييه الذي وصل في تلك اللّحظة وكانت عيناه تبرقان لاقتراب الخطر منه، بذاك البريق الذّي تتوهّج به روحه في الأمور الخطيرة:

- حسناً، سنقاتله.

قال جاك:

Twitter: @ketab_n

- آه، هذا أنت يا أبي؟ تسعدني رؤيتك مستعدّاً هكذا؛ إذ كما كنت أقول، بعد بضع ساعات سنحتاج إلى كلّ الأذرع الموجودة على متن المركب.

شحبت سارة قليلاً، وأحسّ جورج بأنّ الفتاة تشدّ على يده، فاستدار شطرها مبتسماً، وقال لها:

- وإذن يا سارة، بعدما وثقتِ بالرّبّ طيلة تلك المدّة، هل بدأ الشّك يدبّ إلى نفسك الآن؟

- كلّا يا جورج، كلّا، وأقسم لك أنّي حتّى حين أكون في القمرة سيتناهى إليّ هدير المدافع وأزيز الطّلقات وصراخ الجرحى، سأظلّ مفعمةً بالإيمان والرّجاء، وواثقة من أنّ حبيبي جورج سيعود إليّ سالماً معافى؛ ذاك أنّ صوتاً يهمس لي بأنّنا جزْنا أمَرّ شقائنا، وأنّ ليلَنا يخلفه نهارٌ، مثلما خلفت هذه الشّمسُ تلك الظّلمات.

صاح جاك:

- لحسن حظّنا! وهذا ما أسمّيه كلاماً جيّداً: وبشرفي، لستُ أدري ما الذي يمنعني من أن أنقلب على عقبيّ، وأهاجم تلك البارجة المتغطرسة. سيجنّبها الأمر نصف المشّقة، ويجنّبنا نصف الانتظار المُضجر؛ ما قولك يا جورج، أوَ تريد أن تجرّب؟

أجابه جورج:

- على الرّحب والسّعة؛ لكن ألا تخشى من هذه المسافة أن تكون ثمّة بعض البوارج الإنجليزيّة الرّاسية في بوربون، فتسمعَ ضجيج المدافع وتهبّ إلى نجدة رفيقتها؟

قال جاك:

Twitter: @ketab_n

- صدّقني! يكفي أن تتحدّث هكذا مثل القدّيس يوحنّا فم الذّهب[1] لنواصل طريقنا.

ثمّ قال موجّهاً كلامه لنائبه الذي ظهر في تلك اللّحظة على سطح المركب:

- آه! هذا أنت أيّها المعلّم رأس الحديد؟ لقد وصلتَ في الوقت المناسب: ها نحن كما ترى قد بلغنا مستوى كثيب براباان؛ وجّهْ مقدِّم السّفينة غربَ الجنوب-الغربيّ للكثيب؛ ثمّ سنتغدّى، فالغداء تحوّط يجبّ اتّخاذه في كلّ وقت، لا سيّما إذا لم يكن المرء يعلم ما إذا كان سيتعشّى.

وأعطى جاك ذراعه لسارة، ثمّ تقدّم الجميعَ ونزلَ الأوّل وتبعه بيار وجورج.

ورغبةً منه، ربّما، في إلهاء ضيوفه عن الخطر الذي يتوعّدهم، عمل جاك على إطالة مدّة الغداء ما وسعَه ذلك.

ومرّ حوالى ساعتين قبل أن يصعدوا مرّة أخرى إلى السّطح.

وأوّل نظرة ألقاها جاك، كانت صوبَ اللّايسستر؛ وكانت البارجة قد ازدادت اقتراباً بشكل ملحوظ: فقد صار بالإمكان رؤية حتّى مربض مدفعيّتها. على أنّ جاك بدا كأنّما كان يتوقّع أن يجدها أقرب من ذلك؛ إذ ألقى نظرةً على مركبه ليتأكّد ممّا إذا لم يكن قد حدث تغيير في عتاده. وقال:

- ماذا هنالك أيّها المعلّم رأس الحديد؟ يبدو لي أنّنا صرنا نسير بسرعة أكبر ممّا كنّا نسير به قبل ساعتين.

أجابه النّائب:

(1) يوحنّا فم الذهب أو ذهبيّ الفم (توفّي سنة 407) كان كبير أساقفة للقسطنطينيّة، ولقّب كذلك لفصاحته.

Twitter: @ketab_n

- أجل يا قبطان، عليّ أن أقول أنّ الأمر كذلك.
- ما الذي فعلته بالمركب إذن؟
- أوه! أشياء بسيطة؛ لقد غيّرت موضع الصّابورة[1]، وأمرت الرّجال بأن يقفوا في الأمام.
- أجل أجل، أنت ممارسٌ ماهرٌ؛ وما الذي ربحتَه من ذلك؟
- ربحت ميلاً يا قبطاني، ميلاً بئيساً لا غير. إنّنا نسير بسرعة اثنتي عشرة عقدةً في السّاعة. لقد ألقيت المسراعَ منذ قليل؛ بيد أنّ ذلك لا يفيد في شيء، ولا ريب في أنّهم قد قاموا بمثل ما قمنا به، إذ منذ ما يقرب من ربع ساعةٍ ازدادت سرعة البارجة أيضاً. انظر يا قبطان، هل تراها؟ لقد صارت مكشوفة تماماً. أوه! يبدو أنّنا نواجه أحد ذئاب البحر المحنّكة، ولا ريب في أنّه سيسبّب لنا متاعب جمّة. يذكّرني الأمر بالطريقة التي لاحقتنا بها اللّايسستر أيّام كان اللّورد موريه قائدَها.

صاح جاك:

- أوه! أقسم أنّ كلّ شيء صار واضحاً الآن. أراهن بألف لويسيّة مقابل مائة أنّ حاكمَك الغاضبَ هو من يقود الفرقاطة يا جورج. إنّه يصبو إلى الانتقام.

صاح جورج بدوره وقد نهض عن المقعد الذي كان يجلس عليه، وأمسك بذراع أخيه بقوّة:

- أتظنّ ذلك يا أخي؟ أتظنّ ذلك؟ أعترف لك أنّ الأمر سيسعدني، فأنا أيضاً لي معه ثأر أريد أن أُدركه.
- إنّه هو، هو بنفسه، صرت الآن متيقّناً. فليس ثمّة سوى كلبِ شمّامٍ

(1) قطعة توضع في بطن المركب ليثقل ولا يميل إلى أحد جانبيه.

Twitter: @ketab_n

واحدٍ يستطيع اقتفاء أثرنا هكذا. يا إلهي! يا له من شرفٍ بالنّسبة لنخّاسٍ مثلي أن يقارع أميرَ بحارٍ من البحريّة الإنجليزيّة! شكراً يا جورج! أنت سبب هذا الحظّ.

ومدّ جاك يده إلى أخيه ضاحكاً.

بيد أنّ احتمال مجابهة اللّورد مورّيه لم تكن بالنّسبة لجاك، في الوضع المأزوم الذي سيُلفون أنفسهم فيه بعد قليل، سوى دافع إضافيّ لاتّخاذ المزيد من الحذر. ألقى جاك نظرة على جدار البارجة: كانت أراجيح النّوم معلّقة على درابزين السّفينة؛ وتفحّص الطّاقم، فألفى الرّجالَ قد توزّعوا من تلقاء أنفسهم في مجموعات، وكلُّ واحد منهم يقف قرب المدفع الذي سيعمل عليه؛ وكانت كلّ تلك الأمارات تشير إلى أنّه لا يحتاج إلى إخبار رجاله بشيء، وأنّ كلّ واحدٍ منهم يعرف قدر معرفته هو نفسه ما سيجري.

وفي تلك اللّحظة هبّت نسمة ريحٍ حاملةً معها صوتَ الطّبول التي تُقرع على فرقاطة الأعداء.

قال جاك:

- آه! آه! لن نستطيع معاتبتهم على التّأخر. هيّا يا أولاد لنحذُ حذوهم. إنّ السّادةَ رجالَ البحريّة الملكيّة أساتذة ممتازون، وإن حاكيناهم لا يمكن إلّا أن نجني فوائد.

ثمّ رفع صوتَه صائحاً بملء رئتيه:

- الجميع إلى المعركة!

وعلى الفور سُمِعت في مربض المدفعيّة دحرجةُ طبلَين ونوتاتُ مزمارٍ حادّة. ولم يمضِ وقت طويل حتّى ظهر الموسيقيّون الثلاثة على السّطح، حيث خرجوا من روزنة وجابوا محيط السّفينة، ثمّ عادوا من روزنة

Twitter: @ketab_n

أخرى.

وكان تأثير ذاك الظّهور الموسيقيّ ساحراً.

فما هي سوى لحظة حتّى كان كلّ واحدٍ قد اتّخذ الموضع المحدّد له سلفاً، وحمل السّلاح الخفيف المسند له؛ فهرع النوتيّة المحاربون إلى المنصّات العليا حاملين غدّاراتهم، وانتظم الرّماة أعلى مقدِّم المركب وعلى الممرّات، ورُفعت بنادق الإسبنغولة[1] فوق دعاماتها، وأُشعِلت المدافع وأُعدّت للإطلاق، ووُضعت الذّخيرة من القنابل في كلّ موضع يمكن رميها منه إلى سفينة العدوّ. وفي الأخير عمل قائد الاستعدادات على ربط كلّ حبال الأشرعة، ووضع السّهام الناريّة في الصّارية، ثمّ ثبّت في مواضعها حبالَ التّسلّق التي تُستعمَل في حالة الاقتحام.

ولم يكن النّشاط داخل المركب أقلّ من النّشاط على السّطح. فقد فُتحت أكياسُ البارود وأضيئت مصابيح المخازن، وأُعدّت دفّة القيادة الاحتياطية؛ وأخيراً أزيلت الحواجز ونُقلت غرفة القبطان، ووضع فيها مدفعان تقرّر أنّهما لا يعملان.

ثمّ خيّم صمت عميق. ورأى جاك أنّ كلّ شيء صار جاهزاً، فبدأ عمليّة التّفتيش.

كان كلّ رجلٍ في موضعه، وكلّ شيء في مكانه.

وإذ كان جاك يدرك أنّ المعركة التي سيخوضها هي إحدى أكثر معارِك حياته جديّة، دام التّفتيش نصف ساعة. وأثناء ذلك تفحّص كلّ الأشياء وتكلّم مع كلّ الرّجال.

وعندما عاد إلى السّطح، كانت الفرقاطة قد ازدادت دنوّاً منهم، وما عاد يفصل بين البارجتين سوى مسافة ميلٍ ونصف.

---

(1) بنادق ذات فوهات منفرجة، كانت شائعة في القرن السّادس عشر.

Twitter: @ketab_n

وانصرم نصف ساعة آخر، لم يتبادل طاقم المركب فيها حتّى عشرَ جُمَلٍ؛ فقد كان جليّاً أنّ كلّ ملَكات الطّاقم والقادة والرّكّاب قد تركّزت في أعينهم.

وكانت سيماء كلّ واحد تعكس إحساساً ينسجم ومزاجَه الخاصّ: فملامح جاك تعكس اللّامبالاة، وملامح جورج الأنفة، وملامح بيار مونييه القلق الأبويّ، وملامح سارة الإخلاص.

وبغتةً ظهرت عند مؤخّر الفرقاطة بقعةُ دخانٍ خفيفة، وارتفع شعار بريطانيا العظمى شامخاً في الأجواء.

لم يعد ثمّة بدٌّ من المعركة: لم يعد بإمكان المركب الهرب، فتفوُّق الفرقاطة جليّ. أمر جاك بإنزال الأشرعة الخفيضة، حتّى لا تبقى ثمّة أشرعة لا فائدة ترجى منها؛ ثمّ توجّه إلى سارة قائلاً:

- هيّا يا أختي الصّغيرة، أنت تَرين أنّ الجميع قد اتّخذوا مواقعهم، حان الوقت إذن لكي تنزلي أنت أيضاً إلى موقعك.

صاحت الفتاة:

- أوه! يا إلهي! لا مندوحةَ إذن عن هذه المعركة؟

- بعد ربع ساعةٍ سيبدأ النّقاش (هكذا كان يدعو المعركة)، وبما أنّه سيكون على الأرجح ساخناً، يُستحسَن أن ينسحب أولئك الذين لا ينبغي لهم التدّخل فيه.

قال جورج:

- لا تنسي يا سارة أنّك وعدتِني.

أجابته الصبيّة:

- أجل، أجل، وها أنذي أنفّذ الأمر. أنت ترى يا جورج أنّي متعقّلة. أمّا أنت...

Twitter: @ketab_n

- آمل أنّك لا تطلبين منّي يا سارة أن أظلّ متفرّجاً على ما يجري، في الوقت التي يعرّض فيه كلّ هؤلاء الرّجال الشّجعان حياتهم للخطّر في سبيلي أنا وحدي؟

- أوه! كلّا؛ أطلب منك فقط أن تفكّر فيّ وأن تتذكّر أنّي في حال موتك سأموت أيضاً.

ثمّ مدّت يدها إلى جاك، وجبينَها إلى بيار مونييه، وقادها جورج لتنزل من السلّم الخلفيّ.

وبعد ربع ساعة صعد جورج حاملاً سيفَ اقتحامٍ ومُعلِّقاً مسدّسَين في حزامه.

وكان بيار مونييه يحمل غدّارتَه المرصّعة، رفيقتَه القديمة التي لطالما خدمته بوفاء.

وكان جاك عند مصطبة الرُّبع[1]، حاملاً بيده مكبّر الصّوت، علامة القيادة، وقد وضع عند قدمَيه سيفَ اقتحامٍ، وقناعاً حديديّاً صغيراً.

كانت السّفينتان تسيران على الطّريق نفسها؛ الفرقاطة لا تزال تطارد المركب الشّراعيّ، وقد صارا متقاربين جدّاً لدرجة أنّ النوتيّة الرّابضين في الصّواري العليا كان بوسعهم رؤية ما يجري على سطح السّفينة الأخرى.

قال جاك:

- أيّها المعلّم رأس الحديد، أنت تملك عينين فاحصتين وعقلاً راجحاً؛ اِصعد إلى الدّوقل وأعلمني بما يجري على الفرقاطة.

اِنطلق رجل السّفينة الثاني فوراً، كأنّما هو نوتيّ بسيط، وما هي سوى لحظة حتّى كان في المكان المعيّن.

سأله القبطان:

(1) هي مصطبة كانت توضع في مؤخّر السفن الحربيّة القديمة، يقف عليها القائد أثناء القتال.

Twitter: @ketab_n

- وإذن؟

- كلّ واحدٍ يا قبطان اتّخذ موضعه استعداداً للمعركة، المدفعيّون عند المدافع، وجنود البحريّة عند الممرّات الأماميّة وعلى مؤخِّر السّطح، والقبطان عند مصطبة الرّبع؟

- هل يوجد ضمن الطّاقم فيالق أخرى غير النوّتيّة وجنود البحريّة؟

- لا أظنّ ذلك يا قبطان، إلّا إذا كانوا يختفون في مربض مدفعيّتهم، إذ لا أرى إلّا رجالاً بلباسٍ موحّد.

- حسناً! في هذه الحال تَصير المعركة متكافئةً تقريباً، بفارق خمسة عشر رجلاً أو عشرين. هذا كلّ ما كنت أودّ معرفته. اِنزل أيّها المعلّم رأس الحديد.

- لحظة! لحظة! هو ذا الإنجليزيّ يحمل مكبّر صوته. إذا ما التزمنا الصّمت فسيكون بإمكاننا سماع ما يقول.

وكان في ذلك الرّأي شيء من المبالغة؛ إذ على الرّغم من الصمت الذي أطبق، لم يصل المركبَ الشّراعيّ أيُّ صوتٍ قادم من البارجة المطارِدة؛ بيد أنّ أفراد الطّاقم سرعان ما علموا الأمرَ الذي كان قد أصدره القبطان، إذ انطلقت فوراً شرارتان من مقدّم سفينة الأعداء، وسُمع دويّ انفجارٍ، وسقطت قذيفتان عند الأثر الذي كانت الكاليبسو تخلّفه في الماء.

قال جاك:

- حسناً! لا يملكون سوى قذائف من صنف 18 مثلنا تماماً؛ إنّ الحظوظ تزداد تكافؤاً.

ثمّ رفع رأسه مخاطباً نائبه:

- هيّا انزل؛ لم تعد لك فائدة هناك؛ أحتاج إليك هنا.

نفّذ المعلّم رأس الحديد الأمرَ. وما هي سوى لحظة حتّى كان بقرب

Twitter: @ketab_n

جاك. وأثناء ذلك واصلت الفرقاطة سيرها، لكن دون أن تطلق قذيفةً أخرى. ذلك أنّ التجربة بيّنت لها أنّها لا تزال بعيدة عن مدى الرّمي.

قال جاك:

- اِنزل إلى مربض المدفعيّة: وما دمنا لم نلتحم استعمل القذائف الكرويّة[1]؛ لكن حين نصير إلى الالتحام لا تستعمل غير القنابل، القنابل فقط؛ فهمت؟

أجاب النّائب:

- أجل يا قبطان.

ونزل من السلّم الخلفيّ.

أكملت السّفينتان مسيرتهما نصفَ ساعة آخر، ولم يبدر عن الفرقاطة ما يشي بالعداء. أمّا المركب الشّراعيّ، فلم يستجب، كما رأينا، لاستفزاز الأعداء، إذ قدّر قبطانه أنّ الأمر سيكون مجرّد مضيعة للبارود والقنابل. لكنْ من الحيويّة التي بدأت تدبّ في وجوه النوتيّة، ومن التّمعن الذي يقيس به قائد المركب المسافة التي تفصل بين المركبين اللّذين يوشكان على البدء بالنّقاش -كما كان يقول جاك-، أقول من هذا كلّه كان بديهيّاً أنّ الجمعَين لن يكتفيا بالمناجاة، وأنّهما سيصيران قريباً إلى المحاورة.

وبالفعل، بعد عشر دقائق من الانتظار، عشر دقائق مرّت على الجميع كأنّها قرن، اشتعل مقدّم الفرقاطة، وسُمِع دويّ مزدوج، تلاه أزيز قذيفتين كرويّتين مرّتا هذه المرّة على جناح المركب، فثقبتا الدّوقل، وقطعتا حبلين أو ثلاثة.

تأمّل جاك بنظرةٍ خاطفةٍ الأثرَ السّريعَ الذي خلّفه التّفجيران؛ ثمّ

---

(1) متفجّرات صغيرة كرويَة الشكل من الحجر أو المعدن كانت مستخدمة قبل اختراع القنابل والقذائف الحديثة، وبقيت تُستخدَم معها لفترة.

Twitter: @ketab_n

لاحظ أنّهما لم يخلّفا سوى أضرارٍ خفيفةٍ فصاح:

- هيّا يا أولاد! يبدوا أنّنا المقصودون بالقصف. لنردّ على التحيّة بمثلها. أطلقوا النّيران!

وفي اللّحظة نفسها ارتجّ المركب بأكمله لدويٍّ مزدوجٍ آخَر، ومال جاك خارج السّفينة لكي يرى مخلّفات ردّ الفرقاطة: كانت واحدة من القذيفتين الكرويّتين قد حطّمت جزءاً من السّياج الأماميّ، بينما اخترقت الأُخرى مقدّم السّفينة.

صاح جاك:

- ماذا تصنعون بحقّ السّماء! صوّبوا على أشرعة الصواري؛ اِكسروا قدمَي الفرقاطة واثقبوا أجنحتها؛ إنّ الخشب أثمن في هذه الأثناء من الجسد. إيه! انظروا!

وأثناء ذلك مرّت قذيفتان كرويّتان عبر أشرعة المركب وعتاده، فهشّمت إحداهما عارضة صارية الميزان، بينما قطعت الأخرى الشّراع المربّع الصّغير.

صاح جاك:

- أطلقوا النّار بحقّ السّماء! أطلقوا النّار! واحذوا حذو أولئك الصّناديد. خمس وعشرون لويسيّة لأوّل من يُسقِط صارية على متن الفرقاطة.

تلا التفجيرُ الأوامرَ مباشرةً، وشوهدت القذائف الكرويّة تجتاز أشرعة السّفينة المناوئة.

واستمرّ إطلاق النّار من الجانبين لما يقارب ربع ساعة؛ وكان الهواء البحريّ الذي أثّرت فيه النيران قد أبطأ حركته، فما عادت البارجتان تتحرّكان بأكثر من أربع عقدٍ أو خمس. وكانت المسافة الفاصلة بينهما

Twitter: @ketab_n

مليئةً كلّها بالدّخان إلى درجة أنّ تبادل النيران كان يتمّ بصفة عشوائيّة. على أنّ الفرقاطة كانت ممعنةً في التّقدّم، حتّى أنّ أطراف صواريها كانت تعلو الدّخان الذي يحوطها؛ بينما المركب الشّراعيّ الذي كان يفرّ ويطلق النّيران من كوثله، كان خارج الدّخان.

وكانت تلك هي اللّحظة التي ينتظرها جاك. لقد فعل كلّ ما في وسعه لتفادي الالتحام؛ لكنّه إذ أُجهد في جرْيه، كان مصيره أن ينقلب عائداً صوب الصّياد، مثلَ الخنزير الجريح. وأثناء ذلك كانت الفرقاطة قد صارت عند ميمنة المركب الشّراعيّ وأخذت تقصفه بمدافع مقدّمها؛ في حين كان المركب يردّ عليها بمدافعه الخلفيّة. وأدرك جاك الامتياز الذي تمنحه له وضعيّته، فقرّر أن يستغلّه. صاح:

- فلتصعد الإمدادات إلى الأعلى!

- وهرعت الإمدادات فوراً إلى السطح.

وبينما كان القصف مستمرّاً، كان صوته يعلو فوق هدير المدافع صائحاً:

- صوّبوا على الشّراع الكبير! صوّبوا على جناح مؤخّر الميسرة! اِقطعوا حبلَ الزّاوي! عارضة المَيْسرَة! اِسحبوا عارضة الميسَرة! اِسحبوا شاغول الشّراع الكبير! أطلقوا شراع الزّاوي!

وما إن تمّ تنفيذ تلك الأوامر المتعاقبة، حتّى حملت السّفينة نفسها على الميمنة، منقادةً لحركة دفّة قيادتها وأشرعتها الخلفيّة، ومحتفظةً بما يكفي من المسافة لكي تقطع الطّريق على الفرقاطة، ثمّ توقّفت في مكانها بفضل حرص قبطانها على تدعيم أجنحة مقدِّم مَيمَنتها. وفي اللّحظة نفسها، إذ ألفت الفرقاطة نفسها محرومة من إمكان الفعلِ بسبب الأعطاب التي لحقت بأشرعة مؤخِّرها، ولم يعد بوسعها أن تُجاوز المركب الشّراعيّ

Twitter: @ketab_n

اعتماداً على الرّيح، أخذت تتقدّم شاقّةً الماءَ والدّخانَ في آنٍ، وارتطمت رغماً عنها ارتطاماً مدوّياً جعل صاري مقدِّمها يشتبك بحبال صاري الأعداء.

وفي تلك اللّحظة سُمِع صوت جاك يصيح مجدّداً:

- أطلقوا النّارَ! اِقصفوها من الطّرف إلى الطّرف! اِمسحوها مثل طوّافة!

واستجاب للأمر أربعة عشر مدفعاً، ستّةٌ منها معبّأة بالرّصاص وثمانيّة بالقذائف. دكّت المدافعُ سطحَ البارجة وأرقدتْ عليه ثلاثين رجلاً أو أربعين، واجتثّت الدّوقل من جذره. وفي اللّحظة نفسها انهالت زخّاتٌ من القنابل اليدويّة من فوق المصاطب الثلاث على ممرّات الفرقاطة، فمسحت مقدِّمها، بينما لم تستطع البارجة الإنجليزيّة الرّد على غمامة النّيران تلك ووابلِ الرّصاص ذاك إلّا من فوق منصّة شراع الميزان التي صار يعرقلها شراعُها الصّغير.

وفي تلك اللّحظة انطلق القراصنة مسرعين صوب الفرقاطة عبر دواقل المركب وعبر صواري مقدِّم الفرقاطة، وبواسطة وثاق الأعمدة والعِتاد والحبال. وعبثاً أطلق عليهم جنود البحريّة رشّاتِ رصاصٍ رهيبة؛ فكلّما سقط بعضهم خلَفهم آخرونَ؛ وكان المصابون يتدحرجون رامين أمامهم قنابلهم اليدويّة وملوّحين بأسلحتهم؛ وكان جورج وجاك يحسبان نفسيهما قد انتصرا، حين سُمعت صيحةُ «ليصعدِ الجميعُ إلى السّطح!»، فصعد البحّارة الإنجليز الذين كانوا منشغلين داخل مربض المدفعيّة، خارجين من الرّوازين وصاعدين من الكوى. وقد طمأن ذاك الإمدادُ جنودَ البحريّة، فشرعوا في تسوية صفوفهم بعدما كانوا بدؤوا بالتّراجع. تزعّمَهم قائد البارجة. ولم يخطئ جاك التّقدير: لقد كان قائد

Twitter: @ketab_n

اللّايسستر القديم نفسه أتى ساعياً إلى الانتقام. ألفى جورج مونييه واللّورد مورّيه نفسيهما وجهاً لوجه، لكنّهما التقيا هذه المرّة وسط الدّماء والمذابح، التقيا حاملين سيفيهما، التقيا كعدوّين قاتلين.

عرفَ كلٌّ منهما الآخر، وحاولا معاً الاقتراب أحدهما من الآخر، لكنّ تشابك الرّجال كان من الكثافة بحيث أنّهما كانا كمن تجرفه دوّامة. وكان الأخَوان يزدادان التحاماً بالصّفوف الإنجليزيّة، يَضربان ويُضرَبان، ويقاتلان برباطة جأش وقوّة وبسالة. رفع بحّاران إنجليزيّان بلطتيهما في وجه جاك: فأردتهما معاً رصاصتان خفيّتان أصابتاهما في الرّأس. وحاصرَ جنديّان من البحريّة جورج برماحهما: فسقطا معاً عند قدميه. كان بيار مونييه يحرس ابنَيه؛ وكانت تلك الطّلقات صادرةً عن غدّارته الوفيّة.

وفجأةً دوّت صيحة رهيبة، غطّت على ضجيج القنابل وأزيز البنادق وصيحات الجرحى وشكاوى المحتضرين، صيحة انطلقت من مربض المدفعيّة فأصابت الجميع بالرّعب:

- النّار!

وفي اللّحظة نفسها صعد دخانٌ كثيف من الروزنة الخلفيّة وعبر الكوى. لقد انفجرت إحدى القذائف في قمرة القائد فأضرمت النّيران في الفرقاطة.

توقّف كلّ شيء حين سُمعت تلك الصّيحة الرّهيبة غير المتوقّعة والسّحريّة؛ ثمّ انطلق صوت جاك القويّ الجبّار مرتفعاً بدوره:

- لِيَعُد الجميع إلى الكاليبسو!

وعلى الفور، وبالسّرعة نفسها التي نزل بها القراصنةُ إلى الفرقاطة، عادوا إلى مركبهم يسندون بعضهم البعض في صعودهم، ومتشبّثين بكلّ العتاد، قافزين من سطح إلى آخر، بينما جاك وجورج وبعضٌ من الرّجال

Twitter: @ketab_n

الأكثر عزماً ظلّوا يؤمّنون العودة.

وإذّاك انطلق الحاكم بدوره، متدافعاً مع القراصنة، ومطلقاً عليهم الرّصاص عن كثبٍ، وكان يأمل في أن يتمكّن من الصّعود معهم إلى الكاليبسو في اللّحظة نفسها، لكن أوّل الواصلين كانوا قد هرعوا إلى مصاطب المركب العليا؛ فعادت أمطار القنابل اليدويّة تنهمر. وأُلقيت الحبالُ إلى أولئك الذين كانوا لا يزالون على ظهر الفرقاطة، فأمسك كلّ واحد منهم بحبل. صعد جاك إلى المركب وبقي جورج الأخير على متن الفرقاطة. قصَده الحاكم، فظلّ واقفاً ينتظره.

وبغتةً انقضّت عليه يدٌ من حديد ورفعته: كانت اليدُ يدَ بيار مونييه الذي كان يحرس ابنه، وأنقذه في ذلك اليوم للمرّة الثالثة من موتٍ شبه محقّق.

وانطلق صوتٌ هيمن على كلّ الجلبة:

- اِسحبوا مقدّم الميسرة! اِرفعوا شراع الصّارية الأماميّ! لُفّوا شراع الزّاوي الكبير! الحبل الخلفيّ! اِسحبوا عارضةَ الميَمنة!

وقد نُفّذت تلك الأوامرُ، التي أصدرها الصّوت القوّي الذي يفرض الطّاعة العمياء، بسرعةٍ مذهلة لدرجة أنّه على الرّغم من درجة الاندفاع التي لاحقَ بها الإنجليزُ القراصنةَ فإنّهم لم يتمكّنوا من الرّبط بين السّفينتين في الوقت المناسب. وكأنّما حُبِيَ المركبُ الشّراعيّ بالقدرة على الاستشعار فأدرك الخطر الذي يتهدّده، وانطلق بمجهود عنيف؛ بينما استمرّت الفرقاطة، التي فقدت دوقلها، تزحف ببطءٍ معتمدةً على دفعِ أشرعة الصّارية الكبيرة وصارية الميزان.

ومن على سطح الكاليبسو شُهِد منظر مرعب.

فلقد منعت حرارةُ المعركة المقاتلين من أن يدركوا أنّ النّار كانت قد

Twitter: @ketab_n

بلغت سطح الفرقاطة؛ لدرجة أنّه في اللّحظة التي سُمِعت فيها صيحةُ «النّار!»، كان اللّهب قد تقدّم أشواطاً كبيرةً وما عاد ثمّة من أملٍ في إطفائه.

وكانت تلك هي اللّحظة التي أمكن فيها تأمّل قوّة النّظام الإنجليزيّ؛ فوسط الدّخان الذي كان ما يفتأ يزداد كثافة، صعد الحاكم إلى منصّة الميَسَرة، وحمل مكبّر الصّوت الذي كان قد احتفظ به مربوطاً إلى رسغه الأيسر، ثمّ صاح:

- هدوءً يا أولاد! أنا أسيطر على كلّ شيء!

توقّف الجميع. وتابع الحاكم:

- أنزلوا الزّوارق إلى الماء!

وفي غضون خمس دقائق أُنزلَ إلى الماءِ زورقُ المقدّم وزورقا الجانبين وزورقٌ من زوارق العتاد، وصارت الزّوارق تطفو حول الفرقاطة.

قال الحاكم:

- ليصعد جنود البحريّة على زورق المقدِّم وزورق العتاد؛ بينما يصعد البحّارة على زورقَي الجانبَين!

ثمّ إذ كانت الكاليبسو ممعنةً في الابتعاد، ما عاد ركّابها يسمعون شيئاً من التّعليمات؛ لكنّهم رأوا الزّوارقَ تُشحَن بمَن بقيَ من الرّجال سليمين مُعافين، بينما يتدحرج الجرحى الأشقياء على السّطح متوسّلين رفاقهم بلا جدوى.

وإذ رأى جاك أنّ الزوّارقَ الأربعة لا تكفي الطّاقم بأكمله، صاح قائلاً:

- أنزلوا قاربَين إلى الماء.

فانفصل قاربان عن أجنحةِ الكاليبسو وسقطا في الماء.

Twitter: @ketab_n

وفوراً ارتمى في الماء كلّ أولئك الذين لم يجدوا مكاناً لهم في زوارق الفرقاطة، وسبحوا صوبَ قاربَي المركب الشّراعيّ.

وظلّ الحاكم على متن الفرقاطة.

أرادوا إركابه في أحد القوارب، لكنّه إذ لم يستطع إنقاذ رجالِه الجرحى، فضّل الموت معهم.

صارَ منظر البحر رهيباً.

كانت الزّوارق الأربعة تبتعد عن البارجة المحترقة بفضل قوّة التّجذيف. بينما يسبح النوتيّة المتخلّفون صوبَ زورقَي المركب الشّراعيّ.

ثمّ ظلّت الفرقاطة ساكنةً تحترق وسطَ زوبعة من الدّخان؛ على متنها قائدها واقفاً عند مصطبة الرّبع، وجنوده الجرحى يتدحرجون على السّطح.

كان منظراً رهيباً لدرجة أنّ جورج حين أحسّ بيد سارة الرّاجفة تحطّ على كتفه لم يستَدِر لرؤيتها.

وإذ بلغت الزوارق مسافةً معيّنة، كفّت عن التّجذيف.

وهو ذا ما حدث:

ازداد الدّخان كثافةً شيئاً فشيئاً؛ ثمّ شوهد ثعبانُ لهبٍ يخرج من المنافذ، ويزحف على امتداد صارية الميزان، ملتهماً الأشرعة والحبال؛ ثمّ اشتعلت الكُوى؛ وانطلقت بعد ذلك المدافع التي كانت معبّأةً، قاصفةً وحدها؛ ثمّ سُمِع دويّ مرعب: اِنفتحت البارجة كشقّ في الأرض؛ وارتفعت في السّماء سحابة لهيبٍ ودخان؛ ثمّ شوهد خلل تلك الغمامة تَساقُطُ حطامِ الصّواري والدّواقل والعتاد.

كان ذلك كلّ ما بقيَ من اللّايسستر.

سألت سارة جورج:

Twitter: @ketab_n

- ماذا عن اللّورد مورّيه؟

فأجابها وهو يستدير شطرَها:

- لو ما كنت سأعيش معك، أقسم أنّي كنت سأرغب في ميتةٍ مثلَ ميتَتِه!

Twitter: @ketab_n

نبذة عن المؤلّف:

ألكساندر دُوما (1802-1870) روائيّ فرنسيّ معروف بغزارة إنتاجه وبكونه رائد الرّواية التاريخيّة. كان أبوه أفريقيًا من جهة والدته، خدم في جيش فرنسا إبّان الثورة وفي عهد نابليون بونابرت. فقدَ دُوما والده وهو في سنّ الرابعة فعنيت أمّه بتنشئته. تقرّب من أدباء التيّار الرومنطيقيّ، وبدأ بكتابة مسرحيّات هزليّة ثمّ اتّجه إلى القصص التاريخيّ وروايات مغامرات الفرسان، مستعيناً في بعض أعماله بكتّاب مُساعدين كانوا يساهمون في التحضير لها. من أشهر رواياته «الكونت دو مونت كريستو» و«الفرسان الثّلاثة» و«الملكة مارغو». نُقل رفاته إلى مدفن العظماء (البانتيون) بباريس بمناسبة الذكرى المئوية الثانية لولادته، في 30 تشرين الثاني/نوفمبر 2002. يُدعى أحياناً «ألكساندر دوما الأب» تمييزاً له عن نجله «ألكساندر دوما الابن»، وهو أيضاً روائيّ غزير الإنتاج، عمله الأشهر هو «غادة الكاميليا». وقد أصدر مشروع «كلمة» ترجمات للعديد من مؤلّفات ألكساندر دُوما الأب.

Twitter: @ketab_n

نبذة عن المترجم:

محمَد آيت حنّا كاتب ومترجم مغربيّ مهتمّ بالفلسفة والأدب والجماليّات. ولد سنة 1981 في الرباط وبها أكمل مساره التعليميّ في الفلسفة. يُدَرِّس حالياً في معهد إعداد المعلّمين في الرِّباط. صدر له «عندما يطير الفلاسفة» (مجموعة قصصيّة؛ منشورات أجراس، المغرب، 2007)، و«الرغبة والفلسفة - مدخل لقراءة دولوز وغواتاري» (منشورات توبقال، المغرب، 2010)، و«القصّة والتشكيل - نماذج مغربية» (منشورات وزارة الثقافة المغربية، 2012)، إضافة إلى العديد من الدراسات والترجمات المنشورة في منابر وطنية وعربية. ترجمَ إلى العربيّة «حصّة الغريب - شعرية التّرجمة وترجمة الشّعر عند العرب» لكاظم جهاد، و«الدفتر الكبير» لأغوتا كريستوف، و«الغريب» لألبير كامو، وقد صدرت الكتب الثلاثة الأخيرة في منشورات الجمل ببيروت.

Twitter: @ketab_n

جورج الموريسيّ - حكاية عن البرّ والبحر

إنّـه لأمر لا يُصدَق، أمرٌ غريبٌ ومثيرٌ للشَفقة أن يرى المرءُ كيف أنَ طبيعةً بشريةً بمثلِ هذا الثراء وهذه القوّة وهذه الحصافة تخضع دون مقاومـة تُذكَـر لتلـك الطبيعـة البشريَـة الأُخـرى الشَديـدة السَطحيَة والبؤس والفقر والعوز! بيد أنَ الأمر كان كذلك، لا بل إنَ مـا يزيد العجـبَ هو أنَ الأمرَ مـا كان يدهش أحداً؛ فـذاك ما كانت تشهـده المستعمـرات يوميّاً في وضعيّاتٍ مختلفـة، مشابهةٍ للوضعيَة التي نَصفُ؛ فإذ تربّى بيار مونييه منذ طفولته على احترام الرِّجال البيض بوصفهـم جماعةً أرقى، تـركَ نفسه تنسحـق طيلة حياته تحـتَ نير تلك الأرستقراطية المؤسَسة على لون البشرة التي امتثل لها منـذ قليل، دون أن يُبدي أدنى مقاومة. يحدث أن يصادف المرء أحـد أولئك الأبطال الذيـن يرفعون رؤوسهم أمـام قصف المدافع، ويثنـون ركبَهـم أمـام الأحـكام المسبقـة؛ يحـدث أيضـاً، بحسبِ ما يُـروى، أن يفتـك الأسـد بالإنسـان، صـورةِ اللّه علـى الأرض، ويفرَ مرتعباً إذا ما سمع صياح الدِّيك.

KALIMA
كلمة

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

9 789948 173113

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات *
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة
أطفال و ناشئة